الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة 8 ماي 1945 قالمة



كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم

الشعبة: التاريخ الإسلامي

من إعداد:

حمزة قادري

بعنوان:

الصراع والتطرف المذهبي عند المسلمين بالمشرق الإسلامي وأثره على المقاومة ضد الصليبيين خلال القرنين 5 و6هـ /11و 12م

بتاريخ: 16نوفمبر 2021 أمام لجنة المناقشة المكونة من:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ. د/مسعود خالدي	أستاذ التعليم العالي	8 ماي 1945م قالمة	رئيسًا
أ. د/كمال بن مارس	أستاذ التعليم العالي	8 ماي 1945م قالمة	مشرفًا ومقررًا
أ. د/ رابح أولاد ضياف	أستاذ التعليم العالي	8 ماي 1945م قالمة	ممتحنًا
د/ سناء عطابي	أستاذ محاضر " أ "	8 ماي 1945م قالمة	ممتحنًا
د/ خميسي بولعراس	أستاذ محاضر " أ "	لمين دباغين – سطيف 2-	ممتحنًا
د/ عبد المالك بكاي	أستاذ محاضر " أ "	لمين دباغين – سطيف 2-	ممتحنًا

السنة الجامعية: 1441هـ - 1442هـ/ 2020م – 2021م


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ صدق الله العظيم

الآية 102-103 سورة آل عمران

إهداء

إلى أمي وأبي حفظهما الله رمزا التضحية والعطاء

إلى زوجتي وأبنائي، يحيى وأديب

إلى إخوتي

أهدي ثمرة هذا الجهد

حمزة

شكر وتقدير

قال الله تعالى : ﴿ رَبِ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَ وَعَلَى وَالِدَيَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحا تَرْضَاهْ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَالِحِينْ ﴾ الآية 19 –سورة النمل

نبدأ بشكر خير الشاكرين، فأشكر الله تعالى وأحمده أن وفقني وهداني ومنَّ علي بهذا التوفيق والسداد في إخراج هذا العمل إلى النور

كلمة شكر وعرفان ملؤها الاعتراف بالجميل للأستاذ المشرف، **الأستاذ الدكتور كمال بن مارس** الذي كان خير عون لي بعد الله في انجاز هذا العمل؛ فهيأ لي كل سبل البحث، فكان نعم الدليل وخير الناصح، ومثالاً للأستاذ المخلص في عمله.

كما أوجه بالغ امتناني لأعوان مكتبتي جامعتي القاهرة وعين شمس بجمهورية مصر العربية على كل التسهيلات التي قدموها في سبيل الحصول على الدراسات والأبحاث الغير منشورة.

دون أن أنسى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إخراج

هذا العمل إلى النور

إلى كل هؤلاء جزيل الشكر والعرفان.

فهرس المحتويات

الفصل الأول:
جذور الانقسام المذهبي عند المسلمين (3 – 46)

الفصل الثاني:
التوجه المذهبي وآثاره على العلاقات بين القوى الإسلامية في العراق والجزيرة وبلاد الشام ومصر خلال القرن 5هـ/11م (ص49- 101)

الفصل الثالث:

أثر الصراع المذهبي عند المسلمين في مواجهة ارتدادات الحملة الصليبية الأولى إلى بداية المقاومة على العهد الزنكي (490هـ-521هـ/1096م-1127م) (ص104- 176)

الفصل الرابع:

جهود الزنكيين لتحقيق الوحدة المذهبية وتقوية الجبهة الداخلية ضد الصليبيين(521- 569هـ/1127م- 1173م) (ص179- 226)

الفصل الخامس:

الأيوبيون ونهاية الانقسام المذهبي، مرحلة جديدة على مسار المقاومة ضد الصليبيين (564هـ-589هـ/1169م-1193م) (229- 279)

مقدمة

مقدمة:

عرف تاريخ الدولة الإسلامية عقب وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم (11هـ/632م) أزمةً سياسية حادة؛ رُسمت على إثرها كل أحداث التاريخ الإسلامي اللاحقة، وظلت ارتدادات ذلك الحدث ماثلة إلى وقتنا الحاضر، فالدولة التي كانت وِحدةً موحدة سياسيًا وعقديًا على عهد نبيِّها وقائدها قد أخذت في الانقسام على نفسها بسبب الاختلاف حول أحقية من يتولى خلافته عليه الصلاة والسلام، لتتمايز على ذلك طائفتين كبيرتين من المسلمين ترى كل واحدة منها رأيًا مناقضًا للآخر في ذلك المنحى.

رأى فريقٌ من المختلفين أنَّ الخلافة أو الإمامة قضية دنيوية تقوم على اختيار المسلمين من يحكمهم عن طريق الشورى، ويشترطون أن يكون المترشح لها من قريش، أمَّا الفريق الثاني فرأى بأنَّ الخلافة بعد النبي تكون في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عمه وزوج ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنهما ثمَّ في ذريته حصرًا؛ نصًّا ووصية، وبالتالي هي إمامة إلهية لا يصحُّ معها الاختيار أو المعارضة.

أخذت تلك الأزمة السياسية – حول منصب الإمام أو الخليفة– لدى المسلمين في التطور مع مرور الزمن لتتخذ طابعًا عقائديًا صِيغت له تشريعاتٌ دينية ونصوصٌ مقدَّسة تبناها كلٌّ طرفٍ من المتنازعين كحجج على صدق ما يعتقد به، وخاصةً لدى أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه (شيعته) الحاملين لفكرة الإمامة الإلهية، ليصير محور الدين عندهم وحوله تدور جميع العقائد والعبادات والمعاملات، وفي ذات الوقت كانت الهوة في اتساع مستمر مع مخالفيهم أو مع من لا يؤمن بعقيدتهم في الإمامة، وهم الفريق الأول المشكلون لغالبية جمهور المسلمين (أهل السنة والجماعة) باعتبار أنَّ المدَّعون بغير إمامة علي بن أبي طالب نصًا ووصيةً مارقون وخارجون عن الدين لم يلتزموا بحدود الشرع — حسب قولهم دائمًا–.

وباستهلال القرن الثاني للهجرة/الثامن الميلادي (عصر حكم بني العباس) تحوَّل الخلاف السياسي بين الفريقين إلى اختلاف عقدي تبلوَّر في مدرستين اعتقاديتين تنافس الواحدة منها الأخرى، حيث يذكر عن هذا التطوُّر محمد بن المختار الشنقيطي[1]: "فقد كان من أهم الظواهر الثقافية التي ظهرت في العصر العباسي الأول أن تحوَّل التشيع من رؤية سياسية إلى بنية اعتقاديه وتحوَّل التسنن من فضاء مفتوح من الأفكار والقيم إلى نظام اعتقادي مغلق محدد المعالم والحدود".

---

[1] **أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2016، ص85.

وفي سبيل نصرة تلك العقيدة وإحقاقها سعى كل فريق للاستقواء على الآخر عن طريق تأسيس كيانات سياسية تضمن لها الوجود الفعلي على الأرض، وإمكانية التحرك إقليميًا بعقد التحالفات مع القوى الداخلية والخارجية، فمثَّلت الخلافتين الأموية والعباسية ودول كالأغالبة والطولونيين والإخشيديين والسلاجقة وغيرهم الاتجاه السني، في حين مثَّلت الخلافة الفاطمية ودول كالأدارسة والبويهيين وإمارات عربية كالحمدانيين والمرداسيين والعقيليين وبنو عمار الاتجاه الشيعي، فكان العالم الإسلامي في ظل هذا الوضع ميدانًا لصراع مذهبي استخدمت فيه مختلف الوسائل والأساليب تراوحت بين الفكرية والعسكرية والدبلوماسية، وأمَّا عن نتائجه فقد كانت سجالاً، تارةً تميل الكفَّة للشيعة كما كان في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وتارةً للسنيين كما كان منذ النصف الثاني للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

وخلال العقد الأخير من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي استقبل المسلمون بالمشرق هجمة عسكرية في قالب ديني مستهدفةً الأماكن المقدَّسة في فلسطين؛ عُرفت في التاريخ بالحملات الصليبية دعا لها البابا أوروبان الثاني من مدينة كليرمونت في الجنوب الفرنسي وقادها أمراء ونبلاء من مختلف قوميات الغرب الأوروبي، فكان وصول أولاها إلى الأقاليم الإسلامية سنة 490هـ/1096م، في وقت كان فيه حال المسلمين وواقعهم مثلما عرضنا له سابقًا، فأثَّر الصراع المذهبي ومساعي التمكين للعقيدة المتبنَّاة بين القوى الإسلامية الحاكمة وقتها على مواقفها وردود فعلها من سير الحملة الصليبية الأولى ثم من نشاط المقاومة الذي قاده عديد الشخصيات بعد استقرار الصليبيين بالمنطقة في شكل كيانات لمدة ناهزت القرنين من الزمن.

وعليه فقد أردنا معالجة موضوع أثر الصراع المذهبي بين القوى الإسلامية الحاكمة بالمشرق الإسلامي – والذي كان التطرف في تبني العقيدة أبرز مظاهره–، في رسم واقع المسلمين السياسي خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ثُمَّ أثر ذلك الصراع على نشاط المقاومة الإسلامية ضد العدوان الصليبي أواخر القرن الخامس الهجري وخلال سنوات القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. فجاء موضوع البحث بعنوان:

الصراع والتطرف المذهبي عند المسلمين بالمشرق الإسلامي وأثره على المقاومة ضد الصليبيين خلال القرنين 5هـ و6هـ/11م و12م

وعن الإطار المكاني الذي تستهدفهُ إشكالية البحث فيشمل المناطق التي كان لها حضور في وقائع الحملات الصليبية بالمشرق وهي المناطق ذاتها التي كانت ميدانًا للصراع المذهبي بين المسلمين منذ القرن الأول لظهور الإسلام حيث شملت (العراق وبلاد الجزيرة) على اعتبار أنَّ عاصمتها بغداد ممثلة الاتجاه السني منذ مطلع القرن الثاني للهجرة/الثامن الميلادي و(مصر) عاصمة الخلافة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية الساعية للإطاحة بالحكم السني المغتصب لحق آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم –حسب اعتقادهم– وكذلك (بلاد الشام) المستهدف الأول في حركة الصليبيين إلى المشرق؛ وقبل ذلك ظلت بلاد الشام بفضل موقعها بين العراق ومصر ميدانًا للتجاذبات المذهبية ومساعي التمكين للعقيدة بين طرفي الصراع من القوى السياسية المتمذهبة.

وأما الإطار الزماني لموضوع البحث فهو يغطي القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، حيث شهد الأول (القرن 5هـ/11م) ذروة الصراع السني – الشيعي بين ممثليهم السياسيين (العباسيين والسلاجقة) و(الفاطميين والبويهيين والإمارات العربية الشيعية الامامية)، كما عرف القرن الخامس في عقده الأخير أولى الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي، وخلالها تمكَّن الصليبيون من استغلال ذلك الصراع في تثبيت كياناتهم السياسية بالمنطقة وهي على التوالي: الرها (ربيع الأول491هـ/فيفري 1098م)، أنطاكية (رجب 491هـ/جوان 1098م)، بيت المقدس (شعبان 492هـ/جويلية 1099م)، طرابلس (ذو الحجة 502هـ/جويلية 1109م).

وأما القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي فقد عرف تبدُّل في الخريطة السياسية للمشرق بوجود الكيانات الصليبية؛ ومع هذا الواقع الجديد تغيرت الخريطة السياسومذهبية لدى الطرف الإسلامي انطلاقًا من مساعي تحقيق الوحدة لجبهة المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي ضمن الإستراتيجية التي تبناها الزنكيون والأيوبيون في صراعهم مع الطرف الصليبي.

لقد ظل البحث في تاريخ الحروب الصليبية على العالم الإسلامي من أكثر المواضيع اهتماما من قبل الباحثين والدارسين؛ فأحداث تلك الفترة من تاريخ المسلمين تتقاطع فيها الكثير من معالم واقعنا الحالي، وبخاصة ما تعلق منها بالتشرذم والانقسام والصراعات الداخلية بين مختلف القوى الحاكمة في الأقاليم التي استهدفتها حملات الصليبين، فمحاولة فهم مقاربات الوضع الداخلي الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي انطلاقًا من الصراع المذهبي بين القوى الإسلامية الحاكمة في المنطقة

وقتذاك وعلاقاتها بسير أحداث الصراع مع الصليبيين ستمنح الباحث والقارئ على السواء صورة عن مدى تأثير الفرقة المذهبية المتسمة بالاحتقان في توجيه النتائج النهائية لتلك الوقائع، وبالتالي محاولة إسقاط تلك الصورة على واقعنا الحالي للإجابة على عديد التساؤلات حول عوامل ومسببات الوهن الداخلي الإسلامي في مقابل تكالب القوى الغربية على مقدرات دوله.

ولكوني قد عالجت في مرحلة الماجيستير نماذج من جهود المقاومة ضد العدوان الصليبي والمغولي على العالم الإسلامي كدراسة مقارنة، فإنِّي لمست عدم تركيز الباحثين على موضوع أثر الصراع المذهبي لدى الطرف الإسلامي على سير نشاط المقاومة ضد الصليبيين كدراسات متخصصة، وإنَّما التعرض لها كجزئيات ضمن دراساتهم وبحوثهم على الرغم من أثر ذلك الواقع المتسم بالتطرف في توجيه الأحداث ورسم نتائجها؛ فكان هذا ممَّا شجعني لخوض تجربة البحث في هذا الموضوع[1].

إنَّ دراسة موضوع الخلاف المذهبي عند المسلمين في حقيقة الأمر يكتسي أهمية بالغة من حيث استيعاب سيرورة أحداث التاريخ الإسلامي منذ القرن الأول للهجرة/ القرن السابع الميلادي وإلى غاية وقتنا الحاضر، فلا يمكن الحديث عن تاريخ صدر الإسلام والخلافة الأموية ولا حتَّى الخلافة العباسية والدويلات المستقلة عنها في المشرق والمغرب دون تسليط الضوء عن تأثيرات ذلك الخلاف وحضوره في مجريات الأحداث كعامل مضعِّف لعُرى الدولة الإسلامية أو كمحفِّز لحركية حضارية إسلامية ولو في ظل العقيدة المغلقة.

غير أنَّ الأهم من كل هذا الأمر – أي استيعاب سيرورة أحداث التاريخ الإسلامي في إطاره الداخلي– فإنَّ التطرق لموضوع الصراع المذهبي المتَّسم بالتطرف في تبني الفكرة الدينية واعتبار المخالف له " ضال وكافر" ومن الواجب مقاتلته لإعلاء الاعتقاد الحق، وعلاقة ذلك بما تعرضت له ديار الإسلام من هجمة عسكرية صليبية سيمنحنا الإجابة على تساؤلاتنا فيما يخص أثر ذلك الصراع المذهبي على سير أحداث الصراع الصليبي – الإسلامي من حيث طبيعة ردود فعل القوى الإسلامية المنقسمة مذهبيًا وسياسيًا وثمَّ على سير نشاط المقاومة في ظله.

---

[1] صدر في سنة 2016 عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر كتاب للدكتور محمد بن المختار الشنقيطي **بعنوان أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية**، وهو في الأصل رسالة دكتوراه من جامعة تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية نوقشت سنة 2012، حيث تعدُّ أول دراسة متخصصة حسب ما توصلنا إليه.

و يعالج موضوع البحث إشكالية رئيسية تتمحور حول ما أثر الواقع المذهبي للمسلمين بالمشرق على ردود فعل القوى الإسلامية المشكلة لذلك الإقليم اتجاه الحملة الصليبية الأولى (490هـ/1096م)؟، وما وقع الصراع المذهبي على مشروع جبهة المقاومة الذي تبناه عديد القادة بعد تمكُّن الصليبيين من تأسيس أربع كيانات بالمنطقة وهي (إمارة الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس)؟

كما تستهدف الإشكالية محاولة البحث عن أثر تجاوز تشتت الولاء الروحي للقوى الإسلامية بين خلافتي بغداد والقاهرة عن طريق مساعي تحقيق الوحدة؟ سواء كانت سياسية متجاوزة للاحتقان المذهبي في سبيل رد عدوان يستهدف الجميع؛ أو وحدة مذهبية خالصة تَسقُط من خلالها إحدى العاصمتين لصالح الأخرى لتكون الجبهة المقاومة للعدوان على قدر وافر من القوة والتماسك تحت خلافة روحية واحدة؟

وفي هذا السياق تندرج العديد من التساؤلات الفرعية التي تساهم محاولة الإجابة عنها في تفكيك عناصر الإشكالية الرئيسية ومنها:

كيف ابتدأ الخلاف المذهبي بين المسلمين وما هي أهم مسبباته؟ وكيف تطوَّر ليصل إلى ذلك الحد من التطرف خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين؟

ماهي أبرز المظاهر المميزة للصراع المذهبي بين القوى الإسلامية الحاكمة بالمشرق الإسلامي؟ وكيف ساهمت في زيادة الاحتقان بين ممثليهم السياسيين؟

إلى أي مدى ساهم الواقع المذهبي القائم على الصراع والتطرف في تبني العقيدة لدى الأطراف الإسلامية المشكلة لإقليم المشرق الإسلامي – من عباسيين وبويهيين وسلاجقة وفاطميين وإمارات عربية شيعية ببلاد الشام– في رسم أحوالها الداخلية وعلاقاتها ببعض قبل الحملة الصليبية الأولى؛ أي خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي؟

ثم كيف تعاملت تلك الأطراف مع الزحف الإفرنجي (الصليبي) في حملتهم الأولى انطلاقا من أوضاعهم المضطربة بسبب خلافاتهم المذهبية ومساعي كل طرف تغليب كفَّة ما يعتقده على حساب الآخر بأساليب تتراوح بين الدعاية الفكرية والمواجهة العسكرية؟

هل أحدث الواقع الجديد بتواجد الإمارات الصليبية على حدود القوى الإسلامية في المنطقة تغييرًا على طبيعة العلاقات بين هذه الأخيرة؟ أم أنَّ حدة التعصب المذهبي كانت أعمق من الخطر الإفرنجي؟

لتقودنا تغيرات الوضع الميداني في الصراع الإسلامي- الصليبي ابتداءً من العقد الثالث من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وإلى استرداد بيت المقدس سنة 583هـ/1187م (عهد الزنكيين والأيوبيين) إلى التساؤل عن الجديد الذي طرأ على واقع القوى الإسلامية المنقسمة سياسيًا ومذهبيًا حتَّى تمكَّنت الجبهة المقاومة للعدوان الصليبي من تحقيق جملة من الانتصارات واستعادة العديد من المدن والقلاع؟

أو بالأحرى ما هي الإستراتيجية التي خطَّها عماد الدين زنكي ونجله نورالدين محمود ثم بعدهم صلاح الدين الأيوبي لترجيح كفة الصراع إلى حدٍّ متوازن مع الطرف الصليبي؟ ثم ما علاقة تلك الإستراتيجية بالصراع المذهبي المستحكم بين خلافتي بغداد والقاهرة؟

ولأجل معالجة إشكالية البحث الرئيسية وتساؤلاته الفرعية فقد استعنت بالمنهج التاريخي لسرد الأحداث وتسجيل الوقائع من مصادر مختلفة ومتنوعة متقدمة ومتأخرة، ومستندًا على المنهج التحليلي لتفسير كثير من الأحداث وكذا المنهج المقارن في تبيان عديد المتناقضات والمظاهر التي صاحبت سير نشاط المقاومة في ظل الصراع والتعصب المذهبي لدى الأطراف الإسلامية المشكلة لإقليم المشرق الإسلامي.

وللإجابة على إشكالية الدراسة الرئيسية وتساؤلاتها الفرعية، ووفق المادة العلمية المتوفرة تمَّ تقسيم الدراسة إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة:

تناول **الفصل الأول** جذور الانقسام المذهبي عند المسلمين كخلفية تاريخية تؤسس وتشرح الوضع السياسي والمذهبي الذي آل إليه المشرق الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أي قبل بدء الحملات الصليبية في العقد الأخير منه، فانطلقت في هذه الخلفية من أصل الخلاف الذي ابتدأ بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في السنة 11هـ/622م وكيف افترق المسلمون حينها بين من يرى بأنَّ الحكم وخلافة النبي يكون باختيار الأمة ورضاها أي عن طريق الشورى، وبين من يرى أنَّ هذا الأمر مفصول فيه إلهيًا في علي بن أبي طالب وذريته من بعده – انطلاقًا من حديث غدير خم- ولا يجوز أن تخرج عنهم لغيرهم، وعليه كان من الضروري الحديث عن فكرة الإمامة (الخلافة) كقضية جوهرية في انقسام الصف الإسلامي وتقديم أبرز الأدلة التي استدلَّ بها كل طرف من المفترقين في تأكيد أحقية ما يؤمن به، كما تطرقت في هذا الفصل إلى تطور الخلاف حول فكرة الإمامة إلى اعتقاد طائفي مغلق سعى من خلاله كل طرف للاستقواء بالكيان السياسي لتحقيق التفوق على الأرض والقدرة على استمالة الأتباع وكذا ربط علاقات دبلوماسية مع مختلف القوى الحاكمة بالمنطقة في سبيل التمكين للمعتقد الذي تتبناه.

لتكون خاتمة الفصل التعرض للفرق والمذاهب الإسلامية التي انبثقت عن الخلاف السياسي في صدر الإسلام فتناولت المذاهب السنية الأربعة المعروفة (الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي) إضافةً إلى الفرق التي انبثقت عن فكر التشيع لعلي وآل بيته من إمامية وزيدية وإسماعيلية ونصيرية ودروز بشرح مختصر لا يستهدف الخوض في عقائدها بقدر ما يعرِّفُ بالفروق بينها لغاية فهم ما يلي من أحداث خلال فترة الدراسة.

أمَّا **الفصل الثاني** من هذه الدراسة فقد تعرضت فيه لأثر التوجه المذهبي للقوى الإسلامية الحاكمة في المشرق الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي على وضعها الداخلي وعلاقاتها ببعضها، لإعطاء صورة عن واقع المسلمين وأحوالهم قبل مسير الحملة الصليبية الأولى من الغرب الأوروبي سنة 489هـ/1095م، فتطرقت لحال الخلافة العباسية الممثل الشرعي للقوى السنية وعلاقاتها بالسلطة البويهية الشيعية الحاكمة باسمها في بغداد وكذا تأثيرات النفوذ الفاطمي المتزايد مذهبيًا وعسكريا في الأقاليم الخاضعة للعباسيين.

إضافةً إلى التعرض بالحديث عن السلاجقة حماة الخلافة العباسية من السقوط على يد القائد التركي العباسي المتشيع اسماعيليًا أبي الحارث أرسلان البساسيري سنة 450هـ/1059م، ومساعيهم الحثيثة لنصرة المذهب السني –الذي يعتنقونه– فكريًا وعسكريًا من المد الشيعي الذي استفحل في المشرق خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي المعروف تاريخيًا بقرن التشيع.

كما تناولت الوضع بمصر تحت سلطة الفاطميين الإسماعيلية الذين أعلنوا منذ تأسيس خلافتهم ببلاد المغرب سنة 297هـ/ 909م ثم انتقالهم إلى مصر سنة 358هـ/969م عن طبيعة علاقاتهم بالقوى السنية وخاصةً الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في بغداد، فكانت الخلافة الفاطمية بمثابة أمل للشيعة في خلافة المسلمين بعدما تعرَّض له أنصار هذه العقيدة من نكبات ومآسي في هذا السبيل، وقد تنوَّعت جهودهم في مصر وباقي الأقاليم التي توسعوا على حسابها بين الإجراءات الفكرية والدعوية وبين التوسعات العسكرية المتماشية مع ضعف خصومهم في المذهب.

وعن إقليم الشام –المستهدف المباشر بحملات الصليبيين – فقد تعرضت فيه بالحديث عن وضعه ضمن سباق الصراع حول الأحقية في حكم المسلمين بين العباسيين والسلاجقة السنة في بغداد من جهة والفاطميين الشيعة الإسماعيلية في القاهرة من جهة أخرى، بالإضافة إلى علاقة كل من هذين القوتين

بالإمارات العربية الشيعية الإمامية الحاكمة فيه من حمدانيين ومرداسيين وعقيليين وبنو عمار، وقد ركزت في الحديث عن هذا الإقليم ضمن فكرة أثر التوجه المذهبي على العلاقات بين القوى الإسلامية على المدن المحورية التي كانت لها دور مؤثر في أحداث الصراع الإسلامي — الصليبي كحلب في شمال الشام وطرابلس في الساحل وأخيرًا دمشق ممثلةً للجنوب.

وأمَّا **الفصل الثالث** فقد جاء بعنوان: أثر الصراع المذهبي عند المسلمين في مواجهة ارتدادات الحملة الصليبية الأولى إلى بداية المقاومة على العهد الزنكي (490هـ-521هـ/1096م-1128م)، وفيه أردت تبيان تأثيرات ذلك الوضع المضطرب بين القوى الإسلامية الحاكمة بالمشرق الإسلامي - بسبب خلافها المذهبي وصراعها المحموم في سبيل التمكين لعقيدتها دينيًا وسياسيًا- على مواقفها من الحملة الصليبية الأولى ومن تأسيس الكيانات الصليبية في كل من الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس.

فعرضت في البدء لخط سير الحملة الصليبية منذ التحضير لها بالغرب الإفرنجي في مجمع كليرمونت بجنوب فرنسا إلى غاية وصولها إلى الأناضول أراضي حكم سلاجقة الروم، ثمَّ تناولت تأسيس الكيانات الصليبية الثلاث (أنطاكية وبيت المقدس وطرابلس) وكيف ساهم الصراع بين قوتي السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة الإسماعيلية على مناطق النفوذ بإقليم الشام على سقوط هذه المدن وتحولها إلى كيانات صليبية في جسد الدولة الإسلامية.

وأمَّا الجزء الثاني من هذا الفصل فقد تناول الجهود الأولى للمقاومة الإسلامية للوجود الصليبي بالمنطقة إلى غاية تولي عماد الدين زنكي قيادة جبهة المقاومة (أي على مدار ثلاثين سنة) في ظل التشرذم والانقسام المذهبي بين خلافتين ترى كل واحدة منهما على أنَّها صاحبة الشرعية في حكم المسلمين.

كما تطرق هذا الجزء لمحاولات التقارب السياسي بين سلاجقة دمشق السنيين وحكام القاهرة الشيعة في سبيل رد الصليبيين؛ الآخذة أطماعهم في التوسع على حساب القوى الإسلامية تزداد يومًا بعد يوم، فلمسنا خلال فترة استوزار الأفضل بن بدر الجمالي نوايا صادقة لذلك التقارب مع حكام دمشق في أكثر من مناسبة، غير أنَّ التعصب المذهبي الذي لازم العلاقات بين القوى الإسلامية وقتها قد حال دون استكمال مسعى الوحدة السياسية على الأقل، بعد أن راح الأفضل ضحية ذلك التقارب باعتباره تجاوز لخصوصية العقيدة الإسماعيلية التي تعتبر السنيين أعداء مغتصبون لحقوق الأئمة الفاطميين.

وفي الجزء ذاته تناولت دور فرقة الشيعة الإسماعيلية النزارية في عرقلة نشاط المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي في المنطقة من خلال استهداف عديد القادة السنيين في غالبهم الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية مواجهة العدوان وثنيه عن تحقيق المزيد من المكاسب على حساب القوى الإسلامية، ومن أمثلة هؤلاء القادة جناح الدولة حسين صاحب حمص وخلف بن ملاعب صاحب أفامية ومودود بن ألتكين أمير الموصل وآقسنقر البرسقي حاكم الموصل وحلب، فكان لمقتل هؤلاء القادة بسبب حدَّة التجاذبات المذهبية أثرٌ بالغ في حركة المقاومة ضد الطرف الصليبي.

وفي ختام الفصل عرضت لمقارنة بين صورتين متناقضتين مثلتهما شخصيتان شيعيتان إماميتان، هما أمير الحلة دبيس بن صدقة بن مزيد الذي حالف الصليبيين وعمل على استغلال الوضع المذهبي بمدينة حلب لاستمالة أهلها من الشيعة بغية السيطرة على المدينة وأخذها من حكامها السلاجقة، وأمَّا الحالة الثانية فمثلتها شخصية قاضي حلب الإمامي ابن خشاب الذي ساهم مع عديد الأطراف من السنة في الحفاظ على حلب من وقوعها في أيدي الصليبيين متجاوزًا بذلك الاحتقان المذهبي المستحكم.

وخصص **الفصل الرابع** في هذه الدراسة للحديث عن مساعي الوحدة المذهبية للأسرة الزنكية (521هـ-569هـ/1127م- 1174م) كجزء من إستراتيجيتهم في مقاومة الصليبيين، هذه الإستراتيجية القائمة على ربط جهود الوحدة السياسية للجبهة الإسلامية مع مساعي إنهاء ظاهرة توزع الولاء الروحي للأقاليم المشكِّلة لتلك الجبهة، وباعتبار أنَّ حكم الزنكيين امتداد لحكم السلاجقة السنة فقد اهتم كل من عماد الدين زنكي ونجله نورالدين محمود بتغليب كفة التسنن على حساب التشيع على المستويين السياسي والمذهبي.

فركَّز الجزء الأول من الفصل على جهود عماد الدين زنكي في رسم معالم تلك الوحدة انطلاقا من مقر حكمه بالموصل في إقليم الجزيرة، حيث تجسدت أولى خطوات ذلك المسعى بضم حلب إلى مشروع المقاومة سنة 522هـ/1128م، كما كان من ثمار تلك الجهود تمكُّن عماد الدين زنكي من استعادة إمارة الرها في 16 جمادى الآخرة 539هـ/23 ديسمبر 1144م بعد نصف قرن من الاستيلاء عليها في الحملة الصليبية الأولى.

وأماَّ على عهد نورالدين محمود ابن عماد الدين زنكي فقد تركَّزت جهود الوحدة للجبهة الإسلامية في سبيل مواجهة الصليبيين على إنهاء ظاهرة الانقسام الروحي للأقاليم المشكِّلة لجبهة المقاومة المنشودة من

خلال استهداف التشيع كعقيدة وفكر خاصةً في أهم مراكز نشاط المقاومة ببلاد الشام وهما حلب ودمشق وهذا عن طريق عديد الأساليب الفكرية كبناء المدارس والدور التي تهتم بتدريس مذاهب وعقيدة أهل السنة والاهتمام بالمدرسين والجراية عليهم.

كما تطرق هذا الجزء لردود فعل الشيعة في بلاد الشام من جراء سياسة التضييق التي مارسها نورالدين محمود على مذهبهم ومحاولاتهم اليائسة لإعادة نفوذه من جديد، وأمّا الجزء الثاني من الفصل فقد تعرضت فيه لجهود نورالدين محمود لتحقيق الوحدة السياسية والمذهبية بين إقليمي الشام ومصر عن طريق إخضاع مصر الفاطمية لنفوذه وإسقاط الحكم الشيعي الإسماعيلي بها لصالح المذهب السني وخليفته العباسي في بغداد.

وقبل الحديث عن تلك الجهود فقد عرضت لوضع الخلافة الفاطمية خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي والذي عرف انحدارًا على المستوى السياسي والعقدي بسبب تسلط الوزراء وتنازعهم وتهميشهم لمكانة الأئمة الفاطميين الدينية والدنيوية كركيزة أساسية في العقيدة الشيعية، فأفضى ذلك إلى دخول الدولة الفاطمية مرحلة انكفاء انتفت في ظلها مساعي رد الصليبيين، وظلت على هذا الحال إلى أن ارتمى بعض وزراءها في أحضان صليبيي بيت المقدس لنصرتهم على أعدائهم الداخليين والتجأ البعض الآخر للقائد السني نورالدين في دمشق لنفس الغاية.

كما تناول هذا الجزء أهمية مصر المنهارة لدى كل من نورالدين محمود في بلاد الشام كقائد لحركة المقاومة الإسلامية والإحياء السني وعموري الأول ملك بيت المقدس في سياق تسابق القوتين لترجيح ميزان القوة في الصراع الدائر بينهما، لنختم الفصل بجولات الصراع بين هذين القائدين بين الفترة من 558هـ-564هـ/1163م-1168م) والتي رجحت في النهاية لصالح نورالدين محمود وقائدي جيوشه أسد الدين شيركوه وابن أخ هذا الأخير صلاح الدين الأيوبي.

وأما **الفصل الخامس والأخير** من هذه الدراسة فقد تناولنا فيه مرحلة مهمة من مراحل الصراع الإسلامي- الصليبي، عرفت فيه الجبهة الداخلية إتمام مسار الوحدة السياسية بضم مصر ونهاية الانقسام المذهبي بسقوط الخلافة الفاطمية الشيعية سنة 567هـ/1171م، كما عرف ميزان القوة مع الطرف الصليبي تغيرًا كبيرًا بعد أن حقق صلاح الدين عديد الانتصارات والمكاسب على حسابهم لعلّ أهمها استعادته لبيت المقدس سنة 583هـ/1187م.

تناول الجزء الأول من هذا الفصل منغصات الانتقال المذهبي والسياسي على أرض مصر والإستراتيجية التي وضعها صلاح الدين لتجاوز ذلك الوضع من خلال تعزيز الحضور السني بعديد الإجراءات الفكرية كبناء المدارس ودور العلم والاهتمام بالمدرسين وتخصيص الأوقاف عليهم، وفي المقابل عمل على إضعاف الحضور الشيعي الإسماعيلي بالتضييق على أتباعه وطمس معالمه المادية والوجدانية، ليتحقق له قلب الطاولة على الحكم الفاطمي الشيعي بعد ثلاث سنوات من استيزاره للخليفة العاضد.

أمَّا الجزء الثاني فقد تعرَّض لارتدادات سقوط الحكم الفاطمي على نشاط المقاومة ضد الصليبيين ومحاولات الفرقة النزارية بزعامة راشد الدين سنان اغتيال صلاح الدين، ليختم الفصل والبحث عامة على أهم ثمار جهود الوحدة المذهبية والسياسية التي شرع في وضعها حكام الزنكيين إنطلاقًا من مقر حكمهم بالموصل ألا وهي نصر حطين الذي كان مقدِّمةً لاستعادة مدينة بيت المقدس هدف الصليبيين الأساسي في حملاتهم العسكرية على المشرق.

وتجدر الإشارة إلى اعتمادي في معالجة إشكالية البحث على التسلسل الكرونولوجي للأحداث التاريخية عن طريق تبويبها ضمن عناصر تخدم كل إشكالية كل فصل وليس بطريقة موضوعاتية ينتقل فيها الباحث صعودً ونزولاً في الزمن عبر فصول الدراسة؛ وحسبي في هذا أن إشكالية البحث تتطلب هذه المنهجية رغم بعض العثرات الممكن الوقوع فيها، فحركة المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي عرفت في عمومها تطورًا كرنولوجيًا متماشيًا مع واقع المسلمين المضطرب مذهبيًا ومع مساعي تجاوز ذلك الواقع لصالح وحدة مذهبية وسياسية تواجه الطرف الصليبي بندية واقتدار.

ومن الدراسات السابقة التي اهتمت بموضوع الصراع المذهبي عند المسلمين وعلاقته بنشاط المقاومة زمن الحروب الصليبية نجد رسالة الدكتوراه للباحث محمد بن المختار الشنقيطي بعنوان: **The Crusades' Impact of Sunni-Shi'a Relation** "**أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية**" نوقشت بجامعة تكساس تك بالولايات المتحدة الأمريكية أواخر سبتمبر 2011م ثمَّ أخرجها صاحبها في كتاب عن دار الشبكة العربية للأبحاث والنشر (بيروت) سنة 2016م.

وقد تناول الباحث موضوعه بمنهجية معاكسة لما رأينا تناوله في إشكالية موضوعنا هذا؛ فانطلق من تأثيرات أحداث الصراع الإسلامي – الصليبي على العلاقات بين السنة والشيعة من حيث التقارب والتعاضد والاصطدام؛ في حين أردنا من خلال هذا البحث تبيان أثر الصراع والتطرف المذهبي عند

المسلمين في التمكين للصليبيين ببلاد المسلمين، ثم على سير نشاط المقاومة ضدهم وكيف ساهمت جهود تجاوز ذلك الوضع بتحقيق الوحدة المذهبية – في إطار الغلبة السياسية والعسكرية والتي كانت في مجملها للطرف السني منذ عهد السلاجقة إلى عهد المماليك مرورًا بالعهد الزنكي والأيوبي– في تحقيق عديد المكاسب على الطرف الصليبي.

وباستثناء دراسة الشنقيطي حول الموضوع فإنَّ معظم من تناول قضية الوهن الإسلامي في مواجهة الوجود الصليبي قد ركَّز على الصراع السياسي والعسكري مع إشارات للخلاف المذهبي بين قوتي السلاجقة والفاطميين كعناصر ضمن بحوثهم؛ كدراسة الباحث سليمان عبد العبد الله الخرابشة بعنوان:" **الصراع الفاطمي السلجوقي في بلاد الشام (447هـ–567هـ/1055م– 1170م)**[1]، وبحث محمد علي حميد الحديدي بعنوان:" **العلاقات السلجوقية– الفاطمية 447هـ–567هـ/1055م–1171م – دراسة سياسية–**"[2]

إضافةً إلى عديد الدراسات التي لا تستهدف موضوع البحث بشكل مباشر وإنَّما تعالج بعض الإشكاليات الفرعية في الموضوع، مثل كتاب "**التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي خلال العصر الإسلامي (مظاهره، آثاره، أسبابه، علاجه)**"، [3] للدكتور خالد علال كبير وكتاب "**الاسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية**"[4] لعثمان عبد الحميد عشري، وكتاب "**الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري)**[5] لأسامة زكي زيد، وكتاب يوسف إبراهيم الشيخ عيد بعنوان " **أثر الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين**"[6] وكتاب " **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن**

(1) رسالة مقدمة للحصول على درجة دكتوراه في التاريخ الإسلامي (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1990.

(2) رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجيستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1430/2009.

(3) مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

(4) كلية الآداب جامعة القاهرة، 1982/1983.

(5) الهيئة العامة المصرية للكتاب، فرع الإسكندرية، 1980.

(6) دار المعالي، ط1، عمان، الأردن، 1419هـ/1998م.

الخامس الهجري حتّى سقوط بغداد"[1] للدكتور عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، وكتاب، عبد الرحمن عزام، **صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني**،[2]، وغيرها.

ولمعالجة إشكالية هذه الدراسة وفق الخطة المبينة سلفًا فقد تمَّ الاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع التي تتفاوت من حيث القيمة والأهمية:

يعدُّ كتاب" **الكامل في التاريخ** " لمؤلفه عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، من أهم مصادر تاريخ الحروب الصليبية، حيث تكمُن أهميته في معاصرته لجزء هام من أحداث تلك الفترة من الصراع الإسلامي – الصليبي، فكان مولده سنة 555هـ/1160م، وتوفي سنة 630هـ/ 1232م، فتناول وقائع الحروب الصليبية في بلاد الشام، وكان يحسُّ خلالها بآلام المسلمين في تلك الأثناء، والمعروف عن ابن الأثير عند المؤرخين عامةً، قديمهم وحديثهم أنَّه حُجَّة فيما دوَّن، ومحققٌ فيما تناوله في كتابه، ورغم ذلك فإنَّ من المؤرخين من يرى تعصُّبه إلى أصله، وتحاملهُ على من خرج عليهم.

وقد كانت إفادتنا من كتاب الكامل كبيرةً جدًا في هذا البحث حيث أمدنا بالمعلومات التاريخية في جل فترة الدراسة وبتحاليل المؤرخ القريب من الحوادث، خاصةً ما تعلق بالخلافات بين القوى الإسلامية في المشرق وبسير أحداث الغزو الصليبي وتأسيس الإمارات الصليبية وردود فعل القوى الإسلامية حيال ذلك، إضافةً إلى استفادة البحث من معلومات ابن الأثير الغزيرة حول فترة حكم الزنكيين الذين خدمهم أسرة ابن الأثير فجاء بتفاصيل يفتقدها عديد مصادر الفترة، ومنها جهود آل زنكي (عماد الدين ونجله نورالدين) في تحقيق الوحدة المذهبية والسياسية لجبهة المقاومة ضد الصليبيين.

لم يقتصر دور ابن الأثير في تدوين أحداث تلك الفترة على كتابه الكامل فحسب، بل أنَّ مؤلَّفه: " **الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل**" ساعد الكثير من المؤلِّفين على معرفة تاريخ دولة آل زنكي بالموصل، الذين ساهموا بشكل كبير في حركة المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي على أرض الإسلام، ويبرز ذلك جلياً لكون المؤلِّف ينتمي إلى أسرة التحقت بخدمة أتابكية الموصل، فكان ابن الأثير – والد عزالدين– رئيس ديوان خراج جزيرة ابن عمر في عهد قطب الدين مودود – أتابك الموصل – وعمل أخواه مجيد الدين أبو السعادات وضياء الدين في ديوان الإنشاء.

[1] دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، المنصورة، مصر، 1408هـ/1988م.

[2] تر، قاسم عبده قاسم، دار بلومزبري، ط1، الدوحة، قطر، 2012

ومنها أيضًا كتاب "**ذيل تاريخ دمشق**" لمؤلِّفه أبي يعلى حمزة بن أسد التميمي المعروف بابن القلانسي (ت555هـ/1160م)، وينتمي إلى إحدى الأسر العريقة في دمشق فنال حضًا وافرًا من التعليم في الأدب والفقه والشريعة، كما شغل العديد من المناصب الإدارية في عهد ظهير الدين أتابك وخلفائه في دمشق، منها مسئول ديوان الرسائل، وهو المنصب الذي أعانه على الاطلاع على كثير من أسرار سياسة حكام دمشق عن طريق الوثائق المحفوظة بهذا الديوان.

ويعتبر كتابه من أهم المصادر الإسلامية في تاريخ العلاقات الصليبية – الإسلامية، منذ مجيء الإفرنج إلى بلاد الشام وحتَّى أواسط القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، إلاَّ أنَّ سقوط بيت المقدس قد شغله عن التعرض لعلاقات الصليبيين بمسلمي كثير من مدن الشام الأخرى، وابن القلانسي رغم اختصاصه بذكر تاريخ مدينة دمشق إلاَّ أنَّهُ لم يهمل الكثير من الحوادث السياسية التي وقعت في الشام والعراق والجزيرة ومصر.

وقد كانت إفادتنا من هذا المصدر بالغة الأهمية حيث استعنا به في الحديث عن واقع المسلمين المتردي في بلاد الشام والصراعات الداخلية التي نشبت بين قواه وخاصة بين أفراد البيت السلجوقي وأثر ذلك في التمكين للصليبيين عصر الحملة الصليبية الأولى، كما وأمدنا صاحبه بمعلومات غزيرة عن الظروف التي سقطت فيها مدينتي أنطاكية وطرابلس، وجهود قادة المقاومة الأوائل في ثني الصليبيين على تنفيذ مخططاتهم، إضافةً إلى تناوله دور الطائفة النزارية في بلاد الشام وأثر مواقفها على نشاط المقاومة.

ويستمر ابن القلانسي في مدنا بالمعلومات القيمة عند تولي عماد الدين زنكي ونجله حكم بلاد الجزيرة وتوسعهم في بلاد الشام وجهودهم في استعادة الممتلكات الإسلامية، فأفاض في هذا الشأن وخاصةً عند حديثه عن استعادة الرها من الصليبيين سنة 539هـ/1144م.

ومن مصادرنا المهمة كذلك في هذا البحث كتاب "**تاريخ حلب**" أبو عبد الله محمد الرئيس أبي الحسن المعروف بابن العظيمي الحلبي (ت558هـ)، تولى التدريس بمدينة حلب، وقد وضع كتابه على طريقة الحوليات وسلك فيه مسلك الاختصار، ورغم ذلك فقد أمدنا بمعلومات مهمة خلال فترة الدراسة لمعاصرته لجزء مهم من أحداث الصراع الإسلامي – الصليبي، فكانت إفادتنا من معلوماته ضمن الفصل الثاني والثالث والرابع من الدراسة.

ومن المصادر الأصيلة كذلك والتي أفادتنا في معالجة موضوع هذا البحث، كتاب" **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"** لمؤلفه جمال الدين أبو عبد الله بن محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل الحموي الشافعي (ت697هـ/1298م)، فقد أرَّخ لتاريخ الدولة الأيوبية منذ قيامها إلى نهايتها سواء في مصر أو بلاد الشام بتفصيلٍ وافٍ وتحقيقٍ شامل، فاتَّصل بالعديد من ملوكهم في مصر والشام والجزيرة، وأقام في القاهرة سنواتٍ طويلة في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وشهد خلال مقامه بمصر حملة لويس التاسع عشر، واحتضار الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك، وما عاصر ذلك من غزوات التتار للعراق والشام وسقوط بغداد وانتهاء الخلافة العباسية.

فكانت لنا من هذا الكتاب استفادة كبيرة خاصةً في الفصل الرابع والخامس، حيث أمدنا بمعلومات غزيرة عن فترة الحكم الزنكي على عهد عماد الدين ونجله نورالدين وجهودهما لإقامة جبهة إسلامية موحدة سياسيا ومذهبيا ببلاد الجزيرة والشام أولاً ثم بأحداث الصراع بين نورالدين والصليبيين على حكم مصر، وما تلاها من مساعي لأجل ضم مصر لجبهة الشام وإنهاء الحكم الفاطمي بها عن طريق قائدي الجيش النوري أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي.

كما وأمدنا هذا المصدر بتفاصيل المؤامرات التي كان يحيكها بقايا الدولة الفاطمية ضد حكم صلاح الدين في مصر، إضافةً إلى جملة الإجراءات التي بذلها هذا الأخير في سبيل تغليب كفة التسنن والإضعاف من الحضور الفكري للمذهب الشيعي في إطار إستراتيجية الوحدة التي رسمها قادته الزنكيون، وهذا كلُّه دون إغفاله لقضية الفجوة أو الوحشة التي وقعت بين نورالدين وصلاح الدين وباقي أحداث الحكم الأيوبي في بلاد الشام ومصر.

ويمدُّنا كذلك أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المتوفى سنة (665هـ/1267م) صاحب كتاب" **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية "** بمعلومات ذات أهمية بالغة حول حياة بطلين إسلاميين من أبطال الحروب الصليبية والَّذين أطلق على اسميهما عنوان مؤلَّفه، وهما نورالدين محمود وصلاح الدين، وقد ولد بدمشق سنة 599هـ/1203م وعاش بها ولم يغادرها إلا مراتٍ قليلة، وقد جمع أبو شامة معلوماته عن الثقاة من المؤرخين كابن عساكر وابن القلانسي وابن الأثير وابن شداد، ويُعدُّ موسوعة شاملة لعهدي هذين القائدين.

وأمَّا إفادتنا من هذا المصدر فقد كانت بالغة الأهمية، إذ احتاج البحث لمعلوماته الدقيقة عن سيرة هذين الرجلين اللذان مثَّلا عصب الأحداث في هذه المرحلة من تاريخ المسلمين، خاصةً بما احتواه مؤلَّفهُ من معلومات استقاها من مصادر وكتب مفقودة، إضافةً إلى استناده على وثائق رسمية ومستندات موثوق فيها.

ومن المصادر المهمة كذلك في هذا البحث كتاب "**الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نورالدين محمود بن زنكي)**[1] لصاحبه ابن قاضي شهبة، إذ وعلى الرغم من كونه مصدر متأخر عن فترة الدراسة (توفي صاحبه في 874هـ) وأنَّ معلوماته نقلها عن مصادر سابقة كمرآة الزمان لسبط بن الجوزي والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل والكامل في التاريخ لابن الأثير وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة، إلاَّ أنَّ أهميته تكمن في معالجته لتاريخ الدولة النورية وأخبار ملكها نورالدين محمود حصرًا؛ فجمع المعلومات من مظانها ووفَّر علينا مشقة ترتيبها، فأفدنا منه في الحديث عن جهود نورالدين في تحقيق الوحدة المذهبية والسياسية لجبهة المقاومة الإسلامية وكذلك جملة ما حققه من انتصارات ضد الصليبيين في بلاد الشام ومصر وعن علاقته بقائد جيوشه ونائبه في حكم مصر صلاح الدين الأيوبي.

كما أَفدنا من كتاب "**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**" أو سيرة صلاح الدين لصاحبه ابن شداد (ت 632هـ/ 1234م)، لكون هذا المؤرخ قد صاحب صلاح الدين وشهد معه معارك عِدَّة حدثت بينه وبين الصليبيين، فنقل في كتابه سيرة هذا البطل بحسٍّ سليم وصدقٍ وغاية في الرزانة، إلاَّ أنَّ مُصاحبته لصلاح الدين لم تتجاوز خمس سنوات، ولذلك فهو بحق المؤرخ المتفرد بروايات تلك الفترة، كما أن أسلوبه في نقل الأحداث ممتع وبعيد عن التصنع والأساليب البلاغية.

ومن المصادر الأساسية كذلك لموضوع الرسالة كتاب " **زبدة الحلب في تاريخ حلب**" لكمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله المعروف بابن العديم (ت 660هـ/ 1262م)، وهو من أسرة مشهورة في حلب اشتغل أغلب أفرادها بالعلم والفقه والقضاء، حيث يعدُّ مؤلَّفهُ زبدة الحلب اختصارًا لكتابه بغية الطلب في تاريخ حلب، رتبه على حوادث السنين وجعله خاصًا بالتاريخ السياسي لحلب منذ العهد الروماني وإلى سنة 641هـ/1243م.

---

[1] تح، محمود زايد، دار الكتاب الجديد، ط1، بيروت، 1971م.

وقد أفادنا هذا المصدر في كثير من أحداث تلك الفترة، وأبرزها ما تعلق بمدينة حلب وشمال الشام خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ودخولها ضمن مشروع التفوق المذهبي بين قوتي السلاجقة السنيين والفاطميين الشيعة الإسماعيلية لأهمية حلب كعاصمة لشمال الشام ونقطة اتصال بين العباسيين والفاطميين والبيزنطيين، كما أمدنا بتفاصيل الوجود النزاري بحلب على عهد رضوان بن تتش السلجوقي.

إضافةً إلى علاقة حلب بالموصل على عهد قادة المقاومة الأوائل نجم الدين إيلغازي وآقسنقر البرسقي ثم على عهد عماد الدين زنكي وابنه نورالدين، ودورها في حركة المقاومة ضد الوجود الصليبي في شمال الشام أولاً وفي تحقيق الوحدة مع دمشق وإقليم جنوب الشام ثانيًا، وفيه أيضًا إفادة حول جهود نورالدين لتغليب الحضور الفكري للمذهب السني بحلب من خلال عديد الإجراءات التي قام بها في هذا الشأن.

كما وأفاد البحث عند الحديث عن جهود الزنكيين والأيوبيين في التمكين للعقيدة والفكر السني على حساب التشيع وعقيدته ضمن إستراتيجيتهم في الحكم وفي مواجهة الصليبيين، من خلال بناء المدارس والدور والعناية بالمدرسين والجراية عليهم، على عديد المصادر منها: **رحلة ابن جبير**، لأبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي المتوفى سنة (ت614هـ/1217م)، وكتاب **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة** لصاحبه، عزالدين محمد بن علي بن إبراهيم ابن شداد (684هـ)، وكتاب عبد القادر بن محمد النعيمي (ت978هـ)، **الدارس في تاريخ المدارس**.

إضافة إلى جملة المصادر التاريخية التي عرضنا لها سلفًا فقد كان لكتب الجغرافيا والبلدان أهمية كذلك في دراسة موضوع بحثنا حيث أعانتنا على تحديد الأقاليم ومواضع والمدن والقلاع ضمن نطاق البحث وتعريف العديد منها، ككتاب " **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**" للمقدسي (ت388هـ/ 998م)، ومؤلَّف ابن حوقل (ت367هـ/977م) الموسوم بـ: " **صورة الأرض**"، **ومعجم البلدان** لصاحبه ياقوت الحموي (ت626**هـ**/1229م).

وقد كان من الضروري الإطلاع على كتب الفرق والمذاهب لأصحابها من السنة والشيعة؛ إضافةً إلى الدراسات الحديثة التي اهتمت بموضوع الخلاف حول قضية الإمامة وانقسام الصف الإسلامي فأمدتنا بالتفاصيل التاريخية والآراء المتناقضة في هذا الشأن فكانت إفادتنا من مواد هذه المصادر في الفصل الأول من هذه الدراسة والذي أردناه توطئةً لفهم الصراع المذهبي خلال القرن الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

كما أفادت الدراسة من المصادر التاريخية الأجنبية المعاصرة لسير الحملة الصليبية الأولى، حيث كان أصحابها من المشاركين في تلك الحملة وشاهدي عيان على كثير من أحداثها منذ دعا إليها البابا أوربان الثاني في مدينة كليرمونت بجنوب فرنسا، وحتى استيلاء الصليبيين على مدينة بيت المقدس سنة 492هـ/1099م، فدوَّنوا ما قام به الإفرنج من أعمال منذ خروجهم من أوروبا مرورًا بأراضي الدولة البيزنطية وآسيا الصغرى وبلاد الشام، وعلاقاتهم بكل من البيزنطيين والأرمن والمسلمين على السواء، وقد ترجمت مؤلفاتهم إلى اللغة العربية بفضل عديد الباحثين المهتمين بتاريخ الحملات الصليبية على العالم الإسلامي.

ومن هذه المصادر كتاب لمؤلف مجهول بعنوان: "**يوميات صاحب أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس**"Gesta Francorum et Aliorum Hierrosolymitanorum وهو أحد الجنود في جيش القائد الصليبي بوهيموند النورماندي، حيث ركَّز على أعمال قائده دون غيره من القادة الصليبيين، ولكن بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية سنة 491هـ/1098م وآل حكمها لبوهيموند، قرر مواصلة المسير مع الزعماء الآخرين في رحلتهم إلى بيت المقدس لاستكمال تدوين أحداث الحملة الأولى.

إضافةً إلى كتاب ريمونداجيل Raimond d’Agiles "**تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس** Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem"، حيث يعد من المصادر المهمة بحكم قرب مؤلفه من ريمون دي سان جيل كونت تولوز وهو أحد زعماء الحملة الصليبية الأولى، والذي صار قسيسه الخاص بعد ذلك، وقد كان ريمونداجيل على إطلاع بما يدور في مجالس حرب القادة الصليبيين وهو ما جعل من كتاباته ذات أهمية بالغة مقارنة بالمعاصرين له من الكتاب الذين شركوا في الحملة وكتبوا عنها.

ومنها أيضًا كتاب **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس**" Historia de Hierosolymitano ltinere" **لبطرس توديبود** Tudebodus و كتاب " **تاريخ الحملة إلى بيت المقدس**" لـفولشر أو شارتر (فوشي الشارتري)

وإن كانت هذه المصادر على أهميتها لم تعالج أو تشير إلى قضية الخلاف المذهبي عند المسلمين بشكل مباشر إلاَّ أنَّها أمدتنا بكثير من المعلومات التي توحي بذلك وخاصةً ما تعلَّق منها بعلاقات الإمارات الصليبية مع بعض القوى السياسية والشخصيات الإسلامية في إطار الصراع الداخلي بينها بسبب خلافاتها

المذهبية وأطماعها الدنيوية، إضافةً إلى تزويدنا بتفاصيل الحملة الصليبية الأولى وتأسيس الكيانات الصليبية بالمشرق.

وأمَّا فيما يخص المراجع والدراسات الحديثة فقد جاءت متنوعة متماشية مع غزارة الأحداث، وطول فترة الدراسة نسبيًا فمنها ما كان باللغة العربية ومنها ما ترجم لها؛ ولعلَّ أهمها جملة المراجع التي أشرنا إليها سابقًا كدراسات سابقة للموضوع، إضافةً إلى أخرى مهمة، وفي مقدمتها كتاب " **الحركة الصليبية**" لسعيد عبد الفتاح عاشور في جزئين، وكتاب للدكتور حامد سعيد أبو غنيم :" **الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية – جبهة الشام وفلسطين ومصر–**"، وكتاب "**تاريخ الحروب الصليبية**" لستيفن رنسيمان، وغيرها.

وأمَّا عن الصعوبات التي واجهتني في سبيل إتمام هذه الدراسة فارتأيت عدم التعرض لها، إيمانًا منِّي بأنَّها جزء من هذا العمل، ومن أي عمل آخر في شتى ميادين الحياة.

الفصل الأول

الفصـل الأول:

جذور الانقسام المذهبي عند المسلمين

أولاً: صراع الشرعية من الأولوية السياسية إلى الأحقية العقائدية

1- أصل الخلاف المذهبي عند المسلمين وبداياته

2- الإمامة، (الخلافة) القضية الجوهرية في انقسام الصف الإسلامي

3- الاعتقاد الطائفي، كمرحلة متقدمة عن الخلاف السياسي

ثانيًا: المذاهب والفرق الإسلامية

1- مذاهب أهل السنة والجماعة

1-1 الأحناف

1-2 المالكية

1-3 الشافعية

1-4 الحنابلة

2- الطوائف الشيعية

2-1 الإمامية (الإثني عشرية)

2-2 الزيدية

2-3 الإسماعيلية

2-4 النصيرية أو العلوية

2-5 الدروز (الموحدون)

أولاً: صراع الشرعية من الأولوية السياسية إلى الأحقية العقائدية:

1_ أصل الخلاف المذهبي عند المسلمين وبداياته:

اختلف الكثير من المؤرخين ممن تناولوا جذور الانشقاق داخل الجماعة الإسلامية إلى سنة وشيعة، بين من يُرجعها إلى خلاف سياسي محض يتعلق بالأحقية في الرياسة وخلافة المسلمين بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، حيث كان ذلك الخلاف بين المهاجرين والأنصار في البدء ثم صار بين المهاجرين فيما بينهم بعد تنازل الأنصار عنها.

فقد برز من الصحابة يوم السقيفة من رأى في أبي بكر الصديق أهلاً لمنصب الخليفة لاعتبارات عدّة[1] ورأى فريق آخر أحقية علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنهما لقرابته وأسبقيته في الإسلام[2]، لتأخذ تلك المطالب السياسية في التحوُّل تدريجيًا لدى أنصار علي بن أبي طالب إلى اعتبار الخلافة (الإمامة) حق ديني محسوم بنصٍ مقدس وارد على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم في غدير خم[3]، وهو نص يحصر القيادة الشرعية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفي ذريته من بعده، وعن هذا التحوُّل يذكر محمد بن المختار الشنقيطي:[4]" إنَّ الخلاف بين السنة والشيعة بدأ سياسيًا ثمَّ تطوَّر ليصبح إعتقاديًا".

قدَّم أصحاب هذا الرأي للتأكيد على الخلفية السياسية للخلاف بين الصحابة حول قضية خلافة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، عدَّة حجج على ذلك، منها أنَّ حق الأقربين في وراثة الرياسة أمرٌ لم يقره الإسلام، وأنَّ الأنبياء لا يورثون ولو شاء الله ذلك لجعل لمحمد ولدًا وهو الرسول الذي اصطفاه واجتباه،

[1] من بين الاعتبارات التي دفعت بفئة من المهاجرين لتزكية أبا بكر الصديق لأمر الخلافة هو أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر في ليلته التي توفي فيها بالصلاة بأصحابه فجعلوا ذلك الدليل على استحقاقه إياه وقالوا: رضيه النبي صلى الله عليه وسلم لأمر ديننا ورضيناه لأمر دنيانا، أنظر، النوبختي أبي محمد الحسن بن موسى (توفي مابين 300هـ و310هـ)، **فرق الشيعة**، مطبعة الدولة، استانبول، 1931، ص 3، القمي سعد بن عبد الله أبي خلف الأشعري (حوالي 301هـ)، **كتاب المقالات والفرق**، صححه وقدَّم له وعلَّق عليه: محمد جواد مشكور، طهران، 1963، ص3.

[2] القمي، المقالات والفرق، ص3.

[3] غدير خم، مكان في الحجاز في منتصف الطريق بين مكة والمدينة، بينه وبين الجحفة ميلان، أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت487هـ)، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، عالم الكتب، بيروت، 510/2، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1977، 188/4، محمد بن عبد المنعم الحميري (ت900هـ)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح، إحسان عباس، مكتبة لبنان، د ت، ص 156، 221.

[4] **أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2016، ص 85.

كما أنَّ المبايعين لعلي رضي الله عنه بإمارة المؤمنين لم يبايعوه باعتباره رمزًا دينيًا أو لأنَّهُ وصي النبي، وإنَّما رأوا بأنَّه الأحق بولاية المسلمين مثلما رأى فريقٌ آخر في أبي بكر الأحقية والأهلية[1].

فأنصار علي أو شيعته لم يكونوا في بادئ الأمر فرقة دينية مخالفة لجمهور المسلمين، بل كانوا مجرد تيار سياسي يرى في أحقية علي رضي الله عنه بالخلافة منذ وفاة النبي وإلى الصراع السياسي والعسكري زمن الفتنة الكبرى، فكان انتصارهم لعلي انتصارًا سياسيًا ولم يكن انتصارًا دينيًا[2].

وحتَّى بالنسبة لعلي رضي الله عنه فهو لم يقدِّم نفسه للقيادة باعتباره مفوضًا بأمرٍ إلهي كما قدَّمه المتشيعون له بعد وفاته، وإنَّما رأى في نفسه الأقدر على تولي المنصب بعد النبي من غيره، وأنَّ من حقه أن يكون له رأي في اختيار الخليفة لأسبقيته في الإسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعلي رضي الله عنه لم يُسبغ على موقفه من الخلافة أي صبغة عقائدية مثلما نحا أنصاره بعد ذلك.[3]

ومن بين حجج القائلين بهذا الرأي أيضًا أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لو خصَّ عليًا وأبناءه بالخلافة من بعده لسارع المسلمون إلى تنفيذ الوصية، ولما تجرَّأ سيدنا علي على الإقدام على بيعة أبي بكر وعمر وعثمان مخالفًا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما أقدم الحسن بن علي على مبايعة معاوية بن أبي سفيان في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، حيث سمي ذلك العام "بعام الجماعة"[4].

كما رأى بعض المؤرخين أنَّ ظهور فكر التشيع لعلي ونصرته كطائفة تخالف جمهورًا من المسلمين لم يكن وليد الخلاف السياسي زمن وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم (11هـ/632) أو الفتنة الكبرى عقب مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (23هـ- 35هـ/643م- 655م)، ورأوا أنَّ التشيع في طبيعته الأصلية الموروثة كان دائمًا دينًا وسياسة جنبًا إلى جنب، والحالتان موجودتان عبر تاريخه الطويل، وعليه فمن

---

[1] رياض عيسى، **الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتَّى سقوط الدولة الأموية**، مكتبة الإسكندرية، ط1، دمشق، 1412هـ/1992م، ص154.

[2] برنارد لويس، **الحشاشون، فرقة ثورية في تاريخ الإسلام**، تر، محمد العزب موسى، دار ازال للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، بيروت، 1986م، ص41.

[3] الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص87.

[4] وقد برر علماء الشيعة مبايعة علي بن أبي طالب للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه بأمرين، فذهب منهم فريق بالقول أنَّ الإمام علي بايع الخلفاء خشيةً منه على ضياع الإسلام، وإيجاد الفُرقة التي كانت تؤدِّي إلى هدم الإسلام، فلذلك ترك حقَّهُ ورضخ لخلافة خلفاء غصبوا حقَّه، وأمَّا فريق آخر فعلل ذلك بخشية علي على نفسه وعمل بالتقية، أنظر، موسى الموسوي، **الشيعة والتصحيح الصراع بين الشيعة والتشيع**، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، 1988، ص 35-36، 44-45، وأنظر، عبد الله محمد الأمين، **دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة**، دار الحقيقة، ط2، بيروت، 1991، ص7.

الصعوبة الحديث عن التشيع بإحدى صفتيه دون الأخرى، ومن مؤيدي هذا الطرح نجد المؤرخ الهندي S.H.M جيفري.[1]

كما ويناصر هذا الرأي غالبية الشيعة حيث يُرجعون ظهور التشيع إلى عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم لإضفاء الشرعية الدينية على فكرهم وعدم حصرها في الخلاف السياسي بعد وفاة النبي أو زمن الفتنة على عهد عثمان بن عفَّان، فيقول عن ذلك أحد مؤرخيهم وهو الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء[2]:" إنَّ أوَّل من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفس صاحب الشريعة، يعني أنَّ بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنبًا إلى جنب وسواء بسواء ولم يزل غارسها يتعاهدها بالسقي والعناية حتَّى نمت وازدهرت في حياته ثمَّ أثمرت بعد وفاته".

وعلى الرغم من هذا التطابق الظاهر في رأي جيفري مع ما يعتقد به غالبية الشيعة في بدايات ظهور التشيع، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني تبني جيفري للموقف الشيعي العقدي لإمامة علي وأبنائه من بعده، ولكنَّه يستند في التأكيد على موقفه بخلفية تاريخية تؤكّد على دور العصبية والشرف العائلي (الحسب) في المجتمع القبلي لشبه الجزيرة العربية على نماء فكرة أحقية بني هاشم القرشيين في الرئاسة السياسية والدينية بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم[3].

---

[1] **أصول التشيع الإسلامي المبكر (المعارضة)**، تر: مهيب عيزوقي، دار حوران للطباعة والنشر، ط1، دمشق، 2008، ص 2.

[2] **أصل الشيعة وأصولها**، تح: علاء آل جعفر، مؤسسة الإمام علي، ص184، وانظر، أيضًا محمد حمادة، **تاريخ الشيعة (في لبنان وسوريا والجزيرة في القرون الوسطى)**، ترجمة ومراجعة: جعفر المهاجر، دار بهاء الدين العاملي، بعلبك، لبنان، 2013، ص 26.

[3] تمكَّن قصي بن كلاب بفضل رأيه السديد وبصيرته النافذة من جمع شتات القرشيين بعدما تشتتوا وافترقوا في البلاد جراء الحروب التي كانت تشهدها شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، فعمل على تجميعهم في مكة بجوار البيت الحرام فسمُّوا حين ذاك قريشاً، وأسس لهم مجلسًا للشورى عرف حين ذاك "بدار الندوة"، فكانوا لا يقدمون على أمرٍ في سلمٍ أو حربٍ إلاَّ بعد أن يجتمع فيهِ زعماؤهم ويقررون ما يتعيَّن عليهم فعله، وبذلك قدَّموا نموذجًا فريدًا لإدارة شؤونهم لم تألفهُ قبائل الجزيرة، فأكسبهم احترامًا وهيبةً عند القبائل الأخرى، وساعدهم ذلك على نظمِ أمورهم، ممَّا أتاح لهم مهمة القيام على شؤون بيت الله الحرام الذي يتمتع بمكانة دينية عند العرب، فكانوا يقومون على خدمة الحجاج القادمين إلى مكة من مختلف البلدان، ويتنافسون على إطعامهم وسقايتهم، ممَّا جعل القبائل العربية تُجلُّ قريشًا وتقدِّرُ صنيعها، حتَّى أنَّ قوافلهم كانت تنتقل في البلدان آمنة دون أن يعترض لها أحد خلاف قوافل القبائل الأخرى، فتمتَّعت بذلك قريش باستقرارٍ أمني وتجاري جاء ذكره في كتاب الله بسورةٍ تحمل اسم قبيلتهم، قال فيها الله تعالى﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف﴾ (سورة قريش)، محمد يحي عزَّان، **قرشيَّة الخلافة تشريعٌ ديني أم رؤية سياسية**، مركز التراث والبحوث اليمني، ط3، صنعاء، 1436هـ/2015م، ص23-24، وأنظر، فاروق عمر فوزي، **قراءات ومراجعات نقدية في التاريخ الإسلامي**، دار مجدلاوي، ط1، عمان، 2007، ص 170-171.

فقد ورث هاشم عن أبيه مناف وجدِّه قُصي النفوذ السياسي بمكة، وحُضي رغم صغر سنه بين إخوته بمهمة شريفة تخصُّ الكعبة وهي الرفادة والسقاية، أي تزويد الحجيج بالطعام والماء، وقد حققت هذه المهمة لهاشم وبنيه تأثيرًا دائمًا وقائدًا بمجتمع مكة، ومن الطبيعي أن يكسب بنو هاشم شُهرةً في كل الأنحاء ويجلب لهم التقدير والاحترام[1].

توفي هاشم ولكن مكانة العائلة ظلت محفوظة في ذاكرة المكيين والحجاج الوافدين على البيت الحرام، ثمَّ ورث بعده ابنه عبد المطلب مهمة الرفادة والسقاية، وعزز مكانة العائلة بحفره بئر زمزم، ليصبح عبد المطلب مع مرور الوقت حامي الكعبة الأوَّل ونُظر إليه على أنَّهُ قاضٍ مشهور حسب الأعراف السائدة وقتذاك، بل وعُدَّ المسئول الأول عن الخدمات الأساسية لأقدس بيت في الجزيرة العربية، وصار من أهم إن لم يكن الأهم بين شخصيات مكة[2]، حيث يقول فيه ابن هشام:" نال شرفًا عظيمًا ومكانةَ رفيعة لم يحظ بها أحدٌ من آبائه قبله، لقد حاز على احترام عظيم إلى جانب حب شعبه".

ورث أبو طالب بعد وفاة والده مقام عائلة بني هاشم القيادية ومكانتها وشرفها، ورغم عدم تمتع أبو طالب بطاقة وشخصية والده وأجداده، إلاَّ أنَّ ذلك لم يُفقد الأسرة حضورها وأهميتها واحترامها في ذاكرة أهل مكة وحجاج البيت، تلك المكانة التي كرَّسها أربعة أجيال من هذه الأسرة في خدمة أقدس مكان للعبادة في كامل الجزيرة العربية[3].

وعلى هذا الأساس – ووفق أصحاب هذا الرأي - فإنَّ جماعة من المسلمين بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وحتَّى في حياته كانت ترى في بني هاشم الأحق بالرياسة والقيادة السياسية والدينية لما كان لهم من سبق في خدمة الكعبة وزوارها، وزادهم حماسًا لهذا الموقف اصطفاء الله تعالى أخر أنبيائه من هذه الأسرة وذِكره لأهل بيت محمد في أكثر من موضع في القرآن الكريم بمصطلحات عدّة، كأهل وآل وقربى مثل قوله: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾[4] وقوله أيضًا:﴿ وذلك الذي يبشِّرُ الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قل لا أسألكم عليه أجرًا إلاَّ المودَّةَ في

[1] جيفري، المرجع السابق، ص 10-11، وأنظر، عامر النجار، **في مذاهب الإسلاميين**، دار المعارف، القاهرة، 1995، ص11-12، محمد أبو زهرة، **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، دار الفكر العربي، القاهرة، ص12، عمر فاروق، مراجعات، ص171.

[2] جيفري، المرجع السابق، ص 11، فاروق عمر فوزي، قراءات ومراجعات، ص171.

[3] فاروق عمر فوزي، قراءات ومراجعات، ص171.

[4] سورة الأحزاب، الآية 33.

القربى﴾[1]، وقد تباينت آراء اللغويين والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمؤرخين في معنى مصطلح "أهل البيت" أو آل البيت في الإسلام، ومن هم الذين يشملهم هذا المعنى من أهل النبي محمد صلى الله عليه وسلم[2].

وعليه فقد تشكلت لدى تلك الجماعة المناصرة لعلي بن أبي طالب نوع من فكرة القداسة لعائلة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبأنَّها تمتعت بحق ديني مخصوص دون غيرها من الأسر في الجاهلية والإسلام، ذلك الحق الذي يكفل لهم بلا منازع السلطان السياسي والديني على المسلمين، لتكون وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بداية ظهور هذا الفكرة عمليًا بالوقوف في صف علي بن أبي طالب أحد أبرز أفراد أسرة بني هاشم.[3]

لم ينظر الشيعة في غالبيتهم إلى قضية خلافة علي بن أبي طالب للنبي صلى الله عليه وسلم كقضية سياسية أو لمجرد تمتع أسرة بني هاشم بالمكانة المرموقة والحسب الشريف، حيث نحى الشيعة في هذا الشأن منحى مُخالفًا كان له الأثر البالغ في بروزهم كطائفة متمايزة عن باقي المسلمين قديمًا وحديثًا، فلو تبنَّى أنصار علي وشيعته إحدى الرأيين الأولين في نظرتهم للخلافة لربُّما انتهت مطالبهم بوفاته رضي الله عنه[4]، ولكن استمر معهم اسم "شيعة علي" مع مرور الزمن ليقترن دائمًا بقضية شرعية إمامة علي بن أبي طالب وأبنائه من بعده ورفض خلافة غيرهم، وقد لخَّص الشهرستاني[5] نظرتهم للخلافة (الإمامة) كما يلي:

"الشيعة هم الذين شايعوا عليًا رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووصية، إمَّا جليًا وإمَّا خفيًا، واعتقدوا أنَّ الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلمٍ يكون من غيره، أو تقيةٍ من عنده، وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تُناطُ باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي

---

(1) سورة الشورى، الآية 23.

(2) راجع حول معنى مصطلح آل البيت عند أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت774هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، دار ابن حزم، ط1، بيروت، 2000، ص1668-1669، وللمزيد من التفاصيل راجع فاروق عمر فوزي، مقال" **اصطلاح آل البيت**" (**ضمن كتاب قراءات ومراجعات نقدية في التاريخ الإسلامي**)، ص 170- 180.

(3) جيفري، المرجع السابق، ص 20.

(4) يذكر أحد الكتاب الذين نشئوا على التشيع كعقيدة ثمَّ غيَّروا كثير من القناعات حول هذه الفكرة فيقول:" وكان يفترض بنظرية " الإمامة الإلهية — على الأقل لدى الفرقة الموسوية — أن تطوى مع التاريخ، لولا أنَّها تحولت من نظرية سياسية مؤقتة إلى عقيدة دينية ملحقة بالإسلام وأصبح الإيمان بالأئمة "الإثني عشر" لدى "الإمامية" جزءًا متممًا للإيمان بالله والرسول صلى الله عليه وسلم، أحمد الكاتب، **التشيع السياسي والتشيع الديني**، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، بيروت، لبنان، 2009، ص29-30.

(5) الشهرستاني أبي الفتح محمد بن عبد الكريم أحمد (ت548هـ)، **الملل والنحل**، تح، أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة، ط3، بيروت، 1990، 169/1.

قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص (على الأئمة)، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبًا عن الكبائر والصغائر والقول بالتولِّي والتبرّي قولاً وفعلاً وعقدًا، إلاَّ في حال التقية".

ونفس المعنى يورده الجرجاني[1] عن موقف الشيعة من قضية الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "هم الذين شايعوا عليًا رضي الله عنه، وقالوا إنَّهُ الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتقدوا أنَّ الإمامة لا تخرج عنهُ وعن أولاده".

وعليه فإنَّ الشيعة ينظرون إلى قضية إمامة علي وأبنائه من بعده كقضية إيمانية أو حق إلهي، وهي أصل من أصول الدين لا يجوز معها الاختيار، بل ولا يصح الاعتقاد إلاَّ بالإيمان بها[2]، وبذلك فاجتماع السقيفة في نظرهم غير شرعي وخلافة كل من أبو بكر وعمر وعثمان ثم الأمويين والعباسيين من بعدهم مناقضة لجوهر العقيدة والدين.

ارتكز الشيعة في تبنيهم لفكرة الشرعية الدينية لإمامة علي بن أبي طالب على عدَّة أحاديث، أبرزها ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم في غدير خم بعد عودته من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة حيث أمر النَّبي بالصلاة جماعة فاجتمعوا، ثُمَّ خطب في النَّاس قائلاً لهم:" ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أيها النَّاس اعلموا أنَّ عليًا منِّي بمنزلة هارون من موسى، إلاَّ أنَّهُ لا نبي بعدي، وهو وليكم بعدي، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والي من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله، وادر الحق معه حيث دار"[3]، وقد رأى الشيعة في هذا الحديث وصيةً من النبي لعلي ليكون إمامًا وخليفةً للمسلمين بعد وفاته، فهو بذلك أمرٌ محسوم بتوصية النبي لا يحتاج فيه إلى

---

[1] علي بن محمد السيد الشريف (ت 816هـ)، **معجم التعريفات**، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، د ت، القاهرة، ص 111.

[2] عامر النجار، المرجع السابق، ص 161، وأنظر، عبد المنعم ماجد، **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1953، ص 51-77.

[3] ورد هذا الحديث بعدة روايات في كتب الشيعة، كمحمد بن يعقوب الكليني (ت328-329هـ)، **أصول الكافي**، دار المرتضى، بيروت، ط1، 2005م، 177/2، ابن القاضي النعمان بن محمد (ت363هـ)، **دعائم الإسلام**، تح، آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة، 1963، 14/1-16، القاضي النعمان بن محمد، **كتاب المجالس والمسايرات**، تح، الحبيب الفقي وآخرون، دار المنتظر، بيروت، ط1، 1996، ص327-328.

اجتهاد أو تأويل فضلاً على تجاوزه أو إنكاره[1]، غير أنَّ مخالفي الشيعة أو من صار يطلق عليهم أهل السنة والجماعة فقد رووا حادثة غدير خم بغير تلك الرواية ورأوا تفسيرًا للحديث غير التفسير الشيعي.

وأمَّا الأخطر في هذه النظرة الشيعية للإمامة بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، هو اعتقادهم بكفر وضلال من ينكرها عن علي وآل بيته، والحثِّ على البراءة منهم، حيث يذكر في هذا الفلكي الشيعي الحسن بن موسى النوبختي (ت310هـ/922)[2] "الموالي لهُ مؤمنٌ ناجٍ، والمعادي لهُ كافرٌ هالك، والمتخذُ دونه وليجة ضالٌ مشرك"، ويقول في ذلك أيضًا المجلسي[3]:" روي عن الرضا عليه السلام أنَّهُ قال: كمال الدين ولايتنا والبراءة من عدوِّنا"

هذه هي أبرز الآراء في قضية اختلاف المسلمين وانقسامهم بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولعلَّ جوهر ما في تلك القضية هو إشكالية الإمامة أو الخلافة ونظرة كل فريق من المسلمين المختلفين حولها، في كونها مجرد منصب سياسي يحق لأي شخص مؤهل من اعتلائها، أو أنَّه حقٌ ديني مكفول إلهيًا لعلي بن أبي طالب وأبنائه من بعده.

2– الإمامة (الخلافة)، القضية الجوهرية لانقسام الصف الإسلامي:

يذكر الشهرستاني[4] أنَّ أعظم خلاف شهده المسلمون في تاريخهم بل وظلَّ يواجههم في سائر العصور وأدّى بهم إلى الافتتان والاقتتال هو منصب الإمامة، فيقول:" وأعظمُ خلافٍ بين الأمة خِلافُ الإمامة، إذْ ما سُلَّ سيفٌ في الإسلام على قاعدةٍ دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان"، وقد ابتدأ هذا الخلاف –كما بينا سابقًا– بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في السنة 11هـ/632م، أي

---

(1) يذكر الباحث أحمد الكاتب أن حديث غدير خم الذي يعتبره الشيعة الإمامية أعظم دليل على ابتداء التشيع الديني في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، لم يكن يعني النص والتعيين بالخلافة، ولم يفهم أحد ذلك المعنى منه حتّى الإمام علي نفسه، الذي بايع بعد ذلك أبي بكر وعمر وعثمان، ولم يستلم الخلافة إلاّ بعد بيعة الناس له عقب مقتل عثمان، بيعةً عامة في المسجد، أنظر، التشيع السياسي والتشيع الديني، ص29.

(2) فرق الشيعة، ص30.

(3) محمد باقر المجلسي (ت1110هـ)، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 58/27.

(4) الملل والنحل، 31/1-32.

أثناء حدث السقيفة الذي يُعد المولد الأصلي لأوَّل انقسام بين المسلمين، والمرتبط في الوقت نفسه بصورة وثيقة بظهور وجهة النظر الشيعية للإمامة[1].

ومن خلال عرضنا السابق لأصل الخلاف والانقسام داخل الجماعة الإسلامية، تبيَّن لنا وجود رأيين متناقضين حول قضية الإمامة أو الخلافة، وهما الرأيين الذين شكَّلا فيما بعد ما سمي في تاريخ الإسلام بالسنة والشيعة، فقضية خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن في حدِّ ذاتها سببًا وحيدًا لانقسام المسلمين، لأنَّ مطالب شيعة علي بن أبي طالب وأنصاره لم تتوقف عند أحقية علي في خلافة النبي ولكنهم نظروا إلى قضية الإمامة بطريقة مناقضة تمامًا للرأي المخالف (السنة)، ليكون هذا التناقض في الاعتقاد بمنصب الإمامة جوهر ذلك الخلاف ومن ثمَّ الانقسام بين الفريقين.

وقبل تبيان نظرة كل فريق لمنصب الخليفة أو الإمام نتوقف عند مصطلح الإمامة حيث يعرَّفُ في اللغة بالتقدُّم، فنقول: أمَّ القوم وأمَّ بهم تقدَّمهم وهي الإمامة، والإمام كلُّ من ائتم به قومٌ كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين، ويطلق الإمام على الخليفة وعلى العالم المقتدى به، وعلى من يُؤتمُّ به في الصلاة.[2]

ولا فرق بين الإمامة والخلافة فهما مترادفان ويخدمان نفس المعنى، حيث يقول عن ذلك الشيخ محمد أبو زهرة[3]: "الخلافة، وهي الإمامة الكبرى، وسميت خلافة لأنَّ الذي يتولاَّها يكون الحاكم الأعظم للمسلمين، يَخلِفُ النبي صلى الله عليه وسلم في إدارة شئون المسلمين، وتُسمَّى الإمامة لأنَّ الخليفة كان يسمى إمامًا، ولأنَّ طاعتهُ واجبة، لأنَّ الناس يسيرون وراءه كما يُصلُّون وراء من يؤمُّهم للصلاة".

أمَّا في الاصطلاح فيعرفها الماوردي[4] بأنَّها:" موضوعةٌ لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"، وعند ابن خلدون[5]: "هي حملُ الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية

---

[1] جيفري، المرجع السابق، ص 22.

[2] ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، **لسان العرب**، مادة أمم، دار صادر، بيروت، 1388هـ، 24/12، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت817)، **القاموس المحيط**، تح، محمد نعيم العرقسوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005، فصل الهمزة، ص1076.

[3] تاريخ المذهب الإسلامية، ص19.

[4] **الأحكام السلطانية**، طبعة الحلبي، القاهرة، 1393هـ، ص5.

[5] عبد الرحمن محمد ابن خلدون (ت808هـ)، **المقدمة**، تحقيق وتعليق، عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، ط1، دمشق، 2004، 365/1.

الراجعة إليه، إذ أحوال الدنيا تُرجع كلُّها عند الشَّارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"، ويمكن تصنيف تعريف كل من الماوردي وابن خلدون ضمن النظرة السنية لمنصب الإمام أو الخليفة.

لقد اعتبر الفريق المؤيد لخلافة أبي بكر الصديق رضي الله – وهم الأغلبية الذين صاروا يمثلون الطائفة السنية – منصب الإمامة والخلافة من أعظم واجبات الدين التي لابدَّ على المسلمين إقامتها، وليست ركنًا من أركان الدين الإسلامي مثلما يعتقد الشيعة، فوجود خليفة للمسلمين في حياتهم أمرٌ ضروري إذ لا تتم مصلحتهم إلاَّ بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بدَّ لهذا الاجتماع من رأس يأتمروا له[1]، فيقول في هذا ابن حزم (ت456هـ)[2]:" اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأنَّ الأمة واجبٌ عليها الانقياد لإمامٍ عادل، يُقيمُ فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم".

كما لا يعتقد أهل السنة في الإمام أو الخليفة أو أمير المؤمنين – وهي كلها ألفاظ تطلق على الحاكم عند السنة – أي قدسية ولا يرون فيه أي خصوصية دينية، وأنَّهُ غير معصوم من الخطأ، وإنَّما يقع منه الخطأ والصواب، ويؤمنون بأنَّ الخليفة يجب أن يختاره الناس عبر الشورى والتراضي الحر ممن تتوفر فيه شروط الخلافة[3]، فالإمامة عندهم قضية مصلحية لا تمس بأصول العقيدة في شيء[4].

فهي في نظرهم رئاسةٌ دينية ودنيوية القصد منها، تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وسدُّ الثغور وتجهيز الجيوش وأخذ الصدقات، وقهر المفسدين، والفصل في المنازعات، وقسمة الغنائم، وغير ذلك من الأمور، ولا يشترط لأداء كل هذه الواجبات إمام معصوم –كقول الشيعة- ولكن يكفي أن يتحقق فيه من الصفات ما يُمكِّنُه من القيام بمسؤوليات الإمامة من الإسلام والحرية والذكورة والعقل والبلوغ والنسب،

---

(1) أبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي (ت429هـ)، **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم**، تح، محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ص300.

(2) **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، مكتبة السَّلام العالمية، 72/4.

(3) البغدادي، الفرق بين الفرق، 300، وأنظر، أبو حامد الغزالي (ت505هـ)، **فضائح الباطنية**، حققه وقدَّم له عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، ص142.

(4) القزويني أبو جعفر معز الدين محمد المهدي الحسيني، (ت1300هـ)، **قلائد الخرائد في أصول العقائد**، تح، جودت كاظم القزويني، مطبعة الإرشاد، 1972، ص93.، الغزالي، فضائح الباطنية، ص144-145.

والقدرة على التصرف في أمور المسلمين بقوة الرأي وحسن الروية، وأن يكون ذا بأسٍ وشوكة، قادرًا بعلمه وعمله وعدله وكفايته وشجاعته على تنفيذ الأحكام والمحافظة على الثغور ونصرة المظلوم.[1]

وأمَّا الإمامة عند الفريق الثاني – الذي أسس لاحقًا ما سمي بالحزب الشيعي أو العلوي- فهي أصلٌ من أصول الدين لا يتم الإيمان إلاَّ بالاعتقاد بها، وهي في نظرهم منصب إلهي بتعيين من الله تعالى عن طريق نبيه الذي يوصيه بالإمام بعده، ويحثُّ المسلمين على إتباعه وطاعته، حيث جاء في "أصول الكافي" للكليني[2] — وهو من أهم كتب الحديث في المذهب الشيعي- عدة أحاديث في هذا الاعتقاد بالإمامة ضمن باب" أنَّ الإمامة عهدٌ من الله عزَّ وجل معهود من واحدٍ إلى واحد" وباب "ما نصَّ الله عزَّ وجل ورسوله على الأئمة واحدًا فواحدًا".

ومن بين ما يرويه الكليني[3] في هذا الشأن عن الإمام جعفر الصادق- أحد أئمة آل البيت-، أنَّهُ قال:" ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبيٌ قط إلاَّ بها"، وروى أيضًا عن الإمام موسى بن جعفر الصادق أنَّهُ قال:" ولايةُ عليٍ مكتوبة في جميع صُحُف الأنبياء ولم يبعث الله رسولاً إلاَّ بنبوةِ محمد صلى الله عليه وسلم ووصية عليٍ رضي الله عنه".

وفي هذا أيضًا يذكر الزنجاني [4] – وهو أحد كبار علماء الشيعة-: "تعتقد الشيعة الإمامية الإثنا عشرية أنَّ الإمامة رئاسة في الدين والدنيا، ومنصب إلهي يختاره الله تعالى بسابق علمه ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يدُلَّ الأمة عليه، ويأمرهم بإتباعه".

وعليه فخلافة المسلمين أو إمامتهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم عندهم لا تكون لغير علي بن أبي طالب وأبنائه من بعده، فهي غير مطروحة لاختيار النَّاس وإنَّما تكون باختيار الله تعالى، فكما يختار رسله يختار أئمته ممن يشاء وينصبه للنَّاس عبر نبيه، وهم في ذلك يستندون لقول الله تعالى﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[5] وكذلك ما ورد على الرسول في حديث غدير خم

---

[1] البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 300-301، الماوردي، الأحكام السلطانية، ص6-7، سعد الدين التفتازاني (ت791هـ)، **شرح العقيدة النسفية**، تح، أحمد حجازي السقَّا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1408هـ/1988م، ص96-98،

[2] أصول الكافي، 201/1، 208.

[3] أصول الكافي، 276/1.

[4] السيد إبراهيم الموسوي، **عقائد الإمامية الإثني عشرية**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1393هـ، ص72.

[5] سورة النساء، آية59.

–الذي ذكرناه سابقًا– فيقول عن هذا المعنى محمد حسين كاشف الغطاء[1]:" وعرفت أنَّ مُرادهم بالإمامة: كونها منصبًا إلهيًا كالنبوة يختاره الله بسابق علمه بعباده، كما يختار النبي، ويأمر النبي أنَّ يدُلَّ الأمَّة عليه، ويأمرهم بإتباعه"

تعرض هذا الاعتقاد في الإمامة من طرف الشيعة إلى انتقاد شديد من طرف مخالفيهم السنيين وحتَّى من بعض الشيعة المعتدلين، فقد تعرض لها مثلاً العلامة الفقيه الشيعي موسى الموسوي[2] بالقول: "إننا لم نجد في أقوال الإمام علي بن الحسين الملقَّب بالسجَّاد أي عبارة تدلُّ على كون الخلافة إلهية، وبعد السجاد يأتي دور الإمام محمد الباقر، والذي في عهده بدأ يتبلور مذهب أهل البيت الفقهي الذي أكمله ابنه الإمام جعفر الصادق، فنحن لا نجد أثرًا لفكرة الخلافة الإلهية في عهدهما ولا في عهد أئمة الشيعة الأخرى حتَّى الغيبة الكبرى".

وانطلاقًا من هذا الاعتقاد في منصب الإمامة فقد رسم الشيعة على الأئمة من علي بن أبي طالب إلى الإمام المنتظر (وهم اثنا عشر إمامًا)[3] صورًا من القداسة بل والغلو في التقديس والتعظيم ما يخرج هؤلاء الأئمة عن الصفة البشرية، فقد أورد القاضي النعمان[4] – فقيه الدولة الفاطمية الشيعية– عدَّة أقوال منسوبة إلى جعفر بن محمد بن علي بن الحسين تبرز تلك المكانة القدسية جاء فيها: "بنا يُعبدُ الله، وبنا يُطاع الله، وبنا يُعصى الله، فمن أطاعنا فقد أطاع الله، ومن عصانا فقد عصى الله، سبقت طاعتنا عزيمةٌ من الله إلى خلقه، أنَّهُ لا يقبل عملاً من أحدٍ إلاَّ بنا، ولا يرحم أحدًا إلاَّ بنا، ولا يعذب أحدًا إلاَّ بنا، فنحن باب الله وحجتهُ، وأمناؤه على خلقه، وحفظةُ سرِّه، ومستودعُ علمه، ليس لمن منعنا حقنا في ماله نصيب".

كما ويذكر آية الله الخميني (ت1409هـ/1989م)[5] وهو أحد أبرز علمائهم في العصر الحديث عن منزلة الأئمة ومكانتهم بالقول:" إنَّ للإمام مقامًا محمودًا ودرجةً سامية وخلافةً تكوينية تخضع لولايتها

---

[1] أصل الشيعة وأصولها، ص221.

[2] الشيعة والتصحيح، ص45.

[3] وقد اختلفت اتجاهات الشيعة وتباينت مذاهبهم في عدد الأئمة فقال بعضهم خمسة، وبعضهم سبعة، وبعضهم ثمانية، وبعضهم اثنا عشر، وبعضهم ثلاثة عشر، وأقوالهم في هذا الأمر كثيرة، وللإطلاع على هذه الفروق راجع كتب الفرق عند الشيعة، كالمقالات والفرق للقمي وفرق الشيعة للنوبختي ومسائل الإمامة للناشئ الأكبر والأمل للمرتضى.

[4] دعائم الإسلام، 57/1-58.

[5] **الحكومة الإسلامية**، ط3، 1389هـ، ص52.

وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، وأنَّ من ضروريات مذهبنا أنَّ لأئمتنا مقامًا لا يبلغهُ ملكٌ مقرب ولا نبي مُرسل".

كما وأورد الكليني[1] عدَّة أحاديث في تقديس الأئمة والغلو في منزلتهم، منها ما صاغه تحت باب " أنَّ الأرض كلها للإمام"، عن أبي عبد الله أنَّهُ قال:" إنَّ الدنيا كلُّها للإمام "، وعن أبي عبد الله أنَّهُ قال:" إنَّ الدنيا والآخرة للإمام يضعها حيثُ يشاء ويدفعها إلى من يشاء".

لم يتوقف اعتقاد الشيعة في الإمامة والأئمة عند هذا الحد، فقد قالوا بعصمة الأئمة وغيبتهم ثم رجعتهم إلى الحياة وظهورهم قبل الرجعة في أزمنة يحددونها هم وأمور كثيرة وغريبة ليس هذا مقام الحديث عنها[2]، وقد صاغوا الكثير من الروايات والأحاديث التي احتجوا بها على هذا الاعتقاد، ليصبح أمر الإمامة عندهم الأصل الذي تدور عليه أحاديثهم وترجع إليه عقائدهم، وتلمس أثره في فقههم وأصولهم وتفاسيرهم وسائر علومهم، وصار الإيمان بإمامة علي وذريته أساس الدين وأصله المتين، ولا يصح الاعتقاد في الإسلام إلاَّ بالإيمان بذلك.[3]

قاد هذا التناقض في الاعتقاد بمنصب خلافة النبي صلى الله عليه وسلم بين السنة والشيعة إلى اختلاف التصور حول فترة الخلافة الراشدة التي تولى فيها أربعة من صحابة رسول الله وهم من المبشرين بالجنة أمر رئاسة الأمة الإسلامية فكانوا على التوالي أبا بكر الصديق 11هـ-13هـ وعمر بن الخطاب 13هـ-23هـ، ثم عثمان بن عفَّان 23هـ-35هـ، ليليه علي بن أبي طالب 35هـ-40هـ.

رأى السنيون أنَّ خلافة هؤلاء الأربعة بهذا الترتيب خلافة سياسية شرعية، لأنَّ الأمة اجتمعت على اختيارهم ومبايعتهم بيعة رضى وتوافق طوعي بلا جبر ولا قهر ودون وراثة ملكية[4]، بينما رأى الشيعة وخاصةً فرقتي الإمامية والإسماعيلية أنَّ خلافة الثلاثة الأوائل غير شرعية وهي مناقضة لجوهر العقيدة النَّاص

---

[1] أصول الكافي، 1/307-308.

[2] للمزيد من الإطلاع حول عقائد الشيعة في الإمامة والأئمة من بيت علي راجع، ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ص6 وما بعدها، وأنظر، سليمان عبد الله السلّومي، **أصول الإسماعيلية –دراسة – تحليل – نقد –**، دار الفضيلة، ط1، الرياض، 2001، ص 122-149.

[3] ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، **أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية**، أصل الكتاب رسالة دكتوراه، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 1993، ص 653- 666، محمد عبد الله عنان، **الحاكم بأمر الله الفاطمي وأسرار الدعوة الفاطمية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الرفاعي، الرياض، ط3، 1404هـ/1983م، ص262.

[4] التفتازاني، شرح العقيدة النسفية، ص95.

على الأخذ والالتزام بالوصية التي تركها الله لنبيه بتولية علي بن أبي طالب وذريته الخلافة بعده، فعَدُّوهم مغتصبون للسلطة وخائنون لأمانة الله ونبيه وضالون عن الهدى[1].

أخذ ذلك الموقف من بعض فرق الشيعة[2] اتجاه الخلفاء الثلاثة وصحابة رسول الله عامةً في التطور وفق تعصبهم للاعتقاد بمنصب الإمامة، فتحوَّل الطعن واللعن والسبُّ في شخصهم وفي فترة حكمهم جزءً أساسيًا في الإيمان الشيعي[3]، خاصةً في الأزمنة التي استحكم فيها التشيع سياسيًا (كالعهد البويهي والفاطمي)، فلم يكن وقتها بمقدور الشخص ذكر الصحابة بخير لأنَّ مصيره كان القتل السريع، ولذلك قيل: "من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ[4] بالكوفة وليقل رحم الله عثمان"[5].

وقد شذَّ عن هذا الاعتقاد في الخلافة الراشدة فرقة من الشيعة وهي الزيدية حيث قالت بشرعية حكم الخلفاء الثلاثة مع التمسك بأفضلية رابعهم علي بن أبي طالب، وعليه فهذه الفرقة الشيعية التي تنتسب لزيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب متسامحة في قضية الإمامة، ويقولون بجواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل[6].

ومهما يكن من أمر فإنَّ سير الأحداث بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم جرت على نحو مخالف لموقف الشيعة ونظرتهم لقضية الإمامة، فقد تولى علي رضي الله عنه الحكم بعد أربع وعشرين سنة من وفاة النبي، وذلك لمدة خمس سنوات شهدت فيها الأمة الإسلامية أشدَّ مراحل الاضطراب والفوضى (معركتي صفين والجمل)، لتنتهي فترة حكمه بمقتله على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم سنة 40هـ/660م[7].

---

(1) أبي الحسن الأشعري (ت330هـ)، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلِّين**، تح، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990، 88/1-89.

(2) سميت فرق الشيعة الرافضة لحكم الخلفاء الثلاثة "بالرافضة"، ومنهم الإسماعيلية والإثني عشرية والدرزية والنصيرية والزيدية الجارودية، ويشذ عن هذا الأمر الزيدية البترية والزيدية السليمانية باليمن فهم لا يسبون الصحابة، أنظر، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص41-42.

(3) أنظر، سليمان عبد الله السلّومي، أصول الإسماعيلية، ص149 ومابعدها.

(4) دار البطيخ، محلة كانت ببغداد كان يباع فيها الفواكه، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 419/2.

(5) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1995، 10/17.

(6) الشهرستاني، الملل والنحل، ص179-180.

(7) الأصفهاني أبي الفرج (ت356هـ)، **مقاتل الطالبيين**، شرح وتح، السيد أحمد صقر، منشورات الشريف الرضي، ط2، 1416هـ، ص48.

انتقل السلطان بعد ذلك لصالح بني أمية بعد تنازل الحسن بن علي رضي الله عنه على الحكم لمعاوية بن أبي سفيان سنة 41هـ/662م، لكن ذلك لم يُخمد مطالب الشيعة في حقهم الإلهي بالإمامة –كما يعتقدون–، فعاودوا المطالبة بذلك الحق من خلال الحسين بن علي رضي الله عنه، بعد أن جعل معاوية الحكم في أسرته بتولية ابنه يزيد سنة 60هـ/680م، غير أنَّ النتيجة كانت دامية بمقتل الحسين بن علي في فاجعة كربلاء على يد جيوش يزيد بن معاوية سنة 60هـ/680م[1].

كان لمقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما أبلغ الأثر على حركة التشيع خصوصًا ووحدة الصف الإسلامي على العموم، فقد زادت تلك الفاجعة من حماسة الشيعة في المطالبة بحق إمامة ذرية علي بن أبي طالب، مستغلين الاضطهاد الذي لاقاه أبناء البيت العلوي على يد خلفاء بني أمية وولاتهم في الأقاليم المختلفة لشحن الأتباع والمؤيدين لفكرة شرعية أئمتهم.

استمر الحزب الشيعي في حركته المعارضة لحكم بني أمية، وسعى من خلال بعض أبناء البيت العلوي للإطاحة بذلك الحكم كحركة محمد بن علي بن أبي طالب الملقب بابن الحنفية (ت83هـ/702م)[2]، وقد كان هذا الحزب قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ذلك المبتغى من خلال شخصية أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية العلوي (ت98هـ/717م)[3] الذي استطاع وضع تنظيم سري لحركته المعارضة التي أخذت تتوسع وتنتشر مع الوهن والاضطراب الذي كان يصيب الدولة الأموية في أواخر سنوات عمرها[4].

---

[1] الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص84- 85.

[2] هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه المعروف بابن الحنفية، أمُّهُ الحنفية خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة ابن الدول بن حنيفة بن لجيم، ويقال كانت من سبي اليمامة، ويكنى بأبي القاسم، يقال أنَّها رخصةٌ من الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد كان محمد كثير العلم والورع، شديد القوة، وله في ذلك أخبار عجيبة، وكانت ولادته لسنتين بقيتا على خلافة عمر (21هـ) وتوفي في أول محرم سنة إحدى وثمانين للهجرة، وقيل سنة ثلاث وثمانين وقيل سنة اثنتين أو ثلاث وسبعين بالمدينة، والفرقة الكيسانية تعتقد بإمامته، ولما توفي انتقلت الإمامة إلى ولده أبي هاشم عبد الله، أنظر المزيد من ترجمته، في ابن خلكان، وفيات، 169/4-173، الذهبي، العبر، 68/1، سير أعلام النبلاء، 110-129.

[3] هو عبد الله بن محمد بن الحنفية، الإمام أبو هاشم الهاشمي العلوي المدني، روى عن أبيه حديث تحريم المتعة، وكان صاحب الشيعة، فأوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ودفع إليه كتبه ومات عنده، وانقرض عقبه، وأمُّه أم ولد، قال ابن سعد:"كان ثقةً قليل الحديث وكانت الشيعة تنتحله، ولما احتضر أوصى إلى محمد بن علي وقال: أنت صاحب هذا الأمر، وهو في ولدك، وصرف الشيعة إليه، وأعطاهُ كتبهُ مات في خلافة سليمان بن عبد الملك، توفي سنة ثمانٍ وتسعين، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 129/4-130.

[4] خالد عزام، **موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر العباسي)**، دار أسامة، عمان، الأردن، د ت، ض7-8، عبد العزيز الدوري، **العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي**، دار الطليعة، ط3، بيروت، لبنان، 1997، ص20-21.

غير أنَّ الأمور بعد وفاته سارت بشكل غير متوقَّع، فانتقلت تلك الحركة إلى شخصية هاشمية من بيت العباس بن عبد المطلب، وهو محمد بن علي العباسي، الذي خرج من نسله من أسس الدولة العباسية (أبو العباس محمد بن علي السفاح) سنة 132هـ/750م المحسوبة على الاتجاه السني ما دام أنَّ الحكم خرج عن البيت العلوي[1].

واصل أنصار البيت العلوي (الشيعة) في ظل حكم دولة آل العباس مساعيهم لإسقاط حكم مخالفيهم ممن يعترضون على الأحقية الشرعية لذرية علي بن أبي طالب في إمامة المسلمين، فانتقلوا خلال هذه المرحلة إلى اتخاذ أساليب أكثر تشدد وتطرف من خلال تأسيس نظام اعتقادي خاص ومغلق، مناقض بشكل كبير لمخالفيهم السنيين، وقائم كلُّه على أساس رد حق الإمامة لأهله، أي أنَّ قضية إمامة علي وذريته كانت المحور الذي انبنى حوله ذلك النظام الإعتقادي، وسعى عن طريقه لمحاربة خلفاء العباسيين ومن يدعمهم ويدافع عن شرعيتهم الدينية من القوى السياسية التي نشأت في ظل حكمهم كالسلاجقة والغزنويين والزنكيين والأيوبيين وغيرهم.

3-الاعتقاد الطائفي كمرحلة متقدمة عن الخلاف السياسي:

لقد أفضى ذلك التناقض في تفسير الإمامة (الخلافة) بين المنصب السياسي والمنصب الديني داخل الجماعة الإسلامية، إلى بروز تيارين فكريين شكلا في مراحل متقدمة من عمر الدولة الإسلامية مدرستين اعتقاديتين تختلفان في كثير من أمور العقيدة والتفسير والفقه والحديث، فعلى الرغم من أنَّ أصل الخلاف ثُمَّ الانقسام داخل الجماعة الإسلامية ابتدأ سياسيًا –كما أشرنا سابقًا– واستمر كذلك في عهد الخلافة الراشدة والعهد الأموي، إلاَّ أنَّهُ اتخذ في العهد العباسي منحًا مغايرًا تبلور في صيغة مدرستين اعتقاديتين متوازيتين.

حيث يقول عن هذا التحول محمد بن المختار الشنقيطي[2]: "فقد كان من أهم الظواهر الثقافية التي ظهرت في العصر العباسي الأول أن تحوَّل التشيع من رؤية سياسية إلى بنية اعتقادية وتحوَّل التسنن من فضاء مفتوح من الأفكار والقيم إلى نظام اعتقادي مغلق محدد المعالم والحدود"، كما نقل الشنقيطي هذه

---

[1] حول قيام الدولة العباسية وانتقال الدعوة من البيت العلوي إلى البيت العباسي راجع، عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، ص21- 35، محمد سهيل طقوش، **تاريخ الدولة العباسية**، دار النفائس، ط7، بيروت، 1430هـ/2009م، ص18- 27.

[2] أثر الحروب الصليبية، ص85.

الرؤية عن هودغسون[1] الذي قال:" الشيعة لم تكن يومذاك طائفة ولا كان هناك انشطار للإسلام بين تشيُّع وتسنُّن، فالشيعة والعثمانية[2] كانا مجرد موقفين من قضية الإمامة، لا انشطارًا شاملاً في صف المؤمنين".

لم تتوقف هوة الاتساع بين الفريقين المتنازعين على الشرعية عند حد التحّول إلى نظام اعتقادي مغلق، ولكنَّ سعي كل طرف لفرض ما يراه أحق بالإتباع على الأمة –وفق ذلك النظام الإعتقادي– دفعهما للعمل على تأسيس كيانات سياسية تحقق لهما الوجود الفعلي على الأرض ككيان له معالمه المحددة لا على المستوى الداخلي الإسلامي فحسب وإنَّما لضمان التحرك على المستوى الخارجي بعقد الاتفاقيات والمعاهدات والتحالفات مع القوى الأجنبية كالبيزنطيين والصليبيين والمغول لتحقيق الأهداف المذهبية المرجوة [3].

فيقول في هذا الصدد الدكتور موسى لقبال[4]: ولما كان هدف إسقاط الخلافة العباسية بالنسبة للإسماعيلية "لا يتحقق إلاَّ في ظل نظام سياسي علوي قار، يكون في منطقة ما من بلاد المشرق أو في إقليم وثيق الصلة بها، مثل مصر، فقد اتجهت العناية في المرحلة الأولى من التوسع، على حساب العباسيين، لتحقيق الهدف، نحو تأسيس أنظمة سياسية في الأطراف، حيث تكون هذه بعيدة عن مركز الثقل العباسي".

وإن كان أمر تأسيس الكيانات السياسية قد حُسم عند السنيين قبلاً بحكم استئثارهم بالسلطة طيلة فترة الخلافة الراشدة –ماعدا فترة حكم علي بن أبي طالب– إضافةً إلى فترة الحكم الأموي (41هـ-132هـ/661م-749م) وما تلاها من حكم العباسيين (132هـ-656هـ/749م-1258م)، فإنَّ الشيعة الساعين لأخذ السلطة لهم باعتبار أنَّ إمامهم هو الإمام الشرعي للمسلمين قد تمكَّنوا أخيرًا من

---

[1] نفسه، ص85.

[2] ويقصد هودغسون بالعثمانية الاتجاه السني الذي مثله الأمويين المطالبين بدم عثمان بن عفَّان في مقابل الشيعة وهم أنصار علي بن أبي طالب وأهل بيته، ثمَّ عمم المصطلح ليشمل الطائفة السنية عامة.

[3] راجع على سبيل المثال العلاقات الدبلوماسية بين القوى الإسلامية من عباسين وفاطميين وأمويي الأندلس والدولة البيزنطية، سليمان الرحيلي، **السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية**، مكتبة التوبة، الرياض، 1414هـ، عمر كمال توفيق، **الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين**، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1986.

[4] موسى لقبال، **أهداف الدعوة الإسماعيلية في مصر وبلاد المشرق الإسلامي**، مجلة المؤرخ العربي، تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد الأول، بغداد ص221.

تأسيس قوى سياسية متمذهبة على عقيدتهم، فكان أن أسس إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بأبي طالب دولة الأدارسة في المغرب الأقصى سنة 172هـ/788م[1].

ولكن المدرسة السنية الممثلة وقتها في الخلافة العباسية أدركت أنَّ ذلك الانتقال في نشاط المعارضة الشيعية إلى خلق قوى سياسية تنافسها السلطان، سيكون لها وقعٌ على مصيرها السياسي واعتقادها المذهبي على السواء، فقام لأجل ذلك الخليفة هارون الرشيد (170هـ-193هـ/786م-808م) بإقطاع أفريقية لإبراهيم بن الأغلب[2] بغية تأسيس كيان سياسي تابع للخلافة السنية ببغداد، وتكليفه بمهمة الذود عن العقيدة السنية وحمايتها من مد الفكر الشيعي المعارض[3].

كما تمكنَّ الحزب الشيعي في العقد الأخير من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي من تأسيس دولة أخرى ببلاد المغرب كذلك وهي الدولة الفاطمية الإسماعيلية المذهب (297هـ/909م) والتي امتدت بالموازاة مع الضعف الذي انتاب الخلافة العباسية –حامية الاعتقاد السني- إلى مصر وبلاد الشام وسعت للإطاحة بالحكم السني في عاصمة حكمه ببغداد في أكثر من مناسبة، ليستفحل بروز الدول الشيعية خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي والنصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

فأسس بنو بويه (334هـ- 447هـ/944م-1055م) – وهم شيعة زيدية - دولةً في قلب الخلافة السنية ببغداد استأثروا من خلالها على السلطان وتحوَّلت معهم الخلافة العباسية في كثير من الأحيان لمجرد سلطة رمزية صورية لا وزن لها، ومن خلال هذه الدولة فشا التشيع بالعراق وانتشرت بأرجاء الخلافة الكثير من مظاهر الاعتقاد الشيعي التي كانت غائبة خلال العصر العباسي الأول (عصر قوة الخلافة السنية)[4]، وسنعود للحديث في الفصل الثاني من هذه الدراسة عن أثر ذلك الاختلاف المذهبي في بغداد زمن الحكم البويهي على العلاقات السياسية بين السلطتين.

---

[1] راجع حول هذه الدولة العلوية، محمود إسماعيل، **الأدارسة 172هـ-375هـ**، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 1991، 55 وما بعدها.

[2] هو ابراهيم بن الأغلب التميمي، أمير المغرب، دخل القيروان، فبايعوه وانضمَّ إليه خلقٌ فأقبل يلاطفُ نائب القيروان هرثمة بن أعين، فاستعمله على ناحية الزَّاب، فضبطها، وآخر أمره استعمله الخليفة العباسي هارون الرشيد على المغرب فعظم أمره وأحبَّهُ أهلها، كان فصيحًا خطيبًا شاعرًا ذا دين وفقه وحزمٍ وشجاعةٍ وسؤدد، بنا مدينة سمَّاها العبَّاسية، ومهَّد المغرب، مات في شوال سنة ستّ وتسعين ومئة، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 9/128-129.

[3] الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص409،

[4] حول قيام الدولة البويهية وسيطرتها على السلطة الزمنية ببغداد ومساعيها في نشر المذهب الشيعي في أرجاء الخلافة العباسية، أنظر، ابن ابن الأثير (ت630هـ)، **الكامل في التاريخ**، راجعه وصحَّحهُ، محمد يوسف دقاق، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1987، 7/205-207،

إضافةً إلى ذلك فقد تمكن الإمامية الإثنا عشرية وهي أكبر الفرق الشيعية من إقامة كيانات سياسية ببلاد الشام مستغلةً صعود التشيع كقوة سياسية وسيطرته على أهم عاصمتين إسلاميتين وقتذاك وهما بغداد والقاهرة، الأولى تحت نفوذ بني بويه والثانية بتأسيس من الفاطميين، فأسس كل من الحمدانيين والمرداسيين والعقيليين وبنو عمار إمارات في حلب والموصل وطرابلس ساهمت في زيادة الاحتقان المذهبي بين السنيين والشيعيين[1].

ومهما يكن من أمر فإنَّ ذلك التسابق المحموم في الاستقواء السياسي بين السنة والشيعة لم يكن سوى محصلة للاعتقاد الطائفي المغلق والمتعصِّب والساعي للتغلب والتمكُّن من منطلق الشرعية، فالقوى الإسلامية خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي كانت في غالبها إن لم تكن كُلُّها متخندقة مذهبيًا ضمن إحدى الطائفتين المفترقتين بسبب قضية الأحقية في خلافة المسلمين، وهو ما خلق وضعًا مضطربًا بالمشرق الإسلامي في فترة كانت خلاله الوحدة والاعتصام أكثر من ضرورة.

ثانيًا: المذاهب والفرق الإسلامية:

عرفنا فيما سبق أنَّ الجماعة الإسلامية افترقت بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى طائفتين متناقضتين بسبب قضية إمامة المسلمين وخلافتهم، ورأينا أن ذلك الافتراق لم يكن ظرفيًا أو في قضية فرعية من قضايا الدين – على الأقل لدى إحدى الطائفتين–، فأدَّى ذلك إلى تميُّز كل طائفة عن الأخرى بتسمية تُشير إلى اعتقادها ونظرتها للقضية الجوهرية في الخلاف وهي الإمامة أو الخلافة.

فالشيعة – كما بيَّنَّا سابقًا وسنفصل لا حقًا– سمُّوا بهذا الاسم لمشايعتهم ونصرتهم علي بن أبي طالب وذريته من بعده في قضية أحقيته بالإمامة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى الرغم من أنَّ المصطلح – شيعة– يُمكن أن يُطلقَ على أي مناصر ومساند لطرف ما إلاَّ أنَّهُ صار مرتبطًا عبر الزمن بمن ناصر عليًا وآله، لاستمرارية مطالب هذه الطائفة في الزمن، وتركيزها على عقيدة الإمامة في علي وأبنائه، ليصير هذا المصطلح حكرًا عليها – إن صحَّ التعبير–[2].

أمَّا الطائفة المناقضة لفكر الشيعة والتي اتخذت موقفًا مُغايرًا من قضية الإمامة، كان لابُدَّ أن تتميَّز هي الأخرى باسم يخصُّها ويبرز موقفها وعقيدتها من تلك القضية وما تفرع عنها بعد ذلك، فسمُّوا بأهل

---

[1] حول هذه الإمارات الشيعية محمد مرسي الشيخ، **الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، فرع الإسكندرية، 1980.

[2] عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، ص19.

السنة والجماعةّ، يقول في ذلك ابن تيمية[1]:" فلفظ أهل السنة يُرادُ بهِ من أثبت خلافة الخُلفاء الثلاثة، فيدخلُ في ذلك جميعُ الطوائف إلاَّ الرافضة (الشيعة)".

1- مذاهب أهل السنة:

السنة في اللغة هي السيرة، حسنةً كانت أم قبيحة، وهي مأخوذة من السنن وهي الطريق،[2] أي أن أهل السنة هم الذين يقتفون سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم انطلاقًا من كتاب الله وما ورد في السنة النبوية من أحاديث رواها الكثير من الرواة والمحدثين[3]، وأمَّا في الاصطلاح فهي تطلق على عدَّة معانٍ، من بينها ما يذكره ابن حزم[4]:" أهل السنة الذين نذكرهم أهل الحق ومن عداهم فأهل البدعة، فإنَّهم (أي أهل السنة) الصحابة رضي الله عنهم وكل من سلك بنهجهم من خيار التابعين رحمهم الله ثُمَّ أصحاب الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم".

ويكفينا هنا تعريف ابن الحزم الذي يشاركه فيه كثير من المؤرخين وكُتَّاب الفرق،[5] لنعرف مدى الاختلاف بين الطائفتين المفترقتين على قضية الإمامة ونظرتها للصحابة وخاصة الخلفاء الثلاثة (أبوبكر وعمر وعثمان)، فالتناقض وفق ما ذكرنا هي السِّمة المميزة لفكر وعقيدة كل طائفة.

وعلى أية حال فإنَّ أهل السنة والجماعة الذين عُرفوا في التاريخ الإسلامي بأنَّهم الجمهرة الكبرى من أهل الإسلام، قد حدث داخل طائفتهم انقسام أدَّى إلى ظهور أربع مدارس فقهية هي (الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة)، وقد كان بين تلك المدارس اتفاق في الأصول واختلاف في الفروع ولا يوجد بينها خلاف في العقيدة[6].

---

[1] ابن تيمية، **منهاج السنة النبوية**، تح، محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، الرياض، 1986، 221/2، وراجع، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص300-301.

[2] ابن منظور، لسان العرب، (مادة سنن)، 225/13.

[3] راجع تعريف أهل السنة والجماعة بكثير من التفصيل في كتاب، أحمد بن عبد العزيز الحصين، موسوعة ماذا تعرف عن الفرق والمذاهب، 440/1 وما بعدها.

[4] الفصل في النحل والملل والأهواء، 113/2.

[5] راجع مثلاً، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص272 وما بعدها، ابن تيمية، منهاج السنة، 221/2.

[6] أحمد تيمور باشا، **المذاهب الفقهية الأربعة وانتشارها عند جمهور المسلمين**، دار القادري، ط1، بيروت، 1990، ص6.

ولعلَّ أساس الاختلاف بين هذه المدارس هو نظرتهم للتشريع والحكم في مختلف القضايا التي تهم المسلمين في حياتهم، وكذا موقفهم من الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدى الأخذ بالضعيف منها ومدى إعمان الرأي في تلك المسائل، فبرز على هذا النحو من التفكير مدرستين فقهيتين سنيتين كبيرتين إحداهما سميت بمدرسة الرأي وأتباعها بأهل الرأي، والثانية سميت بمدرسة الحديث وأتباعها بأهل الأثر أو الحديث[1].

رأى أصحاب مدرسة الرأي أنَّهُ لا ضير في الاستعانة بالرأي في القضايا والمسائل التي لا يجدوا عنها إشارة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فيُجتهدُ في تعرُّف المصلحة التي لأجلها نزلت الآية أو ذكر فيها الحديث، ثُمَّ يسترشدُ بتلك المصلحة في إصدار الأحكام، فلا يُسقطُ مقصود الآية أو الحديث في جميع المواقف، بل يُتحرَّى المصلحة وظروف الزمان والمكان دون الإخلال بالمعنى الصريح بغية تعطيل أحكام كتاب الله والسنة، وقد انتشر هذا النهج من التفكير في القرنين الثاني والثالث للهجرة/الثامن والتاسع الميلاديين، وكان أكبر موطن له العراق، حتَّى أنَّ أسد بن الفرات قال:" قدمت على الإمام مالك بن أنس، وكان أصحابهُ يجعلونني أسألهُ عن المسألة فإذا أجاب يقولون قل له فإذا كان كذا، فأقول له فضاق علي يومًا وقال:" هذه سليسلة بنت سليسلة إن أردت هذا فعليك بالعراق"[2].

عارض هذا الفريق من المسلمين فريقٌ أخر سموا بأهل الحديث، رأوا أنَّهُ لا يجوز الإفتاء والرد على المسائل إن لم يكن فيها نصٌ صريح من الكتاب والسنة النبوية، أي لا ينبغي إبداء الرأي فيها، فقد حدث أن جاء رجلٌ إلى سالم بن عبد الله بن عمر وسأله، فقال: لم أسمع في هذا شيئًا فقال له الرجل: فأخبرني أصلحك الله برأيك فقال سالم: أنَّي؟ لعلِّي أخبرتك برأيي فتذهب فأرى بعد ذلك رأيًا غيره فلا أجدك[3].

ويرون بأن ما جاء في الأحاديث وإن ثبت ضعفها فهي الأولى بالأخذ من الرأي، فيُروى عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنَّه قال: سألت أبي عن الرجل يكون ببلد لا يجد فيه إلاَّ صاحب حديث لا يعرف

---

(1) أحمد الشرباصي، **الأئمة الأربعة (أبو حنيفة، مالك بن أنس، الشافعي، أحمد بن حنبل)**، دار الهلال، د ط، دت، ص 5-12.

(2) أبوزيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت696هـ)، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تع، أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تح، محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي بمصر، مكتبة العتيقة بتونس، 2/5-6، أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت790هـ)، **الموافقات**، ضبط نصَّه وقدَّم له وعلَّق عليه، أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفَّان، ط1، المملكة العربية السعودية، 1997، 400/5.

(3) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم الجوزية أبو عبد الله (ت751هـ)، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تح، مشهور بن حسن آل سلمان أبو عبيدة، دار ابن الجوزي، ط1، المملكة العربية السعودية، 1423هـ، 88/1.

صحيحه من سقيمه وأصحاب رأي، فتنزل النازلة، فقال أبي: يسأل أصحاب الحديث ولا يسأل أصحاب الرأي، ضعيف الحديث أقوى من صاحب الرأي[1].

تركَّز أصحاب هذه المدرسة بالحجاز موطن الوحي ونواة الدولة الإسلامية، والأسباب في ذلك بيِّنة بحكم مخالطتهم للنبي وأصحابه والتابعين، فتميَّزوا بكرههم الشديد لإعمال الرأي وتفريع المسائل، واعتمدوا في إصدار الأحكام على ما جاء في القرآن الكريم والأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم حتّى الضعيف منها، فيتساهلون في شروط الأخذ به عكس أصحاب الرأي[2].

قامت بين هذه المدرستين المتنازعتين مدرسة سعت إلى تقريب هوة الخلاف بينهما، فجمعت بين الرأي والحديث، بحيث لا تُعْمل الرأي إلاَّ بشروط أهمها انعدام وجود نص في المسألة، ومن أبرز أعلام هذه المدرسة الإمامان الفاضلان مالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعي[3]، وقد ارتقت هذه المدرسة بفكرة الرأي ونظَّمتها ووضعت لها قواعد وشروطًا وسمته بـ " القياس" فكان لذلك أثر بالغ فيما يتعلق بمسائل التشريع الإسلامي[4].

وفيما يلي عرض للمدارس الفقهية السنية الأربعة التي حافظت على حضورها في الزمن،[5] والتي كان منشؤها وفق الاختلاف في منهج التفكير الذي عرضناه سابقًا.

1-1 الأحناف:

وهو أقدم المذاهب الأربعة، وصاحبه هو النعمان بن ثابت العالم الفاضل والفقيه المحقق، الذي ولد بالكوفة في سنة ثمانين للهجرة (80هـ/699م) والمتوفى في بغداد سنة (150هـ/767م) على الأصح،

---

(1) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقّعين، 88/1.

(2) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط، القاهرة، 2011، ، ص264- 265.

(3) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص266.

(4) وحدة البحث العلمي بإدارة الإفتاء، **المذاهب الفقهية الأربعة أئمتها – أطوارها – أصولها – آثارها**، راجعه، أحمد الحجي الكردي وآخرون، إدارة الإفتاء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، 1436هـ/2015م، ص73-74.

(5) كان هناك مذاهب فقهية أخرى غير هذه الأربع لكنَّها لم تنتشر ولم يحصل لها الاشتهار ولم يكتب لها البقاء مثل هذه المذاهب الأربعة ومنها، مذهب سفيان الثوري (ت161هـ) بالكوفة والحسن البصري (ت110هـ) بالبصرة والأوزاعي (ت157هـ) بالشام والأندلس وغيرهما، وابن جرير الطبري (ت310هـ) وأبي ثور ببغداد (ت240هـ) وداود الظاهري (ت270هـ) في كثير من البلدان وغير ذلك من مذاهب فقهاء الأمصار، أنظر، أحمد تيمور باشا، المذاهب الفقهية، ص 28-30، آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، تر، محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1359هـ/1940م، ص347-349.

وكان منشأ هذا المذهب بالكوفة موطن الإمام ثم انتشر في سائر بلاد العراق، ويقال عن أصحابه ومتبعيه أهل الرأي[1].

وقد كان أبو حنيفة عالما وعاملاً زاهدًا عابدًا ورعًا تقيًا كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله، وله مقام في الفقه لا يُلحق بشهادة أهل جلدته وفي مقدمتهم مالك والشافعي، فقد قيل لمالك بن أنس: هل رأيت أبا حنيفة؟ فقال: نعم، رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته[2]، ويؤثر عن الشافعي قوله: "الناس عيال على هؤلاء الخمس، فمن أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة ومن أراد أن يتبحَّر في الشعر فهو عيال على زهير بن أبي سلمى، ومن أراد أن يتبحَّر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق ومن أراد أن يتبحَّر في النحو فهو عيال على الكسائي، ومن أراد أن يتبحَّر في التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان"[3].

يتلخص منهج التفكير عند الحنفية فيما أورده صاحب مذهبهم بقوله:" آخذ بكتاب الله تعالى فما لم أجد فبسنة رسول الله صلى لله عليه وسلم، فما لم أجد في كتاب الله وفي سنة الرسول أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت منهم، وأدع من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم"[4]،

---

[1] أنظر ترجمته في، الزهري، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري (ت 230هـ/368م)، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، 368/6، 322/7، الخطيب البغدادي (ت463هـ)، **تاريخ مدينة السَّلام وأخبار محدِّثيها وذكر قطَّانها العلماء من غير أهلها ووارديها**، تح وتع، بشَّار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2001، 444/15 وما بعدها، ابن الأثير، الكامل، 549/5، 585، ابن خلكان (ت681هـ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978، 405/5، الذهبي(ت748هـ)، **سير أعلام النبلاء**، تح، شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1982، 390/6-391، الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، تح، أبو هاجر محمد السعيد بن بيسوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 314/1، اليافعي (ت768هـ)، **مرآة الجنان وعبرة اليقضان**، وضع حواشيه، خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، 309/1، ابن كثير (ت774هـ)، **البداية والنهاية**، تح، عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط1، 1998م، 107/10، ابن تغري بردي (ت874هـ)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، قدم له وعلّق عليه، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1992، 12/2، ابن عماد الحنبلي (ت1089هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح، عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط1، 1989، 227/1-229.

[2] البغدادي، تاريخ بغداد، 463/15، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 409/5.

[3] البغدادي، تاريخ بغداد، 474/15-475، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 403/6، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 409/5.

[4] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 368/13،

ويقول أيضا:" إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذنا به، وإذا جاءنا عن الصحابة تخيَّرنا، وإذا جاءنا عن التابعين زاحمناهم"[1].

1-2 المالكية:

يُنسب هذا المذهب إلى الإمام مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي، إمام دار الهجرة وعالم أهل الحجاز، المولود سنة 93هـ/711م والمتوفى سنة 179هـ/795م، ويعتبر ثاني المذاهب الفقهية السنية في القدم (بعد الحنفي) ويقال لأصحابه أهل الحديث[2]، وقد اختص إمامه بمصدر آخر لاستصدار الأحكام في مختلف المسائل غير ما تبناه من سبقه وهو عمل أهل المدينة، ولعل ما يفسر لنا هذا الأمر هو محبته الشديدة للمدينة واستمساكه بالإقامة بها، حتَّى أن الملوك من بني العباس لما كانوا يرسلون إليه يطلبونه في المجيء إلى العراق كان يعتذر ويرجئ اللقاء إلى موسم الحج، فيفدون هم إليه ويقول في ذلك: المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون[3].

لم يحاول الإمام مالك الإسهام في السياسة برأي أو حكم إلا في نطاق الشريعة، مما عرضه للأذى بسبب ذلك شأنه شأن الإمام أبي حنيفة، وكان يرى في حكم الأمويين والعباسيين خروجا عن مبدأ الشورى الذي أقره الإسلام في الحكم، وشبههما بالحكم الملكي زمن الأكاسرة الفرس، غير أنه لا يَرى في الخروج عن الحاكم حتّى وإن كان سيء، لأن ذلك سيؤدي إلى فساد وفوضى وانتهاك للحرمات وتعريضٌ للأنفس والأموال للضرر[4].

نشأ المذهب المالكي بالمدينة موطن الإمام مالك، ثم انتشر في الحجاز وغلب عليه وعلى البصرة ومصر وما والاها من بلاد أفريقية والأندلس وصقلية والمغرب الأقصى إلى بلاد من أسلم من السودان، ويتبع مريدوه في الأصول عقيدة أبي الحسن الأشعري بحيث كان يقال: لا يُرى مالكيٌّ إلاَّ أشعريًا[5].

---

[1] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 502/15.

[2] أنظر ترجمة الإمام مالك في، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق ابن النديم، **كتاب الفهرست**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د ت، 280- 281، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 135/4-139، اليافعي، مرآة الجنان، 290/1-291، الذهبي، العبر، 210/1، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 390/6- 403، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 96/2-97، ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، 15/2-15.

[3] وحدة البحث العلمي بإدارة الإفتاء، المذاهب الفقهية الأربعة، ص76.

[4] سليمان ولدخسال، الفكر السياسي عند الإمام مالك، مجلة الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة أحمد بن بلة وهران 1، مجلد15، عدد 24، 2014، ص244.

[5] أحمد تيمور باشا، المرجع السابق، ص 69.

وقد كان انتشار المذهب بمصر أول مرّة على يد الفقيه عثمان بن عبد الحكم الجذامي في منتصف القرن الثاني الهجري/التاسع الميلادي، فصار هو المذهب الغالب بها إلى غاية وصول مذهب الإمام الشافعي، وبسيطرة الفاطميين الشيعة على مصر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العشر الميلادي حاربوا أتباع هذين المذهبين في إطار سياستهم في التضييق على المذهب السني عمومًا ونشر الفكر والعقيدة الشيعية الإسماعيلية[1].

عُدَّ الإمام مالك فقيه المدينة ومحدثها، فكان مصدره الأول في ذلك القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكان يستعين على فهمه بالإضافة إلى مداركه الواسعة ومكتسباته الجمَّة بما جاء في الحديث والسنة النبوية الشريفة، هذه الأخيرة التي جعلها ثاني مصادر الفقه والتشريع لكونها جاءت مُبيِّنه وشارحة لنصوص القرآن ومفسرة لما جاء به من قضايا.

أمَّا مصدره الثالث فقد تمثَّل في قول الصحابة، بحكم قربهم من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وارتباطهم به في حياتهم وتصرفاتهم، ويستوي عنده في ذلك المهاجرون من الصحابة والأنصار، ورابع مصادر الفقه عند مالك هو الإجماع أي ما اتفق عليه أهل الفقه والعلم، وزيادة على ذلك فقد جعل الإمام من عمل أهل المدينة مصدرًا خامسًا في أحكامه الفقهية لأنَّهم حسبه أبناء أولئك الذين صاحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنَّ الأحكام العامة في الغالب تعيش في المكان لعدَّة أجيال، كما وأنّه كان يستأنس بالقياس والاستحسان والعرف في كثير من المسائل ولكن بشروط[2].

1-3 الشافعية:

يُنسبُ هذا المذهب إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي القريشي، المولود بغزَّة سنة 150هـ/767م والمتوفى سنة 204هـ/819م،[3] ثالث الأئمة الأربعة المشهورين من حيث حياتهم في الزمان، كان آية في الفهم والحفظ اجتمع له ما لم يجتمع لغيره، ويقال لأصحابه أهل الحديث كالمالكية، بل أنَّ أهل خراسان

---

[1] متز، الحضارة الإسلامية، 350/1- 351.

[2] وحدة البحث العلمي بإدارة الإفتاء، المذاهب الفقهية الأربعة، 74-77.

[3] أنظر ترجمته في، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 163/4-164، طبقات الحنابلة، 280/1، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 5/10-99، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن علي (ت732هـ)، **المختصر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، ط1، د ت، 28/2-29، ابن كثير، البداية والنهاية، 251/10-254، محمد أبو زهرة، **الشافعي، حياته وعصره- آراؤه وفقهه**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1948، ص 14-15، أحمد الشرباصي، **الأئمة الأربعة (أبو حنيفة، مالك بن أنس، الشافعي، أحمد بن حنبل)**، دار الهلال، د ط، دت، ص 121-122، أحمد تيمور باشا، المرجع السابق، ص 70.

كانوا إذا أطلقوا صفة " أهل الحديث" فلا يعنون بها إلاَّ الشافعية، وهو ممن أخذ عن مالك ثم استقل بمذهبه الخاص.[1]

أخذ الإمام الشافعي في فقهه عن منهج كل من مدرسة الرأي بزعامة أبي حنيفة ومدرسة أهل الحديث بزعامة الإمام مالك ومزج بينهما في نطاق ما جاء به الكتاب والسنة النبوية ومدى فهمه الصحيح للفقه الإسلامي، فيرى في فقهه ذاك الشيخ محمد أبا زهرة بأنَّه جمعٌ بين المدرستين بمقادير معتدلة.[2]

ويذكر فخر الدين الرازي[3] مصورًا ذلك النهج بقوله: " النَّاس كانوا قبل الشافعي فريقين، أصحاب الحديث وأصحاب الرأي، وأمّا أصحاب الحديث فكانوا حافظين لأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاَّ أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل، وكُلَّما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأي سؤالاً أو إشكالاً سقط في أيديهم عاجزين متحيرين....، وأما أصحاب الرأي فكانوا أصحاب النظر والجدل، إلاَّ أنهم كانوا عاجزين عن الآثار والسنن.....

وأمّا الشافعي فقد كان عارفًا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، محيطًا بقوانينها وكان عارفًا بآداب النظر والجدل قويًا فيه، وآخذًا في نصرة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل ما أُورد عليه سؤالاً أو إشكالاً أجاب عنه بأجوبة شافية وكافية، فانقطع بسببه استيلاء أهل الرأي على أصحاب الحديث".

غير أنَّ هناك من يرى في قرب فقه الشافعي من مدرسة الحديث والنقل عنه إلى مدرسة الرأي والعقل، حيث يقول البوطي كما جاء عند الذهبي[4]:" سمعت الشافعي يقول: عليكم بأصحاب الحديث فإنَّهم أكثر النَّاس صوابًا".

وقد كان ظهور هذا المذهب في بادئ الأمر بمصر، ثم انتقل إلى العراق وغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان وتوران والشام واليمن ودخل بلاد ما وراء النهر وبلاد فارس والحجاز، وبعض بلاد الهند ودخل شيء منه في أفريقية والأندلس بعد سنة 300هـ/912م، غير أنَّ أتباع هذا المذهب في مصر أكثر مما سواها بعد أن كانت منقسمة بين الحنفية والمالكية قبل ذلك،[5] ويناقض هذا القول في موطن ظهور فقه

---

[1] أحمد تيمور باشا، المذاهب الفقهية، ص 70-71.

[2] محمد أبو زهرة، الشافعي، ص 10-11.

[3] فخر الدين الرازي محمد بن عمر بن الحسين (ت606هـ)، **مناقب الإمام الشافعي**، تح، أحمد حجازي السقَّا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1، 1406هـ/1986م، ص66.

[4] سير أعلام النبلاء، 70/10.

[5] أحمد تيمور باشا، المذاهب الفقهية، ص 71.

الشافعي الدكتور أحمد الشرباصي الذي يرى بأن منطلقه كان مكة المكرمة ثم انتقل إلى بغداد وواصل فيها مذهبه ثم ارتحل إلى مصر وفيها زاد نجمه سطوعًا[1].

اتخذ الإمام الشافعي في فقه مذهبه القرآن الكريم إمامه الأول، فكان مصدره الأساسي في التشريع والحكم، ثم يقول بأنَّ السنة النبوية بمنزلة القرآن لأنّها مبينة له ومفسِّرة فجعلها مصدره الثاني، إلاَّ أنّه يتحرَّى صحة الحديث للخضوع له والأخذ به، ويشترط في راوي الحديث أن يكون ثقةً صادقًا متدينًا فاهمًا ضابطًا له، ويكون قد سمعه ممن يرويه عنه، فيقول في ذلك الشافعي:" هل لأحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة"، ويقول:" إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي"[2].

وكان يُلحُّ على تلاميذه أن يتركوا رأيه ويأخذوا بما يثبت لديهم من الحديث إذا خالف رأيه الحديث، فكان يقول:" متى عرفتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا، ولم آخذ به، فأنا أُشهدكم أنَّ عقلي قد ذهب" [3].

أخذ الشافعي بالإجماع واعتبره حجَّة بعد القرآن الكريم والحديث، غير أنَّه وضع للإجماع قيودًا وضوابط حتَّى لا ينتقل أمره إلى فوضى، ويرى بأنَّه لا يجوز للإنسان أن يقول في الشريعة برأيه، إلا إذا كان أساس هذا الرأي هو القياس، ومن قال في الدين برأيه أضاف إلى الدين ما ليس منه، فاهتم كذلك بضبط حدود القياس حتَّى لا يخرج عن نطاقه المحدود[4].

أُعتبر الشافعي واضع قواعد علم أصول الفقه، الذي صار أساسًا من أسس مدرسته وعمادًا من أعمدة مذهبه، حتَّى أنَّ فخر الدين الرازي يقول:" إنَّ نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة أرسطو إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض"، فالنّاس قبل الشافعي كانوا يفتقدون إلى قانون كلِّي يرجعون إليه في معرفة دلائل الشريعة ومعارضاتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه ليكون قانونا يُرجع إليه في معرفة مراتب الاستدلال الشرعية[5].

---

(1) أحمد الشرباصي، الأئمة الأربعة، ص 132.

(2) نفسه، ص 132.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 34/10.

(4) محمد أبو زهرة، الشافعي، ص78، 79، وحدة البحث العلمي بإدارة الإفتاء، المذاهب الفقهية الأربعة، 143-144.

(5) محمد أبو زهرة، الشافعي، ص134، 135.

وقد أبطل الشافعي مبدأ الاستحسان وألَّف في ذلك كتابًا سماه "إبطال الاستحسان"، وهذا المبدأ قد أخذ به أبو حنيفة من قبل، وحُجَّة الشافعي في إبطاله هو أنَّ الاجتهاد بهذه الطريقة من غير الاعتماد على أصل من أصول الشرع أو نص من كتاب أو سنة، يكون اجتهادًا باطلاً ونتيجته تبعًا لذلك باطلة.[1]

1-4 الحنابلة:

صاحب هذا المذهب هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، المولود ببغداد سنة 164هـ/780م والمتوفى بها سنة 241هـ/855م، وقيل ولد بمرو وحُمل إلى بغداد رضيعًا ورُبي يتيمًا ونشأ فقيرًا،[2] ومذهبه يعدُ رابع المذاهب الفقهية السنية من حيث الترتيب الزمني، والمعمول بها عند جمهور المسلمين، وهو من حيث وزنه العلمي والديني يعتبر شخصية فريدة في العقيدة والعلم، شجاع في رأيه ومسلكه، عدَّهُ السيد محمد رشيد رضا مجدد القرن الثالث الهجري[3].

أحبَّ الإمام أحمد طلب العلم حُبًّا شديدًا ولم يكن لديه من المال ما يُعينه على تحصيله، فلم يتردد في الإقدام على أي عمل يكسب منه قوته ما دام هذا العمل شريفًا، فكان ينسج الثياب ويبيعها، وكان يكتب بالأجرة وكان يلتقط بقايا الزرع من الحقول بعد الحصاد[4]، وقد شهد لابن حنبل بورعه وفقهه الإمام الشافعي فيقول:"خرجت من بغداد وما خلَّفت بها أحدًا أتقى ولا أورع ولا أفقه من أحمد بن حنبل[5]، كما ويصفه تلميذه الربيع بن سليمان في مصر فيقول:" أحمد إمامٌ في ثمان خصال، فهو إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنة"[6].

رأى الإمام أحمد أنَّ إمامة المسلمين تكون في قريش، فكان يُعِين على إمامة ولد العباس ويقول: العباس أبو الخلفاء، وهو في دعمهم ذاك رغم ما تلقَّاه من صنوف العذاب والسجن والجلد على أيدي

---

[1] وحدة البحث العلمي بإدارة الإفتاء، المذاهب الفقهية الأربعة، 147.

[2] طبقات ابن سعد، 354/7، ابن النديم، الفهرست، ص 320، أبي يعلى الفراء البغدادي الحنبلي، **طبقات الحنابلة**، تح، عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الأمانة العامة للاحتفال بمائة عام، مكة المكرمة، 1419هـ، 4/1، ابن خلكان، وفيات، 63/1، اليافعي، مرآة الجنان، 99/2-100، ابن كثير، البداية والنهاية، 325/10، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 177/11-179، الحنبلي، شذرات الذهب، 304/2.

[3] أحمد الشرباصي، المرجع السابق، 158-159.

[4] نفسه، 160.

[5] الحنبلي، طبقات الحنابلة، 40/1، ابن خلكان، وفيات، 64/1، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 195/11.

[6] الحنبلي، طبقات الحنابلة، 10/1.

ثلاثة من الخلفاء العباسيين، فلا يرى بالخروج عنهم، ولا منازعتهم السلطان، والجهاد معهم قائم سواء كانوا بارّين أو فجّارًا، والجمعة والعيدين والحج مع الخليفة وإن لم يكن عادلاً تقيًا، والانقياد إلى من ولّاه الله الأمر لا تنزع يدٌ من طاعته[1].

كان الإمام أحمد لا يجيب عن مسألة أو يفتي في قضية بغير نص من الكتاب أو السنة، فيقول دائمًا حدثنا أو أخبرنا، فيذكر عنه تلميذه عبد الوهاب الورّاق وخليفته في حلقته فيقول:" ما رأيت مثل أحمد بن حنبل سئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها حدثنا وأخبرنا"[2]، ومعنى ذلك أنَّ الإمام أحمد لم يكن يأخذ بالرأي، بل كان يحرمه في شدَّةٍ وحزم، وكان يحمل على أصحاب الرأي حملات شديدة، فكان فقهه فقه أثر وليس فقه رأي، وهو من يقرر هذا النهج بقوله:" وما أجبت في مسألة إلّا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجدت السبيل إليه أو عن الصحابة"[3]

يرتكز فقه الحنابلة على مصادر خمسة، أولها كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل، معتمدين في ذلك على قوله تعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شيءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُون﴾[4] وثانيها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودليلهم قوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[5]، وقوله أيضًا ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[6]

وأمَّا ثالث مصادر فقههم فهو إجماع أهل العصر من علماء الحل والعقد إن لم يختلفوا، فإن خالف بعضهم ولو كان واحدًا لم يكن إجماعًا، وإذا انتشر القول من بعضهم وعَلِمهُ جميعهم فلم يُنكروا شيئًا منه فهو إجماع، وكان الإمام أحمد يحبُّ إجماع أهل المدينة ويقدمه على غيره.

ورابعها هو قول الواحد من الصحابة إذا انتشر بين الناس ولم يُعْرَفْ له مُنكِرٌ أنكره، وأمَّا خامس مصادرهم فهو القياس الذي تشدد الحنابلة في الأخذ به، ووضعوا له شروطًا واعتمدوه في حالات الضرورة فقط، بل اقتصروا الرأي والقياس على ما ثبت من رأي السلف، كما أنَّ الإمام أحمد كان يرفض الأخذ

---

(1) الحنبلي، طبقات الحنابلة، 26/1.

(2) نفسه، 210/1.

(3) مصطفى الشكعة، **الأئمة الأربعة**، دار الكتاب اللبناني، ط3، بيروت، 1991، ص 218/4.

(4) الآية 38، سورة الأنعام.

(5) الآية 59، سورة النساء.

(6) الآية 07، سورة الحشر.

بالاستحسان، ويتساهل في الأخذ بالأحاديث الضعيفة إذا لم يجد غيرها، بشرط أن لا يعارض ذلك قاعدة من قواعد الدين، ولا أصلاً من أصوله، ولا حكمًا ثابتًا بسنةٍ صحيحة[1].

دفع الورع الذي ميَّز الإمام ابن حنبل إلى تجلية الأحكام تجليةً لا تترك أمامها لُبسًا ولا إبهامًا، وكان يتشدد على نفسه، ويفرض عليها ما لا يفرض على سواها، ويتجنب الشبهات بحرص وحذر، ويلتزم بالنص الوارد فيتقيد فيه بلا تصرف، ومن هنا كانت سمات التشدد واضحة على مذهبه في طائفة من الأمور، حتَّى اشتهر بين النَّاس أنَّ مذهب ابن حنبل يمثل العنف والتضييق، وصار الناس يقولون للشخص إذا كان متزمتًا أو متعنتًا " أنت حنبلي".[2]

وقد كان منشأ هذا المذهب ببغداد ثم شاع في غيرها، حيث انتشر بكثير من بلاد الشام، ولم يظهر خارج العراق إلاَّ في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وأمَّا وجود الحنابلة بالديار المصرية فكان قليلاً جدًا، ولم يكن لهم حضور إلاَّ في القرن السابع الهجري وما بعده، وحين سيطر الفاطميون على مصر غلب التشيع الاسماعيلي وتراجع بذلك نفوذ المذاهب السنية الثلاث (المالكي والشافعي والحنبلي) ليعود بعد دخول الأيوبيين إليها[3].

2- الطوائف الشيعية:

2-1 الإمامية (الإثني عشرية):

هُم القائلون بأنَّ الإمامة في بعد النبي صلى الله عليه وسلم في بني هاشم خاصّة، ثمَّ في علي والحسن والحسين، ومن بعد في ولد الحسين دون ولد الحسن إلى آخر العالم[4]، وأنَّ إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانت بنصٍّ ظاهر وتعيينٍ صادق، من غير تعريض بالوصف بل إشارةً إليه بالعين، وقد قالوا: وما كان في الدين والإسلام أمرٌ أهم من تعيين الإمام، وهم يحتجُّون بعديد الحجج في إثبات

---

[1] وحدة البحث العلمي بإدارة الإفتاء، المذاهب الفقهية الأربعة، 185-195.

[2] أحمد الشرباصي، المرجع السابق، 167.

[3] السيوطي، حسن المحاضرة، 160/1.

[4] الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبد الله العبكري البغدادي (ت413هـ)، **أوائل المقالات**، تح، الشيخ إبراهيم الأنصاري، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ط1، 1413هـ، ص40.

اعتقادهم بإمامة علي بالنص أهمها الحديث المروي عن الرسول في غدير خم –أوردناه سابقًا–، فادعت الإمامية أنَّ هذا النص تصريح جلي لإمامة علي رضي الله عنه[1].

كما سموا بالإثني عشرية لقولهم بوجود اثنا عشر إمامًا، أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم الإمام المهدي[2]، فيذكر المجلسي في "بحار الأنوار[3]" –يعتبر أحد أعمدة كتب الحديث عندهم– حديثًا عن النبي محمد صلى الله عليه وآله يقول فيه:" الأئمة من بعدي اثنا عشر أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم القائم، طاعتهم طاعتي ومعصيتهم معصيتي، فمن أنكر واحدًا منهم فقد أنكرني"، وقد أنكر أهل السنة هذا الحديث المنسوب لرسول الله مثلما أنكروا كثير من الأحاديث المنسوبة لآل البيت واعتبروها من وضع علماء الشيعة ومراجعهم.

تعدُّ قضية الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الفرقة الأساس الذي ترتكز عليه في قيامها وفي بناء عقيدتها، وتسميتها بهذا الاسم " الإمامية" أصدق تعبير على ذلك، وقد عرضنا سابقًا نظرة غالبية الشيعة لقضية الإمامة وهذه الفرقة لم تحد عن تلك النظرة، فوقفنا على اعتقادهم بكونها أصل من أصول الدين لا يصحُّ الإيمان إلاَّ بالاعتقاد بها، أي إمامة علي بن أبي طالب وأبنائه من بعده إلى الإمام الثاني عشر وهو الإمام المهدي المنتظر، دون سواهم ولا تخرج عنهم، وهي أمرٌ إلهي ليس معه اجتهاد[4].

أمَّا منكرو هذا الاعتقاد – وهم الممثلون للرأي المخالف (السنة) – فهم كفَّارٌ عندهم، حيث يقول أحد علمائهم وهو الشيخ المفيد[5]:" اتفقت الإمامية على أنَّ من أنكر إمامة أحدٍ من الأئمة وجحد ما أوجبهُ الله تعالى له من فرض الطاعة فهو كافرٌ ضال مستحقٌ للخلود في النَّار".

---

(1) الشيخ المفيد، أوائل المقالات، ص38–39، الشهرستاني، الملل والنحل، 190/1-191.

(2) أوائل المقالات، ص41، الملل والنحل، 198/1-199.

(3) المجلسي، بحار الأنوار، 62/27، وفيما يلي الأئمة الإثنا عشر عند الإمامية، أبو الحسن علي بن أبي طالب (المرتضى) 23ق هـ –40 هـ، الحسن بن علي (الزكي) 3هـ–50هـ، الحسين بن علي (سيد الشهداء) 4هـ–61هـ، علي بن الحسين (زين العابدين) 38هـ–95هـ، محمد بن علي بن الحسين (الباقر) 57هـ- 114هـ، جعفر بن محمد بن علي (الصادق) 83هـ- 148هـ، موسى بن جعفر بن محمد (الكاظم) 128هـ- 183هـ، علي بن موسى (الرضا) 148هـ- 203هـ، محمد بن علي بن موسى (الجواد) 195هـ- 220هـ، علي بن محمد بن علي (الهادي) 212هـ- 254هـ، الحسن بن علي بن محمد (العسكري) 232هـ- 260هـ، محمد بن الحسن بن علي (المهدي الغائب) 256هـ- وقيل غاب سنة 260هـ.

(4) الكليني، أصول الكافي، 201/1، 208.

(5) الشيخ المفيد، أوائل المقالات، ص44.

وبذلك فهم يعتبرون الخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم كفَّارًا، لأنَّهم اغتصبوا الخلافة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيقول عنهم المجلسي[1]:" إنَّهم لم يكونوا إلاَّ غاصبين جائرين مرتدين عن الدين لعنة الله عليهم وعلى من اتبعهم في ظلم أهل البيت من الأولين والآخرين"، وبتعميم المجلسي اللعن على من اتبع الخلفاء الثلاثة واعتبارهم مشاركين في ظلم آل البيت، فقد أعطى صورة واضحة لطبيعة العلاقات بين الشيعة والسنة على مرِّ العصور.

2–2 الزيدية:

وهي إحدى الفرق الشيعية، ينتسب أتباعها إلى زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، نشأت حين خرج زيد بن علي على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك[2] في الكوفة مُنكرًا للظلم الذي لاقاه من طرف ولاة الخليفة الأموي في المدينة والعراق (خالد بن عبد الملك الحارث و يوسف بن عمر الثقفي) ولكن خروجه كان مقدمةً لمقتله ثم صلبه بالكوفة وذلك سنة 122هـ/740م،[3] وقد كان زيد رضي الله عنه رجلاً تقيًا زاهدًا فاضلاً وأحد العلماء والصلحاء، تلقى العلم في المدينة والبصرة بالعراق، وكان أحد تلامذة واصل بن عطاء شيخ المعتزلة[4].

---

[1] بحار الأنوار، 110/25، ويقول عنهم أيضًا الشيخ المفيد:" واتفقت الإمامية وكثير من الزيدية على أنَّ المتقدِّمين على أمير المؤمنين –عليهم السلام– ضُلاَّلٌ فاسقون، وأنَّهم بتأخيرهم أمير المؤمنين –عليه السلام– عن مقام رسول الله –صلوات الله عليه وآله– عُصاةٌ ظالمون، وفي النَّار بظلمهم مخلَّدون"، أوائل المقالات، ص42.

[2] هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، كان مولده سنة اثنتين وسبعين للهجرة، وتوفي بالرصافة من أرض قنسرين ليلة الأربعاء لستٍ خلون من من شهر ربيع الآخر سنة خمسٍ وعشرين ومئة، استخلف في شعبان سنة خمس ومائة، وكانت أيامه تسع عشرة سنة وسبعة أشهر، وهو الذي قتل زيد بن علي بن الحسين في الكوفة، وكانت داره عند باب الخواصين، وكان هشام رجل بني أمية رأيًا وحزمًا، ولما أتته الخلافة سجد لله شكرًا، أنظر حول ترجمته، في الكتبي، الوافي بالوفيات، 238/4–239، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 351/5–352.

[3] الشهرستاني، الملل والنحل، 179/1، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص36، 44، ويذكر المسعودي (ت346هـ) في سبب خروج زيد عن الخليفة الأموي بالقول:" وقد كان زيد دخل على هشام بالرصافة (يشكو ظلم ولاة المدينة والعراق)، فلمَّا مثل بين يديه لم ير موضعًا يجلس فيه، فجلس حيث انتهى به مجلسه، وقال: يا أمير المؤمنين، ليس أحدٌ يكبر على تقوى الله، ولا يصغر دون تقوى الله، فقال هشام: أسكت لا أُمَّ لك، أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة، وأنت ابن أَمَةٍ، قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ لك جوابًا إن أحببتَ أجبتك به، وإن أحببت أمسكت عنه، فقال: بل أجب، قال: إنَّ الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات، وقد كانت أمُّ إسماعيل أَمَةً لأم إسحاق عليه السلام، فلم يمنعهُ ذلك أن بعثهُ الله نبيًا، وجعلهُ للعرب أبًا، فأخرج من صُلبه خير البشر محمدًا صلى الله عليه وسلم، فتقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي"، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجعه، كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2005، 170/3–171، وانظر، ابن سعد، الطبقات الكبرى، 240/5، الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص 129–139.

[4] هو أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلي، المعروف بالغزَّال مولى بني ضبة وقيل مولى بني مخزوم، كانت ولادته سنة ثمانين للهجرة بالمدينة، كان أحد الآئمة البلغاء المتكلِّمين في علوم الكلام، وقد ذكر السمعاني في كتاب الأنساب في ترجمته للمعتزلي عن سبب تسميته بهذا الاسم أنَّ واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصري رضي الله عنه، فلمَّا ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكبي الكبائر، وقال الجماعة

يرى أتباع هذه الفرقة بأنَّ الإمامة بعد علي رضي الله عنه تكون في أولاد فاطمة سواء من نسل الحسن أو نسل الحسين رضي الله عنهما، فأيُّما فاطميٍ عالم سخي شجاع خرج يطلب الإمامة وجب طاعته، ويجب أن تتوفر في الإمام المختار خصال الورع والتُقى والسخاء فضلاً عن العلم والشجاعة[1]، وعليه فالإمامة عند الزيدية ليست محصورة بالنص ولا تكون وراثية ولكن تقوم على بيعة الأصلح من ولد فاطمة.

يقول عنها الشيخ المفيد[2]:"وأمَّا الزيدية فهم القائلون بإمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحسن والحسين وزيد بن علي – عليهم السلام- وبإمامة كل فاطمي دعا إلى نفسه وهو على ظاهر العدالة ومن أهل العلم والشجاعة وكانت بيعتهُ على تجريد السيف والجهاد".

تُعدُّ هذه الفرقة من أكثر الفرق الشيعية اعتدالاً وهي الأقرب إلى أهل السنة، وقد جعلها الأمر كذلك نظرتها للإمامة التي تخالف النظرة الشيعية المتطرفة، فهي لم ترفع الأئمة إلى مرتبة النبوة، ولم يجعلوا لهم صفات مقدَّسة ونفوا عنهم العصمة واعتبروهم كسائر النَّاس، ولكنَّهم رأوا أفضليتهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]، وهم يقولون أيضًا في صحابة رسول الله غير الذي اعتقدته الإمامية فيهم، حيث يقول عن هذا الاختلاف شيخ الإسلام ابن تيمية[4]: "والزيدية افترقوا عن الإمامية الرافضة الشيعة حين سُئل زيد عن أبي بكر وعمر فترضَّى عنهما فرفضه قومٌ فسموا رافضة إيَّاه وسُميَ من لم يرفضهُ من الشيعة زيديين لانتسابهم إليه وذلك في آخر خلافة هشام".

وإذ عرضنا في هامش الصفحة السابقة تفاصيل خروج زيد بن علي على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، فقد رأينا ترك تفصيل مُضيه للكوفة وما دار بينه وبين أهلها المتشيعين لآل البيت لمتن هذه الصفحة لأهمية ذلك في ظهور هذه الفرقة على ساحة أحداث التاريخ، حيث يذكر المسعودي[5]:" أنَّ زيد

بأنَّهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر، فخرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال: إنَّ الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر، منزلةٌ بين منزلتين، فطرده الحسن هن مجلسه فاعتزل عنه، وجلس عمرو بن عبيد، فقيل لهما ولأتباعهما: معتزلون، وكانت وفاته سنة إحدى وثمانين ومائة، أنظر، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص104-107، ابن خلكان، وفيات، 7/6-11

(1) الشهرستاني، الملل والنحل، 1/179-180، الأشعري، مقالات الإسلاميين، 1/136، المسعودي، مروج الذهب، 3/170.

(2) أوائل المقالات، ص39.

(3) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب، ص635، عبد الله محمد الأمين، دراسات في الفرق والمذاهب، ص339.

(4) منهاج السنة، 1/22.

(5) مروج الذهب، 3/170.

شاور أخاه أبا جعفر بن الحسين بن علي فأشار عليه بأن لا يركُنَ إلى أهل الكوفة، إذ كانوا أهلَ غدرٍ ومكر، وقال له: بها قُتلَ جدُّك علي، وبها طُعنَ عمُكَ الحسن [وبها قُتل أبوك الحسين]، وفيها وفي أعمالها شُتمنا أهل البيت، فأبى إلاَّ ما عزم عليه من المطالبة بالحق".

خرج زيد من عند هشام وتوجه إلى الكوفة التي عاهده فيها أهلها بنصرته ومؤازرته فكان عدد المبايعين لهُ ما يناهز الخمسة عشر ألف رجل، ولكنَّهم نكسوا على أعقابهم حين التقى الجمعان — جيوش الأمويين ومناصري زيد – واستحر القتال، وسألوه فقالوا له: "إنَّا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدَّك علي بن أبي طالب فقال زيد: إنِّي لا أقول فيهما إلاَّ خيرًا، وما سمعت أبي يقول فيهما إلاَّ خيرًا، وإنَّما خرجت على بني أمية الذين قتلوا جدِّي الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحرَّة ثُمَّ رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنَّار"، ففارقوه عند ذلك فسموا "رافضة"[1].

ويقول الشهرستاني في هذا الصدد[2]:" ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه، وعرفوا أنَّهُ لا يتبرأُ من الشيخين رفضوه حتَّى أتى قدره عليه فسميت رافضة"، وقد ثبتَ مع زيد في تلك الواقعة مائتي رجل قاتلوا جند يوسف بن عمر الثقفي حتَّى قُتلوا عن آخرهم، وقُتل زيد ثُمَّ نُبشَ من قبره وصُلب ثُمَّ أحرق بعد ذلك، وهرب ابنهُ يحيى بن زيد إلى خراسان[3]، ليطلق اسم الزيدية من وقتها على من ناصره وتمسك بعقيدته في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

اختلف المذهب الزيدي عن الإمامية وباقي فرق الشيعة في كثير من الأمور، وخاصة ما قيل في الإمام والإمامة، فلم يقولوا بعصمتهم، ورأوا بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل[4]، وبذلك فهم يعتبرون خلافة أبي بكر وعمر شرعية وصحيحة وأنَّهما يستحقانها لأنهما الأفضل، ولكنَّ هذا المذهب تعرَّض للتحريف والتبديل مع مرور الزمن فانقسم إلى فرق عديدة أبرزها: الصالحية والسليمانية والجارودية، وحدث

---

(1) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 45، ويذكر أبو الحسن الأشعري أنَّ سبب تسميتهم رافضة هو رفضهم إمامة أبو بكر وعمر، مقالات الإسلاميين، 59/1.

(2) الملل والنحل، 181/1.

(3) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص45.

(4) الشهرستاني، الملل والنحل، 108/1-181.

مع هذا الانقسام تبدل في عقيدة الزيديين فيذكر الشيخ أبو زهرة[1] أنَّ المتأخرين منهم اندمجوا في فكر الرفض وصاروا يرفضون إمامة أبي بكر وعمر ويسبونهما ويكفِّرون من يرى مخالفتهم.

لقد سعت الزيدية على غرار باقي فرق الشيعة إلى الاستقواء السياسي في سبيل التمكين لمذهبها، وذلك منذ وفاة زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه، وقد تحقق لهم ذلك على يد البويهيين الديالمة[2] في بغداد (334هـ-447هـ/944م-1055م)[3]، أي بعد قرنين على بدء حكم بنو العباس السنيين، ولكن تأثير الغالبية الإمامية بالعراق دفع بأصحاب هذه الدولة للاندماج فيها ليتحوّل قادتها مع مرور الزمن عن مذهبهم لصالح المذهب الإمامي الإثني عشري، وسنعود للحديث عن علاقات البويهيين الشيعة بالعباسيين السنة في إطار الحديث عن أثر الاعتقاد الطائفي على العلاقات السياسية الإسلامية قبل حملات الصليبيين في ثنايا الصفحات اللاحقة.

2-3 الاسماعيلية:

هي إحدى فرق الشيعة الإمامية، سميت بهذا الاسم نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو الإمام السابع عند الشيعة، ولذلك يطلق عليهم السبعية، وقد أنكرت جماعة تسمى بالإمامية الإثني عشرية – أتباع موسى الكاظم بن جعفر الصادق – إمامة إسماعيل بن جعفر، لكونه قد توفي في حياة والده جعفر الصادق سنة 143هـ/762م، فرأت الإثني عشرية أنه نقل الإمامة إلى ابنه الأصغر موسى الكاظم أخ إسماعيل،[4] وقد انقسمت الإسماعيلية على نفسها إلى فرقتين هما:

---

[1] تاريخ المذاهب، ص44.

[2] الديلم، بلاد تمتد من ناحية الجنوب من قزوين والطرم، وشيء من أذربيجان وبعض الري، ومن جهة الشرق بقية الري وطبرستان، ومن الشمال بحر الخزر، ومن جهة الغرب شيء من أذربيجان وبلاد الران، وهي ثلاثة جبال منيعة، وهي تروديسيان والمرونج ووراان، الاصطخري، المسالك والممالك، ص121، ابن حوقل، صورة الأرض، ص318.

[3] أنظر حول هذه الدولة، وفاء محمد علي، **الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين**، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، د ت.

[4] الشهرستاني، الملل والنحل، 226/1، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص62-63، وانظر، محمد حسين كامل، **طائفة الإسماعيلية – تاريخها ونظمها وعقائدها**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1959، ص 11-12، وتشير بعض الروايات وبخاصة على لسان أتباع الفرقة الإمامية الإثني عشرية والبعض من أهل السنة، بأنَّ إسماعيل بن جعفر الصادق لم يكن بالرجل الذي يصلح للإمامة فقد كان مدمنا على شرب الخمر ولوعًا بالنساء وأنَّه كان من أصدقاء أبي الخطاب الأسدي الرجل الفاسق والملحد الذي ادَّعى ألوهية جعفر الصادق وأنه (أي أبا الخطاب) كان رسوله وأنَّ جعفر قد أبدى فرحه لموت إسماعيل لما كان معروفًا عنه من الفسق، أنظر، عبد الله أمين، دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة، ص108، محمد حسين كامل، طائفة الإسماعيلية، ص 13.

السبعية: وقالت بأنها تنتظر إسماعيل لأنه لم يمت، وبأنه الإمام السابع، وبأنَّ والده قد غيَّبه وأظهر موته تقية، خوفا عليه من خلفاء بني العباس، فكتب محضراً وأشهد عليه عامل المنصور الذي كان إسماعيليًا.[1]

المباركية: ورأت أنَّ الإمام جعفر الصادق نصَّب ابنه إسماعيل للإمامة بعده، فلمَّا توفي إسماعيل في حياة أبيه انتقلت الإمامة إلى ولده محمد المكتوم، وذلك لأن الإمامة لا تنتقل من أخ لأخ إلاَّ في حالة واحدة فريدة، هي انتقالها من الإمام الحسن إلى الإمام الحسين، ولهم في ذلك تأويل من القرآن الكريم، فيفسرون باطنيًا الآية الكريمة، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، فيقولون بأنَّ الكلمة معناها الإمامة، وعليه فالإمامة تكون في الأعقاب وليس في الإخوة. وقد سموا بالمباركية نسبة إلى المبارك مولى إسماعيل بن جعفر[3].

مهما تضاربت الروايات حول نشأة هذه الفرقة من الطائفة الشيعية ومدى أحقيتها في الدعوة لإمامها وصدقها فيما تدَّعي، فقد كان لها دور بالغ في أحداث التاريخ الإسلامي على المستويين العقائدي والسياسي، ويرجح أنَّ أتباع أبي الخطاب الأسدي هم الذين نادوا بهذا المذهب وأنهم أغروا محمدًا بن إسماعيل بالدعوة لنفسه بعد أبيه، وقد اضطر هذا الأخير إلى الفرار وترك مسقط رأسه المدينة المنورة، وأن يهاجر إلى خوزستان ثم منها إلى بلاد الديلم واستقر بقرية سميت باسمه محمد آباد[4]، وبعد ذلك لم يسمع عنه شيئًا، كما ولا يعرف سبب هجرته، ماعدا ما يذكر من ملاحقة الخلفاء العباسيين للحركات الشيعية ووأدها[5].

لم يعرف التاريخ شيئًا اسمه الفرقة الإسماعيلية حتَّى أواخر القرن الثالث للهجرة رغم وفاة إسماعيل بن جعفر سنة 143هـ/762م، لتظهر حينها في الشرق والغرب على السواء بنشاط وهمة كبيرين، وقد عرفت الفترة الممتدة من وفاة إسماعيل بن جعفر إلى بداية الدعوة العلنية للمذهب بدور الستر، وبعدها جرت

---

[1] الشهرستاني، الملل والنحل، 226/1، القمي، المقالات والفرق، ص80.

[2] سورة الزخرف، الآية 28.

[3] البغدادي، الفرق بين الفرق، ص64، القمي، المقالات والفرق، ص80-81، الأشعري، مقالات الإسلاميين، 101/1، ابن حزم الظاهري الأندلسي، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تح: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط2، 1996، 7/2-8، محمد حسين كامل، طائفة الإسماعيلية، ص 12.

[4] قريةٌ على باب نيسابور بينهما فرسخ، ياقوت، معجم البلدان، 64/5.

[5] محمد حسين كامل، طائفة الإسماعيلية، ص 12-13.

الدعاية للمذهب جهرا فسميت المرحلة بدور الظهور، ويرى محمد حسين كامل[1]، بأنَّ دور الظهور ابتدأ بظهور القرامطة في البحرين والشام.

وعن عقيدة هذه الفرقة من فرق الشيعة فهي شديدة الغموض وعسيرة الفهم، حيث يفسرون ويؤولون آيات القرآن بأسلوب فلسفي يستعص إدراكه واستيعابه، فيذهبون إلى القول بأنَّ لكل شيء ظاهر (محسوس) تأويلاً باطنيًا، لا يعرفه إلاَّ الراسخون في العلم وهم الأئمة من آل البيت، والذين بدورهم يودعونه لكبار الدعاة بقدرٍ معين، ذلك أنَّ التأويل بالباطن قد خصَّ الله به علي بن أبي طالب، كمَّا خصَّ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالتنزيل، فتزعم الإسماعيلية بأنَّ هذا التأويل قد تسلسل في الأئمة من عقب علي، وهم وحدهم من يحق لهم تأويل القرآن بما يمتلكونه من هذا العلم[2].

ويتفق الإسماعيلية في تأويلهم الظاهر للقرآن والإيمان إلى حد كبير مع التشريعات السنية، غير أنهم يرفقون شرط الإيمان بالظاهر والباطن معًا ليصحَّ الاعتقاد، فالإيمان بواحد منهما دون الآخر يعتبر خروجًا على المذهب وكفرًا، ويقولون في هذا الشأن بأنَّ من عمل بالباطن والظاهر فهو منا ومن عمل بالظاهر دون الباطن فالكلب خير منه وليس منا، وما فاز عند الله إلاَّ من عمل بالحالتين جميعًا ظاهرًا وباطنًا[3].

ولكون الحديث عن عقائد هذه الفرقة من فرق الشيعة يطول، وهو في الأساس ليس من اختصاص هذه الدراسة، فإننا نجمل فيها القول بأنَّها مذهب باطني يقوم على التأويل بالباطن والعمل بالتقيَّة، حيث أولوا أركان الإسلام وقالوا بالتناسخ وأنكروا الجنة والنّار[4]، وللتستر على عقائدهم اتخذوا التقية أسلوباً بل وعقيدةً في ذلك، فينسبون العمل بها للإمام جعفر الصادق رضي الله عنه، ويوردون عنه في ذلك أقوالاً منها:" التقيَّة ديني ودين آبائي وأجدادي ومن لا تقيَّة له لا دين له" وقوله كذلك "من أذاع لنا سرًا أذاقه الله برد الحديد".[5]

---

[1] طائفة الإسماعيلية، ص29.

[2] الشيرازي، **ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة**، تح، محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري، ط1، القاهرة، 1949، ص 101-102.

[3] الشيرازي، ديوان المؤيد، ص 105-106، محمد حسين كامل، الطائفة الإسماعيلية، ص148.

[4] للاستزادة أنظر، عارف تامر، **أربع رسائل إسماعيلية (الرسالة الأولى والرسالة الثالثة)**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1978، ص، محمد أحمد الخطيب، **الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، عقائدها وحكم الإسلام فيها**، مكتبة الأقصى، ط2، عمان، 1986، ص، سليمان عبد الله السلومي، أصول الإسماعيلية، ص403 ومابعدها.

[5] الكليني، أصول الكافي، 1/219-222، أربع رسائل إسماعيلية، الرسالة الأولى، ص34.

وقد قامت هذه الفرقة الباطنية على تنظيمات سرية للغاية تعتمد على دعاة غاية في المكر والدهاء، إمَّا لاستمالة النَّاس إلى مذهبهم وإمَّا للتسلط على إرادتهم وإبقائهم تحت طاعتهم التامةّ، فكان هؤلاء وسائل رئيسية لتحقيق حركتها في دور الستر والتخفي وفي دور الظهور والإعلان كذلك،[1] حيث عملت العقيدة الإسماعيلية على إصباغ دعاتها بفضائل دينية وجعلت منهم (حدود الدين) فكانت مخالفتهم أو معارضتهم تعتبر مروقًا وخروجًا عن الدين، وعن طاعة الإمام نفسه، لأنهم من صلب العقيدة وحدودها،[2] وقد وصل بهم الأمر في عهد الدولة الفاطمية أن جعلوا للدعاة هيئة شبيهة بالكهنوت —كما هو عند النصارى– معترف بهم رسميًا وتعطى لهم أرزاق نظير عملهم، وهو ما لم يحدث في تاريخ الإسلام قبل، فصاروا أشبه بالقسيسين[3].

وعلى أية حال فقد تمكَّنت هذه الفرقة من فرق الشيعة من تأسيس كيان سياسي تستقوي من خلاله لعقيدتها، فكان ذلك ببلاد المغرب سنة 297هـ/910م من خلال الدولة الفاطمية، ثم عرفت انتقالاً إلى المشرق عن طريق الاستيلاء على مصر من الإخشيديين سنة 358هـ/969م، لتتمدد بعدها في الشام واليمن وتبلغ الحجاز، وتعلن في ذروة سطوتها الخطبة لخليفتها ببغداد عاصمة السنيين وذلك لسنة واحدة 450هـ/1058م.

لتتعرض هذه الفرقة في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي للانقسام بعد وفاة إمامها الخليفة المستنصر بالله سنة 487هـ/1094م إلى فرقتين بسبب قضية الأحقية بالإمامة، فناصرت واحدة منهما الابن الأكبر للمستنصر واسمه نزار (النزارية) والأخرى وقفت مع الابن الأصغر وهو المستعلي (المستعلية) الذي استمرت في نسله الدولة الفاطمية إلى سقوطها سنة 567هـ/1171م على يد الأيوبيين.

2–4 النصيرية أو العلوية:

أقامت هذه الطائفة في شمالي الشام قبل طائفة الدروز في لبنان، وهم من الشيعة الغلاة[4] موطنهم جبل النصيرية (الأنصارية) وهو جزء من جبل لبنان، فبلادهم تمتد من سهل حماه وحمص وحلب شرقا وإلى

---

[1] محمد أحمد الخطيب، المرجع السابق، ص118.

[2] وللاستزادة حول تنظيم الدعاة وتقسمهم ومراتبهم في الطائفة الإسماعيلية راجع: محمد أحمد الخطيب، المرجع السابق، ص 119-120.

[3] نفسه، ص 126.

[4] ويرجع أبو الحسن الأشعري سبب تسميتهم بالغلاة بقوله: "إنما سموا بالغالية لأنهم غلوا في علي وقالوا فيه قولا عظيمًا.."، مقالات الإسلاميين، 66/1.

ما وراء أنطاكية على حدود بلاد الأناضول شمالاً[1]، ولهم أسماء محلية يعرفون بها في مناطق سكناهم مثل: "التختجية" و"الحطابون" في غربي الأناضول بتركيا و"العلي إلهية" في فارس وتركستان وكردستان،[2]

ظهرت هذه الفرقة في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وتنتسب إلى محمد بن نصير البصري النميري المتوفى سنة 260هـ/873م، وهو من أصل فارسي ويُكنَّى بأبي شعيب، وكان من أتباع الحسن العسكري الإمام الحادي عشر عند الطائفة الإمامية الإثني عشرية،[3] وعليه فهي إحدى فرق هذه الطائفة.[4]

وقد زعم ابن نصير بأنه الباب إلى محمد بن الإمام الحسن العسكري أي وكيلاً وممثلاً له ومرجعًا للنَّاس من بعده، ثم ادَّعى بأنه رسول من الله وقد أرسله أبو الحسن العسكري، وكان يقول بالتناسخ والغلو في أبي الحسن ويقول فيه الربوبية[5] وبإباحة المحارم والقول بأن نكاح الرجال لبعضهم البعض حلال ويرى فيه نوعا من التواضع والتذلل.[6]

فالطائفة النصيرية تصنف ضمن الفرق الشيعية الباطنية، الذين غلوا في علي بن أبي طالب لدرجة تأليهه (أي قالوا بألوهيته)[7] وحسبهم في ذلك أن الله ظهر في صورة أشخاص، ولمَّا لم يكن بعد الرسول صلى الله عليه وسلم شخص أفضل من علي رضي الله عنه وبعده أولاده المخصصون وهم خير البرية، فظهر الحق بصورتهم أو نطق بلسانهم وأخذ بأيديهم، فعن هذا أطلقنا اسم الإلهية عليهم، وإنَّما أثبتنا هذا الاختصاص لعلي رضي الله عنه دون غيره.[8]

---

(1) حسن ابراهيم حسن، **تاريخ الإسلام**، در الجيل، ط 14، بيروت، 1996، 252/4.

(2) السيد عبد الحسين العسكري، العلويون أو النصيرية، ص31، 32، محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية، ص323.

(3) النوبختي، فرق الشيعة، ص 78، الشهرستاني، الملل والنحل، 220/1-221، القمي، المقالات والفرق، ص 100.

(4) سليمان الحلبي، **طائفة النصيرية، تاريخها وعقائدها**، الدار السلفية، ط2، الكويت، 1984، ص، 26، 30.

(5) أنظر، كتاب، سليمان أفندي الأذني، **الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصرية**، (نسخة من الكتاب متوفرة لدى الباحث، ص7، 30، 38، وقد كان صاحب الكتاب أحد معتنقي هذه الطائفة ثمَّ تحوَّل عنها إلى المسيحية، وقدم في هذا الكتاب عديد الأسرار عنها والتي عايشها بنفسه.

(6) النوبختي، فرق الشيعة، ص78، يوسف إبراهيم الشيخ عيد، أثر الباطنية، ص98-97.

(7) تُقدِّم هذه الطائفة أدلة على ألوهية علي بن أبي طالب فيقرأون الآية الكريمة من سورة يس" أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ" (81) بعد أن يغيروا حرف الجر "على" فيجعلوه "علي"، ويقصدون بذلك أنَّ عليًا هو الخالق، وهو تحريف ساذج حسب وصف الدكتور مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص 334.

(8) الشهرستاني، الملل والنحل، 221/1، ابن حزم، الفصل في الملل، 50/5، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 226، القمي، المقالات والفرق، ص 100.

وأتباع هذه الفرقة الشيعية لا يحبذون تسميتهم بالنصيريين ويتضايقون من إطلاق هذا اللقب عليهم، ويعتبرونه ذريعة لاضطهادهم وتجيش العواطف المذهبية اتجاههم لمعاداتهم، بل يحبون إطلاق تسمية العلويين على مذهبهم، ويتهمون في ذلك الأتراك بحرمانهم من هذه التسمية وإلصاق لقب النصيرية بهم نسبة للجبال التي يسكنونها نكاية واحتقارًا لهم، غير أن الفرنسيين قد أعادوا لهم هذا الاسم حين فرض الانتداب الفرنسي على سوريا، وأطلق على الجبال التي يتمركزون عليها بأراضي العلويين المستقلة، [1]

كما أنهم يعتقدون بتناسخ الأرواح والتأويل بالباطن، ويزعمون بأن الألوهية لها اسم ومعنى أي ظاهر وباطن، فالظاهر هو أحرف معدودة تشير إلى أشخاص معلومة والمعنوية قد استقرت أخيرا في علي بن أبي طالب، فيعتقدون بأن عليًا هو من خلق محمد صلى الله عليه وسلم، ومحمد خلق سلمان الفارسي وسلمان خلق المقداد بن أبي الأسود، والمقداد خلق الناس ولذلك يطلقون عليه لقب "رب الناس"[2]

وقد استنكر واستعظم لمعتقداتهم وبخاصة قضية تأليه علي رضي الله عنه العديد من العلماء والمؤرخين من الفرق السنية وحتى الشيعية، ويشبهونها بعقيدة النصارى في عيسى عليه السلام فيذكر ابن خلدون[3] عن ذلك فيقول:" ومنهم – أي الشيعة – طوائف يسمون الغلاة، تجاوزوا حد العقل والإيمان في القول بألوهية هؤلاء الأئمة... وأن الإله حلَّ في ذاتهم البشرية وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه.".

ويصفهم بعض الأئمة من الشيعة الإثني عشرية كسعد بن عبد الله القمي[4] والشيخ المفيد بالكفار وبأنهم شرٌّ من اليهود والنصارى والمجوس، فيقول في ذلك الشيخ المفيد[5]:" والغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته –عليهم السلام– إلى الألوهية والنبوة، ووصفوهم من الفضل

---

(1) محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية، ص337.

(2) راجع عن عقائدهم في الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصرية، ص84-90.

(3) المقدمة، 375/1.

(4) يورد القمي المتوفى سنة 371هـ عن بطلان هذه العقيدة فيقول:" وقد شذت فرقة من القائلين بإمامة علي بن محمد في حياته، فقالت بنبوة رجل يقال له محمد بن نصير النميري، كان يدَّعي أنه نبي رسول، وأنَّ علي بن محمد العسكري أرسله وكان يقول بالتناسخ ويغلو في أبي الحسن (علي بن أبي طالب)، ويقول فيه بالربوبية، ويقول بالإباحة للمحارم، ويحلل نكاح الرجال بعضهم بعضًا في أدبارهم، ويزعم أنَّ ذلك من التواضع والتذلل في المفعول به، وأنَّ الله لم يحرم شيئا من ذلك.." أنظر، المقالات والفرق، ص100، 101.

(5) **تصحيح اعتقادات الإمامية**، تح، حسين در كاهي، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ط1، قم، إيران،1413هـ، ص131.

في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد، وخرجوا عن القصد، وهم ضلال كفار، حكم فيهم أمير المؤمنين – عليه السلام– بالإكفار والخروج عن الإسلام."

يحرص الأتباع النصيريين على كتم أسرار معتقداتهم ويعتبرون ذلك أصل هام من أصول عقيدتهم، لأن الحقيقة الإلهية وأسرارها حسبهم لا توضع بين أيدي العامة ومن يجهلون هذه الحقيقة وأسرارها، فالتستر هي صفة أهل الباطن، أي أهل النور والقدرة، وأما أهل الظاهر فهم أهل الظلام والظلمة، والذي أفشى السر إلى الجهلة فقد أودع المعرفة عند غير أهلها، فكأنه علَّق الذر في أرقاب الخنازير[1]، كما ويتهددون كل من يفشي بأسرار عقيدتهم إلى حدِّ القتل، ومثال ذلك ما ورد في كتابهم (الهفت الشريف)[2]:" يا مفضل، لقد أعطيت فضلا كثيرا، وتعلَّمت علما باطنا، فعليك بكتمان سر الله ولا تطلع عليه إلا وليًا مخلصًا، فإن أفشيته إلى أعدائنا فقد أعنت على قتل نفسك"

2-5 الدروز (الموحدون):

وهي من الطوائف الباطنية التي انشقت عن الإسماعيلية في عصرها العبيدي (الفاطمي)، واتخذت لها مبادئ مخالفة في ظاهرها لمبادئ الإسماعيلية وإن كانت لم تخالفها في جوهرها،[3] فهي بذلك فرقة من فرقها وجزء مهم من عقيدتها، بل صنفت من أكبر غلاة الإسماعيلية الذين جعلوا من الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي[4] إلهًا (375هـ-411هـ/985م- 1021م)،[5] مما أخرجهم عن المعتدلين من الطائفة

---

(1) محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية، ص 85-86.

(2) المفضل بن عمر الجعفي، **الهفت الشريف من فضائل مولانا جعفر الصادق**، تح وتق، مصطفى غالب، دار الأندلس، ط2، بيروت، د ت، ص 102.

(3) محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية، ص199.

(4) هو أبو علي منصور الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله نزار بن المعز بالله معد بن المنصور بالله إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدي عبيد الله، العبيدي الفاطمي المغربي الأصل، المصري المولد والدار والمنشأ، الثالث من خلفاء مصر والسادس منهم ممن وليمن أجداده بالمغرب، ولد يوم الخميس لأربع ليالٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلاثمائة بالقاهرة، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه العزيز سنة ست وثمانين وثلاثمائة، وله حينها إحدى عشرة سنة ونصف، قال العلامة أبو المظفر بن قزأوغلي في تاريخه:" كانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام وجبن وإحجام، ومحبةٍ للعلم وانتقام من العلماء، وميلٍ إلى الصلاح وقتل الصلحاء، وكان الغالب عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحدٌ قط،... وقتل من العلماء والكتَّاب والأماثل مالا يحصى، وكتب على المساجد والجوامع سبَّ أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم، وقد كانت نهاية الحاكم غامضة وتضاربت الروايات في موته بين قائلٍ بمقتله على يد رجل من بني حسين ثار بالصعيد وبين قائلٍ بمقتله على يد أخته ست الملك وكان ذلك سنة أحدى عشر وأربعمائة، أنظر المزيد حول ترجمته في، ابن خلكان، وفيات، 292/5- 298، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 192/4- 195، الذهبي، العبر، 211/2.

(5) محمد كامل حسين، **طائفة الدروز تاريخها وعقائدها**، دار المعارف، مصر، 1962، ص3.

الإسماعيلية، والذين يمثلون مدرستها القديمة، وقد كان تشكُّل هذه الطائفة في أوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.[1]

وينتشر معتنقو هذه الطائفة في مناطق عديدة من بلاد الشام، فمنهم من يقيم في الشوف بلبنان ومنهم من يقيم بجبل الدروز في جنوب سوريا وكذلك في هضبة الجولان المطلة على فلسطين وآخرون يقيمون في شمال فلسطين،[2] وهم لا يحبذون تسميتهم بالدروز ويستنكرون أن ينسبهم أحد إلى الداعي نشتكين الدرزي[3] الذي يرمونه بالإلحاد والخروج عن دعوتهم ومعتقداتهم، ويفضلون أن يطلق عليهم لقب " الموحدين" وهو الاسم الذي عرفوا به في كتبهم المقدسة[4] ومن بين أشهر دعاة هذه الطائفة تأثيرا – حتى أنهم تنسب إليهم بداية هذه الدعوة –، حمزة بن علي الزوزني ويعرف باللباد والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخاري الدرزي، والذين اشتهروا في مصر بتأليه الحاكم[5] والمعلومات حول هؤلاء الثلاثة قليلة ومضطربة مما اكتنف الغموض مصادر دعوتهم ومن أول من بدأ بها[6]

انتقل حمزة بن علي إلى مصر قادما من بلاد فارس مسقط رأسه سنة 405هـ/1014م، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يفدون إلى دار الحكمة التي أسسها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة 395هـ/1004م[7] وأخذ ينشر في الخفاء الدعوة إلى تأليه الحاكم بأمر الله ليجهر بها بعد ثلاث سنوات 408هـ/1017م، وقد صنَّف كتابًا بعنوان " المصحف المنفرد بذاته" ذكر فيه بأنَّ روح الله تعالى حلَّت في

---

(1) نجلا أبو عزالدين، **الدروز في التاريخ**، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1985، ص9، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، 247/4.

(2) محمد كامل حسين، طائفة الدروز، ص 7-8.

(6) هو محمد بن إسماعيل الدرزي ويعرف بأنوشتكين الدرزي، وقد كان من تلاميذ حمزة بن علي ودعاته، وكان يسمي نفسه "سند الهادي"، لأنَّ الهادي هو حمزة بن علي الزوزني، ويشير حمزة في رسائله على ما كان بينه وبين الدرزي من علائق وخصومات، وذلك في الرسالة الموسومة بـ "الغاية والنصيحة"، ففيها يحمل على الدرزي الذي هو نشتكين ويقول:" إنَّهُ تغطرس تعلى الكشف بلا علم ولا يقين، وهو الضد الذي سمعتم بأنَّهُ يظهر من تحت ثوب الإمام، ويدَّعي منزلته، وكان من جملة المستجيبين حتَّى تغطرس وتجنَّد، وخرج من تحت الثوب (لثوب هو الدَّاعي) والسترة التي أمرهُ بها إمامه حمزة بن علي الهادي إلى توحيد مولانا جلَّ ذكره"، أنظر، محمد عبد الله عنان، الحاكم بأمر الله ص320.

(3) محمد كامل حسين، طائفة الدروز، ص8، عبد الله عنان، أسرار الدعوة، ص321.

(4) عبد الله النجار، **مذهب الدروز والتوحيد**، دار المعارف، مصر، 1965م، ص111-114، محمد حسين كامل، طائفة الدروز، 77-79.

(5) عبد الرحمن بدوي، **مذاهب الإسلاميين**، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1973، 593/2.

(6) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت 845هـ)، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تح، جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ط2، القاهرة، 1416هـ/1996م، 56/2.

آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ثم إلى ابنه الحاكم، بمعنى أنَّ الحاكم قد أصبح إلهًا في نظرهم عن طريق الحلول.[1]

وقد وضع حمزة بن علي ميثاقاً أطلق عليه ميثاق ولي الزمان، وقد ذهب فيه إلى تأليه الحاكم بأمر الله تأليهًا صريحًا، وأوجب على كل من يمارس شعائر دينه أن يعترف بكل محتوياته، وأن يتعهد بالإيمان بكل فقراته، وقد جاء في مقدمة الميثاق ما نصه: " هذا هو الميثاق والعهد الذي أمر مولانا الحاكم جلَّ ذكره، بكتابته على جميع الموحدين الذين آمنوا به جلَّ ذكره، وليوفوا بعهدهم الذي عاهدوا.... ثم وليشهد بذلك ذوا عدلٍ من الموحدين السابقين على كل ميثاق ومن آب ممن آمن إلى الكفر، ولم يولِّ وجهه قِبل القادر القاهر مولانا الحاكم البار، فلسوف يجعل له مولانا فتنة ومتاعًا إلى حين...."[21]

استنكر لعقيدة الدروز هذه، طائفة كبيرة من المسلمين ومنهم الدعاة الإسماعيلية، والتي يعدُ الدروز طائفة من طوائفها، فقد استدعى انحراف عقائدهم أكبر علماء الإسماعيلية في العراق عبد الحميد الكرماني[3] إلى أن يترك مقره وينتقل إلى مصر لكي يساهم في القضاء على أصحابها، وكتب في ذلك رسالة عرفت "بالرسالة الواعظة" يثبت فيها كفر من يؤمن بعقيدة تأليه الحاكم بأمر الله، ولم يترك الكرماني مصر إلاَّ بعد مقتل الحاكم[4].

ويؤمن الدروز في عقيدتهم بتناسخ الأرواح أو التقمص، بمعنى أنَّ الإنسان إذا توفي وصعدت روحه فإنها لا تذهب إلى الحياة البرزخية المعترف بها عند المذاهب الإسلامية، ولكنها تتقمص مولودًا جديدا، فالنفس لا تموت بل يموت قميصها (الجسم) ويصيبه البلى فتنتقل الروح منه إلى جسم بشري آخر يولد

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 186/4، وأنظر، حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق، 247/4، محمد أحمد الخطيب، المرجع السابق، ص 223، محمد فرقاني، **عرض ودراسة لل "المصحف المنفرد بذاته" للنبي الكذاب حمزة بن علي الفارسي**، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية عدد 22، مجلد 1، ص146- 149.

[2] للإطلاع على كامل الميثاق راجع محمد عبد الله عنان، الحاكم بأمر الله، ص403.

[3] هو حميد الدين، أحمد بن عبد الله الكرماني (ت412/1022م) الداعي في عهد الحاكم بأمر الله، والملقَّب بحجَّة العراقيين وكبير دعاة الإسماعيلية في العراق وصاحب المؤلَّفات العديدة في المذهب الإسماعيلي وإثبات الإمامة للفاطميين، والرَّد على مخالفيهم، كان مسؤولاً عن شؤون الدعوة الثقافية في فارس والعراق والقاهرة، وفد على مصر سنة 408هـ/1017م بناءً على طلب داعي دعاة الدولة الفاطمية في عهد الحاكم وهو المأمون ختكين الضيف، للنظر في أمر الدعوات الجديدة التي تهدف إلى الغلو والانحراف عن واقع وأسس الدعوة، أنظر مقدمة المحققين، محمد كامل حسين، محمد مصطفى حلمي، **راحة العقل، للداعي أحمد حميد الكرماني**، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت، مصطفى غالب، **تاريخ الدعوة الإسماعيلية**، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط2، بيروت، د ت، ص229-230، عارف تامر، أربع رسائل إسماعيلية، ص39-40، محمد فرقاني، المرجع السابق، ص147.

[4] محمد حسين كامل، الطائفة الإسماعيلية، ص43.

حديثًا فتحلُّ فيه، وبذلك فالعالم عندهم لا يزيد ولا ينقص فكلَّما مات إنسان ولد آخر لتحلَّ فيه روح المتوفى قبله وهكذا [1]، وحين يحدث ذلك الانتقال للروح فإنها تحمل معلومات عن دورها في الجيل السابق أي في الجسم الذي كانت تتقمصه قبلاً فتُحدث أو تنطق بما تذكره من وقائع عن حياتها السابقة [2].

وينقسم مجتمع الدروز إلى طائفتين هما: الروحانيين (العقال) والجسمانيين (الجهال)، فأما الأولى فهي الطائفة المستنيرة التي تلمُّ بالمذهب الدرزي وبيدهم مفاتيح جميع أسرار المذهب الداخلية والخارجية وهي تقسم إلى: رؤساء وعقلاء وأجاويد، وأمَّا الطائفة الثانية، فهم الذين لا يبحثون في الروحيات بل يبحثون في الدنيويات ويقسم إلى قسمين: أمراء وجهال، ولا يحق لهذه الطائفة الدخول في مجالس طبقة الروحانيين بأي حال من الأحوال ويعتبرون جهالا مهما علا كعبهم في التعليم والثقافة، إلا بعد اجتياز اختبار طويل وصعب يظهر فيه استعدادا لتلقي أصول المذهب فيؤخذ عليه العهد بالتبرؤ من جميع الأديان والمذاهب، وقد وضع صيغة هذا العهد حمزة بن علي والذي أسماه "ميثاق ولي الزمان"[3].

ويحرص الدروز أشد الحرص على كتمان عقائدهم السرية، وينكرون ما يؤخذ منها، بل قد يذمونها أمام المعترضين رياءً واستتارً، حتى صارت عقيدة مهمة من عقائدهم وملازمة للفرد الدرزي في كل أمر من أمور حياته، لأنها عقيدة التصقت بنفسيته وتكوينه، مما أظهرهم دائمًا بمظهرين المظهر الحقيقي الباطني والذي لا يعرفه إلا الدرزي فقط، والمظهر الخارجي الذي يتقلب فيه حسب المصالح والأهواء، وقد حرصوا على هذا الكتمان المطبق لأصول مذهبهم وعقائدهم طيلة قرون،[4] ولا يرون فيه تقية في المعنى والقصد

---

[1] عبد الله النجار، مذهب الدروز، ص61، عبد الله أمين، دراسات في الفرق والمذاهب، ص 146- 147، حنا أبي راشد، **جبل الدروز**، نشر مكتبة زيدان، ط1، مصر، 1925، ص 44.

[2] وحول فكرة النطق بعد التقمص فقد تباينت المواقف داخل الطائفة الدرزية بحد ذاتها، فهذا الكاتب الدرزي عبد الله النجار يكذِّب هذا الاعتقاد ويعتبره أمرا خرافيًا ومن سذج العامة، وأما الدكتور سامي مكارم – والذي ينطق باسم مشيخة الدروز– فيرى أنَّ القول بهذا ممكن باعتبار أن عملية التقمص لا يتعارض مع تذكر الماضي، خاصة عندما ندرك أنَّ نزعات الفكر اللطيفة حسب عقيدة التوحيد تنطوي عند الموت في أعماق النفس المتنقلة من جسد إلى جسد، وهذه النزعات والأفكار اللطيفة كبذور انطلاقة الحياة التالية، هي التي تحدد وضع التقمص المقبل، فلابد لبعض الأذهان إذا صادفت بعض الحالات المناسبة أن تتذكر الماضي المباشر الذي كانت تعيش فيه، أنظر: عبد الله النجار، المرجع السابق، ص56- 60، سامي مكارم، أضواء على مسلك التوحيد، ص127.

[3] محمد كامل حسين، طائفة الدروز، ص31-32، عبد الله أمين، دراسات في الفرق والمذاهب، 230، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، 250/4.

[4] عبد الله النجار، مذهب الدروز، ص18-19، محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية، ص 293 -294

العادي والشائع، وهو الخوف من الاستتار من المكروه، وإنَّما مسلك ونهج أساسي وأصل من عقيدتهم، فهي كما يزعمون وقاية للحقيقة وللمستضيئين بها ولمن لا يستطيعون إدراكها.[1]

وعلى هذا فإن معرفتنا لأصول عقيدة الدروز ومنطلقاتها سيمكننا بلا شك من تحليل ردود فعل هذه الطائفة المحسوبة على الطرف الإسلامي من الحملات الخارجية على بلاد الإسلام عمومًا وحملات الصليبيين على وجه الخصوص وكذا طبيعة العلاقات التي تميزها بباقي الطوائف الإسلامية، وجهود القوى السياسية الدرزية في المساهمة في بناء جبهات مقاومة موحدة في سبيل إجلاء الصليبيين بعد تمكنهم من تكوين إمارات والتوطن ببلاد الشام والجزيرة.

لقد أدى هذا الانشطار داخل الصف الإسلامي إلى فرق ومذاهب عقب وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى ضعف وحدة الأمة والدولة الإسلامية على السواء، وظلت ارتدادات ذلك الفعل تتحكَّم في مسار التطور السياسي والحضاري للدولة الإسلامية على اختلاف القوى التي حكمت فيها، فكان من أثر ذلك الاعتقاد الطائفي المشحون بالتعصُّب لدى أصحابها أن سعت كل طائفة للاستقواء بالسلطان السياسي بغية التمكين لعقيدتها وفكرها، وهو ما تجلَّى خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين؛ أين عرف المشرق الإسلامي سجالاً في التفوق المذهبي والسياسي بين القوى الإسلامية.

---

[1] محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية، ص295.

الفصل الثاني

الفصـل الثاني

التوجه المذهبي وآثاره على العلاقات بين القوى الإسلامية في العراق والجزيرة وبلاد الشام ومصر خلال القرن 5هـ/11م

1- الخلافة العباسية حاضنة المذهب السني

2- البيت السلجوقي بين نصرة المذهب والطموح السياسي

3- الدولة الفاطمية أمل الشيعة في خلافة المسلمين

4- بلاد الشام مقصد حملات الصليبيين وميدان الصراع المذهبي.

الفصل الثاني: التوجه المذهبي وآثاره على العلاقات بين القوى الإسلامية في العراق والجزيرة وبلاد الشام ومصر خلال القرن 5هـ/11م

امتدت الجبهة الإسلامية التي شهدت وقائع تلك الحروب بين المسلمين والصليبيين من الحدود الشمالية لمنطقة الأناضول (آسيا الصغرى) إلى الجنوب حيث مصر، مرورًا بمنطقة العراق والجزيرة الفراتية وبلاد الشام، وقد عرفت هذه الجبهة سيطرة العديد من القوى تباين حكمها بين العباسيين أصحاب الخلافة على ديار الإسلام والسلاجقة الأتراك – منقذو بني العباس من تسلط البويهيين الشيعة–، إلى الفاطميين الإسماعيلية وبعض القبائل العربية في بلاد الشام والجزيرة.

وقد كانت هذه القوى الإسلامية متمذهبة متبنية لتوجه مذهبي معين في إطار الدين الإسلامي، والتي انبثقت عن الخلاف بين المسلمين حول الأحقية الشرعية في سياسة المسلمين وحكمهم، فتعددت بين القوى القائلة بشرعية حكم بني العباس كاستمرارية لحكم الأمويين والخلفاء الراشدين، وبين المعتقدة إيمانًا بأحقية حكم العلويين (شيعة علي وذريته) دون غيرهم باعتبار أنَّ حكمهم إلهي لا ينازعهم فيه أحد ولا يشاركهم فيه مشارك.

أثَّر ذلك التوجه المذهبي للقوى الإسلامية في رسم سياساتها الداخلية وتوجهاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما حدَّد طبيعة علاقاتها ببعضها البعض ومع من جاورهم من القوى الأجنبية كالبيزنطيين والصليبيين بعد ذلك، بل أنَّ منها من كان المذهب الديني أساسًا لتشكُّلها كحال الفاطميين مثلاً[1]، وقد كان التعصُّب المذهبي في كثير من الأحيان صفة ملازمة لأغلبها، بلغت في فترات معينة ووفق ظروف محدَّدة حدَّ التطرف والغلو ضد مخالفيها، بل أنَّ منها من ارتمى في أحضان الأعداء وحالفهم ضد إخوانهم نصرةً لما يعتقد به، كما سنبين لا حقًا.

وقد تعددت أساليب التمكين للمذهب المتبنَّى من قبل القوى الإسلامية الحاكمة في المنطقة بغية تحقيق الغلبة السياسية، بين السعي إلى التفوق العسكري بضم العديد من الأقاليم لنفوذها، وبين تعزيز

---

[1] يطلق اسم الفاطميين في تاريخ الدول على أبناء إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق، ويسمون من أجل هذا بالإسماعيليين، وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحيانًا باسم آل البيت، فلمَّا استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلويين، ثمَّ جاء الاسماعيليون ففضلوا الانتماء إلى الزهراء، لأنَّهم يقيمون حقهم في الخلافة على أنَّهم أسباط النبي صلى الله عليه وسلم وأنَّهم أبناء الوصي علي بن أبي طالب، ومن أجل هذا تسمَّى الفاطميون بهذا الاسم، لأنَّ بنوة الزهراء نسبٌ لا يدعيه العباسيون، فكانوا يعتمدون على هذا النسب في طلبهم للخلافة، غير أنَّ هذا النسب قد لاقى إنكارًا وتشكيكًا من طرف خصومهم العباسيين، أنظر، عباس محمود العقاد، **فاطمة الزهراء والفاطميون**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013، ص68، 74.

الحضور الفكري للمذهب من خلال بناء المدارس ودور العلم وتشجيع العلوم وفق الاعتقاد الطائفي المغلق الذي صارت عليه تلك القوى، فيقول في هذا الصدد أيمن شاهين سلام[1]: "ولذا فقد وجدنا أنَّ المعاهد العلمية التي ظهرت في تلك المرحلة قد واكبت الحركة الفكرية في العالم الإسلامي منقسمة على نفسها إلى فكر شيعي وفكر سني، وبدأت تظهر في ذلك الوقت دور العلم على المذهبين الشيعي والسني لأنَّ الفكر الديني في تلك المرحلة كان دعامة رئيسية من دعائم الحكم والسياسة".

وفيما يلي سنعرض وضع القوى الإسلامية الحاكمة في المنطقة التي استهدفتها الحملة الصليبية الأولى؛ في ظل الاعتقاد الطائفي الذي كانت تتبناه كل واحدة، وهذا لمحاولة الوقوف على أثر ذلك الاعتقاد في رسم أوضاعها الداخلية وتحديد علاقتها بالقوى الأخرى، للوصول إلى تحليل عام للوضع بالمشرق الإسلامي في مواجهة العدوان الصليبي في البدء ثمَّ فهم طبيعة المواقف المتخذة من قبلها في مقاومة الكيانات الصليبية التي تشكلت بعد ذلك.

1_ الخلافة العباسية حاضنة المذهب السني:

لقد كان من نتيجة اتساع رقعة الخلافة العباسية (132هـ-656هـ/749م-1258م)، واشتمالها على عديد الأقاليم في الشرق والغرب أن صارت تخضع لسيطرتها العديد من الأجناس البشرية الغير عربية كالفرس والترك، حيث دأب الخلفاء العباسيون الاعتماد عليهم في الجيش والإدارة ومختلف الوظائف السياسية، وذلك نتيجة ميل العناصر العربية التي قامت عليها الخلافة إلى حياة الترف والملذات، وفقدانهم لعصبيتهم وغِلظتهم التي جعلوا بها الدولة الإسلامية تمتد إلى أقاصي شرق العالم القديم بعد أن فرضوا سيطرتهم على غربه[2].

ابتعدت بذلك الجيوش العباسية من الأصل العربي عن دورها في الفتح والدفاع عن أرض الإسلام من الغزاة المتربصين به، حيث يشخص ابن خلدون[3] هذه الحالة بقوله: "وأما الجيل الثالث فينسون عهد

---

(1) **المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني**، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي (غير منشورة)، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة طنطا، 1999، ص28.

(2) راجع حول أسباب تراجع سلطة الخلفاء العباسيين لصالح غيرهم من الأجناس المسلمة الغير عربية (كالفرس والأتراك...)، عبد الباري محمد الطاهر، **الأتراك والخلافة في العصر العباسي الأول**، رسالة ماجيستير، قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1409هـ/1989م، ص142 وما بعدها.

(3) يرى ابن خلدون أن عمر الدول ثلاثة أجيال، لكل جيل أربعون سنة، فالجيل الأول مؤسس الدولة لا يزال على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها، فلا تزال سورة العصبية محفوظة فيهم فحدُّهم مرهف وجانبهم مرهوب، أما الجيل الثاني فيتحول حالهم بالملك من البداوة إلى

البداوة والخشونة كأنْ لم تكن، ويفقدون حلاوة العِزِّ والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوهُ من النَّعيم وغضارة العيش فيصيرون عِيالاً على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ...، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة..."

غير أن تولي تلك الأجناس وبخاصة الأتراك المناصب الإدارية والعسكرية، وتدرجهم فيها صار أكبر نقمة جناها الخلفاء العباسيون المتأخرون على حكمهم[1]، ذلك أن هؤلاء الأتراك ذوو عصبية لم يرضوا بما كان يمنح لهم من وظائف بسيطة، بل كانوا يتطلَّعون إلى المناصب العليا، ودفعتهم عصبيتهم إلى الطمع في منصب الخليفة نفسه، وعن عصبية تلك الأقوام يقول ابن خلدون[2]:" وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبة السؤدُدَ والإشباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس".

أدَّى هذا الوضع الذي آلت إليه الخلافة العباسية أن صار الخلفاء يمثلون السلطة الروحية فيها، في حين أصبحت السلطة الزمنية بيد هؤلاء الأتراك الذين أضعفوا من سلطان الخلفاء العباسيين، فلم يعد للخلفاء معهم أمر، بل أدَّى استفحال أمرهم أن صار بأيديهم عزل وتولية الخلفاء كما حدث مع المتوكل على الله (232هـ - 247هـ/847م- 861م)[3].

غير أنَّ الأخطر في أمر هذا الازدواج على مستوى السلطة ببغداد هو الاختلاف المذهبي الذي ابتدأ خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي واستمر إلى النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حيث كان يحكم باسم السلطة الزمنية في بغداد بنو بويه المتبنون للمذهب

الحضارة ومن الشظف إلى الترف، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء غير أنهم يبقوا محافظين على بعض أحوال الجيل الأول لاتصالهم بهم، أما الجيل الثالث فتفصيله ما جاء في المتن، ابن خلدون، المقدمة، 336/1.

[1] مصطفى طه بدر، **محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول**، الهيئة المصرية العليا للكتاب، ط2، القاهرة، 1999، ص18.

[2] المقدمة، 272/1.

[3] نادية حسني صقر، **مطلع العصر العباسي الثاني**، دار الشروق، ط1، جدة، 1983، ص11-13، عبد العزيز الدوري، **دراسات في العصور العباسية المتأخرة**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 2011، ص35، عبد الباري محمد الطاهر، المرجع السابق، ص235-238.

الزيدي وهو أحد الفرق الشيعية[1]، بخلاف خلفاء بني العباس المدينون بالإسلام على المذهب السني، حيث عبَّر عن ذلك كانار بقوله[2]:" باتت إمارة الخلفاء لأول مرة بين يدي فارسي شيعي معلن"، فكان هذا الوضع حالة شاذة في تاريخ الخلافة خلقت واقعًا مزعزعًا وغريبًا إن صحَّ التعبير.

ويبرز شذوذ هذا الوضع وغرابته في تعايش سلطتين يرى كل واحد منهما في الآخر على أنه ضال وعقيدته تشوبها الشوائب، بل أنَّ التطرف والغلو وصل بهما إلى حدِّ التكفير ونصب كل واحد منهما العداء للطرف الآخر، والعمل على التخلص منه بالتحالفات أحيانا مع المسلمين وغير المسلمين وبالتمكين لمذاهبهم واضطهاد مخالفيهم أحيانا أخرى.

على أنَّ التعايش لم يكن بالأمر الصعب أو الغير ممكن، لولا التطرف في تبني العقيدة الذي ميَّز المجتمع الإسلامي خلال تلك الفترة ، ليصبح هذا الوضع في حقيقة الأمر نوع من سخرية الأقدار ودليل على الإفلاس السياسي، إذا كيف سيحمي هؤلاء الحماة الجدد الخلافة بفكر عقدي لا يعترف أصلاً بأحقية العباسيين فيها[3]، حيث يقول في هذا الصدد صاحب الكامل[4]:" إنَّ الديلم كانوا يتشيَّعون، ويغالون في التشيُّع، ويعتقدون أنَّ العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة".

وحتَّى أنه هناك فرق كبير بين التعاليم والمبادئ السنية والزيدية (الشيعية) من الوجهة السياسية فضلاً عن التعاليم والمبادئ الشرعية، وعليه فسلاطين بني بويه -كما أشرنا- كانوا يمارسون سلطانهم في ظل

---

[1] وقد كان سبب ظهورهم أنَّ الحسن بن علي بن الحسن بن زيد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الزيدي الأطروش، دخل الديلم في أوائل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وأقام نحو أربع عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ويقتصر منهم العشر ويدافع عنهم، فأسلم منهم خلقٌ كثير، وتلقَّب بالناصر للحق، واجتمعوا عليه، وبنا في بلادهم مساجد، وحثَّهم على الخروج معه إلى طبرستان حتَّى أجابوه فاستولى عليها في جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثمائة، وعاد إلى بغداد ومات الناصر – بعد أن ملك طبرستان ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأيامًا– في شعبان سنة أربعَ وثلاثمائة، ولهُ تسعٌ وسبعون سنة، فبقيت بعدهُ طبرستان في أيدي العلوية اثنتي عشرة سنة أي سنة 314هـ/926م، ثمَّ انتقلت عنهم إلى أمراء الديلم حين دخل مرداويج بن زيار الديلمي هذا الإقليم، وقد كان أبناء أبو شجاع بويه جندًا في جيوشه قبل يصير الأمر لهم في بلاد الديلم، أنظر، المقريزي تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (ت845هـ)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تح، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1997، 129/1-131.

[2] Canard (Marius): **Histoire de la dynastie des hamdanides de la Syrie du nord et de la Djazira**, PUF,Alger, 1953.

[3] Arnold**, The Caliphate**, Oxford, 1924, p61 ، وفاء محمد علي، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ص41.

[4] ابن الأثير، 208/7.

خلفاء لا يدينون لهم بالتبعية والولاء تبعًا لتعاليم مذهبهم[1]، ممَّا خلق جوًا مشحونًا بين القوتين طيلة سنوات التسلط البويهي التي دامت لما يزيد عن القرن من الزمن (334هـ-447هـ/945م-1055م)، ترجمتها فتنٌ وصراعات مذهبية بين معتنقي كل طائفة أفنت من الخلق الكثير واستنفذت من القوة ما كان يمكن بفضلها الحفاظ على عِزَّة الإسلام والمسلمين.

صارع الخلفاء العباسيون حماة أهل السنة في هذا الصدد على جبهتين واحدة داخلية مع بني بويه الشيعة، وأخرى خارجية تمثلت في الدعوة الفاطمية الناشئة –الشيعية هي الأخرى- والساعية من مقر حكمها بمصر إلى تزعم الخلافة الإسلامية على حساب بني العباس من منطلق الأحقية بحكم المسلمين، فكان أن تعرَّض الخلفاء العباسيون لعديد المحاولات بغية عزلهم، فكانت تارة من قبل البويهيين أنفسهم وتارة بدعم وتحريض من الفاطميين، وذلك لاستخلافهم بمن يؤمن بالعقيدة الشيعية ويُمكِّن لها.

ومن بين المحاولات التي بادر بها بنو بويه لتحقيق هذا المسعى والتي ابتدأت مع قيام سلطنتهم ببغداد، حين سعى معز الدولة أحمد بن بويه[2] لنقل الخلافة العباسية إلى البويهيين لاعتقاده بأنَّ العباسيين قد اغتصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها فيقول عن ذلك ابن الأثير[3]:" لقد بلغني أنَّ معز الدولة استشار جماعةً من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوي أو لغيره من العلويين، فكلُّهم أشار عليه بذلك ماعدا بعض خواصه فإنَّه قال: ليس هذا برأي فإنَّك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنَّه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلِّين دمه، ومتَّى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحَّة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه فأعرض معز الدولة عن ذلك".

ويشير إلى ذلك أيضًا محمد بن عبد الملك الهمذاني[4] فيذكر بأن معز الدولة عزم على أن يبايع أبا الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلوي، فمنعه الصيمري من ذلك وقال:" إذا بايعته استنفرَ عليك أهل

---

[1] محمد جمال الدين سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت، ص315.

[2] هو أبو الحسن أحمد بن أبي شجاع بويه بن فناخسرو، يلقَّب بمعز الدولة، كان صاحب العراق والأهواز، وكان يقال له الأقطع لأنَّهُ كان مقطوع اليد اليسرى، وكان وصوله إلى بغداد من جهة الأهواز فدخلها متملكًا سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة في خلافة المستكفي، وملكها بلا كلفة، توفي يوم الاثنين سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ستة وخمسين وثلاثمائة ببغداد ومولده كان سنة ثلاثة وثلاثمائة، أنظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 174/1-176.

[3] الكامل، 208/7.

[4] تكملة تاريخ الطبري، ص 355.

خراسان وعوام البلدان وأطاعه الديلم ورفضوك، وقبلوا أمره فيك، وبنو العباس قومٌ منصورون، تعتل دولتهم مرةً وتصحُّ مرارًا، وتمرض تارةً وتستقل أطوارًا، لأنَّ أصلها ثابت وبنيانها راسخ".

وقد استقر الرأي عند معز الدولة في الأخير بالعدول عن فكرته والأخذ برأي خلصائه، ومن ثمَّ نقل الخلافة إلى أبي القاسم الفضل بن المقتدر بالله الذي تلقَّب بالمطيع لله (334هـ-363هـ/946م-974م)[1]، فكان عدوله لغاية الحفاظ على ملكه وليس لاقتناعه بشرعية بقاء بني العباس على كرسي الخلافة، فيشير إلى ذلك ابن الكثير[2] بقوله:" فلمَّا فهم ذلك صرفه عن رأيه الأول، وترك ما كان عزم عليه للدنيا لا لله عزَّ وجل".

ولعلَّ هذا التعبير لابن كثير عن قرار عدول معز الدولة البويهي على إسقاط الحكم العباسي بكونه قرارًا سياسيًا، قد اتضحَّ جليًا فيما بعد حينما سعى حكام هذه الدولة في نشر عقيدتهم الشيعية والتمكين لها في أرجاء الخلافة على حساب المذهب السني المذهب الرسمي للعباسيين، وذلك من خلال بناء دور العلم والمدارس والمكتبات والمساجد المسمَّاة عندهم بالعتبات المقدَّسة والتي دُفن فيها أئمتهم الذين يعتقدون بعصمتهم، فكانت تلك المنشآت مراكز للدعاية لمذهبهم أسهمت بشكل كبير في انتشار المعتقدات الشيعية وإصباغ الخلافة السنية بها[3].

---

[1] هو أبو العباس، وقيل أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر بالله، أمَّه أمُّ ولد، يقال لها مشعلة، أدركت خلافته، وماتت سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، بويع لهُ في جمادى الآخرة من سنة ثلاثمائة وأربعة وثلاثون ولهُ ثلاثٌ وثلاثون سنة وشهور واستمرت خلافته إلى غاية سنة ثلاثمائة وثلاثة وستون، كان كريمًا حليمًا زصل العلويين والعباسيين في يومٍ واحد بنيفٍ وثلاثين ألف دينار على قلة ذات يده، أنظر، ابن الجوزي، المنتظم، 46/14، 221، ابن دحية الكلبي، أبي الخطاب عمر بن الشيخ الإمام أبي علي حسن بن علي أبي البسام الفاطمي (ت633هـ)، **كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس**، تص وتع، عبَّاس العزاوي، مطبعة المعارف، بغداد، 1365هـ/1946م، ص121-122، ابن الأثير، الكامل، 208/7، الداواداري، الدرر (الدرة السنية في تاريخ الدولة العباسية)، 391/5.

[2] البداية والنهاية، 169/15.

[3] ومن أمثلة تلك الجهود التي قام بها البويهيون في سبيل التمكين للعقيدة الشيعية ما قام به أبو علي سوار الكاتب وهو أحد رجال عضد الدولة (ت372هـ/982م) حيث أنشأ دار كتب في مدينة البصرة وأخرى في مدينة "رام هرمز" وجعل فيهما إجراءً على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ بهما، كما أسس وزير بهاء الدولة البويهي وهو أبو نصر سابور بن أردشير دارًا للعلم في الكرخ عام 383هـ/993م ووقف فيها كتبًا كثيرة بلغت على حد وصف ابن الأثير عشرة آلاف وأربعمائة مجلد في مختلف أصناف العلوم، وقد أسند النظر في أمرها ومراعاتها إلى شخصيتين علويتين يعاونهما أحد القضاة، وبعد وفاة سابور آلت مراعاة هذه الدّار إلى الشريف الرضى نقيب الطالبيين، أنظر، الكامل، 464/3، ابن كثير، البداية والنهاية،447/15، الحنبلي، شذرات، 104/3.

ولكون المذهب الديني خلال ذلك الزمن دعامة أساسية لاستمرارية الكيان السياسي بحكم ولاء الرعية لخليفة الزمن الشرعي[1]، فإنَّ الخلافة العباسية كذلك سعت في فترات صحوتها من القيود البويهية لدعم مذهبها السني[2]، كما كان في عهد الخليفة القادر بالله (381هـ-422هـ/991م-1031م)[3] حين أعان الحنابلة الذي كان على مذهبهم في نزاعهم مع الشيعة وهاجم المعتزلة وأخذ عليهم عهدًا بعدم إظهارهم الاعتزال والرفض وإلا تعرضوا للعقاب والتنكيل بما يتعظ به أمثالهم[4]، فيقول عن ذلك ابن دحية الكلبي[5]:" وأكرم الحديث وأهله ومنحهم عطاءه وبذله".

كما وأصدر رسالة عرفت بالاعتقاد القادري جاء فيها مواعظ وتفضيل مذاهب أهل السنَّة والردِّ على أهل البدع من المعتزلة والشيعة وغيرهم، وذكر فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وتمَّ بموجبه عزل خطباء للشيعة ووُلِّي خطباء غيرهم من أهل السنة، وكان ذلك سنة 420هـ/1029م[6].

كما سار الخليفة القائم بأمر الله (422هـ-467هـ/1031م-1075م) على نهج والده وسعى للتمكين للمذهب الحنبلي وأهل السنة عمومًا وأعاد إخراج اعتقاد والده بعد سنتين من إصداره، أي سنة 422هـ/1031 انتصارًا به للقاضي أبي يعلى الفراء الحنبلي (ت458هـ/1066م)[7] في نزاعه مع

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، 314/1.

[2] يقول ابن الأثير عن الوضع في الخلافة العباسية بعد أن تولَّى القادر بالله الخلافة" كانت الخلافة قبله قد طمع فيها الديلم والأتراك، فلمَّا ولِّيها القادر بالله أعاد جِدَّتها وجدَّد ناموسها، وألقى الله هيبتهُ في قلوب الخلق فأطاعوه أحسن طاعة وأتمها"، الكامل، 197/8.

[3] هو القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، بويع بالخلافة يوم الأحد الثامن عشر من شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وأقام خليفة إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر توفي في الحادي عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، في أيامه فتحت الهند والسند فصحَّ وعد رسول الله صل الله عليه وسلم، كما صلب الكثير من الباطنية والرافضة والزنادقة والمعتزلة وأحرق كتبهم، أنظر، ابن دحية الكلبي، النبراس، ص127-129.

[4] النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص127-129.

[5] نفسه، ص127.

[6] أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي (ت597هـ)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تح، محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، 197/15، ابن الأثير، الكامل، 197/8، سبط بن الجوزي شمس الدين أبي المظفر يوسف (ت654هـ)، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، تح، محمد أنس الخن وكامل محمد الخرَّاط، دار الرسالة العالمية، ط1، دمشق، 2013، 352/18، ابن كثير، البداية والنهاية، 626/15-627.

[7] هو أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي، ومولده سنة ثمانين وثلاثمائة، وعنه انتشر مذهب أحمد رضي الله عنه، وكان إليه قضاء الحريم ببغداد بدار الخلافة، وهو مصنِّف كتاب الصفات، وانتهت إليه رياسة الحنابلة في زمانه، ومات يوم الاثنين التاسع عشر أو العشرين من شهر رمضان، أنظر، ابن الجوزي، المنتظم، 98/16-99، ابن الأثير، الكامل، 378/8، الذهبي، العبر، 309/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 79/5، ابن كثير، البداية والنهاية، 10/16-11، الحنبلي، شذرات، 252/5.

الأشاعرة في مسألة صفات الله تعالى، كما وأنَّه انتصر لأهل الحديث والحنابلة في نزاعهم مع الشيعة ببغداد سنة 458هـ/1066م، وأصدر توقيعًا نصَّ فيه على لعن من يسبُّ الصحابة ويُظهر البدع[1].

واقتفى أسلافه الخليفة العباسي المقتدي بالله (467هـ-487هـ/1075م-1094م)، حيث أصدر في سنة 479هـ/1076م توقيعًا شديد اللهجة وجهه لشيعة الكرخ ببغداد يحذِّرهم فيه من الضلال في الاعتقاد، ووجوب التأسي بأهل السنة في مولاة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم الطعن فيهم، وإلا كانت عاقبة ذلك الخزي والوبال[2].

استمر ذلك الوضع خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي على مستوى دار الخلافة وفق تعصُّب كل سلطة لمذهبها فنشبت العديد من الفتن والصدامات العسكرية بين الطرفين، منها ما حدث في محرّم من سنة 402هـ/أوت1011م حين أذِن فخر الملك وزير بهاء الدولة البويهي للشيعة بالاحتفال بيوم عاشوراء في شوارع بغداد وما صاحب ذلك من غلق للحوانيت وتعليق المسوح وإبطال البيع والشراء وإظهار البكاء واللطم في الشوارع ودوران النساء حاسرات وجوههن ورؤوسهن ومنكرات أخرى[3]، فيقول ابن كثير عن ذلك[4]:" فلا جزاه الله عن السنة خيرًا وسوَّد الله وجههُ يوم الجزاء"، فكان ذلك سببا في حدوث اقتتال بين الطائفتين رفضًا من أهل السنة لتلك البدع حسب اعتقادهم.

وفيها أيضًا –أي سنة 402هـ/11011م- كتب الخليفة القادر بالله محضرًا ببغداد يتضمن القدح في النسب الذي يدَّعيه خلفاء مصر الفاطميون وعقائدهم، وأنَّهم زنادقة منسوبون إلى الخُرَّمية[5] إخوان الكافرين، وأنَّ الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملَّقب بالحاكم، حكم الله تعالى عليه بالبوار والدمار، وأنَّ

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، 95/16.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، 258/16.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، 82/15، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 199/18، الذهبي، العبر، 278/2.

(4) البداية والنهاية، 537/15.

(5) الخُرَّميه، بضم الخاء المعجمة وفتح الراء وكسر الميم، وفتح المثناة من تحت مشددة وفي آخره هاء، وهم فرقتان، فرقةٌ منهم كانوا قبل الإسلام، وهم المزدكية أصحاب مزدك أو مزدق الإباحي، كانوا يستحلون المحرَّمات كلُّها، وكانوا يقولون: إنَّ الناس كلهم شركاء في الأموال والحُرم، قتلهم أنوشروان في أيام مملكته، وقد توفي هذا الأخير قبل بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، والفرقة الثانية ظهرت في دولة الإسلام كالبابكية والمازيارية، ويسمون أيضًا بالمحمرة، وأمَّا اسمهم بالخرمية فإنَّما لأنهم اتبعوا شهواتهم، لأنَّ لفظ "خرَّم" يعني في الفارسية المرح الإباحي المتوخي للملذات الممتلئ سرورًا، قال عنهم ابن حزم:" الخرمية أصحاب بابك، وهم فرقة من فرق المزدقية، وهم أيضًا سر مذهب الإسماعيلية، ومن كان على قول القرامطة، أنظر، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص233 ، عبد المنعم الحفني، موسوعة الفرق والجماعات، ص211-212.

من تقدَّمهُ من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأنَّ ما ادعوه من الانتساب إليه زورٌ وباطل، وأنَّهم كفار وفُسَّاق زنادقة ملحدون معطلون للإسلام جاحدون، وقد أشهد عليه العديد من الفقهاء والقضاة وعلى رأسهم كبار شيوخ العلوية كالشريف المرتضى وأخوه الشريف الرضى[1].

وكانت فتنةٌ سنة 441هـ/1049م بعد أن مُنع الشيعة ببغداد من إقامة المآتم والطقوس يوم عاشوراء، فخالفوا الأمر فثارات غوغاء أهل السنَّة، واشتدت الفتنة وقتل وجرح من الخلق الكثير، حيث وصف ذلك الذهبي[2] بقوله:" وجرى ما لا يعبَّر عنه" وناصر أثناء تلك الفتنة كل طائفة منهما طائفةً من الجند على اعتقادهم، فكان أن ناصر الديلم الشيعة بينما ناصر الأتراك أهل السنة[3]، وعن ذلك أيضًا يقول القاضي علي بن المحسن التنوخي على لسان صاحب النجوم الزاهرة[4]:" أهل الكرخ طائفةٌ نشأت على سب الصحابة، وليس للخلافة عليهم أمر، ولعلَّ ضعف الخليفة أمامهم مردُّه ميل بني بويه إليهم في الباطن لكونهم أيضًا من كبار الشيعة، وهم يوم ذلك سلاطين بغداد".

وفي صفر سنة 443هـ/1051م عاودت الفتنة من جديد وزال الأنس بين السنة والشيعة الذي استمر طيلة سنة 442هـ/1050م، فعادوا إلى الاقتتال حين أحكم الشيعة على سوق الكرخ وكتبوا على الأبراج محمد وعلي خير البشر فمن رضي فقد شكر ومن أبى فقد كفر، فأنكر أهل السُنة اقتران عليٌّ مع النبي صلى الله عليه وسلم في هذا، فأضرمت نار الفتنة وأغلقت الأسواق وأخذت ثياب الناس في الطرق، فجيَّش السُّنَة الجموع واتجهوا لدار الخلافة يطلبون العون من الخليفة فوُعدوا إياه، وثار بالمقابل أهل الكرخ

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، 83/15، ابن الأثير، الكامل، 73/8، أبو الفدا، المختصر، 142/2-143، اليافعي، مرآة الجنان، 4/4.

(2) العبر، 278/2.

(3) الذهبي، العبر، 278/2، ابن كثير، البداية والنهاية، 710/15، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 49/5.

(4) ابن تغري بردي، 49/5.

(وهم شيعة) والتقى الجمعان فقتل منهم خلقٌ كثير، ونبشت وأحرقت عدَّة قبور للشيعة[1]، فعمدوا إلى خان[2] الحنفية فأحرقوه هم أيضًا وقتلوا مُدرِّسهم أبا سعد السرخسي[3].

كانت سنوات القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي في الحقيقة حافلة بالفتن المذهبية والصدامات الدامية بين السنة والشيعة على مستوى عاصمة الخلافة، مما انعكس سلبًا على الحياة السياسية فيها وأسهمت في نفس الوقت في حدوث اضطراب سياسي بباقي أقاليم المشرق الإسلامي كالشام والجزيرة بحكم الانتماء والتبعية المذهبية.

على أنَّ التعايش بين الطائفتين لم يكن بالأمر الصعب أو الغير ممكن التحقيق، إذ يُذكر أنَّه حدث سنة 442هـ/1050م اتفاق بين السُنَّة والشيعة على أنَّه متى وُلِّيَ ابن النسوي الشرطة ببغداد نزحوا عن البلد، فوقع الصلح بين الفريقين لهذا السبب، وصار أهل الكرخ يترحَّمون على الصحابة وصلُّوا في مساجد السُنّة وخرجوا كلُّهم إلى زيارة مشهد علي والحسين رضي الله عنهما، وتحابوا وتزاوروا وهذا شيء لم يعهد منذ مدة طويلة[4]، وكذلك وقع أمر الصلح بين الطائفتين سنة 488هـ/1095م[5].

وممَّا يبرز لنا مدى الاحتقان الذي كان يطبع أتباع كل طائفة في علاقتها بالأخرى، هو الاستغراب والتعجب الذي أبداه مؤرخو تلك الفترة من هذا الصلح الواقع سنة 442هـ/1050م، بل أنَّ منهم من شكك في النوايا من هذا الصلح، فيقول عنه ابن تغري بردي[6]:" فيها (يقصد سنة 442هـ) كان من

---

[1] يذكر أنَّه حين رجع السُنَّة من دفن رجل هاشمي قُتل في الفتنة، نهبوا مشهد موسى بن جعفر وأحرقوه، وأحرقوا ضريح موسى ومحمد الجواد، وقبور ملوك بني بويه من هناك من الوزراء، وأُحرق قبر جعفر بن المنصور ومحمد الأمين، وأمه زبيدة وقبور كثيرة جدًّا، وانتشرت الفتنة وتجاوزت الحد، أنظر، ابن الجوزي، المنتظم، 15/329-332، ابن الأثير، الكامل، 8/301-302، ابن كثير، البداية والنهاية، 719/15.

[2] استخدم الخان في العصور الإسلامية كمكان لاستضافة التجار والأجانب وإيوائهم داخل المدن وعلى الطرق والمفاوز، وعلاوة على ذلك فقد كان له استخدام آخر كداخلية للطلبة الغرباء عن المدينة والمترددين على دروس الفقه في مساجدها، وكان كل خان موقوفًا على طائفة بعينها من طوائف الفقهاء، أنظر، ياقوت الحموي، 341/2، أنور محمد زناتي، **معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية**، دار زهران للنشر، عمان، 2010، ص136.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 301/8، الذهبي، العبر، 282/2، اليافعي، مرآة الجنان، 48/3، ابن كثير، البداية والنهاية، 719/15، ابن تغري، النجوم الزاهرة، 52/5، الحنبلي، شذرات الذهب، 191/5.

[4] ابن الجوزي، المنتظم، 325/15، اليافعي، مرآة الجنان، 47/4، الذهبي، العبر، 280/2-281، ابن كثير، البداية والنهاية، 716/15-717، ابن تغري، النجوم الزاهرة، 51/5، الحنبلي، شذرات الذهب، 187/5.

[5] ابن الجوزي، المنتظم، 18/17، ابن كثير، البداية والنهاية، 147/16- 148.

[6] النجوم الزاهرة، 51/5.

العجائب أنَّه وقع الصلح بين السُنَّة والرافضة وصارت كلمتهم واحدة"، وأمَّا ابن كثير[1] فيقول:" وهذا عجيبٌ جدًّا، إلاَّ أن يكون من باب التقيَّة"، وفي قول آخر:"وكان هذا من العجائب".

وللأسف فإنَّ ذلك الصراع وتلك الفتن بين المسلمين في حاضرتهم، لم تقتصر على تناحر السنة والشيعة بل تعدَّى الأمر إلى بروز فتن ومصادمات داخل الطائفة الواحدة، إذ جرت خلافات بين الطوائف السنية (الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة) ومع المعتزلة والأشاعرة كذلك، بسبب التعصب المذهبي بينها، والذي كان متغلغلاً فيها على مستوى أصول الدين وفروعه، أوصلها إلى فتن مذهبية دامية، ولعلَّ الحنابلة كانوا من أشهر المعتدين واشتهروا بالعنف في معاملة خصومهم من أبناء المذهب الشافعي[2].

أخذ هذا الوضع في حاضرة الخلافة بغداد وباقي أقاليم المشرق يتغير بشكل متناقض خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بعد أن انتقلت زمام السلطة الزمنية لصالح السلاجقة الأتراك – المدينون بالإسلام على المذهب السني–، بعد تمكنهم من الإطاحة بآخر حكام الدولة البويهية الشيعية سنة 447هـ/1055م، لتتغير مع هذا الوافد الجديد أوضاع المشرق الإسلامي برمته سياسيًا ومذهبيًا.

1–البيت السلجوقي، بين نصرة المذهب والطموح السياسي:

ظهر السلاجقة[1] كطرف فاعل على مسرح أحداث التاريخ الإسلامي خلال العقود الأولى من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حين توجهوا بعد أن اطمأنوا على استقرار حكمهم في خراسان

---

(1) البداية والنهاية، 717/15، 147/16-148.

(2) حول الفتن والصراعات التي كانت تقع بين مختلف الفرق والمذاهب السنية راجع، خالد كبير علال، **التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي خلال العصر الإسلامي (مظاهره، آثاره، أسبابه، علاجه)**، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 58.

(3) ينحدر السلاجقة من قبيلة "قنق" الغزية التركمانية، وهم ينتسبون إلى جدٍّ لهم يدعى سلجوق بن دقاق، وقد سكنوا الأراضي الواقعة إلى الشرق من بلاد ما وراء النهر في الصحراء الواسعة والسهوب المرتفعة الممتدة من هضبة منغوليا وشمال الصين إلى بحر الخزر (بحر قزوين)، ثم نزحوا من موطنهم الأصلي في عام 375هـ/ 985م إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان بسبب عوامل عدَّة أبرزها الطبيعة الجذباء وكثرة سكانها الذين ضاقت بهم أراضيها ولم تعد كافية لتوفير غذائهم وكلأ ماشيتهم، إضافة إلى ما خلقه هذا الوضع الاقتصادي من صراعات سياسية بين مختلف القبائل الساكنة في تلك الأقاليم، ثم اصطدم السلاجقة في زحفهم غربا بالغزنويين الذين كانوا يسيطرون على المنطقة (خراسان) فخضعوا لسلطانهم فترة من الزمان، إلاَّ أنَّهم في النهاية قاموا بالثورة عليهم وطردوهم واستقلوا بإقليم خراسان في عام 431هـ/1039م بزعامة طغرلبك الذي تفوَّق على السلطان مسعود الغزنوي في معركة داندانقان، لتقوم بذلك سلطنة إسلامية جديدة كان لها دور بارز وأثر كبير في توجيه الأحداث على مستوى العالم الإسلامي عامة ومنطقة المشرق بالخصوص، التي كانت تعاني من مشاكل وصراعات داخلية وخارجية كثيرة، أنظر، الراوندي، (محمد بن علي سليمان ت 599هـ)، **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية**، تصحيح محمد إقبال، ترجمة إبراهيم الشورابي وعبد النعيم حسنين وفؤاد الصياد، دار العلم، القاهرة، 1960، ص45، الحسيني صدر الدين أبو

عقب هزمهم للغزنويين في معركة داندانقان[1] سنة 431هـ/1039م، إلى التوسع غربًا على حساب القوى الإسلامية المحيطة بهم فتمكنوا خلال الفترة الممتدة بين عام 433هـ-447هـ/1041م-1054م من الاستيلاء لى الري[2]وجرجان[3]وطبرستان[4]وخوارزم[5]وقزوين[6]وأصفهان[7]وهمذان[8]وشيراز[9]وأذربيجان[10] وبعض المناطق في إقليم الجزيرة[11]، بالإضافة إلى بعض الأجزاء فيما وراء النهر كبخارى[12]، كما شمل

الحسن (ت622هـ)، **أخبار الدولة السلجوقية**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1984، ص 1-2، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 11/8-12، فاروق عمر فوزي، **الخلافة العباسية**، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2003، 161/2، محمد سهيل طقوش، **تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام**، دار النفائس، بيروت، ط1، 1999م، ص 21.

[1] دندانقان، بلدة من نواحي مرو الشاهجان، على بعد عشرة فراسخ منها، وهي تقع بين سرخس ومرو، ياقوت، معجم البلدان، 477/2.

[2] الري، مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الخيرات وافرة الغلاة والثمرات، قديمة البناء، وهي قصبة بلاد أذربيجان بينها وبين قزوين سبعة وعشرون فرسخًا، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القزويني، (ت681هـ) **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، 1969م، ص375، ياقوت، معجم البلدان، 457/4، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن علي، **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت، د ت، ص420.

[3] جرجان، مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، فبعضٌ يعدُّها من هذه وبعضٌ يعدُّها من هذه، وهو بلدٌ كثير الأمطار، وفي وسطها نهرٌ يجري وهي قريبةٌ من بحر الخزر، والجبال مختنقةٌ بها، فهي سهليةٌ جبلية، ياقوت، معجم البلدان، 42/3، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص439.

[4] طبرستان، بلادٌ معروفة، والعجم يقولون مازندران، وهي بين الري وقومس وبحر الخزر، القزويني، آثار، ص403، ياقوت، معجم البلدان، 13/4.

[5] خوارزم، ناحيةٌ مشهورة ذات مدنٍ وقرى كثيرة، واسعة الرقعة، فسيحة البقعة، جامعةٌ لأشتات الخيرات وأنواع المسرَّات، القزويني، آثار، ص525، الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ق4هـ)، **المسالك والممالك**، تح، محمد جابر عبد العال الحيني، دار القلم، مصر، 1961، ص168.

[6] قزوين، مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعةٌ وعشرون فرسخًا، ياقوت، معجم البلدان، 342/4-343.

[7] أصفهان، مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وهي اسم لإقليمٌ بأسره، وكانت مدينتها أولاً جيا ثمَّ صارت اليهودية، وتقع في نهاية الجبال من جهة الجنوب، وأصفهان من أخصب البلاد وأوسعها، ياقوت معجم البلدان، 167/1، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص423.

[8] همذان، هي أكبر مدينة بإقليم الجبال، حصينة كثيرة الأهل، منيعة، واسعة الأنهار ملتفة الأشجار، من أحسن البلاد وأنزهها وأطيبها وأرفهها، ياقوت، معجم البلدان، 411/5-415.

[9] شيراز، بلد عظيم مشهور، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث، بينها وبين نيسابور مائتان وعشرون فرسخًا، عذبة الماء، صحيحة الهواء، كثيرة الخيرات تجري في وسطها القنوات، ياقوت، معجم البلدان، 380/3-381.

[10] أذربيجان، إقليم واسع، حدُّهُ من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدُّها من جهة الشمال ببلاد الديلم والجبل والطرم، من أشهر مدنها تبريز، وهي قصبتها وأكبر مدنها، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرذاذبة (ق3هـ/9م): **كتاب المسالك والممالك**، تح، ميكال يان دي خويه، مطبعة بريل، ليدن، 1889، ص118، ياقوت، معجم البلدان، 128/1-129.

[11] أنظر حول هذه الأقاليم والمدن الخريطة رقم: (01)، ص297.

[12] عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتَّى سقوط بغداد**، دار الوفاء، المنصورة، القاهرة، ط2، 1988، ص105.

توسعهم ممتلكات الدولة البيزنطية التي بلغت دورًا من الضعف خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[1].

بل أنّ ما حققه طغرلبك من انتصارات أغراه بالتمدد نحو العراق قلب العالم الإسلامي للسيطرة على الخلافة العباسية وإقامة دولة سلجوقية مترامية الأطراف، ولعلَّ هذا التوجه طبيعي إذ أنَّ كل من سبق وحكم في خراسان قد تطلَّعوا إلى التمدد نحو الغرب للسيطرة على بغداد والتحكم بمقدرات الخلافة العباسية، ومن أمثلة ذلك محاولات كل من الصفَّاريين[2] والسامانيين[3] والغزنويين[4].

---

[1] كانت بداية التوسع السلجوقي على حساب الدولة البيزنطية في معركة آني Ani عام 456هـ/1063م، حين سار السلطان ألب أرسلان من الري إلى بلاد الروم فقصد آني (وهي مدينة وقلعة حصينة في أرمينية قرب خلاط) وفتحهما وأخذ من أهلهما الجزية، وهما يمثلان الخط الدفاعي الأول لبيزنطة في أرمينية، أنظر، كمال بن مارس العلاقات الإقليمية، ص54.

[2] **الدولة الصفَّارية (254هـ- 290هـ/867م-903م)**، تنتسب إلى يعقوب بن الليث الصفَّار، وقد كان رجلاً مغمورًا من إحدى قرى سجستان تدعى قرنين، عمل صفَّارا أي في طلاء الأسلحة وإزالة الصدأ عنها، وقد علت مكانته في سجستان نظرًا لما كان يتمتع به من خصال حميدة، وصار من أفراد المطوعة ثمَّ قائدًا لها، وهي فرق عسكرية تعمل على حماية سجستان وفارس وكرمان من حالة الفوضى التي تعرضت لها من ثورات الخوارج، ولما رأى أهل سجستان شجاعته وإقدامه ولَّوه عليهم، وقد شرع يعقوب بن الليث بالتوسع على حساب الأقاليم المجاورة فسيطر على بست وطرد منها نصر بن صالح، ثم استولى على سجستان وتقدَّم إلى غزنة وخرَّبها، ثم استولى على زابلستان وكابل وهراة وبوشنج، ثمَّ قصد يعقوب بن الليث نيسابور –حاضرة الطاهريين- وقبض على محمد بن الطاهر واستولى على خزائن دولته، وأخذ يتوسع على حساب ممتلكاته في فارس والأهواز، كما طمع في بغداد حاضرة العباسيين وجرت بينه وبين الخليفة المعتمد حروب هزم فيها يعقوب بن الليث الصفَّار، وقد امتدت الدولة وفق التفويض الذي منحه الخليفة العباسي ليعقوب على خراسان وفارس والري وطبرستان وجرجان وأذربيجان وكرمان، أنظر، عصام الدين عبد الرءوف الفقي، **الدول المستقلة في المشرق الإسلامي**، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 1999م، ص35-36، عطية القوصي، **تاريخ الدول المستقلة في المشرق عن الخلافة العباسية**، مكتبة دار النهضة العربية، القاهرة، 1992، ص48-49، فؤاد صالح السيد، **مؤسسو الدول الإسلامية**، مكتبة حسن العصرية، ط1، بيروت، 1432هـ/2011م، ص529-530.

[3] **الدولة السامانية (261هـ- 389هـ/ 874م- 999هـ)**، أقام السامانيون الفرس دولةً في خراسان وبلاد ما وراء النهر على أنقاض الدولة الصفارية، وهم ينتسبون إلى جدٍّ لهم يدعى سامان الذي اعتنق الإسلام في خلافة هشام بن عبد الملك الأموي، وقد ابتدأ بروز أفراد هذه الأسرة في أقاليم ما وراء النهر من خلال تدخلهم في إنهاء الإضرابات والفتن وخاصةً في بخارى، حيث استنجد أعيانها بالأمير نصر الساماني في سمرقند، فأرسل إليهم أخاه إسماعيل الذي أقروه واليًا عليهم سنة 260هـ/874م، وفي نفس السنة أرسل الخليفة العباسي المعتمد منشور ولاية جميع أعمال ما وراء النهر من جيحون إلى أقصى المشرق للأمير نصر بن سامان، وأقام إسماعيل الخطبة لأخيه في بخارى وحذف اسم يعقوب بن الليث منها، لتقوم بذلك دولتهم تحت غطاء الخلافة العباسية، أنظر، عصام الدين عبد الرءوف الفقي، المرجع السابق، ص41-42، عطية القوصي، المرجع السابق، ص54-55، فؤاد صالح السيد، مؤسسو الدول، ص505-506.

[4] **الدولة الغزنوية (351هـ-555هـ/962م-1160م)**، يرجع ظهور الدولة الغزنوية التي سميت بعاصمتها غزنة إلى أحد المغامرين الترك المسلمين وهو "سبكتكين"، فقد تولَّى منطقة غزنة من قبل السامانيين، ثمَّ مدَّ سلطانه في الشرق حيث ضمَّ إليه إقليم خراسان الذي ولاَّه عليه نوح بن منصور الساماني سنة 348هـ، مكافأةً له على قمع الثوار في بلاد ما وراء النهر، وقد زاد شأن الأتراك في دولة السامانيين فكانوا قوام جيشهم ومنهم من ولوهم المناصب العسكرية والمدنية الرفيعة، ومن أبرز هؤلاء القواد الأتراك "ألب تكين" الذي ارتقى في الجيش الساماني إلى أن وصل حاجب الحجاب للأمير عبد الملك بن نوح، ثم تمرَّد عليهم وأسس إمارة مستقلة في منطقة زابلستان وجعل عاصمته

ولكن، هل معنى هذا أنَّ دوافع السلاجقة في حملات التوسع غربًا نحو بغداد، قد أملتها الطموحات السياسية لقوة ناشئة مدفوعة بعصبيتها فحسب؟ أم أنَّ للقادة السلاجقة غاية أخرى وأهم من ذلك الطموح السياسي؟ وللإجابة على هذا التساؤل لابدَّ من الكشف عن أوضاع الخلافة في بغداد وامتدادها في بلاد الشام والجزيرة، إضافة إلى معرفة الوضع بمصر تحت حكم الفاطميين الشيعة الإسماعيلية، لنتبيَّن موقف السلاجقة منها وتعاملهم معها.

ثمة هناك حقيقة ظاهرة تكاد تجمع عليها معظم كتابات المؤرخين والمؤلِّفين قد برزت في أوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي - زمن ظهور السلاجقة — هي أنَّ المجتمع الإسلامي بالمشرق كان يسوده جو من التعقيد الذي اكتنف وضعه السياسي والاقتصادي والديني، فقد حكمت في هذه المنطقة من العالم الإسلامي قوى مختلفة ومتناقضة فيما بينها، وغالبًا ما كان الصراع المسلَّح سمة ذلك التناقض في سبيل البقاء والاستئثار بالسلطة، وتفشَّت فيه ظاهرة توزع الولاءات السياسية والمذهبية بين الخلافة العباسية في بغداد الممثلة لروح المذهب السني والدولة الفاطمية في القاهرة المتبنية والمدافعة عن المذهب الشيعي الإسماعيلي[1].

وقبل السيطرة السلجوقية على الخلافة العباسية اضطربت الأحوال بدار الخلافة بفعل الخلافات الأسرية التي شهدها البيت البويهي في أواخر أيام حكمهم، فحدث تنافس محموم بين أفراده على الحكم، قامت على إثرها العديد من ثورات الجند، ممَّا أدى إلى فقدان الأمن ببغداد، وقد شعر الخليفة العباسي القائم بأمر الله (422هـ-467هـ/1032م- 1075م) بهذا التفكك والانحلال داخل الأسرة البويهية، ورأى أنَّ دولتهم صارت غير قادرة على إدارة الأمور في العراق[2]، كما وبلغت حدَّة تلك الأوضاع السيئة

غزنة وذلك سنة 351هـ/962م، أنظر، عصام الدين عبد الرءوف الفقي، المرجع السابق، ص101-103، عطية القوصي، المرجع السابق، ص77-78، فؤاد صالح السيد، مؤسسو الدول، ص58-59.

[1] محمد سهيل طقوش، **تاريخ السلاجقة في بلاد الشام (471هـ-511هـ/1078م-1117م)**، دار النفائس، ط3، بيروت، 2009، ص 33.

[2] ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت555هـ)، **ذيل تاريخ دمشق**، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908، ص83، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 323/8-324، المقريزي، السلوك، 135/1.

أوُّجها بمحاولة الإطاحة بحكم العباسيين واستخلافه بالحكم الفاطمي من طرف أحد القواد المقرَّبين من الخليفة العباسي، وهو أبو الحارث أرسلان البساسيري[1] وكان ذلك سنة 447هـ/1055م.

تأثر البساسيري بالدعوة الفاطمية بعد النشاط المكثف الذي قام به الدعاة الإسماعيلية في العراق وفارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر، وذلك بإشراف مباشر من خلفاء الدولة الفاطمية بمصر، ويعد الداعي المؤيد في الله هبة الله الشيرازي[2] من أشهرهم وأكثرهم تأثيرًا، فاستطاع هذا الأخير بسياسته أن يجذب الملك أبا كاليجار البويهي (415- 440هـ/ 1024- 1048م) [3] إلى هذه الدعوة[4].

أصبح البساسيري يراسل الفاطميين ويعمل على قلب نظام الحكم في بغداد لصالح الدولة الفاطمية الإسماعيلية، حتَّى أنَّ المستنصر بالله (427هـ-487هـ/1036م- 1094م) بعث إليه يؤلِّبه ويؤكِّد له استعداده لمدِّه بالسلاح والمال لمساعدته في حركته[5]، وهو الأمر الذي استحسنه البساسيري وأعوانه، وبعثوا برسالة إلى المؤيد في الدين يلتمسون فيها الإمداد السريع بالمال والخيل والسلاح لإظهار

---

[1] هو الأمير أبو الحارث أرسلان التركي البساسيري، وكان مملوكًا لرجل من أهل مدينة بسا، فنسب إليه، فقيل له البساسيري وتلقب بالملك المظفر، ثم كان مقدِّما كبيرا عند الخليفة القائم بأمر الله، لا يقطع أمرًا دونه وخطب له على منابر العراق كلِّها، ثم طغى وبغى وتمرَّد وخرج على الخليفة العباسي ودعا إلى خلافة الفاطميين، ثمَّ انقضى أجله سنة 451هـ/1060م، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 192/1، الذهبي، العبر، 298/2.

[2] ولد المؤيد في الدين هبة الله في شيراز سنة 390هـ/1000هـ، وتوفي سنة 470هـ/1079م، أخذ عن والده موسى بن داوود علوم الدعوة الفاطمية، كما شاهد في صباه أحمد حميد الدين الكرماني كبير دعاة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في فارس، وقد بذل المؤيِّد نشاطًا كبيرًا في استمالة أمراء بني بويه إلى الفاطميين، خلَّف المؤيد العديد من الكتب ترجمها وحققها الدكتور محمد كامل حسين، أنظر في مؤلَّفه، **سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة**، تح، محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري، ط1، القاهرة، 1949، ص 12-14.

[3] هو السلطان أبو كاليجار مرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة البويهي الديلمي، كان مولده بالبصرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، مات بطرق كرمان، قصدوه في يوم ثلاث مرات، وكان معه نحو أربعة آلاف من الترك والديلم، فنهبت خزائنه وحريمه وجواريه، وطلبوا شيراز، فسلطنوا ابنه الملك الرحيم أبا نصر، وكان مدة سلطنته أربع سنين، أنظر، الذهبي، العبر، 275/2-276، الحنبلي، شذرات، 180/5.

[4] الشيرازي، السيرة المؤيدية، ص43، محمد جمال الدين سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، دار الفكر العربي، مدينة نصر، دت، دط، ص 324-325.

[5] الذي وصل إلى البساسيري من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك، وخمسمائة فرس وعشرة آلاف قوس ومن السيوف ألوف ومن الرماح والنشاب شيء كثير، أنظر، الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تح، عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، 1994، بيروت، 37/30، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 13/5.

الدعوة الفاطمية في بلاد العراق[1] وممّا جاء فيها:" فإن أخذتم بأيدينا، أخذنا لكم البلاد، وإن قلدتمونا نجاد نصركم وإنجادكم، فتحنا من جهتكم الأغوار والأنجاد"[2].

حين رأى الخليفة العباسي القائم بأمر الله الخطر الذي بات يهدد كيان دولته ومذهبه السني في بلاد فارس والعراق، من جرَّاء نشاط المؤيد في الدين هبه الله الشيرازي في نشر الدعوة الإسماعيلية، بعث برسول من قِبله إلى الملك البويهي أبي كاليجار يطلب إليه تسليم داعي الفاطميين ويهدده بالاستعانة بالسلاجقة وإغراءهم بالاستيلاء على ما يمتلكه من البلاد[3].

كما ودفعهُ صحة ما نسب إلى البساسيري من عزمه على الخروج عليه ومكاتبته الفاطميين بمصر، إلى معاودة مراسلة حكام بني بويه أصحاب السلطة الفعلية في بغداد، فبعث إلى الملك الرحيم البويهي (440هـ- 450هـ/1048م- 1058م)[4] يُذَّكره فيها بما كان بين بني بويه والعباسيين من عهود سابقة، لأجل قطع العلاقات مع البساسيري الذي خلع الطاعة للعباسيين وكاتب الفاطميين بغية التمكين لهم في بغداد وكامل العراق؛ لاعتقاده بمذهبهم وإيمانه بعدم شرعية أبناء العباس في خلافة المسلمين، فأظهر الملك الرحيم استعدادًا لإجابة طلب الخليفة بإبعاد البساسيري عن بغداد[5].

وعلى أية حال فقد تمكَّن هذا القائد التركي بمعية قوات خاضعة لسيطرته تناهز الأربعمائة فارس، وفي ظل تلك الفوضى والاضطراب، من السيطرة على بغداد وما جاورها، واستغل في ذلك ضعف سلطان الخليفة العباسي وصراعات الأسرة البويهية، وكذلك انتهز فرصة اشتغال طغرلبك السلجوقي بإخماد حركة التمرد التي قادها أخوه إبراهيم ينال ضده[6].

---

[1] المؤيد في الدين هبة الله بن موسى بن داوود الشيرازي (ت470هـ)، **ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة**، تح، محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1949، ص 42-43، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ)، **تاريخ الخلفاء**، دار ابن حزم، ط1، بيروت، 2003، ص329.

[2] الشيرازي، السيرة المؤيدية، ص96.

[3] محمد جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص325.

[4] هو أبو نصر بن الملك أبي كاليجار بن الملك سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي، آخر ملوك الديلم، مات محبوسًا بقلعة الري في اعتقال طغرلبك، أنظر، الذهبي، العبر، 297/2، الحنبلي، شذرات، 220/5.

[5] ابن الأثير، الكامل، 322/8،

[6] وقد أشار ابن الأثير إلى العوامل التي دفعت إبراهيم ينال إلى الخروج على أخيه طغرلبك بقوله:" وكان قد قيل إنَّ المصريين كاتبوه والبساسيري قد استماله وأطمعه في السلطنة والبلاد"، كما أشار داعي دعاة الفاطميين المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي إلى الاتصال الذي

فدخلها حاملاً الرايات الفاطمية التي طُرزت باسم "الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين"، وتمتَّع فيها بنفوذ كبير لدرجة أنَّه أضحى يُخطبُ له على المنابر في العراق والأهواز، كما وأسقط الخطبة عن العباسيين وأقامها للفاطميين، وبلغ من نفوذه في بغداد أن لم يَصِرْ بمقدور أيٍ من الخليفة العباسي أو الملك البويهي اتخاذ أي قرار يخصُ أمور الدولة إلاَّ بعد موافقته[1].

يقول عن ذلك الخطيب البغدادي[2]:" واستولى على البلاد، وانتشر ذكره، وطار اسمه، وتهيبته أمراء العرب والعجم، ودعي له على كثير من المنابر العراقية، وبالأهواز ونواحيها، وجبى الأموال، وخرَّب الضياع، ولم يكن الخليفة القائم بأمر الله، يقطع أمرًا دونه، ولا يحلُّ ويعقد إلاَّ عن رأيه".

أدَّى هذا الوضع الذي آلت إليه عاصمة الخلافة العباسية من تهديد غير مباشر تجلَّى في انتشار الدعوة الإسماعيلية بالعراق وما جاورها، وآخر مباشر تمثَّل في مبادرة البساسيري الإطاحة بسلطة العباسيين السنة واستبدالها بأخرى فاطمية شيعية، أن بادر الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى طلب العون والاستنجاد بالسلاجقة ورأى مصلحته في ذلك[3]، خاصةً وأنَّهم يدينون بالمذهب السني حيث يذكر براون[4] بأنَّ "السلاجقة كأغلب الأتراك اعتنقوا مذهب أهل السنة منذ اتخذوا الإسلام دينًا"، كما وأنهم كانوا يحترمون الخلافة العباسية ويدينون لها بالولاء.[5]

كان بينه وبين إبراهيم ينال حيث يقول:" وكُشف القناع عمَّا كان استقر بيني وبين إبراهيم بن ينال، كما أتاني رسوله الصوفي وأنا بحلب"، أنظر، السيرة المؤيدية، ص179، الكامل، 341/8.

[1] الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت 463هـ/1083م)، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، تح، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، 48/11-50، ابن الجوزي، المنتظم، 348/15، ابن الأثير، الكامل، 341/8، ابن خلكان، وفيات، 192/1-193، أبو الفدا، المختصر، 177/2-178، الذهبي، العبر، 289/2، ابن كثير، البداية والنهاية، 730/15.

[2] تاريخ بغداد، 48/11.

[3] الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت بعد 577هـ)، **تاريخ الفارقي (تاريخ ميافارقين وآمد)**، تح، بدوي عبد اللطيف عوض، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959، ص155-156، ابن الجوزي، المنتظم، 348/15، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 492/15، النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ)، **نهاية الإرب في فنون الأدب**، تح، نجيب مصطفى فوَّاز وحكمت كشلي فوَّاز، دار الكتب العلمية، ط1، 2004، 166/26-167، ابن دقماق ابراهيم بن محمد بن أيدمير العلائي (ت809هـ)، **الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين**، تح، سعيد عبد الفتاح عاشور، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1982، ص157-158، الذهبي، تاريخ الإسلام، 20/30.

[4] إدوارد جرانفيل براون، **تاريخ الأدب في إيران**، تر، إبراهيم أمين الشورابي، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2005، 211/2.

[5] الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص18،

أرسل الخليفة إلى السلطان طغرلبك رسالةً استجداء جاء فيها بأن أدرك الإسلام فقد ساد العدو اللعين وأخذ ينشر مذهب القرامطة، فكانت رسالته تلك دينية مذهبية توحي بطبيعة ذلك الصراع عند المسلمين خلال تلك الفترة الحرجة من تاريخهم، غير أنَّ السؤال الذي مازال يطرح نفسه بإلحاح هو، هل كان ردُّ السلطان السلجوقي على طلب الخليفة دافعه نصرة المذهب السني أم أنَّ الطموح السياسي كان المتحكم في رده؟

سار طغرلبك بجيوشه قاصدًا بغداد مُجيبًا طلب الخليفة القائم بأمر الله، فدخلها سنة 447هـ/1055م، مُنهيًا بذلك سطوة البويهيين عليها وعلى الخلافة، فألقى القبض على الملك الرحيم آخر أمرائهم ونفاه،[1] كما أنهى تمرد البساسيري وطارده إلى أن تخلَّص منه بمقتله بالكوفة في ذي الحجة من سنة 451هـ/جانفي1060م[2]، لتُطوى بذلك صفحة وتُفتح أخرى على تاريخ الدولة العباسية، خطَّ أحداثها بآلامها وآمالها هذه المرة آل سلجوق، الذين اعترف لهم الخليفة بسلطانهم على جميع المناطق التابعة لنفوذه، وأمر أن تذكر أسماؤهم في الخطبة[3].

ساهم السلاجقة السنة بعد سيطرتهم على السلطة الزمنية في الخلافة العباسية في حدوث استقرار مذهبي نسبي، صاحبه تبدُّل كبير في الخريطة الجيوسياسية للمشرق الإسلامي، فكانت معاملتهم للخلفاء العباسيين أفضل بكثير من معاملة بني بويه لهم بحكم اعتناقهم المذهب السني الذي يعدُّ الخليفة العباسي رئيسه الأعلى[4]، فيذكر أرنولد بأنَّ السلاجقة كانوا لا يحترمون الخليفة لمركزه السياسي، بل لأنَّه خليفة الله

---

[1] الأصفهاني عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت597هـ)، **تاريخ دولة آل سلجوق**، طُبعَ على نفقة شركة طبع الكتب العربية، مصر، 1900، ص10، ابن الجوزي، المنتظم، 348/15، ابن الأثير، الكامل، 322/8، الذهبي، العبر، 289/2، ابن كثير، البداية والنهاية، 729/15-730، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 59/5،

[2] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 51/11-52، الفارقي، تاريخه، ص157-158، الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص17، ابن الجوزي، المنتظم، 54/16، ابن الأثير، الكامل، 347/8، ابن كثير، البداية والنهاية، 772/15.

[3] ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت580هـ)، **الإنباء في تاريخ الخلفاء**، تح، قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 1999م، ص189-191، الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص9-10، الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص18-19، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 492/18، ابن الأثير، الكامل، 322/8.

[4] جمال الدين سرور، المرجع السابق، 345.

في الأرض[1]، كما ساهموا في إضعاف النفوذ الفاطمي المتنامي بمصر وبلاد الشام، وأعادوا للخليفة العباسي بعضًا من هيبته على تلك الجند[2].

وقد أشار ابن الأثير إلى رغبة طغرلبك سلطان السلاجقة الأول في إسقاط صرح الدولة الفاطمية بمصر والشام حتَّى قبل أن يصل بغداد، وهو من أهم نقاط الاتفاق الذي تم بين السلاجقة والخلافة العباسية في إطار تخليص العراق وبلاد الشام ومصر من الدعوة الشيعية التي سيطرت على المنطقة لأزيد من قرن من الزمن، فيقول[3]:" وأظهر أنَّه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر صاحبها"، غير أنَّ الأجل كان أسبق من تحقيق طغرلبك لذلك الهدف، فقاد المهمة بعده ابن أخيه ألب أرسلان (455هـ-465هـ/1063م-1072م).

شرع السلطان ألب أرسلان في مهمة إعادة الاعتبار لسلطة الخليفة السني على إقليم الشام حين أرسل إلى أمير حلب محمود بن نصر بن صالح بن مرداس سنة 463هـ/1071م يطلب منه إقامة الدعوة للخليفة العباسي القائم بأمر الله بدلاً من خليفة مصر فأجابه إلى ذلك[4]، وقد أورد صاحب حلب هذا عبارةً في سياق إقناعه لأهل المدينة بضرورة إبطال الخطبة للمستنصر الفاطمي وإعلانها للقائم العباسي ما يدلُّ على تعصُّب السلاجقة للمذهب السني وعزمهم الكبير على إنهاء السطوة الشيعية على بلاد الشام، حيث يقول بن مرداس:" وسبب ذلك (إعلان الخطبة للعباسيين) أنَّهُ رأى إقبال دولة السلطان وقوتها وانتشار دعوتها فجمع أهل حلب وقال: هذه دولة جديدة ومملكة شديدة، ونحن تحت الخوف منهم وهم

---

(1) Arnold, The Caliphate ,p 80.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 79/5.

(3) الكامل، 322/8.

(4) وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ إجابة محمود بن نصر بن مرداس لطلب السلطان ألب أرسلان تحويل الخطبة إلى العباسيين خلال هذه السنة لم يكن يعني تبعية المدينة (حلب) لحكم السلاجقة بشكل مباشر، بل ظلت تحت نفوذ الأسرة المرداسية إلى غاية (479هـ/1085م)، وهي السنة التي سار فيها الأمير قسيم الدولة آقسنقر من قبل السلطان السلجوقي ملكشاه إلى حلب وسيطر عليها بعد استنجاد أهلها به نتيجة الفوضى التي أعقبت مقتل حاكمها الأمير العقيلي مسلم بن قريش، أنظر، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص99، ابن الأثير، الكامل، 388/8، كمال لدين ابن العديم (ت660هـ)، **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، تح: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1951، 19/2-20. ، أبو الفدا، المختصر، 187/2-188، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 302/2 (والمقريزي يؤرخ هنا لأحداث سنة 462هـ بخلاف ابن الأثير وأبو الفدا)

يستحلُّون دمائكم لأجل مذاهبكم والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقتٌ لا ينفعنا فيه قولٌ ولا بذل"[1].

واصل السلاجقة مساعيهم لتضييق الخناق على الفاطميين ومذهبهم ببلاد الشام فتمكَّن القائد السلجوقي أتسز بن أوق الخوارزمي[2] بأوامر من ألب أرسلان من الاستيلاء على الرملة[3] وبيت المقدس من سلطة الفاطميين سنة 463هـ/1071م، ليقطع بذلك اتصال مصر ببلاد الشام، ولم يلبث أن استولى على كامل فلسطين ماعدا عسقلان، ثمَّ توجه شمالاً قاصدً دمشق فحاصرها وخرب أعمالها وقطع الميرة عن أهلها حتَّى ضاق بهم الحال، غير أنَّ جيوش الفاطميين ردته عنها تلك السنة[4].

بل أنَّ عزم السلاجقة على إنهاء النفوذ الشيعي بالمنطقة دفعهم لمحاولة بلوغ مصر والسيطرة عليها، وقد شجعهم على ذلك الرسالة التي بعث بها إليهم ناصر الدولة حسين بن حمدان[5] يحثهم فيها على غزو مصر وإسقاط الخلافة الشيعية بها، فيروي عن ذلك المقريزي[6] بقوله:" وفيها (يقصد سنة 462هـ) بعث ناصر الدولة حسين بن حمدان الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد بن البخاري رسولاً منه إلى السلطان ألب أرسلان ملك العراق يسأله أن يسيِّر إليه العساكر ليقيم الدعوة العباسية بديار مصر وتكون مصر له".

جهَّز السلطان السلجوقي جيشًا ضخمًا قاصدًا اجتثاث النفوذ الفاطمي المتداعي بمصر وبلاد الشام، غير أنَّ بلوغه خبر مسير الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع Romanus IV Diogenes

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 387/8.

[2] هو أتسز بن أوق الخوارزمي، مقدم الأتراك، من أمراء السلطان ملكشاه على دمشق، وأتْسزْ كلمةٌ تركية معناها "ليس معهُ فرس"، لقَّب نفسهُ بالملك المعظم، وهو أول من ملك دمشق من الأتراك وقطع منها دعوة الخلفاء الفاطميين، وكانت مدة ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، وقتل في شهر ربيع الآخر سنة 471هـ، أنظر، ابن ميسر تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب (ت677هـ)، **المنتقى من أخبار مصر**، تح، أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، د ت، هامش ص42، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 89/5.

[3] الرملة، مدينة بالشام سميت بالرملة لما غلب عليها الرمل، وهي من كور فلسطين، بينها وبين القدس ثمانية عشر ميلاً، وهي واسطة بلاد فلسطين، وهي مدينة مسوَّرة بها إثنا عشر بابًا، ياقوت، معجم البلدان، 69/3-70، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص164-165، الحميري، الروض المعطار، ص268.

[4] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 98-99، الفارقي، تاريخه، ص192، ابن الأثير، الكامل، 390/8، أبو الفدا، المختصر، 188/2، الذهبي، تاريخ الإسلام، 14/31، العبر، 314/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 89/5.

[5] هو ناصر الدولة بن الحسين بن الحسن بن عبد الله بن أبي الهيجاء بن حمدان التغلبي من كبار مقدّمي الأتراك الذين زاد نفوذهم بعد طرد السودانيين إلى الصعيد من قبل الوزير بدر الجمال الأرمني، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 302/2.

[6] اتعاظ الحنفا، 302/2.

(1068م-1071م/460هـ-464هـ) بأراضي أرمينية قاصدًا أخذ خراسان التي يسيطر عليها السلاجقة، دفعه لتحويل وجهة جيوشه لرد البيزنطيين، فالتقى بهم في ملازكرد أو مانزكرت Mentzikert يوم الجمعة السابع من ذي القعدة سنة 463هـ/أوت1071م، لتدور بين الفريقين معركة فاصلة في تاريخ العلاقات بين البيزنطيين والمسلمين كانت نتيجتها نصرًا مؤزرًا للسلاجقة حتَّى أن الإمبراطور البيزنطي رومانوس قد وقع في أسر قوات ألب أرسلان[1].

وبهذا النصر الذي حققه السلاجقة فقد ضمنوا إبعاد خطر البيزنطيين على ممتلكات المسلمين في بلاد الشام وآسيا الصغرى بسبب الخسائر التي منيوا بها، كما قطعوا حبل العلاقات البيزنطية – الفاطمية من خلال معاهدة الصلح التي أبرمت بين السلطان ألب أرسلان والإمبراطور الأسير رومانوس الرابع والتي بموجبها يكُفُّ البيزنطيون على التعرض لأعمال المسلمين، كما ينصُّ الاتفاق على إمداد الإمبراطور السلاجقة بأموال ضخمة تقدَّر بخمسة ألاف ألف دينار وبما يحتاجونه من عساكر عند الحاجة.[2]

تولى السلطنة السلجوقية بعد وفاة ألب أرسلان سنة 465هـ/1073م إبنه ملكشاه ليواصل سياسة أسلافه في تقويض النفوذ الفاطمي الشيعي ببلاد الشام ومصر، حيث عاود إرسال قائده أتسز بن أوق الخوارزمي سنة 468هـ/1075م لحصار دمشق بغية إخضاعها وضمها لحاضرة القوى السنية، فكان له ذلك بعد أن حاصرها وضيق عليها فعدمت الأقوات بها، ففتح له أهلها الأبواب وسلموها له بالأمان، فأعلنت الخطبة فيها للخليفة العباسي المقتدي بأمر الله (467هـ-487هـ/1075م-1094م) وأسقطت عن المستنصر العلوي، وأزيل الأذان بحي على خير العمل، لتخرج دمشق نهائيًا عن سلطة الفاطميين[3].

أغرت تلك الانتصارات التي حققها السلاجقة على حساب الفاطميين في الشام، فقرر السلطان ملكشاه إرسال قائده أتسز لغزو مصر حيث خليفة الفاطميين، فتوجه إليها سنة 469هـ/1076م،

---

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص99، الفارقي، تاريخه، ص189-190، ابن الجوزي، المنتظم، 125/16-126، ابن الأثير، الكامل، 388/8-389، النويري، نهاية الإرب، 180/26-182.

[2] صالح رمضان حسن، **فتوحات الدولة السلجوقية في عهد السلطان ألب أرسلان (455هـ- 465هـ/ 1063م- 1072م)**، مجلة أبحاث، كلية التربية الأساسية، مج 11، عدد 2، ص358-360.

[3] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص108، ابن الأثير، الكامل، 410/8، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 311/19، ابن ميسر، أخبار مصر، ص42، أبو الفدا، المختصر، 197/2، ابن كثير، البداية والنهاية، 54/16، ابن خلدون، تاريخ، 6/5، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 315/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 103/5.

مستغلاً انشغال الوزير بدر الجمالي[1] في إخضاع المتمردين على الحكم الفاطمي بصعيد مصر[2]، غير أنَّ تلك المحاولة باءت بالفشل وهزم أتسز فيها هزيمة منكرة أمام قوات بدر الجمالي الذي استعجل العودة إلى القاهرة بعد سماعه بخبر عزم السلاجقة السيطرة على مصر[3].

وموازاةً مع هذه الجهود العسكرية للسلاجقة في سبيل تقويض نفوذ الفاطميين السياسي على مختلف أقاليم المشرق الإسلامي، فقد حرصوا كذلك على التحضير للمواجهة الفكرية من خلال تأسيس المدارس وبناء المساجد لتكون مراكز دعائية للمذهب السني تواجهُ بها الفكر الشيعي المتغلغل نتيجة النفوذ البويهي في بغداد ونشاط الدعاة الإسماعيلية في الأقاليم التابعة للخلافة العباسية منذ دخول الفاطميين مصر سنة (358هـ/969م)[4].

حيث بدأ التفكير في إنشاء المدارس التي تُعنى بتدريس عقيدة أهل السنة على اختلاف مذاهبها عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة سنة (455هـ/1063م)، الذي استوزر رجلاً قديرًا وسُنيًا متحمِّسًا هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك[5]، حيث أدرك هذا الأخير

---

[1] هو أمير الجيوش بدر الجمالي الأرميني كان مملوكًا للأمير جمال الدولة بن عمار، فلذلك قيل له الجمالي، ثم أخذ يترقى في المناصب لما أظهره من كفاية خلال الحروب التي قامت في بلاد الشام حتَّى ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر سنة 456هـ، وأخذ يحارب الأتراك في تلك البلاد ولم يلبث أن أصبح من أقوى قوادها، ثم تقلَّد نيابة عكا سن 460هـ، ثم استدعاه الخليفة الفاطمي المستنصر إلى القاهرة لتولي منصب الوزارة بعد الاضطرابات والفتن التي وقعت بها وكان ذلك سنة 466هـ، فاستقرت الأمور بفضله وتحكَّم في مصر تحكُّم الملوك، ولم يبق للمستنصر معه أمر، دامت فترة استيزاره واحد وعشرون سنة، وتوفي سنة 487هـ/1094م وقيل سنة 488هـ/1095م، أنظر، ابن الأثير، الكامل، 496/8-497، ابن ميسر، أخبار مصر، ص28، 30، 33، 39، الذهبي، العبر، 357/2، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 329/2-330.

[2] كان الوزير بدر الجمالي خلال هذه السنة بصعيد مصر في مواجهة عدد كبير من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة، فتمكَّن من مباغتتهم ووضع السيف فيهم فأفنى أكثرهم قتلاً، وفرَّ منه طوائفٌ فغرقوا، ولم ينج منهم إلاَّ القليل، وأحاط بأموالهم فحاز منها ما يتجاوز الوصف كثرة، كما واجه أمير الجيوش بدر الجمالي في هذه السنة أيضًا(469هـ) ثورة كنز الدولة محمد بأسوان، فهزمه وقتله وهزم أصحابه بعد أن قُتل منهم جمٌ غفير، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 316/2.

[3] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص109-112، ابن الأثير، الكامل، 412/8-413، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 322/19-323.

[4] عبد الرحمن عزام، **صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني**، تر، قاسم عبده قاسم، دار بلومزبري مؤسسة قطر للنشر، الدوحة، 2012، ص46-47.

[5] هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس، الملقَّب نظام الملك، قوام الدين الطوسي، كانت ولادته يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمانٍ وأربعمائة بنوقان، إحدى مدينتي طوس، وكان من أولاد الدهَّاقين، اشتغل بالحديث والفقه، ثمَّ اتصل بخدمة علي بن شاذان المعتمد عليه بمدينة بلخ، -وكان يكتب له-، فكان يصادرهُ في كل سنة فهرب منه وقصد داوود بن ميكائيل بن سلجوق والد السلطان ألب أرسلان، فظهر له منه النصح والمحبَّة، فسلَّمهُ إلى ولدهِ ألب أرسلان وقال له: اتخذهُ والدًا ولا تخالفهُ فيما يشير به، فلمَّا ملك

أنَّ إيقاف الفكر الشيعي الباطني فضلاً عن القضاء عليه ليس بالأمر الهين، لأنَّ جذوره قد تغلغلت وانتشرت في جسد الدولة الإسلامية بشكل كبير بعد النشاط الكثيف الذي قام به دعاته وأنصاره في نشره[1].

وعليه رأى نظام الملك أن الاقتصار على مقاومة هذا الفكر سياسيًا وعسكريًا ليس بالحل المجدي، ولن يُكتب له النجاح إلاَّ إذا وازى هذه المقاومة السياسية والعسكرية بمقاومة فكرية تتخذ نفس الوسائل التي استعملها الدعاة الإسماعيلية، وأن يُهيئ لأعوانه ومسانديه الأسباب التي اتخذها هؤلاء، وعليه أن يتخذ الطريق نفسه الذي سلكوه من تأسيس المدارس[2] والدور لنشر علوم الدين ومناقشة العوام بمسائل الخلاف وفق منهج وعقيدة أهل السنة والجماعة، فالحُجَّة لا تُقرع إلاَّ بالحجة والعقل لا يقبل مناظرًا له إلاَّ العقل، ولا يرتضي نظيرًا له إلاَّ الفكر[3].

شرع نظام الملك في تنفيذ مشروعه الفكري بإنشاء المدارس النظامية، فخصص لها كل وقته وجهده، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة، واختار لها الأكفاء من الأساتذة، فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة، وقد لخَّص الدكتور عبد المجيد أبو الفتوح بدوي الأهداف التي أنشأ لأجلها نظام

=ألب أرسلان دبَّر أمره فأحسن التدبير، وبقي في خدمته عشر سنين، فلمَّا مات ألب أرسلان وازدحم أولادهُ على الملك، وطدَّ المملكة لولده ملك شاه فصار الأمرُ كلُّهُ لنظام الملك، وأقام على هذا عشرين سنة، هو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به النَّاس، وشرع في عمارة مدرسته سنة سبع وخمسين وأربعمائة، توفي في ليلة السبت العاشر من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة، بعد طعنه من قبل صبيٍّ ديلمي على هيئة الصوفية، ثم حُمل إلى أصبهان ودفن بها، ابن خلكان، وفيات، 2/128-130، اليافعي، مرآة الجنان،4/103-104، الذهبي، تاريخ الإسلام، 33/142-148، سير أعلام النبلاء، 19/94-96.

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص176، عبد الهادي محمد رضا محبوبة، **نظام الملك دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استيزاره**، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1999، ص 353-354.

(2) اختلف المؤرخون في في تاريخ نشأة المدارس الإسلامية، فمنهم من قال بأنَّها ظهرت في عهد نظام الملك الذي أنشأ المدرسة النظامية ببغداد سنة 459هـ، ومنهم من قال بأنَّها ظهرت قبل ذلك بكثير، فقد أشار بارتولد إلى تأثير البوذية في إنشاء المدارس الإسلامية وقال هي تقليد (للنوبهار) Vihara، وعليه فظهور المدارس الإسلامية أول الأمر كان بشرق العالم الإسلامي ولم تظهر في غرب بلاد فارس أو في بغداد إلاَّ في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أنظر، بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص 58، وللاستزادة حول الآراء المختلفة في تاريخ تأسيس المدارس في الدولة الإسلامية وأسباب ذلك ودوافعه أنظر، رابح أولاد ضياف، **الجراية في الدولة الإسلامية من صدر الإسلام حتَّى سقوط بغداد 1هـ-656هـ/622م-1258م**، رسالة دكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي، فرع التاريخ،كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية والإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2013/2014، ص143 وما بعدها، نادية بنت عابد أحمد مفتي، **تاريخ التعليم في المشرق الإسلامية في القرن الخامس الهجري**، بحث مقدم لنيل درجة الماجيستير، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1408هـ، ص 185- 195.

(3) عبد الهادي محمد رضا محبوبة، المرجع السابق، ص 354.

الملك هذه المدارس، حيث حصرها في ثلاثة رئيسية تتمثل في، الأول: نشر الفكر السني ليواجه تحديات الفكر الشيعي، ويعمل على تقليص نفوذه، والثاني: إيجاد طائفة من المعلمين السنيين المؤهلين لتدريس المذهب السني ونشره في الأقاليم المختلفة، والهدف الثالث: خلق طائفة من الموظفين السنيين ليشاركوا في تسيير مؤسسات الدولة، وإدارة دواوينها وخاصة في القضاء والإدارة[1].

وانطلاقًا من هذه الأهداف يتضح لنا مدى الاشتغال الكبير الذي أولاه السلاجقة السنيين للتمكين للمذهب السني الذي يعتنقونه والتضييق على انتشار فكر مخالفيهم من الشيعة، كما تبرز لنا هذه الأهداف مدى الاحتقان المذهبي الذي ميَّز القوى الإسلامية الحاكمة خلال تلك الفترة، فدفع بها لتخصيص الكثير من وقتها وجهدها لمحاولة التمكين لمعتقدها وسعي كل واحدة منها لفرض فكرها وتوجهها العقائدي على الرعية بأساليب ووسائل متنوعة تنتقل بين الشدة والعنف أحيانًا وبين الفكر والسياسة أحيانًا أخرى.

وعلى أية حال فإنَّ الجهود التي بذلها السلاجقة في سبيل القضاء على المذهب الشيعي بالعراق وبلاد الشام ومصر لم تكن لتُخفي طموحهم السياسي في المشرق الإسلامي ككل، إذ اعتبروا تخليصهم للخلافة العباسية من تلك الأخطار المحدقة دَينًا سياسيًا لابد من تسديده، فيتضح ذلك جليًا من خلال الرسالة التي بعث بها طغرلبك إلى الخليفة القائم بأمر الله تعقيبًا على رفضه طلب الزواج من ابنته بقوله:" هذا جزاء من الخليفة الذي قتلت أخي في خدمته"[2].

بل أنَّ من سلاطين السلاجقة من كان قاسيًا في معاملة الخلفاء سياسيًا، كالسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان (465هـ-485هـ/1072م-1092م) الذي أمر الخليفة المقتدي بأمر الله بالخروج من قصره ببغداد، وأرسل إليه يقول:" لابدَّ أن تترك لي بغداد وتنصرف إلى أي البلاد شئت، فانزعج الخليفة من هذا انزعاجًا شديدًا، ثمَّ قال: أمهلني شهرًا"، غير أنَّ رد السلطان كان برفض المهلة قائلاً: "ولو ساعة واحدة"، ولم ينقذ الخليفة من ذلك الموقف سوى مرض ملكشاه ووفاته عام 485هـ/1092م[3].

---

[1] التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص179، عبد الرحمان عزام، صلاح الدين، ص46-47.

[2] لقد كان سلوك طغرلبك بطلب مصاهرة الخليفة العباسي القائم بأمر الله محط استغراب واستهجان، حيث يذكر عن ذلك السيوطي" أنَّه أمر لم ينله أحدٌ من الملوك السابقين عدا السلاجقة"، أمَّا ابن الأثير فيقول:" وهذا ما لم يجر للخلفاء مثله، فإنَّ بني بويه مع تحكُّمهم ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا، ولا ساموهم فعله"، الكامل، 358/8، تاريخ الخلفاء، ص330-331.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، 299/16-300، ابن كثير، البداية والنهاية، 123/16، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص181-182.

وهكذا فبقدر ما كان للسلاجقة دورٌ في الحفاظ على طابع الخلافة السني والتمكن من إطالة عمرها في الزمان، بقدر ما أضعفوا من شأن الخلفاء العباسيين سياسيًا، بتدخلهم وسيطرتهم على مختلف شؤون الدولة، فتعاظم نفوذهم وصار الخلفاء معهم هيكلاً دون روح ولم يتبق لهم من السلطنة سوى ذكر أسمائهم في الخطبة ونقشها على السكة،[1] فعرفت بذلك العلاقات بين السلطتين (الروحية والزمنية) توترًا وانعدامًا للثقة ترجمتها صراعات وتحالفات مضادة، في وقت لاحت إلى الأفق بوادر حملات عدوانية من الغرب الأوروبي كان الاتحاد والاستقرار وقتها أكثر من ضرورة.

وبقي الإشارة إلى أن الحكم السلجوقي قد اتسم بعزيمة وجسارة طيلة عهد السلاطين الثلاثة الأوائل طغرلبك (429هـ-455هـ/1037م-1063م) والسلطان ألب أرسلان (455هـ-465هـ/1063م-1072م) والسلطان ملكشاه (465هـ-485هـ/1072م-1092م)، فاستطاعوا تحقيق أهدافهم السياسية والمذهبية التي رسموها عند دخولهم بغداد، غير أنَّه وبوفاة السلطان ملكشاه (485هـ/1092م) بدأ الخلاف يدبُّ إلى جسد الدولة نتيجة الصراعات التي قامت بين أبناء البيت السلجوقي حول الأحقية في حكم تلك الأقاليم المترامية الأطراف، فانقسمت على إثرها السلطنة إلى دويلات مستقلة يحكم كل واحدة منها أتابك[2]، فأطلق عليها اسم الأتابكيات، وقد كان الصراع والتطاحن سمَّة العلاقات التي كانت تربطها،[3] وهذا الوضع تزامن مع بدء التحضيرات لمسير الحملة الصليبية الأولى من الغرب الأوروبي.

3- مصر الفاطمية أمل الشيعة في خلافة المسلمين:

كانت مصر زمن الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي تحت سلطة الفاطميين، الذين دام حكمهم بها زهاء القرنين من الزمان ابتداء بسنة (358هـ/969م) وإلى سقوطها على يد صلاح الدين الأيوبي سنة (567هـ/1171م)، فقد أدرك الفاطميون عدم استطاعتهم تقويض حكم العباسيين السنة أصحاب الخلافة على ديار الإسلام وهم ببلاد المغرب.

---

[1] فاروق عمر فوزي، **الخلافة العباسية**، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2003، 85/2، جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص345.

[2] لفظ أتابك مكون من مقطعين، "بك" ومعناه أمير و "أتا" معناه أب، وقد كان الأتابكة لا يختارون من بين أفراد البيت السلجوقي، إذا أنَّ كل سلجوقي كان يعتبر نفسه مساويًا للسلطان نفسه، ولا يقلُّ عنه، وعلى هذا الأساس كان سلاطين السلاجقة يختارون الأتابكة من بين رعايا دولتهم المخلصين، حافظ أحمد حمدي، **الدولة الخوارزمية والمغول**، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 119-120.

[3] حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص32، محمود محمد الحويري، **الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر**، دار المعارف، 1979، ص5، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 15.

ولهذا فقد كانت فكرة السيطرة على مصر أولى الخطوات الجدية في نشر المذهب الإسماعيلي والانتقال به إلى حيث يمكن لمؤسسي هذه الدولة تحقيق غايتهم في الاقتراب من بغداد لإزالة الحكم العباسي السني واستخلافه بالحكم الفاطمي الشيعي، إذ وبالسيطرة على مصر سيتسنى لهم ضم الشام والجزيرة وإحكام قبضتهم على الحجاز، وبالتالي تعبيد الطريق نحو عاصمة العباسيين[1].

فالفاطميون منذ أن تمَّت لهم السيطرة على مصر، واستقروا بها، واطمأنوا على خلافتهم فيها، عملوا على مدِّ نفوذهم شرقًا نحو بلاد الشام، معتبرينها امتدادًا لمصر، ولجعلها قاعدةً أمامية في تحقيق أهدافهم الطائفية أولاً، وكذا ردّ الغزو الخارجي وتأمين حدودهم مع القوى المجاورة لحكمهم كالعباسيين والسلاجقة والروم البيزنطيين ثانيًا، ولأنَّ الخلافة العباسية هي الأخرى كانت ترى في بلاد الشام امتدادًا طبيعيًا لممتلكاتها، فقد عمل خلفاؤها جاهدين على إبقائها تحت سيطرتهم[2]، ممَّا جعل منطقة الشام مسرحًا للعديد من المعارك الطاحنة بين العباسيين والفاطميين وبين الفاطميين والسلاجقة كذلك.

ولعلَّ محاولة الفاطميين عبر القائد التركي أبي الحارث أرسلان البساسيري سنة 447هـ/1055م للإطاحة بالحكم السني في بغداد– تعرضنا لها سابقًا–، تعدُّ بمثابة إعلان صريح عن الخطوط العريضة لتوجههم السياسي في علاقاتهم مع القوى الإسلامية المجاورة لحكمهم وبخاصة السلطة السنية ببغداد، كما رسمت هذه الخطوة صورة مضطربة لواقع المسلمين خلال تلك الفترة من تاريخهم وأيُّما فترة المجمع على خطورتها وتعقيدها، لما يتربص بهم وبديارهم من تكالب وتربص خارجي، كانت فيه الوحدة والتماسك ونبذ الخلافات ضرورة مُلحَّة لمواجهتها.

اهتم الفاطميون منذ أن تمت لهم السيطرة على مصر في التمكين لمذهبهم، باعتباره الأساس والغاية في إقامة كيانهم السياسي، ذلك المذهب القائم على فكرة الإمامة الإلهية لآل بيت علي بن أبي طالب وإنكار كل ادعاء بشرعية الحكم دونهم، بل محاربته وأخذ حق آل البيت منه، وحجَّتهم أنَّ الولاية في دار

---

(1) عبد المنعم ماجد، **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر**، دار الفكر العربي، ط4، القاهرة، 1994، ص87.

(2) خاشع المعاضيدي وآخرون، **الوطن العربي والغزو الصليبي**، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، بغداد، 1981، ص11، أحمد إسماعيل علي، **تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي (132هـ-463هـ/749م-1070م)**، دار دمشق للطباعة والنشر، ط1، دمشق، 1984، ص143.

الإسلام لا يجب أن تكون إلاَّ للإمام الفاطمي، فوجود خليفتين أو أكثر في الزمان ليس من عقيدتهم[1]، ولأجل هذا تركّزت جهودهم في نشر المذهب الإسماعيلي في مصر عاصمة حكمهم الجديدة.

حيث أخذ قائد حملاتهم جوهر الصقلي[2] في إصباغ الدولة بمظاهر التشيع رغم أن السواد الأعظم من سكانها في ذلك الوقت كانوا يعتقدون بالمذهب السني[3] وبخاصة على مذهبي مالك والشافعي[4]، فأمر بحذف الدعوة لخلفاء بني العباس في أواخر رمضان سنة 358هـ/أوت969م وأقامها للخليفة المعز لدين الله، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي بدلاً من اسم الخليفة العباسي، وعلى أحد وجهيها عبارة "لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كُلِّه ولو كره المشركون، عليٌ أفضل الوصيين وزير خير المرسلين".[5]

كما منع جوهر الصقلي النّاس من لبس السواد – شعار العباسيين–، وأمر الخطباء بارتداء الملابس البيض – شعار الفاطميين–، وزيد في الخطبة العبارة الطائفية التالية:" اللهمَّ صل على محمد النبي المصطفى،

---

[1] عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص86، أيمن فؤاد السيد، **الدولة الفاطمية في مصر –تفسير جديد–**، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1992، ص 61.

[2] هو أبو الحسن جوهر بن عبد الله، المعروف بالكاتب، الرومي، كان من موالي المعز بن المنصور الخليفة الفاطمي، جهَّزهُ إلى الديار المصرية ليأخذها بعد موت الأستاذ كافور الإخشيدي، وسيَّر معهُ العساكر وكان هو المقدّم، وكان رحيله من إفريقية يوم السبت رابع عشر ربيع الأول سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة، وتسلَّم مصر يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من شعبان من السنة المذكورة، ولما استقر جوهر بمصر شرع في بناء القاهرة وسيَّر عسكرًا إلى دمشق وغزاها فملكها، ووصلت البشارة إلى المعز بأخذ البلاد وهو في إفريقية يدعوه إلى المسير إليه، ففرح فرحًا شديدًا، ومدحهُ الشعراء كمحمد بن هانئ الأندلسي من قصيدةٍ يقول فيها:

يقول بنو العباس قد فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضي الأمر

وقد جاوز الإسكندرية جوهر تُطالعهُ البشرى ويقدمهُ النصر

وأقام بها حتَّى وصل إليه مولاه المعز، وهو نافذ الأمر، واستمر على علو منزلته، وارتفاع درجته متوليًا للأمور إلى يوم الجمعة سابع عشر محرم سنة أربع وستين، فعزلهُ المعز عن دواوين مصر، وجباية أموالها والنظر في أحوالها، وكان محسنًا للناس، إلى أن توفي يوم الخميس لعشر بقين من ذي القعدة سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وكانت وفاته بمصر، ابن خلكان، وفيات، 375/1–376، المقريزي، الخطط، 377/1، ابن تغري، النجوم الزاهرة، 29/4.

[3] عرب دعكور، **تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضارتهم**، دار النهضة العربية، بيروت، د ت، ص49.

[4] يذكر المقريزي أنَّ مذهب الإمام مالك هو أول من دخل مصر وانتشر بها رغم أسبقية مذهب أبي حنيفة إلى الظهور، حيث أنَّ أول من قدم بعلم مالك إليها كان عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح، وكان فقيهًا روى عنه الليث بن سعد وابن وهب ورشيد بن سعد، وتوفي سنة 163هـ ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم، ثمَّ قدم إلى مصر الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي سنة 198هـ ونشر بها مذهبه الجديد الذي لقي قبولاً من طرف عدد كبير من المصريين، وصار بذلك لكل من الإمام مالك والشافعي أتباع بمصر، ونبغ فيها كثير من فقهاء المالكية والشافعية، أنظر، الخطط، 334/2.

[5] ابن خلكان، وفيات، 379/1، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، 116/1، ابن تغري، النجوم الزاهرة، 33/4.

وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي رسول الله الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا، اللهمَّ صل على الأئمة الراشدين، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين"، وأمر بأن يؤذَّن في جميع المساجد بمصر بحي على خير العمل[1]، وهي من المظاهر التي تميّز مذهب التشيع.[2]

وقد بادر جوهر بهذه الخطوات التي تعبِّر على طائفية الدولة الفاطمية، رغم إصداره كتاب أمان للمصريين عقب دخوله إلى مصر، أعلن فيه عن البرنامج الإصلاحي الذي سيسير عليه في سياسته المستقبلية، ومن أبرز نقاطه تَعهدهُ بترك الناس أحرارًا على مذاهبهم الدينية المختلفة، والتي كان فيها أهل السنة أكثريتهم،[3] حيث يقول فيه:" الإسلام سنةٌ واحدة، وشريعةٌ مُتَّبعة، وهي إقامتكم على مذاهبكم، وأن تتركوا [على] ما كنتم عليه من أداء الفروض في العلم، والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذي جرت الأحكام لمذاهبهم وفتواهم"[4].

لم يتقيَّد الفاطميون بكتاب الأمان هذا، فبعد مجيء الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة سنة 362هـ/972م، تركَّز اهتمامهم على تحويل المصريين إلى المذهب الشيعي، فاتبعت الخلافة الفاطمية لذلك عدَّة وسائل أهمها، بناء الدور والمدارس واتخاذ المساجد الكبيرة مراكز دعاية للمذهب الاسماعيلي، كمسجد عمرو بن العاص ومسجد أحمد بن طولون والجامع الأزهر، فكان الفاطميون روادً في هذا الشأن، ولهم قدمٌ راسخة فيه، فكانوا من الأوائل الذين قاموا بإنشاء مؤسسات تعليمية موجَّهة بصبغةٍ مذهبية تقتصر على الاهتمام بالفكر والعقيدة الإسماعيلية رغم انتشار معتنقي المذهب السني في مختلف الأمصار التي حكموا فيها[5].

---

[1] ابن خلكان، وفيات، 379/1-380، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، 117/1، 119، المقريزي، الخطط، 206/3، ابن تغري، النجوم الزاهرة، 33/4.

[2] صلاح الدين محمد الهادي سليمان، **أثر الصراع المذهبي بين الفاطميين والعباسيين في الأدب**، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1970، ص225-226، وأنظر، عرب دعكور، المرجع السابق، ص 36.

[3] أحمد مختار العبادي، **في التاريخ العبّاسي والفاطمي**، دار النهضة العربية، بيروت، د ت، ص250، صلاح الدين محمد الهادي سليمان، المرجع السابق، ص 225.

[4] المقريزي، اتعاظ الحنفا، 103/1-106، وراجع ما جاء في كتاب الأمان كاملاً في الملحق رقم: (02)

[5] وقد أفاض الدكتور حسن إبراهيم حسن في الحديث عن الأساليب التي قام بها الفاطميون في مصر لنشر مذهبهم وفكرهم الديني، فجعل لكل أسلوب منها في كتابه بابًا، فمنها باب الدعاية العلمية وباب الدعاية الأدبية وباب الدعاية السياسية، وفي كل واحدٍ منها عدة إجراءات

وممَّا استهل به الفاطميون نشاطهم الدعوي لمذهبهم بناء الجامع الأزهر سنة 359هـ/970م، ليجعلوا منه سنة 378هـ/988م مؤسسة تعليمية تُعنى بنشر مذهبهم، فكان معهدًا خاصًا لفئة معينة من الطلاب الذي يدرسون الفقه الشيعي الإسماعيلي وفلسفته[1]، وقد تولَّى مهام التدريس بهذا الجامع طيلة حكم الفاطميين لمصر العديد من الدعاة ومن أشهرهم أسرة النعمان بن حيون[2].

فقد كان للقاضي النعمان[3] كتابين هما "دعائم الإسلام" و"اختلاف أصول المذاهب"[4] حيث يُعدَّان من أبرز الكتب المعتمدة في نشر المذهب الإسماعيلي، وقد لقيا دعمًا وتشجيعًا من قبل الخلفاء الفاطميين لتدريس ما جاء فيهما في مراكز الدعوة المختلفة، فالأول كتاب فقه يهتم بفكرة الإمامة التي يحرص الأئمة الاسماعليون على نشرها وترسيخها في عقول المستهدفين بمذهبهم، وأمَّا الثاني فيدور حول فكرة عصمة الأئمة من آل البيت وضرورة أخذ علوم الدين منهم دون سواهم من خلال نقد المذاهب المختلفة والردِّ على حججها.

كما كان لوزير الخليفة العزيز (365هـ-386هـ/975م-996م) يعقوب بن كلس[5] كتابًا في الفقه يجلس لقراءته على النَّاس بنفسه وبين يديه خواص النَّاس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء،

= عملية لتحقيق غاية إصباغ مصر وأهلها بالتشيع، أنظر، **الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص**، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1932، ص117، 151، 179.

[1] كان هؤلاء الطلاب وبمجرد إتمامهم الدراسة في الجامع الأزهر يوجهون لأداء مهام الدعوة للمذهب ومعتقداته بين النَّاس، أي أنَّهُ كان مركزًا لتدريب دعاة المذهب وتخريجهم، وقد كان المعز لدين الله الفاطمي أوَّل من اهتم بشؤون العلم والعلماء والدعوة للمذهب الشيعي على العقيدة الإسماعيلية في مصر، أنظر، أيمن شاهين سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص53-54.

[2] لمعرفة مكانة أسرة النعمان ودورها في خدمة الدعوة الإسماعيلية وأئمتها راجع ترجمة القاضي النعمان عند ابن خلكان، وفيات، 415/5-420.

[3] هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيُّون التميمي المغربي، كان مالكي المذهب ثمَّ انتقل إلى مذهب الإمامية، وصنَّف كتاب "رسالة افتتاح الدعوة" (وهو ابتداء دعوة العبيديين) وكتاب" الأخبار" في الفقه، وكتاب "الاختصار" في الفقه كذلك، كان ملازمًا صحبة المعز أبي تميم معد بن منصور، ولما وصل من إفريقية إلى الديار المصرية كان معه، ولم تطل مدَّته ومات في مستهل رجب سنة ثلاث وستين وثلاثمائة بمصر، ابن خلكان، وفيات، 415/5-420، اليافعي، مرآة الجنان، 285/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 111/4، الحنبلي، شذرات، 338/4.

[4] تح، ديفن ستيوارت، المكتبة العربية، أبو ظبي، د ت.

[5] هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داوود بن كلس وزير العزيز نزار بن المعز العبيدي صاحب مصر، كان يهوديًا من أهل بغداد، خبيثًا ذا مكر، ولهُ حيلٌ ودهاء وفيه فطنةٌ وذكاء، وكان في قديم أمرِهِ خرج إلى الشام فنزل الرملة، وصار بها وكيلاً، فكسر أموال التجار وهرب إلى مصر، فتاجر لكافور الإخشيدي، فرأى منهُ فطنةً وسياسة ومعرفةً بأمر الضياع فقال: لو كان مسلمًا لصلح أن يكون وزيرًا، فطمع في الوزارة، فأسلم يوم جمعة في جامع مصر، فلمَّا عرف الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات أمره قصده فهرب إلى المغرب،

وأفتى النَّاس به ودرسوا فيه بالجامع العتيق[1]، كما اهتم هذا الوزير بنشاط التدريس بالجامع الأزهر فعمل على تنظيمه وإجراء الأرزاق على القائمين عليه[2].

فيذكر القلقشندي[3] عن المسبحي:" أنَّ الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس سأل الوزير العزيز بالله في صلة رزق جماعة من العلماء، فأطلق لهم ما يكفي كل واحد منهم، وأمر لهم بشراء دار وبنائها، فبنيت بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وتحلَّقوا فيه بعد الصلاة إلى أن يُصلَّى العصر، وكان لهم أيضًا من مال الوزير صلة في كل سنة"، على أن هذه الجهود في نشر المذهب الاسماعيلي لم تقتصر على فئة الرجال، حيث خَصص الفاطميون للنساء مجلسًا بالجامع الأزهر تُلقى عليهنَّ فيه الدروس المذهبية.

ومن بين المراكز كذلك التي اهتم الفاطميون من خلالها للتمكين للمذهب الاسماعيلي على حساب باقي المذاهب المنتشرة في مصر وبلاد الشام وخاصةً مذهبي الشافعي والإمام مالك نجد قصور الخلفاء، فزيادةً على اعتبارها مقارًا للحكم السياسي فقد ساهمت في النشاط الفكري للدعوة الإسماعيلية، وقد امتازت الدروس التي كانت تُلقى في القصر عن تلك التي كانت تُلقى في المساجد، بأنَّها لم تتوقف عند دراسة الفقه وإنَّما تناولت كذلك الجانب الباطني في المذهب من علوم الفلسفة وتأويل آيات القرآن الكريم[4].

وفي زمن الخليفة المستنصر بالله (427هـ-487هـ/1036م-1094م) مارس مهمة التدريس بالقصر الفاطمي داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، حيث كانت دروسه المذهبية من أهم الدروس التي ألقيت في علم الباطن بالقصر الفاطمي، وكانت تمثل قمة تطور الدعوة الباطنية الإسماعيلية،

واتصل بيهود كانوا مع الملَّقب بالمعز، وخرج معهُ إلى مصر، فلمَّا مات المعز وخلفه ولده العزيز استوزر ابن كلس في سنة خمس وستين وثلاثمائة، فلم يزل مدبره إلى أن هلك في في ذي الحجة سنة ثمانين وثلاثمائة، ابن خلكان، وفيات، 7/27-35، ابن ميسر، أخبار مصر، ص45-56، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 4/158.

[1] المقريزي، الخطط، 3/274.

[2] محمد حمدي المناوي، **الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي**، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص133-134.

[3] صبحي الأعشى، 3/267.

[4] ويذكر الباحث أحمد كامل محمد صالح أنَّ داعي الدعاة – وهي أعلى مرتبة في سلم الدعاة لدى الفرقة الاسماعيلية – هو من كان يؤدِّي مهمة التدريس بالقصر الفاطمي حيث تُعدُّ من أهم أدواره، فتولى هذا المنصب النعمان بن حيون وأولاده، إلى جانب إشرافهم على القضاء ونشاط الدعوة لفترات طويلة من عمر الدولة الفاطمية، **مصر بين المذهبي السني والمذهب الإسماعيلي**، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1987م، ص153.

وقد كانت تسمى هذه الدروس التي ألقاها المؤيد بـ "مجالس الحكمة"، تعدَّت الثمانمائة درس، وتُلقى كل يوم الخميس[1].

كما ألحق الخلفاء الفاطميون بالقصر مكتبة ضخمة تكون سندًا للدعاة والدارسين، فكانت تحوي مئات الآلاف من الكتب تقع في أربعين خزانة من خزائن القصر يُعنى غالبيتها بتدريس علوم المذهب الاسماعيلي، حتَّى قيل أنَّهُ لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر[2]، فكان لهذه المكتبة إسهامٌ كبير في انتشار المذهب الاسماعيلي بعد أن نَهَلَ الكثير من الطلاب والمتعلمين من المصنَّفات التي تحويها.

ومن الدور التي كان لها دورٌ كبير في خدمة المذهب الإسماعيلي وانتشاره "دار الحكمة" أو "دار العلم" التي ابتنيت في جمادى الآخرة سنة 395هـ/مارس1004م على عهد الحاكم بأمر الله (386هـ-411هـ/996م-1021م)[3]، حيث صارت مركزًا جديدًا من مراكز العلم في الدولة الفاطمية فكان من الطبيعي أن تصطبغ الحلقات العلمية بصبغة الشيعة وعلومهم[4]

وقد حُملت الكتب إلى هذه الدار من خزائن القصور المعمورة ومن خزائن دار الخلافة، ودُعي إليها العلماء من كافة التخصصات فحضر المنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء والفقهاء، وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعلم، وجُعِل فيها ما يحتاج الناس إليه من الأقلام والمحابر والأوراق[5].

ورغم تفتح دار الحكمة في بدايات تأسيسها على جميع الفئات لتدريس ودراسة مذاهبها[6]، إلاَّ أنَّ تلك الحرية الظاهرة كانت وسيلة لتحقيق الغاية الأساسية في نشر المذهب الاسماعيلي وتوجيه النشاط المذهبي، وذلك عن طريق جلب الناس على اختلاف طبقاتهم إلى هذه الدار تحت ستار الدراسة الحرة

---

(1) الشيرازي، ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص214، وأنظر، أحمد كامل محمد صالح، المرجع السابق، ص 154.

(2) المقريزي، الخطط، 129/2.

(3) المقريزي، الخطط، 274/2-275، اتعاظ الحنفا، 56/2.

(4) أيمن شاهين سلام، المدارس الإسلامية، ص55.

(5) المقريزي، الخطط، 274/2-275، اتعاظ الحنفا، 56/2،

(6) يذكر ابن تغري بردي أنَّ الحاكم بأمر الله الفاطمي أذِن للفقيه المالكي أبي بكر الأنطاكي، ولفقيه مالكي آخر أن يُقيما في دار العلم ويُلقيا دروسهما في المذهب المالكي، وجمع الفقهاء والمحدثين إليها، بل إنَّ بعض فقهاء المالكية والشافعية كان يتولى بعض المناصب الهامة في الدولة وبخاصة القضاء، أنظر، النجوم الزاهرة، 223/4.

وتمكينهم من تحصيل مختلف العلوم دون رسوم يدفعونها، ليقوم بعدها الدعاة الإسماعيلية بنشاطهم بين رواد الدار في استمالتهم ونشر عقائد المذهب بينهم، فضلاً على تأثر وانبهار الكثير من رواد هذه الدار بأصحاب الدعوة الإسماعيلية وبجهودهم في نشر العلوم والثقافة فتميل بذلك قلوبهم لمن أتاح لهم هذه الفرصة، كما وأن أيدي هؤلاء المتعلمين كانت ولا شك تمتد لكتب الإسماعيلية التي أودعها الفاطميون في الدار ممَّا يفتح لهم بابًا على المذهب يغريهم لمعرفة المزيد عنه[1].

وقد اتضح توجه هذه الدار حين تنكَّر الحاكم بأمر الله لعلماء المذهب السني وضيق على نشاطهم التعليمي بعد أن سمح لهم بذلك لظروف سياسية وأخرى بيَّناها سابقًا، وعلى هذا فقد كانت دار الحكمة مؤسسة مذهبية تقوم بوظيفة من أهم وظائف الدولة الفاطمية والمتمثلة في تكوين الدعاة والقضاة وتزويدهم بمختلف العلوم التي يستطيعون من خلالها نشر الدعوة الإسماعيلية والتمكين لها في مختلف الأمصار[2].

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الدور والجوامع ومختلف الجهود الفكرية من قبل الأئمة والدعاة في التمكين للمذهب الإسماعيلي قد شُرع فيها منذ أن سيطر الفاطميون على مصر – أي خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي- واستمر نشاطها بنفس النسق خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وخاصةً في الفترة التي عرفت في التاريخ الفاطمي بعصر نفوذ الخلفاء الممتد من (358هـ/669م) إلى (466هـ/1073م).

كما قام الخلفاء الفاطميون في هذا الشأن بإسناد المناصب الحساسة وبخاصة في القضاء لرجال متشيعين، وتوظيف دعاة متميِّزين بالدهاء والقدرة على الإقناع ومتفقهين في الفكر الاسماعيلي لتحقيق هدفهم داخل مصر وخارجها[3]، وليس هذا فحسب فقد دفعهم تعصُّبهم بغية تحقيق أهدافهم المذهبية لترهيب أهل السنة بمصر من خلال التعرض لعلمائهم بالتعذيب والتنكيل [4].

---

(1) أحمد كامل محمد صالح، المرجع السابق، ص 157.

(2) عبد اللطيف حمزة، **الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2016، ص 78- 80.

(3) القلقشندي، صبحي الأعشى، 483/3.

(4) حيث يذكر ابن كثير عن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أنَّه قام بقتل الفقيه أبا بكر النابلسي بعد أن عذبه بشكل بشع، وسبب ذلك أنَّ النابلسي كان يجاهر بتكفير معتنقي المذهب الإسماعيلي ويطعن في أحقية الفاطميين بخلافة المسلمين، فمما جاء في قوله:" وقد أحضر بين يديه الزاهد العابد التقي أبا بكر النابلسي، فأوقف بين يديه، فقال له المعز بلغني أنَّك قلت: لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة ورميت المعزِّيِّين (يقصد الفاطميين) بسهم، فقال: ما قلت هذا، فظنَّ أنَّه رجع، وقال: فكيف قلت؟ قال: قلت: ينبغي أن يرميكم بتسعة، ثمَّ

ومن مظاهر تعصُّبهم لمذهبهم أيضًا، منعهم السنيين من رواية السنة النبوية، وجهرهم بسبِّ الصحابة، فيقول عن ذلك الذهبي[1]: "قبَّح الله دولةً أماتت السنَّة ورواية الآثار النبوية، وأحييت الرفض والضلال، وبثت دعاتها في النواحي تغوي النَّاس ويدعونهم إلى نحلة الإسماعيلية، فبهم ظلَّت جبلَّةُ الشام وتعثروا".

واصل خلفاء الدولة الفاطمية سياستهم في تشييع مصر بعد المعز لدين الله، فأمعنوا في إظهار شعائرهم المخالفة للسنيين، كالآذان بحي على خير العمل والاحتفال بيوم عاشوراء ذكرى مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما بكربلاء، وعيد الغدير المعروف بغدير خم (المصادف للثامن عشر من شهر ذي الحجة)[2]، وقد أثار ذلك استياء المصريين السنيين بسبب ما كان يصاحب تلك الاحتفالات من اعتداءات ومضايقات في كثير من الأحيان، فأصابهم كثير من الضرر والأذى وأرغموا على المشاركة في إظهار تلك الشعائر وإلاَّ تعرضوا للاعتداء[3]، كما وأُلزم الموظفون من أهل السنة ممن تقلَّدوا المناصب الصغيرة في الدولة أن يسيروا طبقًا لأحكام المذهب الإسماعيلي أو العزل من وظائفهم، ممَّا دفع بالكثيرين منهم إلى اعتناق المذهب الإسماعيلي في النهاية[4].

زادت حدَّة التعصب المذهبي زمن حكم الخليفة الحاكم بأمر الله (386هـ- 411هـ/ 996م-1021م) حيث أصدر العديد من القوانين والأوامر المترجمة لذلك، كنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفي الأسواق والشوارع[5]، غير أنَّه سرعان ما تراجع عن بعضها وأبطلها نتيجة شدة الاحتقان التي

يرميكم بالعاشر، قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّكم غيَّرتم دين الأمَّة، وقتلتم الصالحين، وادَّعيتم نور الإلهية، فأمر بإشهاره في أول يوم، ثمَّ ضرب بالسياط في اليوم الثاني ضربًا شديدًا مبرِّحًا، ثمَّ أمر بسلخه في اليوم الثالث"، البداية والنهاية، 15/366-367.

[1] سير أعلام النبلاء، 18/497.

[2] وسب احتفال الشيعة بهذا اليوم ما يروى من أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عودته من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة نزل بغدير خم في طريقه إلى المدينة، وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: ألستم تعلمون أنِّي أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا بلى، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهمَّ وال من ولاه وعاد من عاداه، ويعتبر الشيعة هذا الحديث بمثابة مبايعة علنية للرسول لعلي بن أبي طالب، ويعتبرون الخلفاء الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمان مغتصبين لهذا الحق –تعرضنا له سابقًا–

[3] حسن إبراهيم، الفاطميون في مصر، ص187.

[4] المقريزي، الخطط، 2/286.

[5] يذكر المقريزي: أنَّهُ في "صفر من سنة 395هـ/1004م كُتب على سائر المساجد، وعلى الجامع العتيق من ظاهره وباطنه في جميع جوانبه، وعلى أبواب الحوانيت والحُجر والمقابر والصّحراء بسبِّ السلف ولعنهم، ونقش ذلك ولوِّن بالأصباغ والذهب، وعمل كذلك على أبواب القياسير وأبواب الدور، وأكره على عمل ذلك، وأقبلَ النَّاس من النواحي والضياع فدخلوا في الدعوة، وجعلَ لهم يوم، وللنساء يوم، فكثرَ الازدحام ومات في الزحمة عِدَّة، اتعاظ الحنفا، 2/54.

خلقتها تلك القوانين الطائفية المتطرفة لدى السنيين، فأمر بمحو ما نقش من سبٍّ للصحابة ولعنهم، كما منع المؤذنين من إضافة عبارة "حي على خير العمل" إلى الأذان، وأجاز لهم أن يقولوا في آذان الفجر "الصلاة خير من النوم"، وسمح أيضًا بإقامة صلاة التراويح بعدما كان قد أبطلها سابقًا[1].

واصل الحاكم بأمر الله سياسة المهادنة مع أهل مصر من السُنَّة فأنشأ لهم مدرسةً لتعليم مذهبهم، وألحق بها مكتبة، وعيَّن أبا بكر الأنطاكي ناظرًا لها ومنحه الخلع هو وأعوانه من مدرسي هذه المدرسة، وأصدر مرسومًا وفَّقَ فيه بين الطائفتين وترك لكل واحدة حرية ممارسة شعائرها الدينية[2]، وقد أدَّى هذا الأمر إلى تذمر الشيعة منه وفقدانه لسمعته بينهم، حيث وجدوا أنفسهم يسيرون في اتجاه عادات المذهب السني بحكم أكثرية معتنقيه[3]، لكنَّ سياسة الحاكم المسالمة هذه لم تلبث أن تبدَّلت، فعاد إلى تطرُّفه في معاملة أهل السنة.

فأمر في سنة 401هـ/1011م بإعادة الأذان على النحو الشيعي، وأبطل إقامة صلاة الضحى والتراويح، حتَّى أنه لما علم بإقامة هذه الصلاة – أي صلاة التراويح– في المسجد العتيق أمر بإمام هذا المسجد فضُربت عنقه، وأعاد في الوقت نفسه مجالس الحكمة في القصر، واعتزم بعد ذلك نبش قبري أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بالمدينة[4]، ثمَّ اتجهت سياسة الفاطميين في عهد الخليفتين الظاهر لإعزاز دين الله (411هـ-427هـ/1021م-1036م) والمستنصر بالله (427هـ-487هـ/1036م-1094م) إلى عدم إثارة الفرقة وإظهار التطرف للمذهب الإسماعيلي، فتمتَّع السُنِّيون بمطلق الحرية في أداء شعائرهم، كما أهملت بعض المظاهر الشيعية فصار المؤذنون لا يحرصون على ذكر عبارة "حي على خير العمل" في الآذان، فاشتهرت بذلك هذه الفترة بالعدل الشامل والعمل لصالح الرعية[5].

ولكن هذا الحال لم يستمر طويلاً، مادام أنَّ هناك مِنَ القادة والسلاطين والخلفاء مَنْ جعل فكرة التعصُّب والتطرف للفكر والعقيدة والمذهب أساسًا للحكم وتوطيد أركان الدولة، حتَّى وإن أدَّى ذلك

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 4/223-224، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت930هـ)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تح محمد مصطفى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ج1، ق1، ص200.

(2) المقريزي، الخطط، 2/287، ابن خلدون، تاريخ، 4/60.

(3) راجع حول السياسة المذهبية للحاكم بأمر الله وتأثيراتها على الرعية المصرية، عنان، الحاكم بأمر الله، ص262-264.

(4) المقريزي، الخطط،2/ 338.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 4/247 – 250، 5/3-27.

لهلاك الخَلقْ وشيوع الفوضى وتفشي الفتن، فحدث في أواخر حكم المستنصر بالله — زمن سيطرة الوزراء — وبتولي أمير الجيوش بدر الجمالي الوزارة (466هـ-487هـ/1073م-1094م)[1] والذي كان متعصِّبًا للشيعة، أن أُعيد ما قد سَنَّه الحاكم بأمر الله سابقًا من نقش عبارات سبِّ الصحابة على الجدران وإضافة "حي على خير العمل" للأذان والتكبير على الميت خمسًا وفق المعتقدات الشيعية، فبرزت في عهده روح العداء والكراهية لأهل مصر من السنة[2]، فيذكر عن ذلك صاحب النجوم الزاهرة[3]:" وفي دولته (يقصد المستنصر بالله الفاطمي) كان الرَّفض والسبُّ فاشيًا مجهَّرًا، والسُنَّةُ والإسلام غريبًا، فسبحان الحليم الخبير الذي يفعلُ في مُلكهِ ما يريد".

وعلى الرغم من كل المحاولات المبذولة من قبل السلطة الفاطمية الحاكمة بمصر والمناطق التي خضعت لنفوذها بغية تشييعها إلاَّ أنَّ المذهب السني ظلَّ متغلغلاً بين الناس ويعتنقه غالبية أهل مصر والشام، مع تسجيل تحول بعضهم إلى المذهب الاسماعيلي خوفًا من تطبيق القوانين الجائرة التي فرضها الفاطميون عليهم، فكان تمسك السنة بتعاليمهم ورفضهم الخضوع لرغبة مؤسسي هذه الدولة، سببًا دفع بالفاطميين إلى السماح لهم بممارسة شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، فصارت تعاليم الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل تدرس في دولتهم[4]، أمَّا مذهب أبي حنيفة فلم يلق تأييدًا لكونه مذهب أعدائهم العباسيين.

وعليه فإنَّ الوضع في مصر خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي قد طغى عليه صورة التسابق المحموم في فرض الاعتقاد الطائفي والتمكين للمذهب الشيعي على حساب التسنن لاستعادة حقهم المسلوب في خلافة المسلمين وفق إيمانهم، وهو الهدف نفسه الذي دفعهم — أي الفاطميون- للدخول في صراع مع مخالفيهم في المذهب من حكام بني العباس وآل سلجوق في الأقاليم المسيطرين عليها لفرض ذلك الاعتقاد، ليكون حال المشرق الإسلامي خلال هذا القرن في أضعف حالٍ لمواجهة أي خطر

---

[1] هو أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني، ولي إمارة دمشق في سنة خمس وخمسين وأربعمائة، وانفصل بعد عام، ثمَّ وليها والشام كلُّه في سنة ثمان وخمسين، ثم صار إلى الديار المصرية، والمستنصر في غاية الضعف، فشدَّ دولته، وتصرَّف في الممالك، وولي وزارة السيف والقلم، وامتدت أيامه، ولما أيس منه، ولي الأمر بعده الأفضل توفي في ذي القعدة سنة 488هـ/1094م، أنظر، الذهبي، العبر، 357/2، ابن العماد الحنبلي، شذرات، 380-381.

[2] ابن تغري، بردي، النجوم الزاهرة، 119/5.

[3] نفسه، 4/5.

[4] محمد جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص79-80.

خارجي يهدد كيانه، فكان أن وجد الإفرنج في حروبهم التي شنُّوها خلال العقد الأخير من هذا القرن (ابتداءً بسنة 490هـ/1096م) الطريق معبدًا لتحقيق مخططاتهم، بل أنَّ من نتائج هذا الوضع أن تحالفت بعض القوى الإسلامية مع هؤلاء الغزاة.

4– بلاد الشام ميدان الصراع المذهبي الإسلامي ومقصد حملات الصليبيين:

لم تكن بلاد الشام خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بأحسن حال من العراق ومصر، بل أنَّ ما اعتراها من اضطراب سياسي وانقسام مذهبي لم يكن سوى مُحصِّلة لما كان يقع داخل هذين الإقليمين من أحداث، وكذا لطبيعة العلاقة التي كانت تربطهما ببعض، فقد ظلت بلاد الشام منطقة نفوذ وامتداد لكل من حكم في العراق ومصر وحتَّى في الأناضول ممَّا جعلها ميداناً لمختلف الصراعات بين القوى الإسلامية والخارجية.

ولأنَّ حكام بغداد والقاهرة قد اتخذوا من الاعتقاد الطائفي أو العقيدة المغلقة نهجًا في سياستهم الداخلية وعلاقاتهم اتجاه بعض – مثلما بيناه سابقًا– ، فقد كان لابدَّ أن تقع صراعات ومواجهات بين الطرفين على مناطق النفوذ والتمكُّن، فضلاً على محاولة كل طرف استهداف عاصمة حكم الآخر لإعلاء ما يراه أحق بالإتباع من عقيدة، لتكون بلاد الشام بحكم موقعها بين العباسيين السنة والفاطميين الشيعة مسرحًا خصبًا لذلك التطاحن والصراع العسكري نصرةً للمذهب وتمكينًا للطائفة.

وقد لخَّص الشنقيطي[1] هذا الوضع ببلاد الشام بقوله: "وهكذا كانت بلاد الشام أمثل مكان يمكن لأي عدوٍ طارق أن يخترق منه قلب العالم الإسلامي، فقد مزَّقها التنافس العباسي الفاطمي، والريبة بين الجماهير الشيعية العربية في بلاد الشام، والنخبة التركية السنية، ثُمَّ الخلافات الاعتقادية والمذهبية الكثيرة".

وممَّا زاد من حدَّة الضعف والاضطراب في هذا الإقليم المهم من أقاليم العالم الإسلامي خلال تلك الفترة من تاريخ المسلمين أي القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي هو عدم خضوعه لسلطة سياسية واحدة من شماله إلى جنوبه[2]، وليس لأهله ولاء اعتقادي ثابت، بل كان يتأرجح مع من كان له

(1) أثر الحروب الصليبية، ص122.

(2) حسن حبشي، **نورالدين والصليبيون**، دار الفكر العربي، د ت، ص10.

القوة والتمكين في بغداد والقاهرة، فكانت على ذلك بلاد الشام مقسمة سياسيًا ومذهبيًا إلى عدَّة وحدات مستقلة كل واحدة عن الأخرى.

ففي العقود الستة الأولى من هذا القرن (5هـ/11م) حكم في الشمال ومنطقة الساحل أمراء صغار من القبائل العربية كالحمدانيين والمرداسيين في حلب وبنو عمار في طرابلس وبنو منقذ في شيزر وغالبيتهم من الشيعة الإمامية[1]، وكان التنافس بين هذه الوحدات سمة العلاقات التي كانت تربطها، أمَّا الجنوب الشامي كدمشق وفلسطين وغيرهما من المدن فقد كانوا تحت سلطة الفاطميين الشيعة الإسماعيلية بشكل مباشر[2]، لتخضع الخريطة السياسية والمذهبية لبلاد الشام بعد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي لتغيرات عميقة بدخول السلاجقة السنة بغداد وعزمهم على تقويض النفوذ السياسي الفاطمي والمذهبي الشيعي بفرعيه الإمامي والاسماعيلي على هذا الإقليم.

على أنَّ ما يهمنا في إطار هذه الدراسة هو التطرق لوضع الإمارات الشامية التي كان لها حضور في أحداث الصراع الإسلامي- الصليبي بشكل مؤثر، سواء كنقاط ضعف للجبهة الإسلامية في مواجهة الصليبيين أو كمراكز مقاومة ضد هذا العدوان، ونعني بهذه الإمارات كل من حلب في شمال الشام وطرابلس على الساحل الشامي وأخيرًا دمشق الممثلة للجزء الجنوبي من إقليم الشام، وسنحاول خلال هذا العرض تسليط الضوء على الأوضاع الداخلية لهذه الإمارات من الناحية المذهبية وكيف ساهم الاعتقاد الطائفي بها على واقع العلاقات السياسية الإسلامية – الإسلامية أولاً، ثمَّ كيف رسم مواقفها من العدوان الصليبي ثانيًا.

وبدءًا بحلب عاصمة بلاد الشام الشمالية فإنَّ الوضع السياسي والمذهبي بهذه الإمارة ظلَّ غير مستقرٍ منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وإلى غاية مجيء الصليبيين في العقد الأخير من القرن

(1) محمد محمد مرسي الشيخ، **الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ط1، 1980، محمد حمادة، تاريخ الشيعة، 153، 268، 287.

(2) لم يلبث الفاطميون بعد أن استولوا على مصر سنة 358هـ/969م، أن تطلَّعوا إلى الاستيلاء على بلاد الشام لتأمين وجودهم فيها، ولم يكد جوهر الصقلي ينتهي من فتح مصر حتَّى أرسل حملةً إلى بلاد الشام تحت قيادة جعفر بن فلاح الكتامي في أواخر سنة 359هـ/970م فاستولى على الرملة وأنزل الهزيمة ببقايا الإخشيديين في فلسطين، ودخل طبرية دون مقاومة ثم ما لبث أن استولى على دمشق ذاتها، أنظر حول توسعات الفاطميين في بلاد الشام، ابن الأثير الكامل، 310/7، اليافعي، مرآة الجنان، 279/3، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 61/4-62، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 120/1-122.

الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حيث تعاقب على حكم الإمارة أسر عربية شيعية إمامية (الحمدانيون والمرداسيون والعقيليون)[1].

ثم شهدت حلب عدة محاولات من الفاطميين لضمها لنفوذهم، لتؤول ابتداءً من سنة 479هـ/1085م لسيطرة السلاجقة السنيين بشكل مباشر[2]، لتزيد فرقة الشيعة الإسماعيلية النزارية التعقيد المذهبي والسياسي للإمارة قبيل الحملة الصليبية الأولى بسنتين وذلك على عهد رضوان بن تتش[3] الذي تولى السلطة عليها سنة 488هـ/1095م، وهو الذي مالئ هذه الطائفة ودعمها لخدمة مصالحه السياسية[4].

ولعلَّ عدم الاستقرار الذي عرفته إمارة حلب خلال تلك المرحلة من تاريخ المسلمين إنَّما يعود لموقعها المهم بين القوى الحاكمة في المنطقة والساعية للتمدد على حساب بعضها البعض، والمتمثلة في سلطة البيزنطيين شمالاً والعباسيين ثم السلاجقة السنيين شرقًا (بغداد) وكذا سلطة الفاطميين الشيعة الإسماعيلية غربًا (القاهرة)، فحلب بوقوعها في أقصى شمال بلاد الشام تعدُّ نقطة اتصال أساسية بين الشام الامتداد الطبيعي للفاطميين، وآسيا الصغرى الامتداد الطبيعي للبيزنطيين، والجزيرة الفراتية شمال العراق الامتداد الطبيعي للعباسيين ومن حكم في بغداد.[5]

---

(1) راجع حول الوضع في إمارة حلب خلال حكم هذه الأسر الشيعية الإمامية، محمد حمادة، تاريخ الشيعة، ص268.

(2) وللتوضيح فإنَّ حلب خلال هذه السنة 479هـ/1085م خضعت بشكل مباشر لسلطة السلاجقة بقيادة تتش بعد أن عمَّتها الفوضى عقب مقتل الزعيم العقيلي الذي صار إليه حكمها من قبل المرداسيين، وأمَّا في سنة 463هـ/1071م التي أشرنا إليها سابقًا فألب أرسلان كان قد أرسل إلى محمود بن صالح بن مرداس يطلب منه إقامة الخطبة للعباسيين مع بقاء سلطتها تحت حكمه، أنظر، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص118-119، ابن الأثير، الكامل، 388/8، 444، ابن العديم، زبدة الحلب، 98/2-99، أبو الفدا، المختصر،187/2-188، 197.

(3) هو فخر الملوك رضوان بن تتش ولد عام 475هـ/1082م، نشأ في دمشق عند والده تتش بن ألب أرسلان، وكانت أمُّه أمُّ ولد فزوجها تاج الدولة تتش لجناح الدولة حسين أيتكين، كما وجعله أتابك لولده رضوان، وعندما توجه تتش لحرب ابن أخيه بركياروق أوصى أصحابه بطاعة ابنه فخر الملوك رضوان، كما بعث إليه قبيل مقتله بأمره بالمسير إلى العراق، فاستجاب رضوان لرغبة والده، لكنَّهُ عاد إلى الشام بعد أن بلغهُ خبر مقتل أبيه، واستلم مدينة حلب من وزير أبيه أبي القاسم بن بديع، فقام زوج أمه جناح الدولة بتدبير أمر ملكه، دخل في حروب طاحنة مع أخيه شمس الملوك دقاق من أجل فرض سيطرته على دمشق، توفي سنة 507هـ/1113م، أنظر، الذهبي، العبر، 389/2، الحنبلي، شذرات، 27/6، فؤاد صالح السيد، مؤسسو الدول، ص194.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 141-143، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 523/19، ابن العديم، زبدة حلب، 146/2-147، 168، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 168/5.

(5) حامد أبو غنيم أبو سعيد، **الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية – جبهة الشام وفلسطين ومصر–**، دار السلام، ط1، القاهرة، 2007، ص34.

وعلى أية حال فإنَّ أهل حلب كانوا سنيين على مذهب أبي حنيفة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين/الثامن والتاسع الميلاديين، ثمُّ أخذت تتغلغل فيهم جيوب شيعية ابتداء من النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[1] وذلك بسبب وصول موجة كبيرة من البدو المهاجرين إلى شمال الشام والجزيرة الفراتية من قبائل عامر بن صعصعة وهي: كلاب وعقيل ونمير وقشير وخفاجة، ومعظم هذه القبائل كانت شيعة تعتقد بمذهب الإمامية الإثني عشرية[2].

على أنَّ استحكام التشيع الإمامي بحلب كقوة سياسية قد بدأ مع حكم بني حمدان لها (333هـ-406هـ/944م- 1017م)، حيث كان المذهب الرسمي للإمارة[3] فيسَّر حكام هذه الأسرة مهمة الدعاة في نشر المذهب الشيعي بين أهالي حلب وأعمالها، فكان حكمهم من جملة العوامل المساهمة في تأصُّل التشيع في الأجزاء الشمالية من الشام والعراق[4]، ولكن رغم هذا الانتشار لمذهب الامامية في حلب إلاَّ أنَّ الدلائل تشير إلى بقاء المذهب السني محتفظ بمكانة لدى قطاعات كبيرة من الأهالي[5].

وفي مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي سعى خلفاء الدولة الفاطمية الإسماعيلية المذهب في الاستيلاء على حلب لاتخاذها قاعدةً للضغط على الخلافة العباسية السنية عدوهم التاريخي فكان لهم ذلك سنة 406هـ/1015م[6]، ولكن معارضة أهل حلب من السنة والشيعة الإمامية أرغمت الفاطميين على قبول سلطة صورية فقط على المدينة عن طريق الأسرة المرداسية التي أسسها صالح بن

---

(1) الغزي كامل بن حسين بن مصطفى بالي الحلبي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، المطبعة المارونية، حلب، د ت، 189/1، محمد كرد علي، خطط الشام، 258/6، محمد محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية، ص456.

(2) بدوي أبو الفتوح، التاريخ السياسي، ص207.

(3) ومن هؤلاء الدعاة أبو محمد الممدوح الذي ينتسب لأسرة علي بن أبي طالب، والذي قدم إلى حلب في أواخر حكم سيف الدولة الحمداني (333هـ- 356هـ/944م- 967م)، وقد لقيت جهود هذا الداعي استجابة واسعة بين سكان الإمارة وتأييدًا مطلقًا من قبل حكامها، كما قام سعد الدولة أبو المعالي (356هـ-381هـ/ 967م-991م) ابن سيف الدولة الحمداني بإزالة شعائر المذهب السني عن حلب واستبدالها بالشعائر الشيعية، فغيَّر صيغة الآذان سنة 369هـ/979م وزاد فيه عبارة حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر، وهي المرة الأولى التي يحدث فيها هذا الأمر بحلب وبلاد الشام كاملةً، أنظر، الغزي، نهر الذهب، 189/1-190.

(4) الشيخ علي الابراهيم الطرابلسي، **التشيع في طرابلس وبلاد الشام**، دار الساقي، ط1، بيروت، 2007، ص72-74.

(5) الغزي، نهر الذهب، 189/1-190.

(6) كمال الدين بن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تح، سهيل زكار، دار الكتاب العربي، ط1، القاهرة، 1997، 191/1،

مرداس[1] سنة 414هـ/1035م، وقد ظلَّ التشيع الإمامي في عهد هذه الأسرة غالبًا ومنتشرًا[2].

على أنَّ الفاطميين الساعين لإسقاط صرح المذهب السني في بغداد لم ييئسوا من إخضاع حلب والأجزاء الشمالية لبلاد الشام لنفوذهم المباشر، فكان أن أتيحت لهم الفرصة سنة 449هـ/1057م حين تخلَّى ثمال بن صالح المرداسي- الملقب معز الدولة- عن حكم إمارة حلب وسلَّمها وباقي مناطق نفوذه إلى الفاطميين فتسلَّمها نيابةً على المستنصر بالله الأمير مكين الدولة الحسن بن ملهم، وبالمقابل منحه الفاطميون حكم بيروت وعكا[3] وجبيل[4] على الساحل الشامي، لتسقط بذلك الخطبة للقائم العباسي بحلب وتقام للمستنصر العلوي[5]، لتتزامن تلك الأحداث في حلب مع ما وقع في بغداد من محاولة البساسيري الاستيلاء على بغداد من العباسيين وإعلان الخطبة فيها للمستنصر الفاطمي إمام الدعوة الإسماعيلية.

ولأنَّ محاولة البساسيري - المدعوم من الفاطميين- في بغداد قد فشلت بعد استنجاد الخليفة العباسي بالسلاجقة السنيين، فإنَّ باقي مناطق النفوذ الفاطمي في بلاد الشام قد تأثرت هي الأخرى بهذا الفشل ومنها حلب، حيث استغل محمود بن نصر المرداسي الأحداث الواقعة في المنطقة لاستعادة نفوذ أسرته على المدينة فسار إليها مدعومًا بدعوات أهلها له لمساعدته في دخولها، فاستطاع أن يلحق الهزيمة بالقوات الفاطمية ويستعيد حكم أسرته على المدينة سنة 452هـ/1061م[6].

---

[1] هو أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس، يصل نسبه إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الكلابي، كان من عرب البادية، وقصد مدينة حلب، وبها مرتضى الدولة بن لؤلؤ الجراحي غلام أبي الفضائل بن سعد الدولة نصر بن سيف الدولة بن حمدان، نيابةً = عن الظاهر بن الحاكم العبيدي صاحب مصر، فاستولى عليها وانتزعها منه، وكان ذا بأس وعزيمة وأهل عشيرة وشوكة، وكان تملُّكه لها في ثالث عشر ذي الحجة 417هـ، واستقر بها ورتب أمورها، ثم وجه إليه الظاهر الفاطمي جيشا مع قائده أنوشتكين الدربزي فلقيه صالح بن مرداس فقتل وكان ذلك سنة 420هـ، أنظر، ابن خلكان، وفيات، 487/2.

[2] الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص124، محمد محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية، ص457.

[3] عكَّا، مدينة كبيرة من سواحل الشام، وداخلها عينٌ تعرف بعين البقر، وبها مسجدٌ ينسب إلى النبي صالح عليه السلام، وبين عمَّا وبين طبرية أربعة وعشرون ميلاً، ومنها إلى مدينة صور إثنا عشر ميلاً، استرجعها المسلمون من يدي الإفرنج سنة تسعين وستمائة، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص243.

[4] جبيل، بلدٌ في سواحل دمشق، وهو بلدٌ مشهور في شرقي بيروت على ثمانية فراسخ منها، ياقوت، معجم البلدان، 109/2.

[5] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص86، ابن العديم، زبدة الحلب، 232/1، الذهبي، تاريخ الإسلام، 28/30، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 235/2، الغزي، نهر الذهب، 71/3.

[6] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص90، ابن الأثير، الكامل، 352/8-353، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 106/19-107، ابن العديم، زبدة حلب، 235/1-236، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 259/2، الغزي، نهر الذهب، 71/3.

لكن حكم محمود بن نصر لم يدم أكثر من ستة أشهر، فقد عاد عمُّه ثمال بن صالح لينازعه حكم حلب بعد أن طرده الفاطميون من المناطق التي منحوها إياه على الساحل الشامي في أعقاب الاتفاق المبرم معه سنة 449هـ/1057م قائلين له: "إنَّ هذه الأماكن أخذتها عوضًا عن حلب، وقد عادت لابن أخيك، فتمضي إلى حلب وتستعيدها منه"، فسار بالفعل ثمال بن صالح إليها بعد أن زوَّده الفاطميون بما يحتاج إليه في حرب ابن أخيه، فاستطاع أن يهزم محمود ويعيد سلطته على حلب وكان ذلك في أواخر سنة 452هـ/1061م[1].

ظل الصراع الداخلي بين أفراد الأسرة المرداسية على الحكم أبرز ميزات عهدهم، وقد دفع بأفراد هذه الأسرة المتنازعة إلى الارتماء في أحضان القوى المجاورة لحكمهم كالبيزنطيين الذين طلب منهم محمود بن نصر دعمه ضد أعمامه ثمال وعطية – خلف عطية ثمال على رأس حلب بعد وفاته-، كما سعى هذين الأخيرين لضمان الحماية الفاطمية بالدعوة لخليفتها والخضوع المباشر لحكمهم[2]، وقد خلصت نتيجة الصراع المرداسي على حكم حلب لمحمود بن نصر بن صالح وأبنائه من بعده منذ سنة 457هـ/1066م على إثر الاتفاق الذي تمَّ مع عمه عطية بن صالح[3]، ولما وجد الفاطميون أن كفة الصراع في البيت المرداسي راجحة لمحمود بن نصر سعوا لاستمالته إلى معسكرهم وأرسلوا إليه ظفر المستفادي ومعه الخلع والألقاب، فتجاوب محمود مع الخطوة الفاطمية بإيجاب، وصار حاكمًا لحلب من قبل الفاطميين[4].

أخذ الوضع في حلب بعد ذلك يتغيَّر بشكل متناقض بدءًا بسنة 463هـ/1071م، حينما عزم السلطان السلجوقي ألب أرسلان على إنهاء النفوذ الفاطمي الشيعي في بلاد الشام ومصر، فما كان أمام محمود بن نصر المرداسي سوى الانحناء أمام العاصفة السلجوقية الآتية من الشرق، بقبول تحويل ولاءه من

---

[1] ابن العديم، زبدة الحلب، 239/1-241، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 260/2-261، الغزي، نهر الذهب، 72/3.

[2] ابن العديم، زبدة حلب، 249/1-251.

[3] تنازل عطية بن صالح بموجب ذلك الاتفاق لابن أخيه محمود بن نصر عن حكم حلب، بينما انفرد هو بحكم مدينة الرحبة وتوابعها، وهي واحدة من المدن الرئيسية في إقليم ديار مضر ببلاد الجزيرة، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص93، ابن العديم، زبدة الحلب، 252/1-253.

[4] ابن العديم، زبدة الحلب، 252/1.

الفاطميين إلى العباسيين بإعلان الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي دون المستنصر بالله العلوي[1]، وقد كان هذا الموقف من الأمير المرداسي يعبر بوضوح عن توجه سياسي وعقدي جديد فرض نفسه بقوة على كامل المنطقة خلال تلك المرحلة[2]، ولعلَّ أسلوب محمود في إقناع أهل حلب – المرتبطين مذهبيًا بالسلطة الفاطمية– بضرورة الخضوع لهذا التوجه الجديد يؤكد على حتمية تغيير الولاء[3].

وعلى ما يبدو فإن أهالي حلب لم تطب نفوسهم لهذا التحول المذهبي المدفوع بالضرورة السياسية في إمارتهم، وقد عبّروا عن ذلك بمواقف لا يخلو بعضها من الطرافة، فقد ذكر العديد من المؤرخين " ثوران الشيعة بحلب بعد ذلك التحول وقاموا بنهب حُصر الجامع، وقالوا: هذه حُصر علي بن أبي طالب، فليأت أبو بكر بحُصرٍ يصلِّي عليها النَّاس"[4].

دخل بعد ذلك البيت المرداسي في صراعات داخلية بين أبناء محمود (توفي سنة 467هـ/1076م) وهما نصر وشبل ثم بين أبناء نصر –الذي آل له حكم المدينة– وهما سابق ووثاب[5]، لينتهي عصر هذه الإمارة بحلب على وقع تلك الصراعات بسيطرة الأسرة العقيلية الحاكمة بالموصل (453هـ-489هـ/1061م- 1096م) بعد أن استنجد بها سابق بن نصر ضد الزعيم السلجوقي تتش بن ألب أرسلان الساعي للسيطرة على حلب في أكثر من محاولة بين سنتي 470هـ/1077م و471هـ/1078م، فكان انتقالها للعقيليين سنة 472هـ/1080م[6] واستمر حكمهم لها إلى غاية 479هـ/1085م وهي السنة التي سار إليها الأمير قسيم الدولة آق سنقر[7] من قبل السلطان السلجوقي ملكشاه بعد أن استنجد

---

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص99، ابن الأثير، الكامل، 388/8، ابن العديم، زبدة الحلب، 17/2-18، أبو الفدا، المختصر، 187/2-188، الذهبي، العبر، 313/2، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 302/2 (والمقريزي يؤرخ هنا لأحداث سنة 462هـ بخلاف ابن الأثير وأبو الفدا)، الغزي، نهر الذهب، ص73.

[2] حمادة، تاريخ الشيعة، ص276، الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص125.

[3] نقل ابن الأثير هذا الأسلوب في التعبير على لسان محمود بن نصر المرداسي فقال:" وسبب ذلك أنَّهُ رأى إقبال دولة السلطان وقوة انتشار دعوتها فجمع أهل حلب وقال: هذه دولةٌ جديدة ومملكة شديدة، ونحن تحت الخوف منهم وهم يستحلُّون دمائكم لأجل مذاهبكم والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقتٌ لا ينفعنا فيه قولٌ ولا بدل"، الكامل، 387/8.

[4] ابن الأثير، الكامل، 388/8، ابن العديم، زبدة الحلب، 18/2، الذهبي، العبر، 313/2، الغزي، نهر الذهب، 73/3.

[5] حول الصراعات التي كانت بين أبناء البيت المرداسي في حلب بين سنتي 463هـ/1071م وإلى سيطرة العقيليين عليها سنة 472هـ/1080م، راجع ابن العديم، زبدة الحلب، 45/2-66.

[6] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 113، ابن الأثير، الكامل، 421/8، ابن العديم، زبدة الحلب، 68/2-69.

[7] هو قسيم الدولة آقسنقر البرسقي المعروف بالحاجب – وهو غير آقسنقر البرسقي الذي حكم الموصل وحلب بين 515هـ-520هـ/1121م- 1126م–، وقد كان قسيم الدولة مملوكًا للسلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان ومن أبرز قواده وأرفعهم شأنًا

به أهل حلب ليتسلّم المدينة بعد مقتل الأمير العقيلي مسلم بن قريش[1].

دخلت حلب بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة 485هـ/1092م تحت حكم أخيه تاج الدولة تتش بن السلطان ألب أرسلان[2] صاحب دمشق بعد صراع جمعه بابن أخيه بركياروق بن ملكشاه[3] في إطار الأحقية برياسة ممتلكات آل سلجوق، ليجمع بذلك تتش بين حكم أهم مدن الشام حلب

ومن أخص المقربين إليه، ولاّه حلب سنة 479هـ/1085م فظهرت هيبته وكفايته في جميع البلاد التي كانت تابعة لحلب كمنبج واللاذقية وحماة، حيث قام بعدّة أعمال جليلة أبرزها نشر العدل بين الأهالي وتحقيق الأمن في شمال الشام، حيث يقول عنه بن الأثير:" وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسةً لرعيته وحفظًا لهم، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمنٍ واسع... وأمّا وفاؤه وحسن عهده، فكفاهُ فخرًا أنَّهُ قُتِلَ في حفظ بيت صاحبه وولي نعمتِهِ"، ولما توفي ملكشاه سنة 485هـ/1092م، دخل البيت السلجوقي في فتن وصراعات داخلية، شارك فيها أقسنقر الحاجب إلى جانب بركياروق بن ملكشاه ممثل سلاجقة فارس والعراق في مواجهة عم بركياروق تاج الدولة تتش زعيم سلاجقة الشام، وهذا للسيطرة على عرش السلطنة السلجوقية، وقد راح أقسنقر ضحية ذلك الصراع في معركة قادها لإيقاف مطامع تاج الدولة تتش عند تل السلطان قرب حلب في جمادى الأولى 487هـ/مايو1194م، ولم يكن لقسيم الدولة عند مقتله سوى ولد واحد هو عماد الدين زنكي الذي كان عُمره وقتذاك عشر سنين، فاعتنى به مماليك أبيه وأصحابه، وأحاطهُ كربوغا حاكم الموصل بالعطف والرعاية وحسن التربية، ولما بلغ زنكي مرحلة الشباب أظهر شجاعة في الحروب التي خاضها ضد الصليبيين لفتت إليه الأنظار، فذاع صيته وكسب شهرةً واسعة، أنظر، ابن الأثير، الباهر، ص15-16، أبو شامة، الروضتين، 155/1-156، ابن واصل، مفرج الكروب، 28/1-29، ابن خلكان، وفيات، 241/1، الداوداري، الذرة المضية، ج6 ص501.

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 119، ابن الأثير، الكامل، 444/8، ابن العديم، زبدة الحلب، 97/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 17/1-19، الذهبي، العبر، 313/2.

هو مسلم، الملك شرف الدولة، أبو المكارم بن الملك أبي المعالي، قريش بن بدران بن مقلَّد العقيلي، صاحب الجزيرة وحلب، وكان رافضيًا، اتسعت ممالكه، ودانت له العرب، وطمع في الاستيلاء على بغداد، عند موت طغرلبك، وكان شجاعًا فاتكًا مهيبًا، داهيةً ماكرًا، التقى هو والملك سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب الروم على باب أنطاكية، فقتل في المصاف سنة 478هـ، أنظر، ابن خلكان، وفيات، 267/5، الذهبي، العبر، 340/2.

[2] هو تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان بن داوود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، كان صاحب البلاد الشرقية، كان قد ملك دمشق في ذي القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة، وثيل اثنتين وسبعين وأربعمائة، ثمَّ تملَّك حلب في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، واستولى على البلاد الشامية ثم جرى بينه وبين ابن أخيه بركياروق منافرات ومشاجرات انتهت بمقتله قرب الري سنة 488هـ/1095م، أنظر، العظيمي، تاريخ حلب، 357، الفارقي، تاريخ، ص233، ابن خلكان، وفيات، 295/1-296، النويري، نهاية الإرب، 339/26، الذهب تاريخ الإسلام، 39/33.

[3] هو أبو المظفر بركياروق الملقَّب ركن الدين بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داوود بن ميكائييل بن سلجوق بن دقاق الملقَّب شهاب الدولة مجد الملكّ، وُلي المملكة بعد موت أبيه، وكان مولده في سنة أربع وسبعين وأربعمائة، وتوفي في الثاني عشر من شهر ربيع الآخر، وقيل الأول سنة ثمانٍ وتسعين وأربعمائة ببروجرد (وهي بلدة على بعد ثمانية عشر فرسخًا من همذان)، وأقام في السلطنة اثنتي عشرة سنة وأشهرًا، أنظر، ابن خلكان، وفيات، 268/1-269، الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص87-88، الذهبي، تاريخ الإسلام، 63/34.

ودمشق[1]، غير أنَّ ذلك لم يكن يعني نهاية الصراع بين العم وابن أخيه حيث استمر سجالاً بين الطرفين إلى غاية مصرع تتش في معركة الري سنة 488هـ/1095م[2]، ليُقسم مُلكه بين ولديه شمس الملوك دقاق[3] الذي تولى حكم دمشق وفخر الملوك رضوان الذي آل إليه حكم حلب[4].

تولى رضوان بن تتش حكم حلب في ظروف معقدة للغاية، فبالإضافة للصراعات الداخلية بين القوى السلجوقية وخاصة مع أخيه دقاق صاحب دمشق، وبعض القادة المتكالبين للسيطرة على حكمه كجناح الدولة حسين صاحب حمص – زوج أمه– وياغي سيان صاحب أنطاكية[5]، فقد دخل فاعل جديد على مسرح الأحداث جعل الوضع بحلب أكثر اضطرابًا وتعقيدًا وهو فرقة الشيعة النزارية (الحشاشون)، التي مالأها رضوان وأحاط دعاتها بالعطف والرعاية وبنى لهم دارًا للدعوة لمذهبهم بحلب[6].

كان لهذه الفرقة الباطنية المنشقة عن الدعوة الإسماعيلية الفاطمية دورٌ خطير في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية، فقد سعى رضوان لاستغلالها في ضرب خصومه السياسيين وخاصة أخيه دقاق

---

[1] العظيمي، تاريخ حلب، ص356، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص122، الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص72، ابن الأثير، الباهر، ص12، ابن واصل، مفرج الكروب، 22/1-26،

[2] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 129-130، العظيمي، تاريخ حلب، ص357، الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 78-79، الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص75-76، ابن الأثير، الكامل، 502/8، ابن العديم، زبدة الحلب، 335/1-336، الغزي، نهر الذهب، ص78.

[3] هو شمس الملوك دقاق بن تاج الدولة تتش، كان أبوه قد بعثه إلى عمه السلطان ملكشاه في بغداد، وخطب له بنت السلطان، شارك في المعركة التي خاضها والده تتش ضد السلطان بركياروق سنة 488هـ/1095م، لجأ بعد مقتل أبيه إلى أخيه فخر الملوك رضوان في حلب، قبل أن يستقل بحكم مدينة دمشق بمساعدة نائبه الأمير ساوتكين الخادم، قام بتعيين زوج أمه الأتابك ظهير الدين طغتكين متوليًا ومدبرًا لدمشق بعد أن تخلَّص من ساوتكين الخادم، دخل في حروبٍ طاحنة مع أخيه فخر الملوك رضوان من أجل فرض استقلاله على حكم دمشق، توفي سنة 497هـ/1103م، أنظر، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص130-144، الذهبي، تاريخ الإسلام، 60/34، الذهبي، السير، 210/19، جمال محمد حسن الزنكي، **إمارة دمشق في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية**، مكتبة المهتدين، الكويت، 1993، ص33 وما بعدها

[4] حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص 45-46، مسفر بن سالم عريج الغامدي، **الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر**، دار المطبوعات الحديثة، ط1، جدة، 1986، ص42.

[5] ابن الأثير، الكامل، 503/8، ابن العديم، زبدة الحلب، 336/1-338،

[6] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 141-143، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 523/19، ابن العديم، زبدة حلب، 146/2-147، 168، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 168/5.

صاحب دمشق وزوج أمه جناح الدولة حسين صاحب حمص، كما وجد النزارية في رضوان حليفًا استراتيجيًا لتنفيذ مخططاتهم في إضعاف المذهب السني باستهداف علماء وقادة المقاومة السنيين(1).

كما أنَّ رضوان الساعي للاستئثار بالسلطة على دمشق قد سعى لتحويل ولاءه من الخلافة العباسية السنية إلى الخلافة الفاطمية الشيعية، ساعيًا من وراء ذلك لكسب حليف قوي لصفه يستعين به لأخذ المدينة من أخيه، فحدث سنة 490هـ/1096م أن أعلن رضوان ولاءه للفاطميين وذكر اسم الخليفة المستنصر بالله على المنابر وأسقطها عن الخليفة العباسي ببغداد، ثم عدل عن ذلك بعد مدة بسبب تنكر الفاطميين لوعودهم بإرسال قوات عسكرية تدعمه في حرب أخيه دقاق وكذا إنكار القادة الأتراك لفعلته وحثِّه على العودة عن ذلك(2).

هذه هي صورة الأوضاع في حلب – أبرز مدن الشام الشمالية – خلال الفترة السابقة للحملات الصليبية، صورةٌ مصغَّرة عن الوضع في بلاد الشام والمشرق الإسلامي برمته، حيث تبرز مدى الاضطراب والفوضى الذي ميّز المدينة بسبب الصراعات السياسية الداخلية والتطاحن المذهبي بين القوى الإسلامية المتمذهبة والساعية لفرض اعتقادها الطائفي على المنطقة(3)، فكان هذا الثغر من الثغور الإسلامية –على أهميته– في وضع مُكبَّل لم يسمح له بلعب الدور الذي من الممكن القيام به في مواجهة العدوان الصليبي على بدايته، رغم بعض المحاولات المحتشمة من قبل حكامها المتعاقبين.

وأمَّا عن مدينة طرابلس خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فإنَّ وضعها السياسي والمذهبي كان أكثر وضوح واستقرار من حلب وخاصةً في الثلاثين سنة التي سبقت الحملة الصليبية الأولى على المشرق الإسلامي، حيث عرف حكمها سيطرة أسرة عربية من بني طيء وهي أسرة بني عمار الشيعية الإمامية منذ 462هـ/1070، وذلك على حساب الحكم الفاطمي المترنح(4).

---

(1) حول نشاط هذه الطائفة وأدوارها في حلب وبلاد الشام عصر الحروب الصليبية، أنظر، عثمان عبد الحميد عشري، **الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية (491هـ-691هـ/1097م-1290م)**، المكتبة التاريخية، الإسكندرية، 1983، محمد عبد الله المقدم، **الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية**، دار العالم العربي، القاهرة، 2008، ص91 وما بعدها.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص133 ، ابن الأثير، الكامل، 11/9، ابن العديم، زبدة الحلب، 2/129-130، أبو الفدا، المختصر، 2/210، الذهبي، العبر، 3/362، ابن كثير، البداية والنهاية، 12/154، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 3/19.

(3) السيد عبد العزيز سالم، **طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د ت، ص63.

(4) تمكَّن الحسن بن عمَّار الطرابلسي أمين الدولة أبو طالب، ذو المناقب، الشيعي الإمامي المذهب سنة 462هـ/1070م، وهو وقتها قاضي طرابلس، من الاستقلال بحكم المدينة بعد أن تراخت السلطة الفاطمية على ساحل بلاد الشام بسبب المجاعة التي حلَّت بمصر

دخلت الدولة الفاطمية خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي مرحلة من الضعف والارتباك بسبب ما عرفته من محن واضطرابات سياسية وأزمات اقتصادية أثرت بشكل بالغ على الأوضاع العامة بعاصمة حكمها مصر والأقاليم الخاضعة لنفوذها في بلاد الشام[1]، فضلاً على نشاط السلاجقة السنيين وسعيهم لاستعادة ممتلكات الخلافة العباسية في المنطقة منذ دخولهم بغداد سنة 447هـ/1055م.

فكان ذلك من جملة العوامل التي ساعدت أسرة بني عمار على الاستقلال بطرابلس وبعض المدن التابعة لها، بعد أن خضعت للنفوذ الفاطمي منذ سنة 360هـ/971م، لتمضي هذه الأسرة في خطها الاستقلالي عن القوى الإسلامية الحاكمة في بلاد الشام وقتذاك مدة أربعين عامًا قبل أن تسقط طرابلس في أيدي الصليبيين سنة 502هـ/1109م وتصبح رابع الإمارات الصليبية المؤسسة في بلاد الشام.[2]

ترتب على استقرار الحكم الفاطمي في طرابلس ومدن الساحل الشامي لما يزيد عن القرن من الزمن أن انتشر التشيع وغلب في تلك المناطق بفرعية الإمامي والاسماعيلي، الأول على المستوى الشعبي والثاني على المستوى السياسي تحت سلطة الفاطميين، بل أدّى ترسُّخ المذهب في الأقاليم الغربية لبلاد الشام ورعايته من قبل الحكام والولاة أن برزت ظاهرة المغالاة في تبني العقيدة الشيعية لتأخذ عقائد المذهب أشكالاً مختلفة ومتباينة ظهرت على إثرها جماعات متعددة عرفت بالحاكمية والآمرية وكذا النصيرية والدروز وغيرهم[3].

وقد أكَّد على هذه الغلبة الشيعية بطرابلس والمنطقة الساحلية الرحَّالة الفارسي ناصر خسرو[4]، الذي زار طرابلس عام 438هـ/1046م، فذكر بأنَّ سكانها كانوا يبلغون عشرين ألفًا كلُّهم شيعة، كما وأنَّ الكثير من القرى المنتشرة حولها غالبية أهلها من الشيعة، حتَّى أنَّ القاضي ابن عمَّار حينما أعلن

وفوضى الحكم واضطرابه فيها، لتستمر أسرة ابن عمَّار في حكمها طيلة تسعًا وثلاثين سنة (462هـ-502هـ/1070م-1109م)، وقد تعاقب على حكمها ثلاث أمراء هم، الحسن بن عمَّار (462هـ-464هـ/1070م-1072م)، علي بن محمد، جلال الملك (464هـ-494هـ/1072م-1102م)، عمّار بن محمد فخر الملك (494هـ-502هـ/1102-1109م)، ابن الأثير، الكامل، 392/8، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 307/2، زامباور، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، أخرجه، زكي محمد حسن بك، حسن أحمد محمود، دار الرائد العربي، بيروت، 1400هـ/1980، ص160.

[1] سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 214/19، أبو الفدا، المختصر، 186/2، الذهبي، العبر، 312/2.

[2] محمد محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية، ص191.

[3] محمد محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية، ص458.

[4] **سفر نامة**، تر، يحيى الخطاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1983، ص48.

استقلاله بطرابلس عن الخلافة الفاطمية سعى للإبقاء على علاقات ودية معها وعدم معارضة سياستها أو إعلان العداء لها وذلك لعدم إثارة أهل المدينة الذين يدينون بالولاء الروحي للإمام الفاطمي، كما أنَّه نأى بسياسته عن أي تحالفات مع القوى الأخرى وخاصة السنية منها واتخذ الحياد نهجًا في ذلك[1].

على أنَّ تلك السياسة التي انتهجها ابن عمار في علاقاته بالفاطميين والقوى السنية لم تكن بضغط من الرعية الطرابلسية المتشيعة فحسب، فحتَّى حكام هذه الأسرة كانوا على عقيدة الإمامية وسعوا للتمكين لها طيلة سنوات حكمهم، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ القاضي أبو طالب الحسن بن عمار وهو أحد قضاة الدولة الفاطمية كان فقيهًا شيعيًا محبوبًا لدى أهل المدينة وكان شديد المراعاة للشيعة[2].

ساهم بنو عمار في الازدهار الثقافي للمذهب الشيعي الإثني عشري وخاصةً بعد تأسيس مدرسة "دار العلم" من طرف أمين الدولة أبو طالب عمار، والتي اختصت بالدراسات الإسلامية كالكلام والتفسير والحديث حسب وجهة النظر الشيعية طبعًا، فغدت طرابلس حاضرة علمية وإحدى أهم مراكز العلم استقطابًا للعلماء والأدباء والرحالة، ولعلَّ أبرز الأمثلة عن ذلك مكتبتها الضخمة التي ناهز بها عدد الكتب المائة ألف والتي اهتمَّ أغلبها بنشر الفكر والثقافة الشيعية ببلاد الشام [3].

ورغم هذا الاستقرار المذهبي والسياسي لإمارة طرابلس تحت سلطة بنو عمار قبيل ثلاثين سنة من مجيء الصليبيين إلاَّ أنَّها تأثرت كباقي مدن الشام بالواقع الجديد والمتمثل في دخول السلاجقة بغداد وعزمهم على تقويض النفوذ الشيعي ببلاد الشام ومصر، وذلك منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فحدث أن حاول تتش بن السلطان ألب أرسلان ضم طرابلس لنفوذه سنة485هـ/1092م بمعاونة حليفيه قسيم الدولة آقسنقر حاكم حلب وبوزان[4] حاكم الرها، غير أنَّ

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص112.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 92/5، ابن الفرات، تاريخه، 77/8.

(3) ناصر خسرو، سفرنامة، ص47-48، البرجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص161، الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص127.

(4) من أمراء السلطان ملكشاه عهد إليه بولاية الرها عام 479هـ/1086م، بعد أن استلمها من حاكمها البيزنطي الفلاردوس، وقد كان لبوزان دورٌ بارز في الأحداث السياسية التي عصفت ببلاد الشام عقب وفاة السلطان ملكشاه عام 485هـ/1092م، وأصبح مع الأمير آق سنقر صاحب حلب طرفًا في النزاع الذي نشب بين الأمير تاج الدولة تتش وابن أخيه بركياروق، قتل في حلب على يد تتش بعد أن تمكَّن من الاستيلاء عليها عام 487هـ/1094م، وقام تاج الدولة بإرسال رأسه إلى حرَّان فسلَّموا له المدينة، أنظر، ابن الأثير، الكامل، 477/8، 494-495، الذهبي، العبر، 353/2-354.

ذكاء وفطنة جلال الملك بن عمار (464هـ-494هـ/1072م-1102م) وتمكُّنه من تحييد تتش على حلفائه ساهم في رفع الحصار عن طرابلس وبقائها في منأى عن النفوذ السلجوقي السني[1].

استمر حكم طرابلس في يد أسرة بني عمار إلى غاية قدوم الحملة الصليبية الأولى سنة 490هـ/1096م، وفق سياسة حيادية مستقلة عن السلاجقة والفاطميين، مع إبقاء الولاء العقدي لحكام مصر[2]، فكان لتلك السياسة أثرٌ في رسم مواقف هذه الإمارة من العدوان الصليبي على الأقاليم الخاضعة لنفوذ القوتين السالفي الذكر كأنطاكية التابعة للنفوذ السلجوقي وبيت المقدس الواقعة تحت سلطان الفاطميين، واللتين خضعتا للسيطرة الصليبية في رجب491هـ/جوان 1098م و492هـ/1099م على التوالي، كما وساهمت سياسة بنو عمار الحيادية في تحديد مواقف السلاجقة والفاطميين من حصار الصليبيين لإمارة طرابلس سنة 495هـ/1101، ثم من سقوطها بعد ذلك سنة 502هـ/1109م.

وبالانتقال إلى جنوب بلاد الشام نجد أنَّ النفوذ الفاطمي قد أحكم على كثير من المدن فيها، وأهمها في تلك المرحلة إمارة دمشق، حيث عُدَّت هذه المدينة المركز الأساسي للفاطميين في بلاد الشام كُلِّها وذلك من الناحيتين السياسية والإدارية، واعتبر حاكمها كبير رجالات الدولة الفاطمية في بلاد الشام، ومن مهامه الإشراف على إدارة شؤون باقي النواحي الشامية.

وكبقية الأقاليم الشامية فقد أدَّى خضوع دمشق للنفوذ الفاطمي إلى دخول المذهب الشيعي الاسماعيلي إليها وانتشاره بين أهلها وصار يدعى للخليفة الفاطمي على المنابر بدل الخليفة العباسي[3]، وهذا رغم كون دمشق بيئة سنية في أصلها باعتبارها عاصمة الأمويين الخصوم السياسيين للعلويين، على أنَّ هذا الانتشار لم يكن بالسهولة المتوقعة، حيث واجه أهل دمشق باستماتة الفاطميين لكراهتهم بما يعتقدونه

---

(1) جمال محمد حسن الزنكي، إمارة دمشق، ص21-22.

(2) عبد العزيز محمد عبد الدايم، **إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر**، رسالة ماجيستير، قسم المخطوطات، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1971، ص18.

(3) عندما أحسَّ أهل دمشق بعجزهم في الدفاع عن المدينة توجَّه قسمٌ منهم إلى جعفر بن فلاح يطلبون الأمان، وتوسَّلوا له للتصالح، واتفق معهم على أن يصلي الجمعة مع رجاله في مسجد دمشق، فدخل معهم وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله، وحذف منها اسم الخليفة العباسي المطيع، وذلك في محرم سنة 360هـ/نوفمبر970م، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص، الدواداري أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت736هـ)، **كنز الدرر (الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية)**، تح، بيرند راتكه، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1982، 127/6-128، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 125/1.

وهم وقتذاك سنيين في غالبهم وبميول أموية،[1] حيث يجمل ذلك ابن القلانسي بقوله[2]:"كان أهل دمشق يأبون المغاربة (الفاطميون) لمخالفتهم لهم في الاعتقاد ولأنَّهم أمويون".

وأبرز ذلك أيضًا محمد حمادة[3] في سياق حديثه عن استنجاد الدماشقة بأفتكين التركي ضد ظلم الفاطميين لأهلها السنيين بقوله:" يبدو أنَّ دمشق حصن الأشراف الهاشميين المرتبطين بتعصُّبٍ للسُّنَّة"، ويقول أيضًا " هكذا يبدو أنَّ التسنن كان متجذرًا جدًّا عند سكان دمشق، على الرغم من التمدد الفاطمي على كل إفريقيا الشمالية والشام حتَّى الفرات، وعلى الرغم من نشاط دعاته في بذر الإسماعيلية من خلال رعايةٍ منظمة جيدًا".

عاني أهل دمشق السنيين كثيرًا من ظلم الفاطميين سعيًا منهم لفرض مذهبهم الاسماعيلي، وقد كان هذا الظلم متماشيًا مع سياسة الخلفاء وتعصبهم المذهبي في عاصمة الدولة بمصر[4]، ومن الأمثلة على ذلك ما قام به الحاكم بأمر الله من إعدام مشايخ دار الحكمة السُّنة، ومنع ممارسة الشعائر السنية[5].

وحدث أيضًا خلال سيطرة البساسيري المدعوم من الفاطميين على بغداد سنة 449هـ/1057م أن فرَّ من بغداد الإمام السُّني الحافظ أبا بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب[6] إلى دمشق

---

[1] محمد علي كرد، خطط الشام، 206/1، محمد حمادة، تاريخ الشيعة، ص202.

[2] ذيل تاريخ دمشق، ص16.

[3] تاريخ الشيعة، ص204، 205.

[4] محمد حسين محاسنة، **تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي**، دار الأوائل للنشر والتوزيع، ط1، 2001، ص87-89، 119-120.

[5] ويذكر عن الخليفة الحاكم بأمر الله أيضًا أنَّهُ كلّف واليه في دمشق بمعاقبة السُّنة، فحدث في سنة 393هـ/1002م أن ضُرب رجلٌ سني وسيق في أزقة المدينة على ظهر حمار ونودي عليه، هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر، ثُمَّ أمر بقطع رأسه، أنظر، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 208/4.

[6] هو الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي بن ثابت البغدادي، والمعروف بالخطيب، صاحب تاريخ بغداد وغيره من المصنَّفات، ولد في جمادى الآخرة من سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وتوفي في السابع من ذي الحجة سنة ثلاث وستين وأربعمائة ببغداد، كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين، ولو لم يكن له سوى " التاريخ" لكفاه، فإنَّهُ يدلُّ على إطلاع عظيم، وصنَّف قريبًا، من مائة مصنَّف، وفضلهُ أشهر من أن يوصف، أخذ الفقه عن أبي الحسن المحاملي والقاضي أبي الطيب الطبري وغيرهما، وكان فقيهًا فغلب عليه الفقه والتاريخ، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 19/ 239-240، ابن خلكان، وفيات، 92/1-39، الذهبي، السير، 270/15.

وحاكمها وقتها شيعي من قبل الفاطميين، فأمر الوالي صاحب الشرطة وكان سُنيًا بالقبض عليه وقتله ولكنَّ هذا الأخير لم يشأ فعل ذلك ورأى حيلة ينقذ بها الإمام يفصلها سبط بن الجوزي[1]

ومما يستخلص هنا في إطار هذه الحادثة أنَّ الإمام العراقي الفار قد استهدف لمذهبه السني فحسب في منطقتين صار فيهما التشيع مُستحكمًا ومتنفذًا – على الأقل خلال تلك الفترة-، مما يبرز حدَّة التطرف المذهبي لدى الحكام الفاطميين، كما تبيَّن لنا طبيعة الوجود الفاطمي في دمشق حيث لم يكن مجرد وجود سياسي بل كان حضورًا سياسيًا وعقديًا.

وعلى أية حال فإنَّ الفاطميين وبعد جهود مضنية تمكَّنوا من فرض الصبغة الشيعية على دمشق وأعمالها وابتدأت المدينة تتقبَّلُ التشيع مع مرور السنوات، ولا أدلَّ على ذلك من الصعوبات التي واجهت أتسز بن أوق الخوارزمي القائد الذي أرسله ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي سنة 463هـ/1071م للاستيلاء على المدينة وتغيير الوضع المذهبي بها في إطار سياسة السلاجقة اتجاه النفوذ الفاطمي في بلاد الشام[2].

حيث واجه القائد السلجوقي مقاومة قوية من أنصار الفاطميين بالمدينة اضطرته لرفع الحصار والابتعاد عن دمشق وتوجيه عديد الحملات العسكرية سنويًا، مع اتخاذ أسلوب الحصار الاقتصادي لإضعافها ثمَّ تملكها[3]، ليتمكَّن السلاجقة بعد محاولات عديدة من السيطرة على دمشق بعد أن استسلم أهلها للحصار الذي فرضه أتسز بن أوق وسلموا له المدينة بالأمان، وذلك في ذي القعدة سنة 468هـ/جوان1076م،[4] لتنتهي بذلك حقبة وتبدأ أخرى في تاريخ هذه المدينة، فقد انتهت حقبة النفوذ

---

[1] "فقال للخطيب: قد أمر الوالي بقتلك وقد رحمتك ومالي فيك حيلة إلاَّ أنَّني إذا خرجت بك أمرُّ على دار الشريف ابن أبي الجن العلوي فأدخل داره فإنّي لا أقدر على الدخول خلفك، وخرج به فمرَّ على دار الشريف فوثب الخطيب فصار في الدهليز وعلم الوالي فأرسل إلى الشريف يطلبه منه، فقال الشريف: قد علمت اعتقادي فيه وفي أمثاله وليس هو من أهل مذهبي وقد استجارني وما قتلهُ مصلحة، فإنَّ له بالعراق صيتًا وذكرًا، فإن قتلته قتلوا من أصحابنا عِدَّة وأخربوا (كذا) مشاهدنا، قال: فيخرجُ من البلد، فأخرجوه فمضى إلى صور"، مرآة الزمان، 244/19.

[2] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 98-99، الفارقي، تاريخه، ص192، ابن الأثير، الكامل، 390/8، أبو الفدا، المختصر، 188/2، الذهبي، تاريخ الإسلام، 14/31، العبر، 314/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 89/5.

[3] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 98-99.

[4] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص108، ابن الأثير، الكامل، 410/8، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 311/19، ابن ميسر، أخبار مصر، 42-43، أبو الفدا، المختصر، 197/2، ابن كثير، البداية والنهاية، 54/16، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 315/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 103/5.

الفاطمي الشيعي التي دامت لما يزيد عن مائة عام، وابتدأت حقبةٌ دخلت فيها دمشق ضمن ممتلكات السلطنة السلجوقية وتدين بالولاء للخليفة السني في بغداد[1].

لم تكن الخلافة الفاطمية لتفرط في دمشق بهذه السهولة لأهميتها كمركز متقدم في بلاد الشام ضد النفوذ السني العباسي والسلجوقي، خاصةً وأن الأوضاع في مصر قد أخذت منحى جديدًا نحو التحسن، حيث استدعى الخليفة المستنصر بالله سنة 466هـ/1074م أحد كبار رجال الدولة وهو بدر الجمالي الأرمني والي عكا، وفوَّض إليه حكم الدولة الفاطمية، وصار يلقب بأمير الجيوش، فيقول عن ذلك ابن تغري بردي[2]:" وفوَّض (المستنصر) إليه (بدر الجمالي) أمور مصر والشام وجميع ممالكه، فاستقامت الأمور بتدبيره وسكنت الفتن، وصار الأمر كلُّه له".

شرع بدر الجمالي بعد أن استتبت الأمور الداخلية للخلافة الفاطمية في محاولات لاستعادة أقاليمها ببلاد الشام وخاصة دمشق، فأرسل بين سنتي 470هـ/1078م و478هـ/1086م ثلاث حملات عسكرية في سبيل إعادة المدينة لحظيرة النفوذ الفاطمي، فكانت الأولى سنة 470هـ/1078م بقيادة نصر الدولة الجيوشي وقد منيت بالهزيمة على يد أتسز وقواته[3]، وأمَّا الحملة الثانية التي كانت في السنة الموالية تحت نفس القيادة فقد دفعت قوتها أتسز إلى الاستنجاد بتتش بن السلطان ألب أرسلان الذي كان وقتها يعمل على بسط نفوذه على حلب وأعمالها، فانتهز تتش الفرصة وسارع لنجدة أتسز بقواته فما كان من القوات الفاطمية سوى التراجع والانحسار، فدخل تتش دمشق وتملّكها بعد قتله لأتسز[4].

حقق بذلك تتش ما كان يطمح إليه من تأسيس ملك خاص به، خاصةً بعد فشله في وراثة عرش السلاجقة عن أبيه ألب أرسلان، ثُمَّ فشله في الاستيلاء على إمارة حلب من حكامها المرداسيين سنة

---

[1] يشير ابن ميسر إلى أنَّ أتسز لما دخل دمشق واستلمها قام بقطع الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي فلم تعد بعد ذلك الخطبة للفاطميين فكان أخر ما دعى للمصريين يوم الجمعة الثامن عشر من ذي القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة، أخبار مصر، ص43.

[2] النجوم الزاهرة، 141/5.

[3] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص112، ابن ميسر، أخبار مصر، ص45، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 319/2.

[4] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص112، ابن الأثير، الكامل، 418/8، ابن ميسر، أخبار مصر، ص45 (ابن ميسر أرخ لها في حوادث 472هـ)، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 320/2.

471هـ/1079م[1]، الذين استنجدوا ببني عقيل الشيعة حكام الموصل وسلَّموهم حكم المدينة سنة 1081/472م[2].

واجه تتش في سبيل تثبيت أركان حكمه بدمشق العديد من العقبات، أبرزها محاولة الزعيم العقيلي مسلم بن قريش صاحب الموصل وحلب الاستيلاء على دمشق سنة 475هـ/1083م، غير أنَّ محاولته باءت بالفشل بسبب قوة جيوش تتش وعدم وصول النجدات التي طلبها من الفاطميين بمصر، فعرَّج عائدًا إلى بلاده[3].

كانت محاولة الزعيم العقيلي الشيعي خطوة مضادة للنشاط السلجوقي السني في بلاد الشام، فبعد أن نجح في طرد السلاجقة مؤقتًا عن حلب الشيعية برد محاولات تتش الاستيلاء على المدينة ثُمَّ بسط سيطرته عليها سنة 472هـ/1080م، سعى لتحقيق نفس الهدف في دمشق وكل هذا بالتنسيق مع الفاطميين إخوانه في المذهب.

و على أية حال فقد قاد الوزير بدر الجمالي بنفسه ثالث الحملات العسكرية الفاطمية في سبيل استعادة دمشق من حكامها الجدد، وذلك في الشهور الأولى من سنة 478هـ/1085م، ورغم ما تمتعت به القوات الفاطمية من قوة إلاَّ أنَّها لم تستطع تحقيق هدفها في طرد السلاجقة من دمشق، بفضل استبسال تتش ورجاله في مواجهة تلك الجموع، لتكون هذه المحاولة آخر المبادرات الفاطمية في استعادة المدينة[4]، التي ظلت تحت حكم تتش بن ألب أرسلان إلى غاية وفاته سنة 488هـ/1095م، ليؤول حكمها بعد ذلك لابنه دقاق وتحت وصاية أتابكه ظهير الدين طغتكين[5].

هذه هي صورة الأوضاع بأهم مراكز بلاد الشام (حلب وطرابلس ودمشق)، في الفترة التي سبقت مجيء الصليبيين إلى المنطقة، اضطرابات سياسية داخلية لا تنتهي وتسابق محموم لفرض الاعتقاد الطائفي

---

[1] ابن العديم، زبدة الحلب، 57/2.

[2] ابن العديم، زبدة الحلب، 67/2-68، الذهبي، تاريخ الإسلام، 8/32،

[3] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 114-115، ابن الأثير، الكامل، 429/8، ابن العديم، زبدة الحلب، 81/2.

[4] ابن الأثير، الكامل، 440/8-441، أبو الفدا، المختصر، 196/2، الذهبي، تاريخ الإسلام، 8/32.

[5] هو صاحب دمشق، الملك أبو منصور طغتكين الأتابك، من أمراء السلطان تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، فزوَّجهُ بأمِّ ولده دقاق، فقُتل السلطان، وتملَّك بعدهُ ابنه دقاق، وصار طغتكين مقدِّم عسكره، ثُمَّ تملَّك بعد دقاق، وكان شهمًا شجاعًا، مهيبًا مجاهدًا في الفرنج، مؤثرًا للعدل، يلقَّبُ ظهير الدين، مات في صفر من سنة اثنتين وعشرين وخمس مائة، يقول عنه ابن القلانسي: " لولا أنَّ الله أقام طغتكين للإسلام بإزاء الفرنج، وإلاَّ كانوا غلبوا على دمشق، فقد هزمهم غير مرَّة"، أنظر، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 519/19، الذهبي، شذرات، 108/5.

لكل من قوتي العباسيين والسلاجقة السنة من جهة والفاطميين الشيعة الإسماعيلية من جهة أخرى، وهو ما جعل ثغر الشام في حالٍ أضعف من أن يواجه مخططات الصليبيين.

وقبل بلاد الشام فإنَّ ارتدادات الانقسام المذهبي بين أكبر قوتين إسلاميتين وقتذاك (العباسيين والسلاجقة من جهة والفاطميين الشيعة الإسماعيلية من جهة أخرى) قد كان له بالغ الأثر على عواصم حكمهما (بغداد والقاهرة) وكذا باقي الأقاليم الخاضعة لنفوذهما، فعرفت سنوات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي – بسبب بلوغ الطرفين المتنازعين مستوى متقارب من القوة– أشدَّ مراحل الاحتقان المذهبي، وهذا كلُّه في وقت كان الغرب الأوروبي يحضر لهجمة عسكرية مدفوعة بدواعي دينية عرفت في التاريخ بالحملات الصليبية.

الفصل الثالث

الفصـل الثالث:

أثر الصراع المذهبي عند المسلمين في مواجهة ارتدادات الحملة الصليبية الأولى إلى بداية المقاومة على العهد الزنكي

(490هـ-521هـ/1096م-1127م)

أولاً: الصراع المذهبي وانتكاسات الجبهة الإسلامية في مواجهة ارتدادات الحملة الصليبية الأولى:

1- سير الحملة الصليبية الأولى من كليرمونت إلى الأرض المباركة

2- انتكاسة رد الصليبيين عن أنطاكية

3- ضياع بيت المقدس بين نار الطائفية

4- سقوط طرابلس، المسؤولية المشتركة

ثانيًا: أثر الصراع المذهبي عند المسلمين بالمشرق على جهود المقاومة قبيل العهد الزنكي

1- بوادر مبكرة للوحدة بين السنة والشيعة الإسماعيلية

2- الإسماعيلية النزارية، واستهداف قادة المقاومة الإسلامية الأوائل

3- دبيس بن صدقة والقاضي بن الخشاب وتناقضات الوضع المذهبي بالمشرق في مواجهة الصليبيين.

أولاً: الصراع المذهبي وانتكاسات الجبهة الإسلامية في مواجهة ارتدادات الحملة الصليبية الأولى

1- سير الحملة الصليبية الأولى من كليرمونت إلى الأرض المباركة

بدأت الدعوة للقيام بالحروب الصليبية في الجنوب الشرقي لفرنسا بتاريخ 28 نوفمبر 1095م، حين عقد البابا إيربان الثانيUrban II مجمعا دينيًا بمدينة كليرمونت في مقاطعة أوفيرن، والذي حضره نحو ثلاثمائة من رجال الدين، بالإضافة إلى النبلاء والفرسان ومندوبين عن الإمبراطور البيزنطي[1]، حيث دعا البابا في خطابه إلى مساعدة البيزنطيين في الشرق، ونوَّه إلى ما يحيط بالمسيحية ومقدساتها من خطر نتيجة التوسعات المستمرة للأتراك السلاجقة[2].

كما لم يغفل البابا الحديث عن بيت المقدس ومكانته في الديانة المسيحية وعن أوضاعه تحت سيادة المسلمين مستغلا في ذلك ما نقله الرَّاهب الفرنسي الطَّواف المعروف باسم بطرس الناسك (الزاهد) (Pierre l'Hermite) الذي قصد بيت المقدس سنة 486هـ/1093م للحج والزيارة، فاغتاظ لرؤية السيادة الإسلامية على الأماكن النصرانية المقدسة، فعزم على دعوة المسيحيين لتخليصها من أيدي المسلمين، مُقدِّما صورةً غير صحيحة لأوضاع الحُجَّاج النصارى إلى بيت المقدس وادعاءه تعرضهم للمضايقات من قبل المسلمين[3].

ولكي يضمن البابا مشاركة أكبر في تلك الحملات، فقد راح يُغري العامة والأمراء على السواء بمباهج الشرق وخيراته، وتشويقهم بامتلاك الأراضي وتكوين الإمارات، كما وأعلن إعفاء حماة الصليب من جميع التكاليف، وتعهَّد بحماية الكنيسة لعائلات وأموال المشاركين في تلك الحملات[4].

---

(1) فوشيه الشارتري، **تاريخ الحملة إلى القدس**، تر، زياد العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1990، ص 31، بطرس توديبود، **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس**، ترجمة، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية، 1998، ص61، يوشع براور، **الاستيطان الصليبي في فلسطين**، تر، عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2001، ص20.

(2) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص 35- 36، ستيفن رنسيمان، **تاريخ الحروب الصليبية**، تر، السيد الباز العريني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1967، 161/1، عصام الدين عبد الرؤوف، **بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي**، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت، ص127.

(3) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، 161/1، 169، محمد العروسي المطوي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1982، ص45-46.

(4) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص46.

إضافة إلى كل هذا فقد أرسل البابا من خلال خطابه هذا تحذيرًا ضمنيًا من مغبة عدم المشاركة في هذه الحرب بقوله: "لا تدعوا شيئا من ممتلكاتكم أو شئونكم الخاصة تعوقكم عن التوجه إلى بيت المقدس، لأنَّ هذه الأرض الَّتي تعيشون عليها إنَّما يُحدق بها من كل جانب البحر وسلاسل الجبال، وقد ضاقت بأعدادكم، إنها لا تفيض بالثروة الوفيرة، ولا تكاد تمدُّ فلاحيها بالغذاء، ومن أجل هذا تحاربون بعضكم بعضا، فكُفُّوا أيديكم عن المنازعات، وأوقفوا الحروب، وخُذوا الطريق إلى القبر المقدس، وأنقذوا الأراضي المقدسة من ذلك العنصر الشرير (المسلمين)، واحكموها بأنفسكم، لأن تلك الأراضي كما قالت التوراة تفيض باللبن والعسل"[1].

وبهذا الخطاب فقد آثار البابا حماس الحاضرين في هذا المجمَّع، حتَّى أنَّهم هتفوا بعبارة " هكذا أراد الله" Deus le Volt، وأعقب ذلك مسارعة الألوف إلى حمل الصليب واتخاذه شارة لهم، وحُدد خطة الحملة وموعد مسيرها، وقرر بأن تكون القسطنطينية مكانًا يلتقي فيه الصليبيون.[2]

ولا ننسى في هذا الصدد الدور البارز الذي لعبه بطرس الناسك في الدعوة والتجنيد للحملة الصليبية قبل المشاركة فيها، من خلال الأسلوب الذي اتبعه في سبيل إقناع الجموع الإفرنجية من العامة خصوصا، فقد كان قصير القامة، دأب السير حافي القدمين في ثياب مهلهلة رثة على جسم عار، ولم يكن يأكل الخبز واللحم، بل كان يعيش على السمك وحده، وصار ينتقل من مكان إلى آخر على حماره الأعرج، داعيا إلى الاشتراك في الحروب الصليبية، واستطاع بفضل هيئته الغريبة وحماسه وفصاحته في أن يجتذب إليه ألوف الفقراء، وقد أعانه على ذلك سوء أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية.[3]

وعلى أية حال فإن بداية سير الحملات الصليبية (الحملة الصليبية الأولى) لم تكن موحدة ولا على نفس الصفة من التنظيم بين جيوشها، حيث عرفت حملتين متباينتين، اصطلح على الأولى بحملة العامة أما الثانية فأطلق عليها حملة الأمراء، فقد كانت الأولى الأسبق في انطلاقها، تحت زعامة الراهب بطرس الناسك الذي استطاع إقناع الألوف من عامة غرب أوروبا بمظهره وقوة حجته، فكثر جمعه حتى زاد أنصاره عن

---

(1) فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص37، Duncalf (Frederic): **The first crusade: Clermont to Constantinople" The councils of Piacenza and Clermont"**, in Setton (ed), A Hist of the Crusades, vol I, p244،

(2) ابن خلدون، العبر، 40/5، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، 162/1، محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص35.

(3) رنسيمان، تاريخ، 169/1-170، باركر، الحروب الصليبية، ص25، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص45.

الخمسة عشر ألفًا،[1] وهاجروا رجالا ونساء منازلهم وحقولهم، وازداد عددهم بعد انضمام العديد من الألمان إليهم، فتكوَّن من هؤلاء الفقراء خمس جموع قبل حلول الموعد الذي حدَّده البابا لاجتماع الجيوش الصليبية بالقسطنطينية في جمادى الأولى 489هـ/مايو 1096م.[2]

كانت هذه الجموع على غاية من الفوضى والاضطراب، لا تخضع لقيادة منظمة،[3] أدَّت بهم إلى ارتكاب أعمال سلب ونهب في الأراضي الأوروبية التي كانوا يمرُّون بها في طريقهم إلى القسطنطينية، وهو ما دفع بأهالي تلك المناطق وخاصة المجريين إلى التصدِّي لتلك الجموع وتمزيقها،[4] ففقدت على إثرها ثلاثة جموع من أصل الخمسة التي سارت من الغرب الأوروبي، وأما الجمعان المتبقيان فكان أحدهما بزعامة بطرس الناسك والآخر بزعامة والتر المفلس اللذان وصلا بأمان إلى القسطنطينية، بعد أن فقدا الكثير من أنصارهم بسبب تعرض البلغاريين لهم وتفشي فيهم الأمراض ونقص الغذاء.[5]

هال الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين Alexius Comninus ما عليه تلك الجموع من الفوضى والاضطراب، وعلى الرغم مما ارتكبته من أعمال سلب ونهب في الأراضي الأوروبية التابعة له، فقد أحسن معاملتها، وعبرت هذه الجموع مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى في شعبان 489هـ/ أغسطس 1096م، وما إن علم السلطان السلجوقي قلج أرسلان بوصولهم حتَّى جهز لهم جيشا واشتبك معهم قرب مدينة نيقية عاصمته فأبادهم عن آخرهم.[6]

وفي الوقت الذي كانت فيه جموع الفقراء في مواجهة السلاجقة في آسيا الصغرى كانت حركة التجهيز الصليبي على قدم وساق في فرنسا وإيطاليا من جانب الإقطاعيين والأمراء والأشراف، فتشكلت منها أربعة جيوش يقود كل واحد منها أمير من أمراء أوروبا المعروفين بالشجاعة والفطنة، حيث تولى جودفري دي بويون Godefroi de Bouillon وأخوه بلدوين دي بولوني Boudouin de Bouillon قيادة جيش اللورين، وأخذوا طريقهم عبر المجر فالقسطنطينية، حيث بلغوها في محرم

(1) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص129.

(2) نفسه، ص129.

(3) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص47.

(4) بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص64، أرنست باركر، المرجع السابق، ص 24، 25.

(5) أرنست باركر، المرجع السابق، ص 26.

(6) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 47- 48، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص130.

490هـ/ديسمبر 1096م، أما الجيش الثاني فانطلق من جنوب فرنسا – تولوز- في ذو القعدة 490هـ/ أكتوبر 1096[1] بقيادة أميرها ريموند الرابع كونت تولوز الذي اشتهر باسم كونت دي سان جيل Raymond de Saint Gilles على رأس أضخم الجيوش الصليبية وأكثرها عددا متخذا من شمال إيطاليا إلى مقدونيا طريقا للوصول إلى القسطنطينية، حيث بلغها في جمادى الأولى 490هـ/ أفريل 1097م،[2] أما ثالث جيوش حملة الأمراء فقد انطلقت من شمال فرنسا تحت قيادة روبارت كورت هوز Robert courte heuse، وروبارت الثاني كونت فلاندر Flandre Robret II count، وسلكت طريق شمالي إيطاليا ثمَّ سايرت ساحلها الشرقي وأبحرت من برنديسي Brindisi إلى ألبانيا ثمَّ مقدونيا إلى القسطنطينية، في حين تشكَّل الجيش الرابع من النورمان بقيادة بوهيموند Bohémond أمير تارنتو taranto وابن أخيه تانكرد Tancréde، اللذان اتخذا طريق البحر في جنوب إيطاليا إلى دورازو، ومنها إلى القسطنطينية فبلغاها في جمادى الأولى 490هـ/أفريل م1097.[3]

وعلى أية حال فقد وصلت جيوش تلك الحملة (حملة الأمراء) تباعًا إلى القسطنطينية بين ذو الحجة 489هـ/نوفمبر 1096م وجمادى الآخرة 490هـ/مايو1097م، ونظرًا لكثرتها التي قدَّرها المؤرخون بأكثر من نصف مليون مقاتل، من بينهم مائة وخمسين ألف فارس من شجعان أوروبا وأشدائهم، فقد أثارت مخاوف الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين على أملاكه.[4]

كان أمام الإمبراطور البيزنطي أمرين لا ثالث لهما فإمَّا يعتبر أمراء الحملة الصليبية حلفاء له وبذلك يشترك معهم بجيشه ويحارب في الشرق معهم ويقاسمهم مكاسب الحرب وغنائمها، وإما يعتبرهم أتباعًا له يقسمون له بيمين الولاء والطاعة، ويحاربون بأمرٍ منه، وأن يتعهَّدوا له بتسليمه كل ما يستردُّونه من أراضي

---

[1] ريموندآجيل، **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**، تر، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص69-71، Duncalf (Frederic): p op. cit, p272، يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص25، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 48.

[2] Duncalf (Frederic): op. cit, p272.، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، 229/1- 233، يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص25.

[3] رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، 223/1-226، يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص25، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص130.

[4] بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص75، 76، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص135، الحريري، الإعلام، ص7، رنسيمان، تاريخ، 173/1-175.

الإمبراطورية وأملاكها المفقودة في آسيا الصغرى، وبالمقابل يتعهَّد الإمبراطور بإمدادهم بالمؤن والسفن اللازمة لنقل جيوش الحملة إلى الشاطئ الآسيوي،[1] فرجح الأمر الثاني[2].

وفي جمادى الأولى 490هـ/أوائل مايو1097م، عبر الصليبيون البوسفور إلى آسيا الصغرى، فوصلوا في اليوم السادس من هذا الشهر إلى نيقية Nicea عاصمة سلاجقة الروم[3] والتي كان يحكمها وقتذاك قلج أرسلان (485هـ- 500هـ/1092م- 1107م) حيث شددوا عليها الحصار إلى أن سلَّمتها حاميتها بعد انسحاب حاكمها إلى الجبال للإمبراطور البيزنطي مقابل عدم التعرض لسكانها الخارجين منها، وكان ذلك في رجب من سنة 491هـ/ يونيو 1097م.[4]

وبهذه الطريقة واصل الصليبيون سيرهم في أراضي الدولة الإسلامية يحاصرون ويستولون على قلاعها ومدنها، مستغلين في ذلك ما كان عليه وضع المسلمين من ضعف وتشتت، بسبب الخلاف المذهبي الطاغي على طبيعة العلاقات بين مختلف القوى الإسلامية الحاكمة في المنطقة؛ والذي استهلك من مقدراتها الكثير، غير أنَّ السؤال المهم في هذه المرحلة هو كيف كان تعامل تلك القوى مع حركة التقدُّم الصليبي صوب بلاد الجزيرة وبلاد الشام وخاصة قوتي السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة الإسماعيلية؟ ثمَّ كيف أثَّر الصراع المذهبي بينهما على مصير المنطقة ككل في ظل رغبة جامحة من الصليبيين في السيطرة والاستيطان؟

2- انتكاسة رد الصليبيين عن أنطاكية:

كان للصراع الذي استشرى بين الفاطميين الشيعة بمصر والسلاجقة ناصري المذهب السني – وحماة الخلافة العباسية السنية – على مناطق النفوذ ببلاد الشام والجزيرة خلال العقود الأخيرة من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي أثره البالغ في توجيه أحداث تلك الفترة لصالح الطرف الصليبي.

---

[1] يذكر فوشي أنه كان من المحتم علينا إقامة علاقات ودية مع الإمبراطور البيزنطي، إذ لم يكن باستطاعتنا دون مساعدته ومشورته أن نقوم بهذه الرحلة، كما لن يكون باستطاعة من يتبعنا على هذه الطريق أن يفعل ذلك، غير أن هناك من الأمراء من أبدوا الولاء ظاهريا فقط، أنظر، تاريخ الحملة، ص45.

[2] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص135، سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، 432/1، يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص25.

[3] سلاجقة الروم هم الذين استقروا بآسيا الصغرى، واستقلوا بعد انحلال الإمبراطورية السلجوقية العظمى وكانت عاصمتهم قونية، أسسها الأمير سليمان بن قتلمش في الأناضول سنة 470هـ/1077م، وهذه السلطنة هي أطول دول السلاجقة المنفصلة عمرًا، إذ بقيت قائمة الذات إلى سنة 699هـ/ 1300م.

[4] ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص77-80، بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص111-112، فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص 45-46، ابن خلدون، العبر، 40/5.

فالتوجه المذهبي للقوتين الإسلاميتين القائم على أساس إنكار الشرعية الدينية — وبالتالي الشرعية السياسية - لكل منهما على المسلمين، قد خلق طابعًا عدائيًا في علاقاتهما ببعض وكذا علاقات القوى الإسلامية الأخرى التي تحوم في فلك ذلك التوجه، وكان عاملاً أساسيًا في تحديد مواقفها من حملات الصليبيين، بل بلغ بها الانقسام أو بالأحرى الصراع إلى إقامة تحالفات ومعاهدات مع الغزاة الفرنجة للاستقواء بهم على منافسيهم أو السعي إلى تحقيق أهداف ذاتية ضيقة بعيدة كل البعد عن مصلحة الإسلام والمسلمين.

ومثال ذلك ما حدث زمن حصار الصليبيين لأنطاكية سنة 491هـ/1098م، حيث أدَّى ذلك الشرخ في العلاقات بين أكبر قوتين إسلاميتين بالمشرق نتيجة اختلافهما المذهبي، في خلق ثغرات على مستوى جبهة الدفاع الإسلامية عن المدينة المحصنة[1]، استطاع أن ينفذ من خلالها الصليبيون وأن يحققوا انتصارًا مؤزرًا على حاكمها ياغي سيان، لتتعرض بذلك الجبهة الإسلامية لانتكاسة قوية كان لها وقع شديد على باقي مراحل صراعهم مع الصليبيين، على أننا لا نهمل وقع الصراع الداخلي للسلاجقة السنة أصحاب السلطة في إقليم بلاد الجزيرة وشمال الشام على تجسيد تلك الانتكاسة[2].

[1] يصف المؤرخ المجهول صاحب الجيستا حصانة مدينة أنطاكية وجمالها فيقول:" وهي مدينة جميلة رائعة، تحتوي داخل أسوارها على أربعة جبال عظيمة شامخة الذرا، ويقوم على أعلاها حصن حصين منيع قوي البنيان، وقد ازدادت بكل ضروب الفتنة، لما تحويه من الكنائس الكثيرة، ويحيط بالمدينة سوران، أكبرهما عظيم الارتفاع، رائع البنيان، شيد بشكل غريب، وفي هذا السور أربعمائة وخمسون برجًا، وأينما نظر المرء أدهشته روعة المدينة وجمالها، ويحيط بها من جهة الشرق جبال أربعة كبيرة، ويتدفق فيها في الناحية الغربية نهرٌ يسمى نهر فرفر (أي العاصي) حيث يجري على مقربةٍ من أسوارها، أنظر، مجهول، **صاحب يوميات أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس**، (ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية)، الجزء 6، تح، سهيل زكار، د مط، دمشق، 1995، ، ص156-157.

[2] يذكر المؤرخ الإنجليزي ر.سي. سميل حول دور النزاع الذي دبَّ بين أفراد البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان في تمكُّن الصليبيين من تحقيق مخططاتهم في المشرق بالقول:" أنَّهُ من المسلَّم بأنَّ نجاح الحملة الصليبية الأولى كان بفضل الشقاق المستعر بين الأتراك السلاجقة، إذ كان عهد سلاطينهم العظام من أمثال طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه قد انصرم بوفاة هذا الأخير في عام 1092م/485هـ، ولم تفشل هذه السلالة بعدهم في إنجاب شخصية مكافئة لأولئك السلاطين العظام فحسب، وإنَّما انصبت معظم طاقاتها على المنازعات في سبيل الإرث وعلى الحرب الأهلية، فوهنت في هذه الظروف سلطة السلاطين، التي كانوا يمارسونها على مؤسسات الدولة، وبخاصة على إدارة الولايات التي تمنح إقطاعات على الأمراء الكبار، **فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر** (**1097م-1193م**)، تر، العميد الركن محمد وليد الجلّاد، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1982، ص115-116.

تمكّنت الحملة الصليبية الأولى من الاستيلاء على مدينة الرها[1] دون وقوع مواجهة عسكرية مباشرة مع الطرف الإسلامي، فكانت بذلك أولى الإمارات الصليبية المؤسسة ببلاد المسلمين[2]، غير أنّ استيلاءهم على مدينة أنطاكية ثاني الكيانات الصليبية والأولى ببلاد الشام لم يكن بنفس الشاكلة، بل كان ذلك بعد حصار طويل ضُرب على المدينة، واستماتة شديدة من حاكمها، إضافة إلى محاولات محتشمة من القوى الإسلامية الشامية والعراقية في رد حملة الصليبيين على المدينة قبل وبعد سقوطها.

بعد سقوط الرها واصل الجيش الصليبي زحفه عبر جبال طوروس باتجاه الجنوب من آسيا الصغرى تحت قيادة بوهيمند النورماندي (Bohémond) وريموند كونت دي سان جيل (Raymond de Saint Gilles)، فدخلوا أراضي ياغي سيان في الشهور الأخيرة من سنة 490هـ/1097م، ليبدؤوا حصار مدينة أنطاكية الذي استمر زهاء السبعة أشهر ابتداء من ذي القعدة 490هـ/أكتوبر 1097م،[3] فحدث على إثر ذلك العديد من الاشتباكات بين القوات المحاصرة ورجال ياغي سيان حاكم المدينة آنذاك، والتي لم تكن حاسمة لكلا الطرفين.[4]

---

[1] الرها: تقع على بعد 45 ميلا شرقي الفرات و 160 ميلا شمال شرقي أنطاكية، وهي بقعة تتصل بمدينة حرّان، وسط من المدن، أكثر أهلها نصارى، وبها لهم ما يناهز ثلاث مائة بيعة ودير، أنظر، القلقشندي، صبحي الأعشى، 139/4، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 277.

[2] كانت الرها أولى الإمارات الصليبية التي تؤسس بأراضي المشرق الإسلامي وذلك في ربيع الأول 491هـ/ فبراير1098م، من قبل بلدوين البولوني Boudouin de Bouillon والذي استطاع قبل ذلك الاستيلاء على كثير من المدن والقلاع في بلاد الجزيرة كتل باشر والرواندان، وقد جاء تأسيس هذه الإمارة بمساعدة العناصر الأرمينية المسيطرة على تلك الجهات، حيث وجدوا في القوات الصليبية فرصةً للتخلص من حكم الأتراك السلاجقة، فقام حاكم المدينة ثوروس الأرمني بإرسال دعوة للقائد الصليبي بلدوين يطلب منه القدوم إلى المدينة للوقوف إلى جانبه في الحد من تقدم السلاجقة، كما عرض عليه أن يتخذه ولدًا يرثه في حكم المدينة لكونه طاعن في السن وليس له أولاد، وهو الأمر الذي رحب به بلدوين فسار على رأس جيش صغير مؤلف من 80 فارسا، وعند وصوله إلى الرها استقبله حاكمها ثوروس وأهالي المدينة بالبشر والترحاب، وسرعان ما أقام ثوروس حفلا أعلن فيه تبنيه بلدوين وأعطاه الحق في وراثة عرشه، ثم ما لبث أن قتل ثوروس بثورةٍ قامت ضده، ليؤول حكم المدينة لبلدوين وتصير الرها أولى الإمارات الصليبية بالمنطقة، راجع، فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص52-53، رنسيمان، تاريخ، 290/1-291، سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**، المكتبة الأنجلو مصرية، ط1، القاهرة، 2010، 183/1- 184، حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص87.

[3] بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص135، ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص85 -86، فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص54، الحنبلي، شذرات، 399/5، وقد ذكر ابن الأثير بأنّ حصارها كان لتسعة أشهر، الكامل، 14/9، وأنظر، ميخائيل زابوروف، **الصليبيون في الشرق**، تر، إلياس شاهين، الترجمة إلى العربية دار التقدم، موسكو، 1986، ص 85.

[4] ابن خلدون، العبر، 40/5-41، ، الحريري، أحمد بن علي بن أحمد، **الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين**، تح، مهدي رزق الله أحمد، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، ط1، الإسكندرية، 1986، ص 8-9.

وتجدر بنا الإشارة إلى أن أنطاكية قد ظلت ضمن ممتلكات الدولة البيزنطية إلى غاية سنة 476هـ/1084م، حيث انتزعها منها سليمان بن قتلمش سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى في بداية سنة 477هـ/1085م[1] ثم تحوَّل مُلكها لصالح تاج الدولة تتش بن السلطان ألب أرسلان بعد تغلبه على سليمان وقتله سنة 479هـ/1086م، ليقرر بعدها السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان– أخ تاج الدولة تتش – أخذها منه وتوليتها أحد من رجاله التركمان وهو ياغي سيان، وقد كان وقتها ملكشاه سلطان السلاجقة الأكبر وتتش تابعًا له في حكم الشام، وحين توفي ملكشاه سنة 485هـ/1092م ودخول السلاجقة فترة الاضطراب والصراعات حول السلطة،[2] انتقلت السيادة على أنطاكية لرضوان بن تتش صاحب حلب وذلك سنة 488هـ/1096[3].

لم يكن ياغي سيان حاكم أنطاكية على وفاق مع رضوان بن تتش (حاكم حلب) صاحب السلطة الفعلية على المدينة، وذلك نتيجة انحياز ياغي سيان لدقاق بن تتش صاحب دمشق في صراع هذا الأخير مع أخيه رضوان، فكان من نتيجة ذلك أن رفض رضوان تقديم يد العون لياغي سيان في البداية حين ضرب الصليبيون الحصار على مدينة أنطاكية[4]، ومع هذا فقد عمل ياغي شخصيًا على تدعيم تحصينات المدينة بالمقاتلين، وقام باختزان مؤن كافية داخل أسوارها، إضافةً إلى حفره خندقاً لحماية المدينة من المهاجمين[5].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 435/8-436، ميخائيل زابوروف، المرجع السابق، ص85.

(2) لقد حدث عقب وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان سنة 485هـ/1092م أن دخل البيت السلجوقي في فراغ سياسي بسبب الصراع حول من له الحق في حكم تلك الأقاليم المترامية الأطراف، فأدَّى ذلك إلى تفكك وحدة السلاجقة الذين أصبحوا ثلاث قوى تتصارع فيما بينها؛ وهي قوة سلاجقة الروم بزعامة قلج أرسلان الأول في آسيا الصغرى وقوة سلاجقة الشام بزعامة تاج الدولة تتش وقوة سلاجقة فارس والعراق بزعامة السلطان بركياروق بن ملكشاه ومن ينازعهُ من إخوته، أنظر، ابن الأثير، الكامل، 481/8-486، الأصفهاني، دولة آل سلجوق، ص76-80، ابن خلدون، عبد الرحمن محمد (ت808هـ/1406م)، **تاريخ ابن خلدون أو ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تح، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2000م، 15/5-19.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص130، ابن الأثير، الكامل، 503/8، ابن العديم، زبدة الحلب، 119/2-120، اليافعي، مرآة الجنان، 111/4، رنسيمان، تاريخ، 304/1، ميخائيل زابوروف، المرجع السابق، ص85.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص131-133، ابن الأثير، الكامل، 503/8، رنسيمان، تاريخ، 305/1،304.

(5) وليم الصوري، **الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)**، تر، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991، 279/1-280، ابن الأثير، الكامل، 14/09، أبو الفدا، المختصر، 210/2، رنسيمان، تاريخ، 305/1، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 156/1، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص94.

دخل القادة الصليبيون المحاصرون للمدينة في خلاف حول كيفية الاستيلاء عليها والتوقيت المناسب لذلك، فريموند كونت دي سان جيل رأى ضرورة الإسراع في الهجوم حتَّى لا يتسنى لحاكمها ياغي سيان الفرصة لتقوية دفاعاته، بينما رأى خصمه بوهيمند الذي سفهه؛ التريث وإرجاء ذلك لفترة من الزمن لحين انضمام قوات تنكريد النورماندي (Tancrède) القادمة من الاسكندرونة[1]، واحتمال قدوم الإمبراطور البيزنطي بقواته التي وعد بها للمساعدة في الحصار، أو وصول الإمدادات من الغرب المسيحي، كما بررَّ بوهيمند لدعم رأيه بإراحة القوات بعد رحلتها الشاقة عبر هضبة الأناضول التي استغرقت حوالي أربعة شهور كاملة[2]، لينتصر الرأي الأخير في النهاية، حيث استمر الحصار الصليبي للمدينة سبعة أشهر[3].

كان بإمكان القوى الإسلامية في بغداد والشام والقاهرة أن يستفيدوا من حالة التردد والاختلاف التي كانت عليها القوات المحاصرة لأنطاكية، إضافةً إلى ما صاحب الحصار من ظروف سيئة كنفاذ المؤونة وإطباق المجاعة على الجند بعد حلول فصل الشتاء[4] فلو أنَّهم وحَّدوا جهودهم أو على الأقل تجاوزوا خلافاتهم الداخلية وركزوا على رد الغزو الصليبي عن ممتلكاتهم فرُبَّما كان واقع الأمر غير الذي حدث لأنطاكية وغيرها من المدن.

وهنا نذكِّر بأنَّ الخلافتين المتصارعتين في بغداد والقاهرة والمتبنيتين لمذهبين متباينين كانا أبرز القوى الإسلامية المكلَّفة (شرعًا) وفق-ادعاءاتهما- بحماية أنطاكية وباقي الأقاليم من حملات الصليبيين، وذلك لإثبات شرعيتهما الدينية على العالم الإسلامي وبالتالي شرعيتهم السياسية، وعلى العكس من ذلك فإنَّ أي تباطؤ أو تخاذل منهما لنجدة المسلمين لن يكون له مبرر على الإطلاق، فضلاً على أي تحالف أو معاهدات ممكن أن تعقد بين هذين القوتين وهؤلاء الغزاة ولو في إطار الصراع المذهبي والسياسي الداخلي المستشري بين العاصمتين الإسلاميتين.

---

[1] الاسكندرونة، هي مدينة في شرقي أنطاكية على ساحل بحر الشام، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ، وبينها وبين أنطاكية ثمانية فراسخ، ياقوت، معجم البلدان، 182.3/1

[2] ويرجح أنَّ بوهيموند كان يطمح من وراء تأجيل الهجوم إلى رغبته في إبعاد القوات البيزنطية وعدم تمكينها من المشاركة في عملية الاستيلاء لاستبعاد أي حق بيزنطي في المدينة، أنظر، ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص 88 -90، فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص 54، 55، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 280/1-281.

[3] حسين محمد عطية، **إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003، ص114.

[4] وليم الصوري، الحروب الصليبية، 290/1-293، 300، ابن الأثير، الكامل، 15/9، رنسيمان، تاريخ، 314/1-317.

ومهما يكن من أمر فإنَّ انتكاسة رد الصليبيين المحاصرين لأنطاكية من جانب القوى الإسلامية قد شكَّل معالمها عديد الثغرات يمكن حصرها في ثلاثة رئيسية ومؤثرة، أولها ما ساد القوى الشامية والعراقية من تشرذم وانشقاق وصراعات حول النفوذ والسلطان، وثانيها ما وقع من تواصل بين الفاطميين الشيعة مع الصليبيين المحاصرين للمدينة وعقد اتفاقية ثنائية بينهما على حساب أنطاكية وباقي شمال بلاد الشام الخاضع للسلاجقة السنة[1]، وثالثها خيانة أحد قادة حاكم المدينة وهو الشيعي النصيري فيروز الأرمني الذي ساهم في سقوط المدينة وتملُّك الصليبيين لها[2].

وعن الأولى نذكر بأنَّ ياغي سيان قد أدرك استحالة مواجهة الخطر الصليبي بقوات أنطاكية لوحدها، ورأى من الواجب بعد أخذ الاحتياطات الضرورية عسكريًا الاستنجاد بالقوى الإسلامية المختلفة، وطلب النجدة للمساعدة على الوقوف إلى جانبه في ذلك الموقف،[3]، فيقول عن ذلك ابن القلانسي[4]:" وسيَّر ولده إلى دمشق إلى الملك دقاق، وإلى جناح الدولة بحمص، وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، والبعث على الخفوف قصد تحصين أنطاكية".

تشكَّلت على الرغم ممَّا ميَّز القوى الإسلامية بصفة عامة وحكام بلاد الشام بصفة خاصة من تطاحن وصراعات بعض الجهود لمساعدة ياغي سيان، حيث ظهر أول رد فعل بعد ثلاثة أشهر من بدأ الحصار عن طريق صاحب دمشق دقاق بن تتش بصحبة أتابكه طغتكين وجناح الدولة صاحب حمص وشمس الدولة بن ياغي سيان، وكان ذلك في محرم 491هـ/ ديسمبر1097م، حيث هاجموا قوات روبرت فلاندرز عند البارة[5]، أثناء عودته من رحلته مع بوهيموند التي قادتهما إلى قرى جنوب أنطاكية للإغارة عليها والحصول على مؤن للجيش الصليبي المحاصِر، إلاَّ أنَّ تدخل بوهيموند في الوقت المناسب أنقذ الموقف[6]، وأنزل بجيش دمشق خسارةً فادحة، ليرتدَّ بعدها دقاق وأتابكه إلى حماة ثم عادا إلى دمشق دون

---

[1] ارنست باركر، **الحروب الصليبية**، تر، السيد باز العريني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص33، عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 161/1-162.

[2] سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 491/19، سليمان الحلبي، طائفة النصيرية، ص109.

[3] وليم الصوري، الحروب الصليبية، 278/1-279، رنسيمان، تاريخ، 305/1.

[4] ذيل تاريخ دمشق، ص134.

[5] البارة، بليدة وكورة من نواحي حلب، وبها حصن، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة، ياقوت، معجم البلدان، 320/1.

[6] وليم الصوري، الحروب الصليبية، 295/1-296، ابن العديم، زبدة الحلب، 131/2، رنسيمان، تاريخ، 313/1.

تحقيق أي تقدم لصالح ياغي سيان[1]، ولو أنَّ تلك القوات واصلت مسيرتها بجدٍّ وصِدق لفك الحصار لكان لها ذلك بنسبة كبيرة، بسبب ما كان يعانيه المحاصرون لأنطاكية من ظروف قاسية[2].

وبنفس النتيجة انتهت محاولة رضوان بن تتش صاحب حلب في إغاثة أنطاكية، حيث انتصر بوهيموند ومعه سبعمائة فارس على قوات رضوان في المنطقة الواقعة بين نهر الأورنت وبحيرة أنطاكية في ربيع الأول 491هـ/فبراير1098م[3]، وذلك بسبب إعلام الصليبيين بخطة المسلمين من طرف المسيحيين من السريان والأرمن في أنطاكية، فالخطة كانت تقضي بمهاجمة القوات الإسلامية المجتمعة بحارم[4] على بعد 30 كلم شرق أنطاكية جيوش الصليبيين، في حين تخرج حامية من أنطاكية بقيادة ياغي سيان وتهاجمهم من الخلف، غير أنَّ بوهيموند اتخذ الحيطة بعد بلوغه الخبر[5]، وهزم قوات رضوان واستولى على حصن حارم الذي كان يحمي أنطاكية من ناحية حلب، وخسر المسلمون على إثرها الكثير من الرجال والعتاد[6].

كانت فرصة رد الصليبين على أنطاكية وإنهاء الحصار عنها تكاد تكون مواتية للطرف الإسلامي من طرف كربوغا حاكم الموصل الذي اصطحب معه قوات كبيرة لنجدة المدينة بأوامر من سلطان السلاجقة بركياروق، حيث يصف وليم الصوري[7] كثرتها بقوله:" حشودٌ لا يحصيها العد من الفرس والترك والأكراد"، وهذا لو أنَّه سارع لاستغلال أوضاع القوات الصليبية المحاصرة للمدينة من ضعف واضطراب[8].

---

[1] بطرس تيوديبود، تاريخ الرحلة، ص136، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص134، ابن العديم، زبدة الحلب، 132/2.

[2] لقد دلَّ ذلك السلوك من دقاق وأتابكه بالعودة سريعًا إلى دمشق فور انسحاب الفرنج إلى معسكرهم خارج أنطاكية على عدم صدق النية في الجهاد ضد الصليبيين، فلو تتبعتهم تلك القوات إلى أنطاكية لكانت فرصتها في النصر أكيدة، لتفاقم المجاعة بين صفوف الفرنج، ولاضطرارهم لقتاله وقتال قوات ياغي سيان في وقت واحد، وقد انحطت روحهم المعنوية، ممَّا أدَّى إلى هروب قادتهم مثل كونت بلوا، إلى جانب رحيل القائد البيزنطي تاتيكيوس بعد ذلك، بطرس توديبود، تاريح الرحلة، هامش (13)، ص151، وأنظر، ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص90-91.

[3] ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص87، رنسيمان، تاريخ، 320/1، حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية، ص117.

[4] حارم، حصن حصين وكورة جليلة اتجاه أنطاكية، طولها تسعٌ وستون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها خمسٌ وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة، بناها الروم لتكون حصنًا يحمي مواشيهم من غارات العرب، وقد أخذها منهم المسلمون في فترة الحروب الصليبية، وقد سميت بحارم لحرمة من يدخلها من الأعداء، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 199/3، ابن شداد، عزالدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت 684هـ/ 1285م)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تح، يحيى عبَّادة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1991.،55/1-56.

[5] كمال بن مارس، **العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2004، ص89.

[6] ابن العديم، زبدة الحلب، 136/2، رنسيمان، تاريخ، 321/1، حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية، ص117.

[7] الحروب الصليبية، 339/1.

[8] بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص136، فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص59، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 290/1-293، 300، ابن الأثير، الكامل، 15/9، ابن العديم، زبدة الحلب، 133/2.

ولكنَّه أضاع الكثير من الوقت في حصاره لمدينة الرها الصليبية الواقعة على طريقه نحو أنطاكيةرغبةً منه في إخضاعها؛ لتأمين خطوط مواصلاته وحماية ظهر جيشه، فمكث يحاصر الرها خلال الثلاثة أسابيع الأولى من شهر ماي 1098م/جمادى الآخرة 492هـ، غير أنَّه فشل في أخذها لمناعة أسوارها، فغادرها متوجهًا صوب أنطاكية لمساعدة حاكمها ياغي سيان[1]، فكان وصوله متأخرًا، أي بعد أن تمكَّن بوهيموند من خلق ثغرة نفذ منها للمدينة الحصينة وتملَّكها بعد ذلك[2]، وهي موضوع ثالث الثغرات التي رسمناها في وقوع الانتكاسة.

باءت على هذا النحو كل محاولات القوى الإسلامية الشامية والجزرية لفك الحصار على أنطاكية بالفشل، وذلك بسبب الانقسام وانعدام الوحدة بينها، إضافةً إلى انعدام الثقة بين قادة تلك القوى، فكانت محاولاتهم أقرب إلى المغامرة منها إلى حركة مقاومة جدية أو نشاط جهادي منظم، فالظروف التي رافقت قوات الصليبيين المحاصرة للمدينة لم تكن لتسمح لها بمجارات الجيوش الإسلامية لو كانت على كلمة رجل واحد وسعت لتأجيل صراعاتها الداخلية لحين إنهاء ذلك الكابوس الذي بات يتهدد جُلَّ أقاليم المشرق من الجزيرة مرورًا ببلاد الشام إلى مصر وما بعد ذلك.

وأمَّا عن ثاني الثغرات فقد شكل عنوانها ذلك التحالف الذي أقامه الفاطميون مع الصليبيين المحاصرين لأنطاكية، ففي الوقت الذي كان فيه المسلمون بحاجة ماسة لتكتل الجهود في مواجهة ذلك الغزو وخاصة مصر بأموالها وقواتها، فقد كان موقف الفاطميين مريباً غامضًا مثيرًا للشك والدهشة، فقد أورد وليم الصوري[3] غبطة الأفضل بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي[4] من الحصار، واستغرب في الوقت نفسه موقفه

---

[1] ريموندإجيل، تاريخ الفرنجة، ص127- 128، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 339/1-340، فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص59-60 (كان فوشي حينها في الرها)، محمود محمد الحويري، **بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين**، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1992، ص49.

[2] ابن الأثير، الكامل، 14/9، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 145/5.

[3] الحروب الصليبية، 304/1.

[4] هو الأفضل شاهنشاه أبو القاسم بن أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني، كان في الحقيقة صاحب الديار المصرية، تولَّى منصب الوزارة بعد موت أبيه، كان شهمًا، مهيبًا، ولي وزارة السيف والقلم للمستعلي ثمَّ للقائم، وكانا معه صورةً بلا معنى، وكان قد أذن للنَّاس في إظهار عقائدهم، وأمات شعار دعوة الباطنية (الاسماعيلية النزارية)، فمقتوه لذلك، وكان مولده بعكا سنة ثمانٍ وخمسين وأربعمائة، وخلَّف من الأموال ما يستحيا من ذكره، وثب عليه ثلاثة من الباطنية فضربوه بالسكاكين فقتلوه، وقيل إنَّ الآمر دسَّهم عليه بتدبير أبي عبد الله البطائحي الذي وزر بعده ولقِّب بالمأمون، أنظر، البطائحي جمال الدين أبو علي موسى ابن المأمون (ت588هـ)، **نصوص من أخبار**

السلبي من ذلك الحدث رغم تمتع مصر وقتذاك بقوة وثروة كبيرتين، كان بإمكانها المساهمة في رد القوات الصليبية عن أنطاكية وباقي الأقاليم في شمال الشام وبلاد الجزيرة.

وقد تعجَّب لهذا الموقف المؤرخ المصري ابن تغري بردي[1] حيث يقول:" ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدرى ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال!"، غير أنَّ قِصر نظر الفاطميين لحجم الخطر الصليبي وأهدافه في بلاد المسلمين هو ما جعلهم يعتبرون الصراع في شمال بلاد الشام وبلاد الجزيرة هو صراع صليبي– سلجوقي، وهم في منأى عنه بل رأوا فيه مصلحة لأهدافهم في الإضعاف من شوكة القوة السلجوقية السنية التي باتت تهدد مناطق امتدادهم في الشام وخطرها بدا يلوح في أفق مصر[2].

ويذهب ابن الأثير[3] في اتهام الفاطميين حول تخاذلهم من العدوان الصليبي أبعد من ذلك، فيذكر بأنهم استبقوا مجيء الصليبيين وكانوا هم من دعاهم لغزو بلاد الشام خوفًا من النفوذ السلجوقي السني المتنامي فيقول عن ذلك:" إنَّ أصحاب مصر العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة... فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه"، وإن كانت هذه الرواية قد تعرضت للتشكيك من بعض الباحثين وأدرجت في إطار المكايدات السياسية والمذهبية للمؤرخين السنيين فيما يتعلق بالموقف الفاطمي من الغزو الصليبي[4]، فيذكر عن هذه الجزئية أمين معلوف[5] قوله:" وبعدُ فإنَّه إذا كانت دعوة الفاطميين للفرنج محض خيال فإنَّ فرحة حكام القاهرة بوصول المحاربين الغربيين أمرٌ حقيقي".

مصر، تح، أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1983، ص15- 17، الذهبي، العبر، 404/2-405، الحنبلي، شذرات، 76/6-77.

(1) النجوم الزاهرة، 146/5.

(2) Stevenson (W.B**), The Crusaders in the East**, London, 1907, P26، عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 161/1-162، هيفاء عاصم محمد الطيار، **الفاطميون والغزو الصليبي**، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 14، جامعة بابل، 2013، ص136.

(3) الكامل، 13/9.

(4) محمد عبد الله المقدم، **الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية**، دار العالم العربي، القاهرة، 2008، ص 42.

(5) أمين معلوف، **الحروب الصليبية كما رآها العرب**، تر، عفيف دمشقية، دار الفرابي، ط2، بيروت، 1998، ص70.

وعليه فإنَّ الصراع المذهبي الفاطمي — السلجوقي قد ألقى بظلاله على أحداث تلك الفترة وأسهم بشكل مباشر في تحديد طبيعة المواقف السياسية للقوتين الإسلاميتين المعوَّل عليهما في رد الأعداء، فكان أن استفاد الصليبيون من ذلك الصراع في التحرك عسكريًا ودبلوماسيًا لتحقيق أهداف حركتهم، وكان استغلالهم لأوضاع المسلمين وقتها أبرز معين لهم في نجاحهم، ولنا فيما ذكر المؤرخ الإفرنجي – المعاصر للحملة الصليبية الأولى- وليم الصوري أحسن مثال على استيعاب هؤلاء لحال القوى الإسلامية بسبب انقسامهم المذهبي، ومدى إفادتهم من ذلك.

فقد حاول هذا المؤرخ إعطاء تفسير لسلوك الأفضل الفاطمي وموقفه السلبي من الوجود الصليبي في شمال بلاد الشام، فارتكز في تحليله على العلاقات السنية- الشيعية بين ممثليهما السياسيين السلاجقة وبني العباس من جهة والفاطميين الإسماعيلية من جهة أخرى، فرأى بأنَّ الصراع المذهبي بين القوتين هو الدافع الأساسي الذي كان يحرك ويتحكَّم في توجهاتهما ومواقفهما السياسية في ذلك الزمن.

فيذكر عن ذلك:" نشأ شقاق منذ أعوام مديدة بين الشرقيين (بنو العباس والسلاجقة) وبين المصريين (الفاطميين) بسبب اختلاف عقائدهم الدينية وتعارض مشاريعهم المذهبية، وظلَّ هذا الحقد المتبادل سائدًا بينهم دون انقطاع إلى هذا اليوم، وهكذا ظلت هاتان المملكتان في حرب غالب الأوقات، تحاول كل منهما من خلالها توسيع حدودها وتضييق نطاق المملكة الأخرى...، فكانت النتيجة أن لا تتوسع أيٌّ من المملكتين إلاَّ على حساب الأخرى...، فمَلِكُ مصر ينظر بريبة إلى أي توسع للفرس (ويقصد العباسيين) والترك (السلاجقة) ولذلك سُرَّ سُرورًا عظيمًا بأخبار خسارة قلج أرسلان (السلجوقي) لبلدة نيقية وهزيمة جيشه هناك هزيمة منكرة، وبحصار الصليبيين أنطاكية كذلك، واعتبر أنَّ خسارة الترك المتكررة هذه مكسب له، وأنَّ كل مصاعب تواجههم توفر السلام والأمن له ولرعيته..."[1].

---

[1] وليم الصوري، الحروب الصليبية، 304/1.

وعلى أية حال فقد أرسل الأفضل بن بدر الجمالي صاحب النفوذ الفعلي على مصر في صفر 492هـ/جانفي1099م سفارة إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية تحمل معها مشروع اتفاقية بين الطرفين تكون بموجبها بلاد الشام الشمالية بما فيه أنطاكية لصالح الصليبيين، في حين تظل مناطق جنوب الشام وبيت المقدس لصالح النفوذ الفاطمي،[1] وقد أقرَّ هذا العمل المؤرخون المسلمون والإفرنج على السواء[2].

فقد ذكر المؤرخ سيتون (K. M. Setton)[3] من أنَّ الأفضل بن بدر الجمالي المسيطر على الحكم الفاطمي في مصر قد بعث بوفدٍ إلى الصليبيين بأنطاكية في أوائل سنة 491هـ/1098م حاملاً لمشروع تعاون بين الطرفين في مواجهة الأتراك السلاجقة من أجل القضاء عليهم، بحكم أنهم عدوٌ مشترك للطرفين، وبعد زوال ذلك العدو يحق للصليبين السيطرة على الأجزاء الشمالية لبلاد الشام أمَّا الفاطميين فينفردون بالسيطرة على المناطق الجنوبية لها.

كما وجاء ذكر هذه الاتفاقية عند وليم الصوري[4] مع إضافة مهمة تمثلت في حرص الفاطميين على نجاح ذلك الحصار وتحقيق أهدافه وذلك من خلال بعث الأفضل مندوبين عنه من أبناء أسرته، يحثُّون القادة الصليبيين على مواصلة الحصار، وكان من بين النقاط التي حملها الوفد هو التأكيد على استعداد حكام مصر لتقديم المدد العسكري والأموال اللازمة للمحاصرين بغية هزيمة السلاجقة، مع إمكانية الرقي بذلك الاتفاق إلى عقد معاهدة صداقة بين الطرفين.

لم يكن هذا الاتفاق ليُرضيَ الطرف الصليبي، خاصة وأنه سيقف حاجزًا أمام هدفهم المنشود المتمثل في الاستيلاء على المدينة المقدسة[5]، غير أنَّهم رأوا من الأحسن تحييد القوة الفاطمية ولو ظرفيًا، فأظهروا اغتباطهم وقبولهم لهذا المشروع واستقبلوا وفد الأفضل بكل حفاوة وسرور، كما أنهم بعثوا مع وفد

---

(1) يوسف حسن غوانمة، **معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1995م، ص20، محمد عبد الله المقدم، الاغتيالات، ص43، ميخائيل زابوروف، المرجع السابق، ص88- 89.

(2) مجهول، أعمال الفرنجة، ص123، ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص105، بطرس تيوديبود، تاريخ الرحلة، ص142-143، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 305/1.

(3) Setton, (K M): **A history of the Crusades**, London, 1964, vol 1, p316..

(4) الحروب الصليبية، 305/1.

(5) الحويري، بناء الجبهة الاسلامية وأثرها في التصدي للصليبيين، ص48- 49، Grousset (R): **L'Epopée des Croisades**, paris, 1955, p45.

الأفضل ممثليهم في المفاوضات إلى القاهرة لتأكيد رغبة قادة الحملة الصليبية في التعاون مع الفاطميين في حرب السلاجقة والقضاء عليهم[1].

وعلى ما يبدو فإن الصليبيين كانوا مدركين لحجم هوة العلاقة بين الفاطميين والسلاجقة، وأنَّ صراعهم أكبر من أن يكون سياسيًا محضًا، وأنَّ احتمال توحد تلك القوتين – في هذه المرحلة على الأقل– ضدهم أمرٌ مستبعد إلى حدٍّ كبير،[2] آخذين بنصائح الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين، الذي حثهم قبيل غزوهم لبلاد الشام على عقد أواصر صداقة مع حكام مصر الفاطميين والاستعانة بهم في حروبهم مع السلاجقة الأتراك[3]، فالبيزنطيون قد خبروا جوهر الصراع الفاطمي – العباسي السلجوقي انطلاقاً من احتكاكهم بأراضيهم وكذا عن طريق جملة المعاهدات والاتفاقيات التي كانت تعقد بينهم وبين القوى الإسلامية على مر عقود أو بالأحرى قرون من الزمن، ثمَّ أبرقوا بخبراتهم تلك لإخوانهم من الغرب[4].

ونورد في هذا الصدد هذا المثال للتوضيح، ففي سنة 444هـ/1049م بعث طغرلبك السلجوقي إلى الإمبراطور قسطنطين رسالة عتاب على تسليم هذا الأخير لرسول الخليفة العباسي – الذي كان متوجهًا إلى المعز بن باديس في المغرب– إلى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، ومما جاء في رسالة طغرلبك تفصيل دقيق لحقيقة الخلاف بين العباسيين والسلاجقة من جهة والفاطميين من جهة أخرى، وأنَّ أكبر ما يجسد ذلك العداء هو توجهاتهما العقائدية المذهبية، حيث قال فيها:" وقد نجم بمصر منذ سنين ناجم يدعو إلى نفسه، ويغتر بما أغواه من حزبه، ويعتقد من الدين ما لا يستجيزه أحدٌ من أهل العلم في الأئمة الأول، وهذا العصر، ولا يستحسنه عاقل من أهل الإسلام والكفر"[5]، وقد طلب رسول طغرلبك من الإمبراطور قطع علاقاته مع المصريين، غير أنّه اعتذر بما كان بينه وبينهم من معاهدات.

---

(1) رنسيمان، تاريخ، 356/1، ميخائيل زابوروف، المرجع السابق، ص 88- 89، حامد أبو غنيم، المرجع السابق، ص 103، محمد حسن دخيل، **الدولة الفاطمية، الدور السياسي والحضاري للأسرة الجمالية**، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، بيروت، 2009، 128-129.

(2) حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية، ص117، حسن حبشي، **الحرب الصليبية الأولى**، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت، ص124.

(3) رنسيمان، تاريخ، 325/1، الحويري، بناء الجبهة المتحدة، ص48، يوسف إبراهيم الشيخ عيد، أثر الحركات الباطنية، ص139، حسن حبشي، الحرب الصليبية، ص127، مصطفى حسن محمد الكناني، **العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى (1095م-1171م/488هـ- 567هـ)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، 1981م، ص126.

(4) حول علاقات البيزنطيين بالعباسيين والسلاجقة والفاطميين راجع، سليمان الرحيلي، **السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية**، مكتبة التوبة، مكة. د ت.

(5) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، 223/2، 224.

وعلى النقيض من ذلك فإن الفاطميين بطعنهم السلاجقة والمسلمين عامة في الظهر، وممالأتهم للصليبيين والتحالف معهم قد برهنوا عن جهلٍ عميق لأهداف الحركة الصليبية، وهيئوا الساحة أمام أعداء الدين ليستولوا على أرضه ويعيثوا فيها فسادا ودمارًا، وينكلوا بأهله وعلمائه في عديد الأجناد التي احتلوها، فتركوا بمدن معرَّة النعمان وبيت المقدس (492هـ/1098م- 1099م) زمن الاستيلاء عليها صورًا صادمة لحال الإسلام والمسلمين[1].

وأما ثالث الثغرات التي مكَّنت للصليبيين من أنطاكية فقد كان بطلها الزعيم الأرمني الشيعي النصيري فيروز[2] أحد قواد ياغي سيان الذي كان موكلاً بحراسة إحدى أبراج المدينة[3] حيث استغل القائد الصليبي بوهيموند تعطل مجيء قوات كربوغا أمير الموصل واستطاع أن يوطد علاقته مع فيروز الذي كان مؤتمَنًا على المدينة من ناحية برج الأختين، الواقع في الركن الجنوبي الغربي من أسوار المدينة[4]، واتفق معه على تسهيل مهمة الدخول إليها ليلاً والاستيلاء عليها، كما قدَّم له بوهيموند وعودًا بامتيازات كبيرة يحصل عليها، فاحتشد بذلك الصليبيون في رجب491هـ/جوان1098م أمام البرج الذي يحرسه فيروز ونصبوا السلالم ثم تسلقوا أسوار المدينة واستولوا على برج الأختين بمساعدته ومنه انتقلوا إلى باقي الأبراج، ثم انطلقوا داخل المدينة ممعنين فيها القتل والتنكيل بأهلها، ونهب كل ما وقعت عليه أيديهم[5].

وهنا نتساءل إن كان التوجه المذهبي لفيروز واختلافه العقدي مع حاكم المدينة التركي المنتمي للسلاجقة السنة قد ساهم في تحديد موقفه من الحصار الصليبي لأنطاكية ودفعه لفعل الخيانة، خاصةً وأنه يعلم بأن نتيجة الاستيلاء ستكون كارثية على المدينة وأهلها من المسلمين، ولعل الإجابة عن هذا التساؤل

---

[1] حيث تذكر المصادر التاريخية عن بوهيموند (Bohémond) أنّه قد أمعن في القتل والذبح حتَّى امتلأت معرَّة النعمان بالجثث بعدما قد وعد أهل المدينة بالأمان حين استسلموا له وكان ذلك في محرم 492هـ/ ديسمبر 1098م، أنظر: ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 170- 172، بطرس تيوديبود، تاريخ، ص 257، فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص68، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص136-137، ابن الأثير الكامل، 16/9، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 442، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، 23/3، الحريري، الإعلام، ص 9.

[2] اختلفت المصادر في اسم هذه الشخصية فيقول عنه ابن الأثير أنَّهُ أحد المستحفظين للأبراج وهو زراد يعرف بروزبه، أمَّا بن القلانسي فيذكر أنَّ اسمه نيروز وهو رجل أرمني، وفي زبدة الحلب ذكر بأنَّهُ رجلٌ يعرف بالزرَّاد، أنظر، الكامل، 14/9، ذيل تاريخ دمشق، ص136، ابن العديم، 133/2، وأمَّا المؤلف المجهول صاحب أعمال الفرنجة فيقول أنه تركماني الأصل اسمه فيروز، ص126.

[3] ابن الأثير، الكامل، 14/9، ابن العديم، زبدة حلب، 134/2-135، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 145/5.

[4] حسين محمد عطية، المرجع السابق، ص 118، أنظر الخريطة رقم (03) التي توضح برج الأختين الذي نفذ منه الصليبيون، ص299.

[5] ابن الأثير الكامل، 16/9، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 491/19، ابن العديم، زبدة حلب، 135/2.

نجدها في كلام فيليب حتي[1] الذي يتحدث عن موقف بعض الطوائف والفرق من الغزو الصليبي لأقاليم – العالم الإسلامي فيقول:" ثمَّ إنَّ العناصر الإسلامية المنشقة من شيعة إسماعيلية ونصيرية عمدوا في مناسبات عديدة على نقض ولائهم بتقديم العون إلى الفرنج".

ونجد الإجابة أيضًا عند الشيخ محمد أبو زهرة[2] حيث يتهم النصيرية صراحةً بمساعدة الصليبين والتتار في حروبهم مع المسلمين فيقول:" وعند (الهجوم الصليبي) على البلاد الشامية ومن ورائها البلاد الإسلامية مالئوا الصليبين ضد المسلمين، ولما استولى أولئك على بعض البلاد الإسلامية قربوهم وأدنوهم، وجعلوا لهم مكانًا مرموقًا،... ولما أغار التتار من بعد ذلك على الشام مالأهم أولئك النصيريون كما مالئوا الصليبيين من قبل، فمكَّنوا للتتار من الرقاب، حتَّى إذا انحسرت غارات التتار قبعوا في جبالهم قبوع القواقع في أصدافها لينتهزوا فرصةً أخرى".

وبسبب غدرهم وعدم ائتمان جانبهم من طرف المسلمين وخاصة أهل السنة منهم، فقد حذَّر الشيخ ابن تيمية[3] من الاعتماد عليهم في حراسة الثغور حتَّى لا يُؤخذوا من قبلهم فيقول عن ذلك:" وأمَّا استخدام مثل هؤلاء (ويقصد النصيرية) في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنَّه من الكبائر، وهم بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم، فإنَّهم من أغش النَّاس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على تسليم الحصون إلى عدو المسلمين وعلى إفساد الجند على ولي الأمر وإخراجهم عن طاعته".

وعليه فإنَّ العقيدة النصيرية قد تكون هي الدافع لهذا الزعيم الأرميني في خيانته لقائده والمسلمين ككل، فمهما قيل عن خلافات شخصية كانت بينه وبين ياغي سيان دفعته لفعل الخيانة[4]، فإنَّ ذلك لا يبرر له على الإطلاق فعله، لما حلَّ بالمسلمين من كارثة في أنطاكية وباقي المدن التي سقطت بأيدي الصليبيين بعد ذلك، ونُرجح في هذا المقام تأثير العقيدة المذهبية للزعيم النصيري في فعل الخيانة، وذلك لما تحويه هذه العقيدة من تعاليم مخالفة لروح الدين الإسلامي وبما يؤمن به عامة المسلمين، فحتَّى علماء الشيعة

[1] **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، تر، جورج حداد، عبد الكريم رافيق، دار الثقافة، بيروت، 259/2.

[2] تاريخ المذاهب الإسلامية، 54/1.

[3] الفتاوي، 155/35- 156.

[4] ويقال أن فيروز الأرميني كان حاقدًا على سيده (ياغي سيان) لمصادرته أمواله وغلّاته، التي كان يخزنها ويحتكرها لنفسه، وساقه الغضب إلى أن يتصل ببوهيموند عن طريق بعض الأرمن لتسهيل دخولهم إلى المدينة، أنظر، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 145/5، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 491/19، ابن العديم، زبدة الحلب، 133/2-134.

الإثني عشرية أكبر الطوائف الشيعية استنكروا لعقائدهم المخالفة، فقد جاء في كتاب العقيدة والشريعة في الإسلام لصاحبه كلود زيهير الذي نقله محمد الأمين ما نصه،" وهكذا أصبحنا لا نستطيع أن نتبيَّن في مذهبهم قواعد الإسلام وأركانه وانتهى الأمر حقيقةً إلى طمس معالم الإسلام وانحلال عقائده انحلالاً تامًا"[1].

فتعايش النصيرية مع المسلمين وخاصة أهل السنة منهم لم يكن في الواقع إلاَّ لضعفهم أمامهم وعدم وجود من يستقوون به في التخلص منهم، حيث يُقر بهذا أحد مؤرخيهم وهو محمد أمين غالب الطويل[2] فيقول:" ولما كان للضعيف المظلوم من التوسل والخيانة لكي يحافظ على حقوقه أو يستردها، وهذا أمر طبيعي يساق إليه كل إنسان، كان العلويون (النصيريون) كلَّما غصب السنيون حقهم يتوسلون بغدر السنيين عند سنوح الفرصة"

لم يكن سقوط أنطاكية بيد الصليبين نهايةً لقصة تلك الانتكاسة، حيث كان بالإمكان استعادتها منهم بعد أن التحق كربوغا حاكم الموصل برفقة قواته الكبيرة إلى المدينة، وانضمام قوات دقاق صاحب دمشق، وجناح الدولة حسين صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسقمان بن أرتق حاكم بيت المقدس للمحاصرين[3]، ليكون تعداد تلك القوات ما يقرب من ثلاثمائة ألف من الفرسان والرجالة[4].

غير أنَّ سوء تدبير كربوغا كما يصف ابن الأثير ومعاملته السيئة لبقية الأمراء وتعاليه عليهم دفع ذلك للحلف للتململ وانعدام الثقة، إضافةً إلى عدم وجود تناسق بين قوات كربوغا التي تشكلت من الترك والعرب وكذا موقف رضوان بن تتش صاحب حلب والمسؤول المباشر على أنطاكية ورفضه فتح مدينته للقوات الإسلامية المتحالفة خوفًا من استيلاء كربوغا عليها، دفع نتيجة المعركة في اتجاه فوز الصليبيين بعد أن قام أحد رجال الدين المسيحيين واسمه بطرس (بورثلميوا) باختلاق قصة الحرب المقدسة[5] التي رفعت من معنويات الصليبيين وجعلتهم يتدفقون بجسارة خارج أبواب أنطاكية فزحفوا على المسلمين فكسروهم

---

(1) محمد الأمين، دراسات في الفرق والمذاهب، ص187.

(2) نقله محمد الأمين في دراسات في الفرق والمذاهب ، ص193

(3) ابن الأثير، الكامل، 15/9-16.

(4) فوشي الشارتري، تاريخ، ص59-60.

(5) يزعم الصليبيون أنَّ هذه الحربة طعن بها المسيح حين رفع على خشبة الصليب، أنظر، مؤلف مجهول أعمال الفرنجة، 141/6-142، فوشي الشارتري، تاريخ، ص58-59، وليم الصور، الحروب الصليبية، 396/1.

وفرقوا جموعهم، ليفشل ذلك التحالف بقيادة كربوغا في إنقاذ أنطاكية لتكون ثاني الإمارات الصليبية المؤسسة في المشرق[1].

وبهذا فإنَّ الصراع المذهبي بين القوى الإسلامية السنية والشيعة الفاطميين والعلويين (النصيريين) في بلاد الشام قد كان أكبر نقاط الضعف التي سهّلت من مهمة الصليبيين في الاستيلاء على مدينة أنطاكية، وعبَّدت الطريق لهم بعد ذلك في الاستيلاء على المدينة المقدسة، التي لم يخل سقوطها بأيدي الصليبين من تأثيرات التعصب والانقسام المذهبي بين المسلمين خلال تلك الفترة.

3- ضياع بيت المقدس بين نار الطائفية (492هـ/1098م)

كانت منطقة فلسطين وبيت المقدس على الخصوص، محط تفاوض بين الفاطميين في مصر والصليبيين المحاصرين لأنطاكية منذ الوهلة الأولى، وذلك على حساب السلاجقة أصحاب السلطة عليها وعلى مدن الجنوب الشامي، حيث اعتبر الفاطميون الوجود الصليبي في شمال الشام فرصة مواتية للتخلص من أعدائهم السياسيين ومخالفيهم في المذهب حكام السلاجقة السنيين، وجعلهم – أي الصليبيين – درعًا يحميهم من خطر هؤلاء الأتراك، ليتفرغوا هم لإعادة سلطانهم على فلسطين وبيت المقدس، هذه الأخيرة التي ضاعت منهم قبل عقدين من الزمن لصالح قوة السلاجقة الناشئة.

ظلَّ بيت المقدس ضمن ممتلكات النفوذ الفاطمي الشيعي منذ تمكُّن قائدهم جعفر بن فلاح[2] من الاستيلاء على مدينة دمشق سنة 359هـ/969م وحتَّى سنة 463هـ/1069م، حينما عزم السلاطين السلاجقة على استرداد ممتلكات العباسيين في بلاد الشام من سلطة الفاطميين، فاستولى عليه أتسز بن أوق الخوارزمي أحد قادة السلاجقة زمن السلطان ألب أرسلان، وقد ظلَّ أتسز حاكمًا لفلسطين وبيت

---

(1) مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص142، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص136، ابن الأثير، الكامل، 9/15-16، ابن العديم، زبدة الحلب، 2/137.

(2) هو أبو علي جعفر بن فلاح الكتامي، كان أحد قواد المعز أبي تميم معد بن المنصور العبيدي صاحب إفريقية، رافق القائد جوهر الصقلي حيث توجهه لفتح الديار المصرية، ولما تمَّ له ذلك بعثهُ جوهر إلى الشام فاستولى على الرملة سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ثمَّ غلب على دمشق وملكها في العام الموالي، فقصده الحسن بن أحمد القرمطي المعروف بالأعصم، فخرج إليه جعفر وهو عليل فظفر به القرمطي فقتله وقتل خلقًا كثيرًا من أصحابه، وذلك يوم الخميس ستة ذي القعدة سنة ستين وثلاثمائة، أنظر، ابن خلكان، 1/361.

المقدس إلى غاية مقتله سنة 471هـ/1078م[1]، ليؤول حكمها لصالح تتش بن ألب أرسلان بعد بسط سيطرته على مدينة دمشق وغيرها من المناطق في بلاد الشام[2]

بعد أن آلت سيادة بيت المقدس لتتش قام بتعيين أحد رجاله التركمان هو أرتق بن أكسب[3] – مؤسس أسرة الأراتقة- حاكمًا على بيت المقدس، وعندما توفي أرتق سنة 484هـ/1091م تولَّى الأمر بها ابنه سكمان تحت سيادة دقاق بن تتش صاحب دمشق إلى غاية 491هـ/1097م وهي السنة التي انتقلت فيها السيادة على المدينة لحكام مصر الفاطميين من جديد، بعد أن توجهت إلى جنوب الشام قوة فاطمية كبيرة تمكنت من انتزاع بيت المقدس من حكامها الأراتقة[4]، وقد كان ذلك متزامنًا مع الحصار الصليبي على مدينة أنطاكية في شمال بلاد الشام.

على أنَّ هذا التوافق في التوقيت بين استيلاء الفاطميين على بيت المقدس من السلاجقة وسقوط أنطاكية بيد الصليبين بعد حصارٍ طويل لم يكن محض صدفة، بل إنَّه كان نتيجة عمل مخطط له تمَّ الاتفاق عليه بين الصليبيين وحكام مصر الفاطميين، تكون بموجبه أنطاكية وشمال بلاد الشام للصليبيين في حين تكون بيت المقدس وجنوب الشام للفاطميين[5]، وقد كان الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي مهندس هذا الاتفاق عن الطرف الفاطمي، حين أرسل سفارة إلى معسكر الصليبيين المحاصرين لأنطاكية وهي تحمل

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص98-99، ابن الأثير، الكامل، 390/8، الذهبي العبر، 314/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 89/5، الحنبلي العليمي مجير الدين (ت860هـ)، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، تح ومر، عدنان يونس عبد المجيد أبو تبَّانة، إشراف، محمود علي عطا الله، مكتبة دنديس، ط1، عمان، 1460هـ/1999م، 445/1-446.

[2] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص112، ابن الأثير، الكامل، 418/8، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 320/2.

[3] هو أرتق بن أكسب جد الملوك الأرتقية، وهو رجلٌ من التركمان تغلَّب على حلوان والجبل ثمَّ سار إلى الشام مفارقًا بفخر الدولة أبي نصر محمد بن جهير خائفًا من السلطان محمد بن ملكشاه، وذلك في سنة ثمانٍ أو تسعٍ وأربعين وأربعمائة، ملك القدس من جهة تاج الدولة تتش السلجوقي، ولما توفي أرتق سنة 484هـ/1091م خلفهُ بعده ولداه سكمان وإيلغازي ابنا أرتق، ولم يزلا به حتَّى قصدهما الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش الوزير الفاطمي، وأخذه منهما سنة 491هـ/1097م، وكان أرتق رجلا شهماً ذا عزمة، وسعادة وجد واجتهاد، أنظر، ابن خلكان، وفيات، 191/1.

[4] ابن القلانسي، ذيل تاريخ مشق، ص135، ابن الأثير، الكامل، 19/9، ابن ميسر، أخبار مصر، ص65-66، أبو الفدا، المختصر، 211/2، الداوداري، الدرر (الدرة المضية)، 450/6، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 22/3.

[5] Grousset (René) : **Histoire des Croisades et du royaume franc de Jérusalème**, Paris, 1934, vol 1, p148 , Setton, op, cit, vol, I, p316، رنسيمان، تاريخ، 326/1.

عرضًا خلاصته أن يتعاون الطرفان للقضاء على السلاجقة في بلاد الشام أولاً، ثم اقتسام الغنيمة بعد ذلك بينهما مثلما بيَّناه سابقًا[1].

إنَّ هذا الموقف الذي أبداه الأفضل اتجاه الوجود الصليبي ببلاد الشام قد أرجعه المؤرخ سعيد عبد الفتاح عاشور[2] إلى خلفية تاريخية ربَّما استند إليها الأفضل في تفكيره، وهي أنَّ الدولة البيزنطية أيام صحوتها في القرن العاشر الميلادي لم تتعد أملاكها في بلاد الشام مدينة أنطاكية، فظنَّ الأفضل أنَّ أولئك الصليبيين إنَّما أتوا في القرن الحادي عشر ليفعلوا في بلاد الشام مثلما فعل الإمبراطور نقفور الثاني فوقاس Nicephorus II Phocas (963م- 969م/352هـ- 359هـ) والإمبراطور حنا الشمشقيق Jobn I Tzimisces (969م- 976م/359هـ- 366هـ) في القرن العاشر، كما ويوعز أكثر المؤرخين[3] اتخاذ الأفضل لهذا الموقف، إلى عدم إدراكه بحقيقة وأهداف الحركة الصليبية بالمشرق الإسلامي.

فهذا المؤرخ ستيفن رنسيمان[4] يذكر بأنَّ الأفضل اعتبر الصليبيين عساكر مأجورة للإمبراطور وافترض أنَّ التقسيم المتفق عليه إثر الاتفاقية المبرمة بين الطرفين في أنطاكية قامت على أساس ما كان معروفًا من قبل توسعات السلاجقة على أملاك البيزنطيين، وهو ما سيجعله (أي الاتفاق) مقبولاً لدى الطرفين.

ومهما تكن خلفية الأفضل ودوافعه في اتخاذ موقفه من الوجود الصليبي في شمال بلاد الشام، فإنَّ ارتدادات ذلك الموقف كانت في غير صالح الجبهة الإسلامية المنقسمة بحد ذاتها، فقد استفاد الصليبيون فائدة كبرى من ذلك التحالف مع الفاطميين، ذلك لأنَّ تهديد الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبَّبَ ارتباكًا كبيرًا للسلاجقة في أشد الأوقات حرجًا.

---

(1) مجهول، أعمال الفرنجة، ص123، ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص105، بطرس تيوديبود، تاريخ الرحلة، ص142-143، ابن الأثير، الكامل، 13/9.

(2) **شخصية الدولة الفاطمية، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى**، دار الأحد البحيري، بيروت، 1977، ص170.

(3) Grousset, op, cit, p83, Setevenson, op, cit, p26.

حسن حبشي، **الحرب الصليبية الأولى**، دار الفكر العربي، د ط، القاهرة، 1958م، ص127، مصطفى حسن محمد الكناني، **العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى (1095م- 1171م/488هـ- 567هـ)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، 1981م، ص125، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص84-85،

(4) تاريخ الحروب الصليبية، 326/2.

كما وأنَّ تلك السفارة التي أرسلها الأفضل قد منحت للصليبيين في المشرق نوعًا من الاعتراف السياسي الذي سمح لهم بالتحرك وتوجيه الأحداث لصالحهم بمهارة فائقة، فمنحوا الفاطميين نوعًا من الطمأنينة على أملاكهم بالجنوب من خلال التظاهر بقبول عرض الأفضل[1]، كما سارعوا لاحتواء مواقف سلاجقة دمشق –كانت أنطاكية تابعة لرضوان صاحب حلب وهذا الأخير كان في صراع مع أخيه دقاق صاحب دمشق- فأرسلوا إليهم يطمئنونهم بأنهم غير طامعين إلاَّ فيما كان من ممتلكات البيزنطيين في الماضي القريب كالرها وأنطاكية واللاذقية.[2]

بعد أن ضمن الأفضل تحييد قوة السلاجقة السنية بحصرها وإنهاكها في شمال الشام للدفاع عن أنطاكية ضد الحصار الصليبي بعد تلك الاتفاقية، وبدلاً من تسخير جهود قواته للمساعدة في رد أعداء الإسلام رغم قدرته على ذلك بالمال والجند والسلاح على حد وصف ابن تغري بردي[3]، تراه ينتهز الفرصة للانتقام من الوجود السلجوقي في المنطقة فسارع إلى ضم مدينة صور، فدخلها وامتلكها بحدّ السيف في ربيع سنة 491/فيفري 1098م[4].

زحف بعدها الأفضل على بيت المقدس في صيف السنة التالية أي 492هـ/1098م – والصليبيون مازالوا وقتذاك يحاصرون أنطاكية- على رأس جيش كبير لحصار بيت المقدس والاستيلاء عليه من حكامه الأراتقة، فأرسل إليهم يطلب تسليم المدينة دون إراقة الدماء فلم يُجبْ إلى ذلك في البداية، مما دفعه إلى استخدام القوة فنصب على أسوار المدينة ما يزيد عن أربعين منجنيقًا حتَّى تهدمت بعض الأماكن في السور المحيط بها، ووقع القتال بين الطرفين، غير أنَّ حكامه الأراتقة رأوا من الأصلح لهم وللمدينة الإذعان للصلح والاستسلام، لعدم قدرتهم على مواجهة جيش الأفضل الكبير من جهة واستبعاد وصول المدد والعون من السلاجقة المنشغلون بحرب الصليبيين في أنطاكية من جهة أخرى، فكان أن تسلَّمها

---

(1) سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص173.

(2) ابن الأثير، الكامل، 15/9، Grousset, op, cit , vol 1, p85. الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص127.

(3) النجوم الزاهرة، 146/5.

(4) ابن الأثير، الكامل، 19/9.

الأفضل في شعبان 492هـ/ أوت 1098م وعهد بولايتها لأحد رجاله ويدعى افتخار الدولة بينما رجع هو إلى مصر[1].

وقد جاء وصف هذا الحدث عند ابن القلانسي[2] حيث يقول:" ووردت الأخبار بخروج الأفضل أمير الجيوش من مصر في عسكر كثير إلى ناحية الشام، ونزل على بيت المقدس وفيه الأميران سقمان وإيلغازي ابنا أرتق وجماعة من أقاربهما ورجالهما، وخلق كثير من الأتراك، فراسلهما يلتمس منهما تسليم بيت المقدس إليه من غير حرب ولا سفك دم، فلم يجيباه إلى ذلك، فقاتل البلد ونصب عليه المجانيق، فهدمت ثلمةٌ من سوره، وملكهُ وتسلَّم محراب داوود من سقمان، ولما حصل فيه أحسن إليهما وأنعم عليهما، وأطلقهما ومن معهما، ووصلوا إلى دمشق في العشر الأول من شوال وعاد الأفضل في عسكره إلى مصر"، لتعود بذلك سيادة الدولة الفاطمية مرة أخرى على فلسطين، بحيث لم تكد تنتهي سنة 492هـ/1098م إلاَّ وكانت حدود تلك الدولة قد امتدت إلى نهر الكلب شمالاً ومجرى الأردن شرقًا [3].

سارت إذًا الأحداث ببلاد الشام وفق ما تمَّ الاتفاق عليه بين الصليبيين والفاطميين، وأخذ كل طرفٍ منهما نصيبه من الغنيمة، حيث استولى قادة الحملة الصليبية الأولى على أنطاكية ليؤسسوا بها ثاني الكيانات الصليبية، كما استعاد حكام مصر الفاطميين سلطانهم على مدينة بيت المقدس وأغلب الجنوب الشامي، وهذا كلُّه على حساب السلاجقة أصحاب السلطة في المنطقة قبل سنتين خلت، وظنَّ حينها الفاطميون أنَّهم تخلصوا من عقبة منافسيهم في المذهب وأنَّ الإفرنج قد حصلوا على ما جاؤوا من أجله ببلاد الشام وسيكتفون بذلك، غير أنَّ الحقيقة سرعان ما تكشَّفت لهم حينما أخذت جموع الصليبيين تتحرك من أنطاكية إلى الجنوب صوب ممتلكات الفاطميين واضعين نُصب أعينهم الاستيلاء على بيت المقدس هدفهم المنشود.

قرر الصليبيون بعد عقد مجلس حربي بأنطاكية في ذي الحجة 491هـ/نوفمبر 1098م السير نحو الجنوب مستهدفين الاستيلاء على بيت المقدس[4]، فعملوا لتحقيق ذلك على تأمين خط الرحلة من خلال

---

[1] وليام الصوري، الحروب الصليبية، 57/2، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 135، ابن الأثير، الكامل، 19/9، أبو الفدا، المختصر، 211/2، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 22/3، الداوداري، الدرر المضية، 450/6.

[2] ذيل تاريخ دمشق، ص135.

[3] Setton; op, cit, p316.

[4] تباينت الآراء حول توقيت المسير إلى بيت المقدس بين القادة الصليبيين، بعدما صار الأمر مطلبًا شعبيًا، حيث رأى فريق منهم أنَّ الواجب يقتضي أن لا يتوانوا عن الخروج في ساعتهم إرضاءً لرغبات الناس، وأمَّا فريق آخر فقالوا أنَّ العقل يفرض تأجيل الخروج حتَّى شهر

إخضاع جُل الحصون والقلاع والمدن الإسلامية الواقعة على طريقهم والمصرَّة على مقاومة الزحف، فكانت مدينتي البارة ومعرَّة النعمان[1] أولى تلك المدن التي واجهت مصيرًا داميًا من قبل القوات الصليبية الزاحفة جنوبًا، حيث تذكر المصادر التاريخية عن بوهيموند (Bohémond) أنَّهُ أمعن القتل والذبح في ساكنيها حتَّى امتلأت المدينتان بالجثث، رغم وعده لهم بالأمان إن هم استسلموا له، وكان ذلك في محرم 492هـ/ ديسمبر1099م[2].

وعلى ما يبدو فإنَّ بوهيموند قد تعمَّد إحداث تلك المجزرة المروعة في حق أهالي معرَّة النعمان، حتَّى تكون عبرة لغيرها من المدن والحصون الواقعة في طريق الرحلة إلى بيت المقدس، وبث الرعب والفزع في نفوس حكامها من أجل ضمان عدم تعرضهم لقواته، وبالفعل فقد سارع كل من أمير حصن كفر طاب[3] وصاحب شيزر وحصن مصياف وأميري حمص وطرابلس وغيرهم من الأمراء يسابقون وصول الصليبيين بالرسل المحملة بالهدايا والعهود والوعود بتقديم العون والأموال والمؤن تجنبًا لمصير معرَّة النعمان[4].

أدرك الأفضل – بعد أن لاحظ خروج الصليبيين على حدود ما كان يتوقعه لهم– جسامة الخطأ الذي ارتكبه، فأعاد النظر في سياسته اتجاههم، وأرسل يستفسر الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين Alexis Comnèn (1081م-1118م/474هـ-512هـ)عن نوايا الصليبيين ويسأله عمَّا إذا كانت تلك الحركة تعمل لصالحه أم لا؟ فكان رد الإمبراطور بأن نفى أي علاقة تربطه بها[5].

وحينها سعى الأفضل لكسب ود الصليبيين بغية تجنب مواجهتهم فأرسل إليهم سفارة ثانية وصلتهم بالقرب من طرابلس تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين،

أكتوبر، لأنَّهم وقتها كانوا في فصل الصيف والحرارة شديدة مع ما سيواجهونه من ندرة في المياه، وقلَّة ما تحت أيديهم من الخيول، وتضعضع النَّاس من جراء المجاعة التي عايشوها في تلك الفترة، فرأوا من الأحسن التريث حتَّى يتعافى الناس وجيادهم، فغلب هذا الرأي الأخير، وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، 20/2-21.

[1] معرَّة النعمان، مدينةٌ كبيرة ومشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة، ياقوت، معجم البلدان، 156/5.

[2] ريموندداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 170-171، بطرس تيوديبود، تاريخ الرحلة، ص260، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص136، ابن الأثير، الكامل، 16/9، الحريري، الإعلام، ص9، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 442.

[3] كفرطاب، بلدةٌ بين المعرَّة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلاَّ ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج، ياقوت، معجم البلدان، 470/4.

[4] مجهول، أعمال الفرنجة، ص162، بطرس تيوديبود، تاريخ، ص262، ريموندداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 235، فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص 68.

[5] عبد الفتاح عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص173- 174، الغامدي، المرجع السابق، ص 121.

وقدم لهم عرضًا مشابهًا للمشروع السابق مع منحهم امتيازًا خاص خلاصته السماح لمجموعات من الحجاج المسيحيين الغربيين بزيارة القدس وممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة، تتكون كل مجموعة بين مائتين وثلاثمائة حاج، شريطة أن يكون دخولهم بدون أسلحة ولا تزيد مدة إقامتهم بها على شهر، كما تعهَّد بأن يعيدهم سالمين إلى بلدانهم بعد أداء مراسم الحج[1].

لم يكن الصليبيون ليوافقوا على عرض الأفضل لتعارضه مع أهدافهم ومخططاتهم، فقبولهم للعرض الأول كان غايته تحييد قوة الفاطميين في صراعهم مع السلاجقة بشمال بلاد الشام، أمَّا وأنَّهم قد تمكنوا من تحقيق ذلك وأضعفوا الخطر التركي واستطاعوا تأسيس قواعد تنطلق منها جيوشهم وتؤمن لهم ظهورهم، فقد صار قبول مثل هكذا عرض أمرٌ في غاية السذاجة والبعد عن المنطق، ذلك أنَّ قبوله سينفي عن هذه الحركة طابعها الديني الذي انطلقت به والذي يستهدف الأماكن المقدسة المسيحية في الشرق، وسيفقد معه قادتها ثقة الكنيسة الغربية وأتباعها، ولهذا كان رد الصليبيين عنيفًا، بحيث أعادوا مع السفارة الفاطمية رسالة مفادها بأنَّهم سيتمكنون من الحج فعلاً، ولكن بإذن الله وليس بإذن الخليفة الفاطمي،[2] ليكون هذا الرد بمثابة إعلان صريح من الصليبيين عن نواياهم الحقيقية في بلاد الشام وإيذانًا ببدء صدام مسلح بين الفاطميين والصليبيين على بيت المقدس[3].

وعلى أية حال فقد أتمت القوات الصليبية رحلتها إلى بيت المقدس في رجب 492/جوان1099م، وهناك كان افتخار الدولة حاكمها من قبل الفاطميين، الذي اتخذ ما يمكنه من احتياطات واستعدادات لمواجهة الموقف، فسمم الآبار وقطع موارد المياه وأخفى المواشي وطرد جميع من بالمدينة من المسيحيين في حين أبقى على اليهود بها، فضلاً عن اهتمامه بتقوية دفاعاته والتأكد من سلامة

---

(1) ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص188، وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 2/56-57، عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص189.

(2) وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 2/57.

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص173، حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 104، يوسف ابراهيم الشيخ عيد، المرجع السابق، ص 145.

أسوار المدينة، وتوفير المؤن وملأ خزانات المدينة بكمية كافية لتحمُّل الحصار إن طال، ثمَّ أرسل إلى الفاطميين يطلب النجدة العاجلة[1].

ضرب الصليبيون على المدينة حصارًا خانقًا دام أربعين يومًا استمات فيها أهلها بالدفاع عنها ببسالة وإقدام، حتَّى اضطر القادة الصليبيون لتغيير خطتهم ببناء سلالم خشبية استخدموها للصعود فوق أسوار المدينة والدخول عبرها ولكنَّهم عجزوا عن ذلك ولم يحققوا شيئًا من النجاح، فقاموا ببناء برجين متحركين من الخشب نُصبا على أسوار المدينة أحدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود، فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه، وأمّا الآخر فزحفوا به حتَّى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد، وكشفوا ما كان عليه من المسلمين ثمَّ أخذوا يشنون هجومًا شاملاً عليها ليلة 20 من شعبان 492هـ/14 جويلية 1099م، استطاعوا في اليوم الموالي اقتحام المدينة لتسقط بأيديهم بعد أن دافعت عنها حاميتها الفاطمية بكل قوة وصبر[2].

ولكي تكتمل صورة الخذلان والهوان حول واقع المسلمين المرير بسب الصراع بينهم، وبخاصة بين دعاة الشرعية الدينية والسياسية على أمة الإسلام والممثلتين في خلافتي بغداد والقاهرة، فقد رأينا ترك الفرصة لمؤرخي تلك الفترة من مسلمين وإفرنج لوصف ما تعرضت له المدينة المقدَّسة وأهلها - بعد استيلاء الصليبيين عليها- من مذابح تدمى لها القلوب وتجلُّ عنها الأوصاف، فلعلَّ هذه الصورة تجيب على مدى جسامة ذلك الانقسام داخل الصف الإسلامي بسبب الصراع والتطرف المذهبي.

فقد دخلها الصليبيون واندفعوا في أحيائها كالسيل الجارف ممعنين القتل والذبح في أهلها دون تفرقة بين أعمارهم وجنسهم، حتَّى أنَّهم أقاموا مجزرة وحشية بالمسجد الأقصى - بعد أن التجأ إليه المسلمون للاحتماء - لم يستطع إنكارها أو التستر عنها لدمويتها حتَّى مؤرخوهم[3]، فهذا فوشي الشارتري[4] يقول

---

[1] وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 93/2-94، مجهول، أعمال الفرنجة، ص168، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 136-137، أبو الفدا، المختصر، 211/2، رنسيمان، تاريخ، 394/1. Roscoe Thomas : History of Chivalry and the Cruasades, vol I, p286.

[2] وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 124/2-126، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 497/129، ابن الأثير، الكامل، 19/9-20، ابن ميسر، أخبار مصر، ص66- 67، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 148/5، مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، 447/1-448.

[3] يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص30.

[4] تاريخ الرحلة، ص75.

عنها:" وفي معبد سليمان جرت مذبحة بين المسلمين، أجهزت على حوالي عشرة آلاف منهم، ولو كنت هناك فإنَّ قدمك حتَّى كاحلها ستتلطخ بالدماء، وماذا أقول أيضًا؟ لم يسمح لواحد من المسلمين بالبقاء حيًا، حتَّى النساء والأطفال والشيوخ لم ينجو من الذبح"، أما وليام الصوري[1] فيشير إلى المذبحة قائلاً:" وأعملوا القتل فيهم، لم تأخذهم رحمةٌ بأحدٍ ما، حتَّى فاض المكان كلُّه بدماء الضحايا"[2].

وأمَّا المؤرخون المسلمين فقد أفاضوا في ذكر هذه الفاجعة وأحداثها، حيث أوردها ابن الأثير[3] في كتابه الكامل فقال:" وقتل الفرنج، بالمسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفًا، منهم جماعةٌ كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف"، ويذكر عنها ابن تغري بردي قوله[4]:" فهجموا عليهم، وقتلوا في الحرم مائة ألف وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء" كما ويصف أحداثها ابن الوردي[5] بقوله:" وقتل الفرنج في المسلمين أسبوعًا، وقتلوا في المسجد الأقصى فوق سبعين ألف بينهم أئمة وعلماء وزهاد".

سقطت على هذا النحو المدينة المقدسة بيد الصليبيين، فبرهنت الأحداث حينها أن الفاطميين بممالئتهم للصليبيين وتعاونهم معهم على حساب السلاجقة في إطار الصراع المذهبي قد ارتكبوا حماقةً كبيرة في حقهم وفي حق القوى الإسلامية ببلاد الشام، لتستمر تلك الحماقة بتأميلهم عدول الصليبيين وتراجعهم عن أخذ بيت المقدس، فحدث أن تكاسل الأفضل في تجهيز قوة تسير في نجدة افتخار الدولة، فوصلت هذه الأخيرة إلى عسقلان في منتصف شهر رمضان أي بعد أن سقطت بيت المقدس بعشرين يومًا[6].

وفي بغداد عاصمة السنيين، فإنَّ رد الفعل على سقوط بيت المقدس لم يكن بأحسن من موقف الفاطميين المتخاذل، حيث يذكر صاحب النجوم الزاهرة[7] أن وفودًا خرجت مستنفرة من دمشق مع

---

(1) الحروب الصليبية، 127/2.

(2) ويعلق غروسيه Crousset على هذه المذبحة أيضًا فيقول:" ولا يمكن أن يبرر الصليبيون بحال من الأحوال المذبحة المروعة التي قاموا بها خلال الأيام التي تبعت دخولهم بيت المقدس، ولم تكن هذه المذبحة جريمةً فحسب، وإنَّما كان خطئًا سياسيًا لا يغتفر، فقد جعلت من الفاطميين أعداءً ألداء للصليبيين"، op, cit, p104.

(3) ابن الأثير، الكامل، 19/9.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 149/5.

(5) ابن الوردي، تتمة المختصر، بيروت، 1970، 20/2.

(6) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص137.

(7) ابن تغري بردي، 150/5.

قاضيها زين الدين أبي سعيد الهروي، " فوصلوا بغداد وحضروا في الديوان وقطَّعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا، وقام القاضي في الديوان، وأورد كلامًا أبكى الحاضرين"، ولما كان الخليفة العباسي مجردًا من السلطان فقد أرسل إلى بركياروق السلجوقي يُعرِّفه بهذه المصيبة للوقوف على الأمر، غير أنّه وقع التقاعد لأمر يريده الله على وصف ابن تغري[1].

لم يكن موقف القيادة السنية ببغداد من أحداث بيت المقدس بالمفاجئ خلال تلك المرحلة على الأقل، فحدَّة التعصب المذهبي قد دفعت بتلك القيادة إلى اعتبار بيت المقدس جزء من النفوذ الفاطمي الشيعي – رغم أنَّه لم يخرج عن سلطانهم سوى لأشهر عدَّة –، وأنَّ المصريين قد خذلوهم في أنطاكية ولم يقدموا لهم العون في فك الحصار بل تحالفوا مع الأعداء ضدهم، واستغلوا فرصة اشتغال السلاجقة في حرب الصليبيين في شمال الشام ليستولوا هم على الجنوب، وعليه فليُترك الفاطميون يواجهون مصيرهم لوحدهم[2].

وهكذا فإنَّ التطرف في تبني العقيدة والمذهب من طرف حكام بغداد والقاهرة كان أبرز عوامل تلك الانتكاسة في رد الصليبيين عن أنطاكية وبيت المقدس، فبيَّنت الأحداث أنَّ انقسامهما هو من كان سببًا في تعطيل وشل أي جهد إسلامي فعَّال وقوي ضد مخططات الصليبيين، فسهَّل من مهمتهم وقدَّم لهم النصر[3]، ومكَّنهم من تثبيت وجودهم على حساب الجبهة الإسلامية في شمال الشام وجنوبها.

4- سقوط طرابلس المسؤولية المشتركة (502هـ/1109م)

لم تكن طرابلس بمعزلٍ عمَّا يجري من أحداث ببلاد الشام زمن الحملة الصليبية الأولى، سواء من ناحية الصراع المذهبي الدائر بين السلاجقة السنيين والشيعة الفاطميين على مناطق النفوذ بها، أو من ناحية الواقع الجديد بقيام عدد من الإمارات الصليبية بالمنطقة، إذ وعلى الرغم من توضُّح نوايا الحركة الصليبية لكافة الأطراف الإسلامية وبخاصة قوتي السلاجقة والفاطميين بعد أن تمَّ الاستيلاء على كثير من المدن ببلاد الجزيرة والشام ووقوع مجازر رهيبة في أهلها، إلاَّ أنَّ حدَّة الانقسام المذهبي بين القوتين الإسلاميتين حالت دون تحملهما للمسؤولية في تقديم يد العون للإمارات المتواجدة ببلاد الشام والتي تعرضت للتحرش

---

(1) النجوم الزاهرة، 151/5.

(2) محمد علي حميد الحديدي، **العلاقات السلجوقية الفاطمية (447هـ-567هـ/1055م-1171م) -دراسة سياسية-**، رسالة ماجيستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1430هـ/2009م، ص174.

(3) يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص30.

الصليبي بغية الاستيلاء عليها ومنها طرابلس، فساهم ذلك في توجيه موقف حكامها (بنو عمار) من الغزو الصليبي في البدء ثمَّ رسم معالم سقوط المدينة بأيدي الصليبيين في النهاية.

فعلى الرغم من تأخر استيلاء الصليبيين على طرابلس إلى بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي واستماتة أهلها وحاكمها في رد الحصار عنها لقرابة الست سنوات، إلاَّ أنَّ أوضاع القوى الإسلامية بالمشرق كانت توحي بأنَّ مصيرها لن يختلف عن سابقاتها الرها وأنطاكية وبيت المقدس، لترتسم بهذه الأخيرة صورة أخرى من صور الخذلان والهوان لدى الطرف الإسلامي تفصيلها كما سيأتي:

كانت طرابلس قبل الحملة الصليبية الأولى تحت حكم أسرة عربية شيعية إمامية (إثني عشرية) هي أسرة بنو عمار(462هـ-503هـ/1070م- 1109م)، والتي أسسها القاضي أمين الدولة أبوطالب عبد الله بن محمد بن عمار الطائي وهو أحد قضاة الدولة الفاطمية، حيث استقل بها سياسيًا عن سلطة الفاطميين بالقاهرة بعد وفاة حاكم طرابلس آنذاك ابن بزَّال، لينتقل حكمها بعد وفاة أبوطالب عبد الله سنة (464هـ/1072م) إلى ابن عمِّه جلال الملك أبو الحسن ابن عمار، الذي عمل على ضبط الأمور بها وترتيبها[1].

توفي جلال الملك بن عمار سنة 492هـ/1099م، في الوقت الذي شهدت فيه بلاد الشام دخول فاعلٍ جديد على مسرح الأحداث تمثَّل في الوجود الصليبي، الذي استطاع إلى غاية هذا التاريخ من تأسيس إمارة ببلاد الجزيرة وهي الرها وأخرى في شمال بلاد الشام وهي أنطاكية، ثمَّ خلفه في نفس السنة على رأس الإمارة الشيعية أخوه فخر الملك بن عمار[2]، الذي كان مطالبًا بمواجهة تعقيدات الوضع القائم وقتها واتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة التحرشات الصليبية بإمارته واستعادة البلاد التابعة له، والتي فُقدت في أواخر حكم جلال الملك كجبلة[3] وأنطرطوس[4].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 392/8، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، 307/2-308، أبو الفدا، المختصر، 187/2- 188، الأزدي، الدول المنقطعة، قسم الفاطميين، ص60.

(2) العظيمي، تاريخ حلب، ص360، مسفر الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص83، الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص127.

(3) جبلة، قلعةٌ مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية، ياقوت، معجم البلدان، 105/2.

(4) خرج والي جبلة القاضي أبو محمد عبيد الله بن منصور التنوخي المعروف بابن صليحة عن طاعة بني عمار في أواخر حكم جلال الملك، واستقلَّ بجبلة وأقام الخطبة للعباسيين، وأمَّا أنطرطوس فقد استولى عليها الصليبيون أثناء زحفهم ناحية الجنوب في سنة492هـ /1099م، وذلك قبل ولاية فخر الملك، أنظر، ابن الأثير، الكامل، 35/9، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص90، محمد محمد مرسي الشيخ،

ولكون غالبية أهل طرابلس وقتها متشيعون على ما ذكر الرحّالة الفارسي ناصر خسرو[1]، فإنَّ بني عمار رغم استقلاليتهم السياسية فقد ظلوا على ولاءهم للخليفة الفاطمي، حتَّى أنَّ العملة التي كانت تصدر بطرابلس ضربت باسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ومن خلفه[2]، كما سعوا لتحقيق نوع من التوازن أو الحياد في علاقاتهم بفاطميي القاهرة وسلاجقة الشام والعراق، وذلك من أجل الحفاظ على استقلالية إمارتهم محط أطماع كلا القوتين[3].

غير أنَّ هذه السياسة في علاقات بني عمار مع السلاجقة والفاطميين بقدر ما حافظت على استقلاليتهم في المنطقة بقدر ما كان لها وقعُ خطير على وضعها ووضع باقي المدن الشامية الساحلية بعد ذلك، فحين ضُرب الحصار على المدينة من قبل الصليبيين سنة 495هـ/1102م لم يتحمّل أي طرف من القوتين المسؤولية عنها، لخروجها عن نطاق ممتلكاته ودائرة نفوذه، وربَّما هو الأمر الذي يفسر لنا عدم تفاعل الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي مع طلب العون الذي قدَّمه فخر الملك ابن عمار في رحلته إلى بغداد سنة 501هـ/1107م لرد الصليبيين المحاصرين للمدينة، ويفسر لنا كذلك مسارعة الفاطميين لضم المدينة إلى ممتلكاتهم بعد غياب ابن عمار عنها في رحلته إلى بغداد، فتركت طرابلس وأهلها يواجهون ويلات الحصار لأزيد من ستة سنوات كاملة.

كانت بداية الاحتكاك الصليبي مع قادة طرابلس حينما زحف الجيش الصليبي من أنطاكية متوجهًا إلى بيت المقدس لانتزاعها من سلطة الفاطميين، بحكم وقوع ممتلكات ابن عمار على طريق الرحلة إليها[4]، فكان بذلك أمام مواجهة مباشرة مع الجيوش الصليبية، التي لم تمنحه أكثر من خيارين لمواجهة الموقف، فإمَّا المهادنة والمسالمة وإمَّا المقاومة في ظروف غير متوازنة،[5] خاصةً وأنَّ عبرة انتكاسة أنطاكية غير بعيدة في

الإمارات العربية، ص228، وأنطرطوس بلدٌ من سواحل بحر الشام وهي آخر أعمال حمص وقيل من أعمال طرابلس مُطلة على البحر في شرقي عرقة، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 270/1، القزويني، آثار، ص151.

[1] سفر نامة، ص48.

[2] عاصم اسماعيل كنعان، نعمة شهاب جمعة، **الدور السياسي والثقافي لبني عمار في إمارة طرابلس (457هـ -502هـ/ 1065م-1109م)**، مجلة الفتح، العدد السادس والعشرون، مجلة الفتح، جامعة ديالى، العراق، 2006، ص258.

[3] محمد محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية، ص200.

[4] ستيفن رنسيمان، تاريخ، 94/2، وراجع الخريطة رقم (02) لمعرفة موقع مدينة طرابلس، ص298.

[5] ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص216، 227، Stevenson, op, cit, p40، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 223/1.

الزمن، ومواقف الخذلان الفاطمي بالتحالف مع الصليبيين مازالت تداعياتها على واقع الشام والمشرق الإسلامي برمته ماثلة.

اختار ابن عمار من الأسلوبين الأسلوب الأول، هذا الأسلوب الذي سار عليه معظم الأمراء الواقعة ممتلكاتهم على طريق الرحلة إلى بيت المقدس بسبب الذعر الذي تملَّك قلوبهم بعد سقوط أنطاكية[1]، حيث اتبع ابن عمار مع الصليبيين سياسة موادعة ومسالمة أقرب إلى الخنوع، وهذا حتَّى يجنب نفسه وإمارته الإبادة والتدمير،[2] مثلما وقع لعديد المدن في شمال الشام كمعرَّة النعمان491هـ/1098م، فبعد استيلاء الصليبيين على حصن الأكراد[3] سنة 492هـ/1098م[4]، أحسَّ فخر الملك بخطورة الموقف فأرسل سفراء يحملون رسالة إلى قادة الجيش الصليبي يعرض عليهم تقديم يد العون في مسيرهم إلى بيت المقدس[5]، ووعدهم بتوفير الزاد والمؤن ومن يدُّلهم في طريقهم، مقابل عدم التعرض لممتلكاته واحترام سلطته عليها[6]، كما حمل إليهم مع سفرائه عدة هدايا لزعمائهم تمثلت في أربع بغال وعشرة جياد ومبلغ من المال قدَّرهُ خمسة عشرة ألف قطعة ذهبية[7].

وفي حقيقة الأمر أنَّ هذه السياسة المتبعة من قبل ابن عمار – رغم أنانيتها- لها ما يبررها، فالقوى الإسلامية وقتها لم تكن بحال يسمح لها بمساعدة طرابلس وغيرها من المدن الشامية، فقوة السلاجقة مقسمة بين الأتابكيات المتصارعة على السلطان والنفوذ، ومصر الفاطمية بتحالفها مع الصليبيين المحاصرين لأنطاكية وعقد اتفاقية معهم قد أبانت عن دورها السلبي من الأحداث، وبعبارة أدق فإنَّ ابن عمار وباقي الأمراء لم يجدوا قوة إسلامية كبيرة تستطيع الوقوف إلى جانبهم في مواجهة الزحف الصليبي على ممتلكاتهم.

وإن كان لسياسة ابن عمار هذه ما يبررها خلال الزحف الصليبي على بيت المقدس، فإنَّ المواقف التي اتخذها بعد ذلك لم يكن بالإمكان استساغتها بالمطلق من هذا الأمير المسلم، ومنها قيامه بمساعدة

---

(1) حول الاتفاقيات المبرمة والتسهيلات التي قدَّمها حكام بعض الإمارات الإسلامية كشيزر وحمص وطرابلس لقادة الجيش الصليبي المتجه إلى بيت المقدس، راجع، بطرس تيوديبود، تاريخ الرحلة، ص289- 290، مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص163.

(2) رنسيمان، تاريخ، ص94، حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، ص164.

(3) حصن الأكراد، هو حصن منيع في الجبل الذي يقابل مدينة حمص من جهة الغرب، ياقوت، معجم البلدان، 264/2.

(4) مجهول، أعمال الفرنجة، ص162.

(5) الغامدي، المرجع السابق، ص84،

(6) وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 62/2، رنسيمان، تاريخ، 94/2-95، حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، ص170-171.

(7) بطرس تيديبود، تاريخ الرحلة، ص290، 293، مجهول، أعمال الفرنجة، ص163، 165، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 62/2.

بلدوين (Boudouin) أمير الرها[1] في تجنب الكمين الذي أراد أن يوقعه فيه دقاق صاحب دمشق وهو في الطريق من الرها إلى بيت المقدس لوراثة أخيه جودفري (Godefroi) على حكم المدينة المقدسة سنة 493هـ/1100م[2]، والعجيب في الأمر أنَّ هذا القائد الصليبي قد صَحِب لتأمين الحماية له قوة صغيرة تتألَّف من مائتي فارس وسبعمائة راجل فقط![3].

كانت هذه المغامرة من طرف بلدوين فرصة سانحة لدقاق صاحب دمشق العدو الأول لمملكة بيت المقدس، بسبب الحملات الصليبية المتكررة على أملاكه من طرف جودفري، فرأى ضرورة استغلال الفرصة لأسر بلدوين وهو في طريقه إلى بيت المقدس، معتمدًا على ما بلغه من معلومات حول ضعف قوة الحماية القادمة معه[4]، وقد كان بإمكان دقاق تحقيق ما عزم عليه بشكل كبير.

غير أن الأمور لم تسر وفق ما خطط لها دقاق، فقد بلغ مسامع الأمير الصليبي ما يُدبَّر له من طرف القائدين الإسلاميين أمير دمشق وصاحب حمص جناح الدولة، وذلك عن طريق قائد مسلم آخر هو صاحب طرابلس فخر الملك بن عمار[5]، حيث يذكر عن ذلك فوشي الشارتري[6] فيقول:" وفي هذه المرة أرسل ملك طرابلس لخيمة الأمير بلدوين الخبز والنبيذ والعسل البري وقصب السكر، وأخبر بلدوين أن دقاقًا ملك دمشق وجناح الدولة ملك حلب[7]، قد كمنا لنا في أعداد وافرة من الترك والمسلمين والعرب، وقد تجمعوا على جنبات الطريق التي يعلمون أننا سنسلكها، ورغم أننا لم نصدق تمامًا هذا الإنذار منه في البداية، إلاَّ أننا عرفنا فيما بعد أنَّه كان صادقًا".

---

[1] لم يكد بلدوين يستقر بإمارته في الرها حتَّى وصلته رسالة من أنصاره في بيت المقدس في أواخر أوت وأوائل سبتمبر سنة 493هـ/1100م، يخبرونه فيها بموت أخيه جودفري (Godefroi)، ويطلبون منه الحضور على وجه السرعة لتقلُّد أمور الحكم بالمدينة المقدسة، ولم يشأ بلدوين أن يضيع الفرصة التي منحها إياه القدر لحكم بيت المقدس، فغادر الرها في أكتوبر من نفس السنة تاركًا شؤون إدارة الرها لقريبه بعد أن أمدَّه بقوة كبيرة من الفرسان والمشاة للدفاع عن الإمارة إذا هددها الخطر، أنظر، عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 230/1.

[2] فوشي الشارتري، الرحلة، ص103، وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 193/2-194، 202، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص138، العظيمي، تاريخ حلب، ص360، ابن الأثير، الكامل، 43/9، ارنست باركر، الحروب الصليبية، ص 39.

[3] فوشي الشارتري، تاريخ الرحلة، ص103.

[4] سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 230/1، الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص85.

[5] أمين معلوف، المرجع السابق، ص92.

[6] تاريخ الحملة، ص103.

[7] وهنا فوشي الشارتري يكون قد أخلط بين حمص وحلب فجناح الدولة حسين هو صاحب حمص، وأمَّا صاحب حلب فهو رضوان الذي كان بينه وبين أخيه دقاق خصومة يستبعد تكتلهما لمواجهة بلدوين.

لم يقف ابن عمار عند هذا الحد، بل حرص على إكرام الأمير الصليبي حين وصوله مُنهكًا هو ورجاله إلى طرابلس في 15 ذي الحجة 494هـ/21 أكتوبر1100م وقام بإمداده بالميرة والغذاء لمواصلة مسيره، وتعهَّد له بإعلامه بكل تحركات دقاق عدوهما المشترك[1]، وعلى ما يبدو فإنَّ ابن عمار كان في خصومة شديدة مع صاحب دمشق خلال تلك الفترة، الأمر الذي دفعه إلى الارتماء في أحضان الصليبيين[2].

ومهما يكن من أمر فإنَّ موقف ابن عمار لا يمكن وصفه إلاَّ بالأنانية السياسية المتطرفة، البعيدة عن روح العقيدة الإسلامية، حيث جنى على إمارته وباقي المدن في جنوب بلاد الشام، وكانت سببًا في سقوط معظم مدن الساحل الفاطمية بأيدي الصليبيين كأرسوف[3] وقيسارية[4] وحيفا في نفس السنة أي 494هـ/1101م[5]، وفوَّت على المسلمين فرصة التخلص من هذا القائد الصليبي الفذ الذي ساهم بشكل بارز في مسار أحداث الصراع الإسلامي – الصليبي فيما بعد، إذ عُدَّ من أبرع المقاتلين الصليبيين وموطد أركان كياناتهم[6]، ليجيء مصير طرابلس نفسها بعد ذلك بسنة واحدة (495هـ/1102م) بضرب حصار خانق عليها من طرف القائد الصليبي ريموند دي سان جيل Raymond de Saint Gilles استمر لست سنوات متواليات، فلم يشفع بذلك لابن عمار كل ما قدمه للصليبيين من مساعدة وخدمات[7].

---

[1] وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 202/2، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 230/1، محمد مرسي الشيخ، الامارات العربية، ص 230، البرجاوي، المرجع السابق، ص 161.

[2] أمين معلوف، المرجع السابق، ص 91-92، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 230/1، وقد رد الدكتور عبد العزيز سالم على القول بوجود خصومة شديدة بين أمير طرابلس وحاكم دمشق فقال: بأنَّ المصادر العربية لم تشر من قريب ولا من بعيد إلى وجود مثل هذا العداء المستحكم رغم سعيه للحفاظ على استقلال إمارته، وقدَّم لتأكيد طرحه هذا عدَّة أدلة، أنظر، طرابلس الشام، ص87-88.

[3] أرسوف، مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 151/1-152.

[4] قيسارية، مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية مسيرة ثلاثة أيام، وبينها وبين يافا ثلاثون ميلاً، ياقوت، معجم البلدان، 421/4-422، الحميري، الروض المعطار، ص486.

[5] وليم الصوري، الحروب الصليبية، 218/2-219، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص225، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 515/19، ياقوت، معجم البلدان، 232/2، أبو الفدا، المختصر، 214/2، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 26/3، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 165/5.

[6] الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص144.

[7] ابن الأثير، الكامل، 55/9، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 521/19، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 28/3.

سعى ريموند إلى إقامة ملك خاص بمنزلته كأحد أمراء الحملة الصليبية، على غرار ما حصل عليه كل من بوهيموند بأنطاكية وبلدوين بالرها وجودفري في بيت المقدس، فكانت بذلك طرابلس مقصده لتحقيق تلك الغاية[1]، حيث جمع الكثير من الصليبيين وسار بهم صوب المدينة فارضًا عليها حصارًا شديدًا وطويلاً، اضطر معه حاكم طرابلس إلى تعديل سياسته في معاملة الإمارات الإسلامية السلجوقية التي لطالما خذلها بمواقفه الأنانية، وأرسل يستنجد بكل من دقاق ملك دمشق وجناح الدولة صاحب حمص للوقوف إلى جنبه في رد ريموند قبل استفحال أمره فأجيب إلى ما طلب[2].

وقد تناول ابن الأثير[3] هذا الطلب لابن عمار، لكنَّ روايته لا تخلو من بعض المبالغة والارتباك والتناقض، كما واختلف مع ابن القلانسي في كون حاكم حمص وقتذاك هو ياخز خليفة جناح الدولة وليس جناح الدولة نفسه.

لم يتمكن ذلك الحلف الذي شكله ابن عمار مع دقاق وجناح الدولة من تحقيق النصر على ريموند، كما ولم يتمكن هذا الأخير من دخول طرابلس والاستيلاء عليها لمنعتها واستماتة أهلها وقائدها في الدفاع عنها، لتنتهي تلك الجولة بقبول ريموند ما عَرضهُ عليه فخر الملك من مهادنته مقابل جزية من مال وخيل، ثمَّ انسحب إلى أنطرطوس في شمال طرابلس حيث استعادها من ابن عمار[4].

اعتبر الباحث محمد بن المختار الشنقيطي أنَّ هذا التقارب الواقع بين الإمارات السنية مع بني عمار الشيعة يعدُّ بداية للتعاضد المذهبي بين القوى الإسلامية، ومؤشر على الانتقال من الأنانية السياسية إلى التوحد والإحساس بالمصير المشترك[5]، غير أننا لا نرى في هذا الموقف من ابن عمار في الحقيقة سوى

---

[1] محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية، ص232-233، البرجاوي، المرجع السابق، ص203، حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص108، رنسيمان، تاريخ، 96/2.

[2] يقول عن ذلك ابن القلانسي: "ووردت مكاتبات فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس يلتمس فيها المعونة على دفع ابن صنجيل النازل في عسكره من الإفرنج على طرابلس، ويستصرخ بالعسكر الدمشقي ويستغيث بهم، فأجيب إلى ما التمس، ونهض العسكر نحوه، وقد استدعى الأمير جناح الدولة صاحب حمص، فوصل أيضًا في عسكره، فاجتمعوا في عدد وثر، وقصدوا ناحية أنطرطوس، ونهد (نهض) الإفرنج إليهم في جمعهم وحشدهم، وتقارب الجيشان والتقيا هناك، فأنفل عسكر المسلمين من عسكر المشركين، وقتل منهم الخلق الكثير، وقفل من سلم إلى دمشق وحمص بعد ما فقد منهم، ووصلوا في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة"، ذيل تاريخ دمشق، ص140-141.

[3] الكامل، 55/9.

[4] فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص124، العظيمي، تاريخ، ص361، ابن الأثير، الكامل، 55/9، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، 287/1-288، رنسيمان، تاريخ، 98/2، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق، ص86.

[5] أثر الحروب الصليبية، ص148.

تأكيدٌ على تلك الروح الانتهازية منه، ومدى حرصه على الحفاظ على ملكه ولو بطلب النجدة ممن خانهم قبلاً، فلو كان مهتمًا لأمر الإسلام وأرضه وللوحدة بين أهله ما كان ليخون الأمراء المسلمين من قبل بالارتماء في أحضان الصليبيين وتسهيل مهمة تحقيق أهدافهم، ويتسبب في وقوع تلك المجازر ببيت المقدس، خاصة وقد بلغه لا شك ما وقع للمسلمين بأنطاكية ومعرة النعمان من تنكيل.

وعلى أية حال فقد عاود ريموند بعد سنتين (497هـ/1103م) هجومه على مدينة طرابلس مستغلاً وصول أسطول بحري من جنوة الإيطالية، فضرب على المدينة حصارًا بحريًا وآخر بريًا ضاق على أهلها، غير أنَّه لم يحقق أي نتيجة، بفضل صمود أهل المدينة في الدفاع عنها ومتانة أسوارها المحيطة بها، ممَّا دفع بريموند وأنصاره إلى التقهقر جنوبًا حيث مدينة جبيل[1] التي تمكَّن من الظفر بها.

فيقول عن ذلك ابن الأثير[2]:" وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة اللاذقية فيها التجّار والأجناد والحجاج وغير ذلك، واستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس، فحصروها معه برًا وبحرًا، وضايقوها وقاتلوها أيامًا، فلم يروا فيها مطمعًا، فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل فحصروها، وقاتلوا عليها قتالاً شديدًا، فلمَّا رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أمانًا وسلموا البلد إليهم، فلم تف الفرنج لهم بالأمان، وأخذوا أموالهم، واستنقذوها بالعقوبات، وأنواع العذاب".

اقتنع ريموند بأنَّه من الصعوبة بما كان الاستيلاء على طرابلس دون إقامة قاعدة بالقرب منها، يتخذها منطلقًا لشن غاراته، لذلك قام ببناء قلعة حصينة على مرتفعٍ يطلُّ على المدينة، يمكن من خلالها مراقبة كل داخلٍ إليها وكل خارجٍ منها[3]، وعُرفت هذه القلعة باسم قلعة صنجيل Saint-Gilles نسبة إلى ريموند دي صنجيل (Raymond)، أمَّا هو أي ريموند فقد سمّاها بقلعة جبل الحجاج[4]، وقد ساعد هذا الأخير على بنائها الإمبراطور البيزنطي من خلال إمداده بالميرة والأخشاب والمعدات اللازمة من جزيرة قبرص[5]، فاتخذها ريموند لمواصلة ضغطه على طرابلس وإحكام قبضته عليها.

---

(1) جبيل، بلدٌ في سواحل دمشق، طوله ستون درجة وعرضه أربع وثلاثون درجة، وهو بلدٌ مشهور في شرقي بيروت، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 109/2.

(2) الكامل، 72/9، وقد جاء ذكر الحادثة عند ابن القلانسي وأبو الفدا، ذيل تاريخ دمشق، ص231، المختصر، 217/2.

(3) رنسيمان، تاريخ، 99/2، حامد غنيم أبوسعيد، المرجع السابق، ص109، الغامدي، الجهاد ضد الصليبين، ص86.

(4) وليم الصوري، الحروب الصليبية، 244/2، 260.

(5) رنسيمان، تاريخ، 100/2، عاشور، الحركة الصليبية، 290/1، 293.

قام ابن عمار بمواجهة تطورات الوضع في محيط إمارته بعمل مضاد، حيث قاد عسكره واقتحم قلعة ريموند في غفلة منه فقتلوا من بها ونهبوا من المال والسلاح الشيء الكثير، كما أضرموا النار في ملحقات القلعة ممًا أدى إلى إصابة ريموند بحروق نتيجة سقوط بعض الأجزاء المشتعلة عليه، ليتوفى بعد عشرة أيام قبل أن يحقق حلمه في انتزاع طرابلس وإقامة ملك خاص به في المشرق، فحمل إلى القدس ودفن فيها وكان ذلك سنة 498هـ/ 1105م[1].

واصل خليفة ريموند وليام جوردان – وهو ابن خالته – الجهود في سبيل الاستيلاء على طرابلس[2] فشدد حصاره على المدينة وأخذ يناوش أهلها بالقتال من حين لآخر، حتَّى بدأت ثمار ذلك الحصار تظهر من خلال اضطراب أوضاع سكان المدينة وغلاء أسعار السلع بها غلاءً فاحشًا، فهجرها أهلها من الفقراء وافتقر الأغنياء منهم[3]، فصارت المدينة مهددة بالمجاعة، حتَّى قيل أن رطل التمر كان يباع بدينار من الذهب[4]، كما ولم تفلح جهود ابن عمار في تخفيف حدَّة تلك الأزمة رغم ما أبداه من صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد على حد وصف ابن الأثير[5].

ونظرًا لهذه الأوضاع التي آلت إليها طرابلس فإنَّ ابن عمار لم يجد بُدًّا من الاستنجاد بقائد إسلامي سني آخر وهو الأمير سقمان بن أرتق التركماني أمير ماردين وحصن كيفا بديار بكر آملاً في مبادرته وشهامته في دفع الفرنج عن طرابلس، ولكن شاءت الأقدار أن يتوفى سقمان وهو في طريقه لنجدة طرابلس، فحمل جنده جثمانه وعادوا به إلى الحصن[6]، ليفقد بذلك ابن عمار آخر أمل لنجدة إمارته، فعانت المدينة بعد ذلك فترة من الشدَّة والقسوة[7].

لم يعد بمقدور أهل طرابلس احتمال وطأة الحصار أكثر، كما وأنَّ ابن عمار لم يعد يأمل في نجدات الإمارات الإسلامية المجاورة له، بعد أن ثبت قصورها وفشلها، ليقرر هذه المرة الاستنجاد بالقيادة

---

(1) وليم الصوري، الحروب الصليبية، 2/259-260، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص147، ابن الأثير، الكامل، 9/96، أبو الفدا، المختصر، 2/220-221، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/186.

(2) رنسيمان، تاريخ، 2/102، محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية، ص 242-243.

(3) ابن الأثير، الكامل، 9/96.

(4) رنسيمان، تاريخ، 2/103، البرجاوي، الحروب الصليبية، ص 204.

(5) ابن الأثير، الكامل، 9/96.

(6) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص146-147، ابن الأثير، الكامل، 9/96، رنسيمان، تاريخ، 2/104.

(7) محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية، ص249، الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص150.

السنية في بغداد[1] والممثلة في الخليفة العباسي المستظهر بالله (487هـ-512هـ/1094م-1118م)[2] والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (498هـ-511هـ/1104م-1117م)، هذا الأخير الذي تمكَّن خلال هذه الفترة – بداية القرن السادس الهجري- من القضاء على المناوئين والمتمردين على سلطانه، فكان الأمر مشجعًا لابن عمار لقصده وطلب النجدة منه[3]، فخرج قاصدًا بغداد سنة 501هـ/1107م متخذًا الطريق البري، فمرَّ في طريقه على دمشق وعرض أمر الاستنجاد على صاحبها ظهير الدين طغتكين طالبًا مشورته[4]، فتمَّ الاتفاق على خروج تاج الملوك بوري بن طغتكين[5] بصحبة ابن عمار إلى بغداد فوصلاها في رمضان من نفس السنة[6].

عمل فخر الملك قبل خروجه من طرابلس على ترتيب أمورها وإزالة أي شوائب حدوث انقلاب أو اضطراب بها، فقام بتعيين ابن عمِّه أبي المناقب نائبًا له عنها في غيابه ويعاونه في ذلك وجوه من أصحابه، كما قام بدفع رواتب الجند المدافعين عن المدينة لمدة ستة أشهر سلفًا، حتَّى لا يترك لابن عمه مشقة في

---

[1] قبل أن يقرر ابن عمار التوجه بنفسه إلى بغداد فقد استبق ذلك بمكاتبة السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه حيث يقول عن ذلك ابن القلانسي: " وتتابعت المكاتبات إلى السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه من ظهير الدين أتابك وفخر الملك بن عمار صاحب طرابلس، بعظيم ما ارتكبه الإفرنج من الفساد في البلاد وتملك المعاقل والحصون بالشام والساحل والفتك في المسلمين ومضايقة ثغر طرابلس والاستغاثة إليه والاستصراخ والحض على تدارك الناس بالمعونة"، غير أنَّ دعوات الاستغاثة تلك لم تحقق الغاية فتلك الجيوش التي كان يستنفرها السلطان سرعان ما تتخاذل أو تنشغل بصغائر الأمور، أنظر، ذيل تاريخ دمشق، ص161-162.

[2] هو أحمد بن أبي عبد الله المقتدي بالله، بويع له يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلةً بقيت من المحرَّم سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة إثني عشرة وخمسمائة، وله إحدى وأربعون سنة، فكانت خلافته ستًا وعشرين سنة، وكان أبوه لقَّبه بذخيرة الدين، وذكره على المنابر بولاية العهد، وعلى السكة، ودبَّر أمر خلافته عميد الدولة وقهرمانة والده شمس النهار، وكانت إمرأةً حازمة شديدة، وولمزيد حول ترجمته أنظر، العمراني، الإنباء، ص168-174، الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص437،

[3] أبو الفدا، المختصر، 223/2، رنسيمان، تاريخ، 104/2، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص105.

[4] ويذكر ابن القلانسي أن طغتكين هو من دعا ابن عمار للمرور بدمشق لما علم بمسيره إلى بغداد لمقابلة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي بغية الانضمام إلى هذا الوفد، ذيل تاريخ دمشق، ص160- 161.

[5] هو تاج الملوك بوري، أكبر أبناء الملك ظهير الدين طغتكين، ولد عام 478هـ، تولَّى الملك بعد أبيه في شهر صفر عام 522هـ، عمل على محاربة الصليبيين في بلاد الشام، كما عمل على تصفية الإسماعيلية في مدينة دمشق، طعن في جمادى الآخرة سنة 525هـ وتوفي في رجب من العام 526هـ، عهد بالحكم من بعده لولده شمس الملوك إسماعيل أمام أعيان الجند والبلاد، أنظر، ابن القلانسي، ذيل، ص229-234، النويري، نهاية الإرب، 55/27، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 573/19-575، العبر، 428/2-429، الحنبلي، شذرات، 129/6.

[6] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص160، ابن الأثير، الكامل، 120/9، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 23/20، أبو الفدا، المختصر، 223/2، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 38/3.

ذلك[1]، وعلى ما يبدو فإنَّ ابن عمار لم يكن مطمئنًا على حكمه وهو بعيد عن طرابلس، مما يفسر هذا الحرص منه في ترتيب الأمور بالمدينة، وبالفعل فقد حدث ما تخوف منه ابن عمار بمجرد وصوله إلى دمشق حيث بلغه أنَّ ابن عمه أبي المناقب قد طرح طاعته ونادى بشعار الفاطميين، فكتب فخر الملك إلى أصحابه بطرابلس يأمرهم بالقبض عليه وحمله إلى حصن الخوابي[2] ففعلوا ما أمرهم به[3].

وعلى أية حال فإنَّ ابن عمار قد لقي في بغداد استقبالاً حافلاً من طرف القيادة السنية[4]، كما قابلها هو الآخر بتقديم هدايا ثمينة من الأعلاق النفيسة والخيول الرائقة[5]، فوُعد بمنحه المساعدات المطلوبة في سبيل تخليص إمارته من كابوس الحصار الصليبي الخانق، حيث يذكر عن ذلك ابن الأثير[6]: "ولما اجتمع بالسلطان قدم هديته، وسأله السلطان عن حاله، وما يعانيه في مجاهدة الكفار، ويقاسيه من ركب الخطوب في قتالهم، فذكر له حاله وقوة عدوه وطول حصره وطلب النجدة، وضمن أنَّه إذا سُيِّرت العساكر معه أوصل إليهم جميع ما يلتمسونه، فوعده السلطان بذلك وحضر دار الخلافة وذكر أيضًا نحو مما ذكره عند السلطان".

ولكن كل تلك الوعود من قبل الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي لم تعرف طريقها للتجسيد، إذ انشغل السلطان محمد بن ملكشاه عن الخطر الصليبي المحدق بطرابلس وأهلها بصرف جهوده في مواصلة الصراع مع القائد المسلم جاولي سقاولي الذي كان مسيطرًا على الموصل في شرق الجزيرة، فكان يأمل في التخلص من عقبة هذا القائد وطموحاته قبل توجيه حملة عسكرية لمساندة ابن عمار[7]، وقد أسند السلطان السلجوقي لقيادة حملته إلى الموصل شرف الدين مودود بن ألونتكين، وأمَّا ابن عمار فقد بقي في

---

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 160، ابن الأثير، الكامل، 120/9، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 23/20، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، 38/3.

[2] حصن الخوابي، يقع إلى الشمال من أنطرطوس، وهو حصن منيع وأهله من الإسماعيلية، أنظر الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني (ت559هـ/1166م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/2002م، ص375.

[3] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص161، ابن الأثير، الكامل، 120/9-121.

[4] سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 23/20-24.

[5] Stevenson : op, cit, p 56.

[6] الكامل، 121/9.

[7] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص161، ابن الأثير، الكامل، 121/9، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 23/20-24.

بغداد ينتظر انتهاء مهمة مودود التي طالت أربعة أشهر كاملة، جعلت الخوف والقلق يستبد به على مصير إمارته[1].

لقد عكس موقف القيادة السنية ببغداد من الوضع في طرابلس مدى الهوة السحيقة للعلاقات بين القوى الإسلامية؛ وأبانت عن ضعف في الاستشراف والتخطيط وترتيب الأولويات من قبل تلك القيادة خلال هذه المرحلة الحرجة من تاريخ المسلمين، ذلك أنَّ ربط السلطان السلجوقي مهمة إنجاد طرابلس من قبضة الحصار الصليبي بما سيحققه جيش مودود في صراعه مع جاولي سقاولي القائد المسلم، لهو أبرز دليل على تلك الهوة وعلى ذلك الضعف، فلا الوقت ولا نوعية الخصم حينها كان يسمح بقرن هذا بذاك، غير أنَّ حقيقة ذلك التخاذل من القيادة السنية كما يُرجح الكثير من الكتَّاب فيعود للاختلاف المذهبي بين الطرفين، فبغداد لم تكن متحفّزة للدفاع عن مدينة غالبية أهلها شيعة وتدين بالولاء الروحي للخليفة الفاطمي خصمها التقليدي، فحمى الصراع المذهبي ظلت ملازمة وموجهة لأي موقف وردود فعل من طرف حكام القوى الإسلامية[2].

قرر ابن عمار عدم الانتظار فوق ذلك الحد، وعرَّج عائدًا إلى بلاد الشام دون أن يحصل على ما أمَّله من قيادة بغداد، فوصل إلى دمشق في منتصف محرم 502هـ/ أوت 1108م، بينما لم تسقط الموصل في حوزة مودود إلاَّ في صفر من سنة 502هـ/سبتمبر1108م، أي بعد مغادرة ابن عمار لبغداد بنحو شهر، وخلال هذه الفترة عرفت طرابلس تطورًا خطيرًا كان له وقع على مصيرها، إذ بلغ مسامع فخر الملك وهو في دمشق خبر طلب وجهاء طرابلس من صاحب مصر القدوم لتسلُّم المدينة وإنقاذها من الوضع الذي آلت إليه، لتخرج المدينة عن سلطة ابن عمار نهائيًا[3].

لم يكن باستطاعة أهل طرابلس تحمل المزيد من صعوبات ذلك الحصار، الذي زاده طول فترة غياب أميرهم، فما كان منهم سوى أن أرسلوا إلى وزير الفاطميين الأفضل بن بدر الجمالي يلتمسون منه إرسال والٍ من قبله يحمل معه الميرة وما يساعدهم على تحمل وطأة الحصار، فاستجاب لهم الأفضل وأرسل

---

[1] رنسيمان، تاريخ، 105/2، محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية، ص 256- 257. السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص108-109.

[2] الغامدي، الجهاد ضد الصليبين، ص89.

[3] رنسيمان، تاريخ، 106/2، محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية، ص257، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص109.

إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب ليتولى أمورهم، وقد كانت أولى أعماله هي القبض على أعوان فخر الملك بن عمار وأهله ومصادرة ممتلكاته وذخائره، ثمَّ قام بترحيلهم جميعًا إلى مصر[1].

غير أنَّ الوجود الفاطمي في طرابلس حينها لم يكن في حقيقة الأمر سوى استمرارية لمحاولاتهم اليائسة للامتداد على حساب قوة السلاجقة السنة في إطار الصراع على مناطق النفوذ ببلاد الشام، إذ لم تكن للفاطميين الجدية اللازمة في مساعدة أهل طرابلس ودفع الحصار الصليبي عنها، وكانوا أضعف من أن يتمكَّنوا من حماية المدينة وضمان استقلاليتها، وصورة هذا التخاذل قد أجازه صاحب النجوم الزاهرة[2] ولخَّصها في ثلاث نقاط حيث قال:

" ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه، الأوَّل من تقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة، والثاني لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد على حسب الحال، والثالث لم لا يخرج الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالعساكر المصرية كما كان فعله والده بدر الجمالي في أوائل الأمر؟ هذا مع قوتهم من العساكر والأموال، فلله الأمر من قبل ومن بعد".

وفي تلك الأثناء التي كانت فيه الجبهة الإسلامية على ذلك القدر من التشرذم والانقسام، ونتيجة تكاسل القوة الفاطمية عن إرسال المدد لحماية طرابلس ودفع الخطر الصليبي عنها، كانت الجبهة الصليبية تسعى جاهدةً لوضع خلافاتها جانبًا وتحشد الجهود في سبيل الاستيلاء على المدينة، فحدث أن اجتمعت جيوش القادة الصليبيين، بلدوين (Boudouin) (1100م- 1118م/494هـ - 512هـ) ملك بيت المقدس وتنكريد (Tancred) أمير أنطاكية وبلدوين دي بورج (Boudouin de Bourg) أمير الرها[3] ومعهم وليام جوردان (William Jordan) ابن أخت ريموند دي صنجيل (Raymond)،

---

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص161، ابن الأثير، الكامل، 120/9، ابن ميسر، أخبار مصر، ص78، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 42/3.

[2] ابن تغري بردي، 177/5-178.

[3] تولى بلدوين دي بورج (Boudouin de bourg) (بلدوين الثاني) حكم مملكة بيت المقدس بين سنتي (1118م-1131م/512هـ- 526هـ)، وهذا بعد وفاة ابن عمه بلدوين الأول (Boudouin)، ليكون ثالث ملوك المملكة المقدسة اللاتين، وقبل أن يصبح ملكًا تولَّى كونتية الرها مدَّة ثمانية عشر عامًا، أنظر، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 335/2-336.

وفي هذه المرة لم تستطع طرابلس الصمود أمام كل تلك الحشود، فما كان من أهلها إلاَّ أن انهزموا وأعلنوا الاستسلام وذلك يوم الاثنين 11 ذي الحجة سنة 502هـ/12جويلية 1109م[1].

لقد أعطت أحداث طرابلس صورة كاملة المعالم عن حالة التشرذم والانقسام بين المسلمين بسبب واقعهم المذهبي، فلا قادة السنة ببغداد كانوا على قدر مسؤولية حماية الإسلام وأهله في طرابلس ولا الفاطميين الشيعة بمصر دعاة الشرعية الدينية والسياسية على حكم المسلمين كانوا في مستوى تحديات المرحلة، لتكون طرابلس حينها رابع الكيانات الصليبية التي تؤسس في المنطقة وقد أعطيت اسم "قومسية طرابلس" Comté de Tripoli.

ثانيًا: أثر الصراع المذهبي عند المسلمين بالمشرق على جهود المقاومة قبيل العهد الزنكي

1- بوادر مبكرة للوحدة بين السنة والشيعة الإسماعيلية

كان لسقوط بيت المقدس بيد الصليبيين سنة 492هـ/1099م والتي كانت خاضعة للفاطميين وقتها، أثر بالغ في تَغيُّر مواقف الوزير الفاطمي الأفضل من الوجود الصليبي بالمنطقة، كما ودفعه ذلك الحدث لمراجعة علاقاته بالقوى السنية في بلاد الشام الجنوبية وخاصة حكام دمشق الذين يجمعهم معه حربُ عدوٍ واحد، فعن موقفه من تنكر الصليبيين للاتفاق المبرم معه زمن حصار أنطاكية وتقدمهم على حساب ممتلكات الفاطميين في الجنوب، فإنَّ الأفضل قد أدرك أخيرًا أهداف الحركة الصليبية الرامية إلى السيطرة على كامل المشرق الإسلامي، وبدأ يتخلى عن فكرة اعتبارهم حليفًا استراتيجيًا ضد خصومه السياسيين ومخالفيه السنيين، وعليه فقد عمل على تدارك خطأه بإرسال عديد الحملات العسكرية إلى فلسطين لمحاولة رد الصليبيين على ما تبقى له من ممتلكات في الساحل الجنوبي الشامي ومحاولة استعادة ما ضاع منه من مدن وأقاليم خرجت عن طوعه.

على أنَّ استفاقة الأفضل هذه كانت قبل سقوط بيت المقدس بقليل، حيث حاول استباق سقوط المدينة بخروجه على رأس قوات كبيرة بقصد منع الصليبيين من دخولها، غير أنَّ وصوله كان متأخرًا، أي بعد سقوط المدينة بعشرين يومًا، فعسكر في عسقلان بقواته ومنها أرسل إلى الصليبيين رسولاً يُوبخهم ويتهددهم

---

[1] فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص145، وليم الصوري، تاريخ، 2/279-280، ابن القلانسي، ذيل، ص161، ابن الأثير، الكامل، 136/9 (وابن الأثير يذكر سقوط طرابلس في حوادث 503هـ)، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 28/20، أبو الفدا، المختصر، 224/2، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 42/3-43.

ويُنكر عليهم ما فعلوه ببيت المقدس وأهله[1]، فكان جواب تهديده أن فاجأه الصليبيون بعسقلان وأنزلوا به هزيمة ساحقة كادت تسقط معها المدينة في أيديهم[2].

حيث يذكر عن هذا ابن الأثير[3] بقوله:" في هذه السنة (يقصد 492هـ/1092م) في رمضان كانت وقعة بين العساكر المصرية والفرنج، وسببها أنَّ المصريين لما بلغهم ما تمَّ على أهل القدس، جمع الأفضل أمير الجيوش العساكر، وحشد وسار إلى عسقلان، وأرسل إلى الفرنج يُنكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم، فأعادوا الرسول بالجواب ورحلوا على أثره وطلعوا على المصريين عُقيب وصول الرسول، ولم يكن عند المصريين خبر من وصولهم، ولا من حركتهم، ولم يكونوا على أهبة القتال، فنادوا إلى ركوب خيولهم ولبسوا أسلحتهم، وأعجلهم الفرنج فهزموهم، وقتلوا منهم من قتل، وغنموا ما في المعسكر من مال وسلاح وغير ذلك".

لم يدَّخر الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي بعد هذه الهزيمة جُهدًا في سبيل مقارعة الصليبيين وثنيهم عن محاولة تهديد عاصمة حكمه مصر، كما سعى لاستعادة ممتلكاته الضائعة في الجنوب الشامي، ولأجل ذلك عمل على إرسال عدَّة حملات عسكرية كبيرة بين سنتي 494هـ- 498هـ/1100م-1105م[4].

فأمَّا الأولى فكانت سنة 494هـ/1100م تحت قيادة المملوك سعد الدولة القواس أو القوامسي المعروف بالطواشي، حيث جمع قواته في عسقلان التي صارت وقتها قاعدة أمامية للحملات المصرية على صليبيي الشام، وسار بها صوب الرملة بقصد تهديد الصليبيين في كل من يافا وبيت المقدس، غير أنَّ بلدوين الأول (Boudouin) ملك بيت المقدس أدرك خطر القوات الفاطمية فاستعجل تنظيم صفوفها ووصول إمدادات جديدة إليها من مصر، وسعى لأخذها على حين غرّة، فالتقت القوتين الفاطمية والصليبية في السهل الواقع إلى الجنوب الغربي من مدينة الرملة، وهناك كسرت ميمنة وميسرة الجيش

---

[1] مجهول، أعمال الفرنجة، ص171، بطرس تيوديبود، تاريخ الرحلة، ص337، ابن الأثير، الكامل، 21/9، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، 24/3.

[2] مجهول، أعمال الفرنجة، ص175، الغامدي، المرجع السابق، ص122. حسن حبشي، الحرب الصليبية، ص192-193.

[3] الكامل، 21/9.

[4] عبد الفتاح عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص177، هيفاء عاصم محمد الطيار، **الفاطميون والغزو الصليبي**، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 14، جامعة بابل، جانفي 2013، ص140-142.

الفاطمي، وثبت سعد الدولة مقدِّم العسكر وقاتل حتَّى قتل، في حين فرَّ من تبقى من جنده إلى عسقلان مندحرين، ليكون النصر حليف الصليبيين في الموقعة[1].

واصل الأفضل جهوده في مقارعة الصليبيين ببلاد الشام رغم الهزيمة التي مني بها قائده سعد الدين وقواته التي أرسلها معه في سهل الرملة، حيث أسرع بعد سنتين أي سنة 496هـ/1102م، إلى تجهيز حملة عسكرية ثانية من العرب والسودان ناهز تعدادها العشرين ألفاً وجعل على قيادتها ابنه شرف المعالي سناء الملك، فسارت تلك القوات إلى عسقلان ووصلتها في أوائل الصيف من نفس السنة[2].

وما إن سمع بلدوين ملك بيت المقدس بقدوم تلك الحملة حتَّى خرج بتهور على رأس قوة صغيرة تقدر بمائتي فارس[3]، مُغترًا بما حققه من نصر في السابق، فالتقى بالجيش الفاطمي بيازور[4] قرب مدينة الرملة، وهناك دارت معركة بين الطرفين أسفرت عن هزيمة الصليبيين وقتل معظم فرسانهم، وكاد بلدوين نفسه أن يقع في الأسر لولا هروبه إلى يافا[5]، ليتمكَّن بعدها شرف المعالي من اقتحام الرملة بعد حصارٍ دام خمسة وعشرين يومًا، فدخلها بعد أن قتل من الصليبيين أربعمائة وأسر ثلاثمائة بعث بهم إلى مصر [6].

كانت فرصة الانقضاض على صليبيي الجنوب الشامي والإجهاز على المملكة الصليبية ببيت المقدس سانحة إلى حدٍّ كبير بعد هذه الهزيمة التي ألحقها بهم شرف المعالي بن الأفضل، غير أنَّ سوء تدبير قادة قواته وعدم اتفاقهم على رأي صائب يواصلون به دكَّ حصون الصليبيين فوّت عليهم هذه الفرصة وجعلت من النصر المؤزر هزيمة منكرة يقول عنها ابن الأثير[7]:" واختلف أصحابه في مقصدهم، فقال قوم:

---

(1) فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، 116-118، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 2/223-226، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 140، العظيمي، تاريخ حلب، ص 361-362، ابن الأثير، الكامل، 9/67-68، ابن ميسر، أخبار مصر، ص68، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، 3/26، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/152، رنسيمان، تاريخ، 2/122- 123.

(2) يزيد فوشي الشارتري عن المصادر الإسلامية في تعداد الجيش الذي بعث به الأفضل تحت قيادة ابنه شرف المعالي سناء الملك بقوله:" وقد اجتمع هناك حوالي عشرين ألف فارس وعشرة آلاف راجل"، تاريخ الحملة، ص122، وأنظر، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 2/229، ابن الأثير، الكامل، 9/68، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 19/524، رنسيمان، تاريخ، 2/125.

(3) فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص125، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 2/230.

(4) يازور، بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين بالشام، ياقوت، معجم البلدان، 5/425.

(5) فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، 125- 126، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 2/231، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص141، ابن الأثير، الكامل، 9/68، العظيمي، تاريخ، ص361، رنسيمان، تاريخ، 2/126.

(6) ابن الأثير، الكامل، 9/68، ابن ميسر، أخبار مصر، ص69، رنسيمان، تاريخ، 2/127-129.

(7) الكامل، 9/68.

نقصد البيت المقدس ونتملَّكه، وقال قوم: نقصد يافا ونملكها، فبينما هم في هذا الاختلاف، إذ وصل إلى الفرنج خلقٌ كثير في البحر، قاصدين زيارة البيت المقدَّس، فندبهم بغدوين (بلدوين) للغزو معه، فساروا إلى عسقلان، وبها شرف المعالي، فلم يكن يقوى بحربهم".

لم يتمكَّن شرف المعالي بن الوزير الأفضل من الثبات على انتصاره في الرملة، واضطر تحت ضغط بلدوين وقواته المدعومة عبر البحر إلى التراجع عن حصار يافا والعودة صوب عسقلان أين لاحقتهم القوات الصليبية، ولكنها فشلت في احتراق المدينة لشدة تحصينها فعادت إلى يافا وعاد شرف المعالي إلى مصر بسبب الاختلاف الذي كان بين القوات الفاطمية[1].

رغم عودة شرف المعالي إلى مصر منكسرًا إلاَّ أن الأفضل قرر الثبات على المقاومة ضد صليبيي بيت المقدس، آملاً في استعادة ما يمكن من أقاليم كانت خاضعةً لهُ قبلاً، فعمل على تجهيز حملة عسكرية جديدة بعث بقسم منها عبر البحر تحت قيادة القاضي بن قادوس، والقسم الآخر أرسله عن طريق البر تحت قيادة تاج العجم أحد مماليك والده بدر الجمالي الوزير الفاطمي القوي، فنزل أسطول ابن القادوس على يافا، ونزل تاج العجم بقواته على عسقلان، ولكن هذين القائدين في الحقيقة لم يجمعهما سوى مصدر إرسالهما فقد انعدم التعاون والتنسيق بينهما مما جعل القوات الفاطمية في موقف حرج أمام الصليبيين[2].

رأى القاضي ابن قادوس أن يستدعي تاج العجم لقتال الصليبيين من ناحية يافا والثغور البحرية، غير أنَّ دعوته لهذا الأخير للحضور والمساعدة قد قوبلت بالرفض، وحجته في ذلك أنَّه لم يتلق أوامر من الأفضل بالانضمام إليه، فما كان من ابن قادوس إلاَّ أن أرسل إلى قاضي عسقلان وأعيانها يشهدهم على حصاره ليافا عشرين يومًا كاملة، وبأنَّهُ استدعى تاج العجم لمؤازرته فلم يأته ولم يرسل إليه رجلاً واحدًا من قواته، فلمَّا وقف الأفضل على ما وقع من تاج العجم وتأخره عن الانضمام لقوات ابن قادوس أرسل من يقبض عليه وإرجاعه إلى مصر، ثمَّ عيَّن مكانه على القوات المرابطة بعسقلان قائدًا جديدًا هو جمال الملك رضوان وجعله متقدم العساكر الشامية[3].

---

(1) فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص128-130، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 141، العظيمي، تاريخ، ص361، ابن الأثير، الكامل، 68/9، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 32/3، رنسيمان، تاريخ، 129/2-130.

(2) ابن الأثير، الكامل، 68/9، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 33/3.

(3) ابن الأثير، الكامل، 68/9، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 33/3.

وعلى أية حال فإنَّ هذه الحملة العسكرية لم تحقق ما كان الأفضل يرجوه منها بسبب الاختلاف والاضطراب الذي اعترى قادتها، فلم تستطع الوقوف في وجه قوات بلدوين الأول الذي بعث برسالة عاجلة إلى كل من تنكرد (Tancred) أمير أنطاكية وبلدوين دي بورج (Boudouin de Bourg) أمير الرها يطلب منهما الإسراع في إنجاده بمدد عسكري يرد به القوات الفاطمية المرابطة بيافا، فلم تلبث هذه النجدات التي بلغت خمسمائة من الفرسان والمشاة أن وصلت إلى يافا وعلى رأسها الأميرين السابقين، حيث دارت معركة بين القوتين كانت الهزيمة فيها من نصيب القوات الفاطمية التي آثرت بعدها الانسحاب إلى عسقلان والصليبيون في أعقابهم[1].

على أن هذه الجهود العسكرية التي بذلها الأفضل في مواجهة المخططات الصليبية في بلاد الشام الجنوبية، لم تكن الخطوة الوحيدة التي برهن من خلالها على دخول السياسة الفاطمية مرحلة جديدة في العلاقات مع القوى الصليبية وخاصة مملكة بيت المقدس، بل أنَّ إيمانه بضرورة وقف الزحف الصليبي وإضعافه في المناطق التي استولى عليها لاستعادتها من جديد، دفعه لمحاولة التنسيق مع سلاجقة دمشق السنيين رغم الفرقة المذهبية بينهم وبين سلطة القاهرة الشيعية، والتي طالما كانت أكبر عقبات الوحدة السياسية فضلاً عن محاولات التقارب المذهبي.

وقد برزت أولى مؤشرات حسن النوايا في التقارب بين القوتين الإسلاميتين سنة 497هـ/1104م، وذلك حينما هاجم الصليبيون بقيادة بلدوين الأول ملك بيت المقدس مدينة عكا[2] التي كانت تحت النفوذ الفاطمي وكان الوالي بها اسمه "بنا" ويعرف بزهر الدولة الجيوشي[3]، حيث استمات هذا الوالي في قتالهم دفاعًا عن عكا، غير أنَّه عجز عن منعهم من دخولها وتملُّكها، فطلب الأمان له ولأهل المدينة، فلم يُجب إلى ذلك بعد أن علم الصليبيون بأنَّ حكام مصر الفاطميين لم يكن بمقدورهم إنجاده، ففرَّ واليها زهر الدولة والتجأ إلى حاكم دمشق طغتكين الذي أحسن استقباله وأكرم وفادته بما طيَّب نفسه وأقام بدمشق

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص140، ابن الأثير، الكامل، 68/9، ابن ميسر، أخبار مصر، ص74، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 33/3، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 242/1. Stevenson: Op, cit, I P46.

(2) فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص131، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 245/2-246.

(3) أحد أتباع الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، تولى ولاية مدينة عكا بأمر من الأفضل، وقد عرف باسم زهر الدولة الجيوشي، نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل، أنظر، ابن الأثير، الكامل، 85/9.

فترة من الزمن، ثمَّ جهَّزه طغتكين بالهدايا وأعاده إلى مصر، حيث اعتذر للأفضل فقبل عذره[1]، وبهذا الموقف الذي أبداه حاكم دمشق السني اتجاه والي الفاطميين الشيعي فقد وقع أثره على نفس الأفضل بن بدر، الذي راسل من جهته طغتكين يشكره على ما قدَّمه من رعاية لواليه[2].

وعلى أية حال فإنَّ وزير الفاطميين الأفضل لم ييأس من تحقيق مكاسب على الطرف الصليبي رغم الانتكاسات المتوالية للحملات العسكرية التي بعث بها في حربهم منذ سقوط بيت المقدس، وعليه فقد جهز حملة عسكرية جديدة سنة 498هـ/1105م قوامها خمسة آلاف جندي من المصريين والسودانيين فضلاً عن الفرسان العرب، ووضع ذلك الجيش تحت إمرة أحد أبنائه وهو سناء الملك حسين[3]، وفي نفس الوقت أخذ الأسطول الفاطمي كامل استعداداته لتقديم العون عن طريق البحر، كما واستنجد الأفضل بقوات طغتكين أمير دمشق السني[4]، لتكون هذه المبادرة أولى بوادر وحدة المواقف السياسية بين الفاطميين الشيعة والسلاجقة السنة رغم الاحتقان المذهبي المعروف[5].

استجاب الأمير السلجوقي لنداء الفاطميين ورأى فيه تحالفًا ضروريًا للطرفين خلال تلك المرحلة على الأقل، باعتبار أنَّ عدوهما واحدًا ومصيرهما في تلك الجهة من الشام متقاطع، وقد صوّر المؤرخ رنسيمان[6] رد فعل طغتكين على طلب النجدة الذي تقدَّم به الفاطميون بالفرح والسرور، ممَّا يؤكِّد رغبته في تجاوز الخلاف المذهبي بين الطرفين لصالح الوحدة السياسية والعسكرية في مواجهة الصليبيين، فكان أن أرسل إليهم أحد رجاله وهو "أصبهبد صباوه" ومعه ألف وثلاثمائة فارس، فاجتمعت كل تلك القوات في عسقلان[7].

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، 143-144، ابن أثير، الكامل، 72/9، ابن ميسر، أخبار مصر، ص75، أبو الفدا، المختصر، 217/2، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 34/3، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 185/5.

(2) سليمان عبد العبد الله الخرابشة، **الصراع الفاطمي السلجوقي في بلاد الشام (447هـ-567هـ/1055م- 1170م)**، رسالة مقدمة للحصول على درجة دكتوراه في التاريخ الإسلامي (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1990، ص388.

(3) ابن الأثير، الكامل، 85/9، العظيمي، تاريخ، 363، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 35/3، رنسيمان، تاريخ، 144/2.

(4) فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص135، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص148-149، ابن الأثير، الكامل، 85/9، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 35/3، رنسيمان، تاريخ، 144/2.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 265/1، الغامدي، المرجع السابق، 126.

(6) تاريخ الحروب الصليبية، 145/2.

(7) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص148-149، ابن الأثير، الكامل، 85/9، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 35/3، رنسيمان، تاريخ، 145/2.

وأماَّ بلدوين فما إنْ بلغه خبر اجتماع المسلمين وجدِّهم في قتاله حتَّى خرج من يافا على رأس قواته وسار بهم إلى الرملة، حيث يستطيع منها حماية يافا من جهة وبيت المقدس من جهة أخرى[1]، فالتقى بالقوات الإسلامية بين يافا وعسقلان لتدور معركة بين الطرفين كان فيها تعداد الجيوش الإسلامية المتحالفة ستة آلاف وثلاثمائة فارس، وأمَّا الجيش الصليبي فكان يناهز الألف وثلاثمائة من الفرسان وثمانية آلاف راجل[2]، فوقع المصاف بينهم دون أن تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى " فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم، وقتل جمال الملك أمير عسقلان، فلمَّا رأى المسلمون أنَّهم قد تكافئوا في النهاية قطعوا الحرب وعادوا إلى عسقلان وعاد صباو إلى دمشق"[3]، ويشير ابن القلانسي في هذه المعركة إلى انتصار الصليبيين[4].

وعن نتائجها عند المؤرخين الصليبيين فوشي الشارتري ووليم الصوري[5] فيذكران بأنَّ النصر كان حليف الصليبيين، حيث قتل من الجيوش الإسلامية أربعة آلاف من الفرسان والمشاة في مقابل مقتل ستين من الصليبيين، فضلاً على من فرَّ جيوش التحالف الفاطمي – السلجوقي إلى عسقلان، كما وأشار فوشي إلى مقتل سناء الملك حسين قائد القوات الإسلامية في المعركة، وهو ما سبب الكثير من التعاسة لأولئك النّاس –حسب تعبيره-.

ومهما يكن من أمر نتائج هذه الحملة، فإنَّ وجود قوات سنية إلى جانب أخرى شيعية هذه المرة في حرب الصليبيين يعد خطوة إيجابية على مسار نشاط المقاومة الإسلامية، ذلك لأنَّ أكثر ما كان يخشاه هؤلاء الغزاة منذ مجيئهم إلى بلاد الشام هو اتحاد المسلمين وتكتلهم ونبذهم لكل أسباب الفرقة والانقسام،

---

[1] أنظر الخريطة رقم: (02) لمعرفة سير المعركة عبر هذه المدن، ص298.

[2] وفق ما جاء عند ابن الأثير فإنَّ تعداد القوى الإسلامية المتحالفة ستة ألاف وثلاثمائة فارس، خمسة آلاف من المصريين وألف وثلاثمائة من قوات دمشق التي بعث بها طغتكين، وأمَّا الجيش الصليبي فكان تعداده الألف وثلاثمائة من الفرسان وثمانية آلاف راجل، غير أنَّ ما ذكره وليم الصوري يخالف بكثير هذه الأعداد، فيذكر عن تعداد الجيش الإسلامي بأنَّهُ يقارب الخمسة عشر ألفًا من المقاتلين إلى جانب المحاربين الذين بالسفن، وأمَّا تعداد الجيش الصليبي فذكر بأنَّهُ بلغ خمسمائة ألف من الفرسان وألفا جندي من المشاة، أنظر، الكامل، 85/9، الحروب الصليبية، 263/2.

[3] فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص138-139، ابن الأثير، الكامل، 85/9، العظيمي، تاريخ، ص362-363.

[4] ذيل تاريخ دمشق، ص149.

[5] تاريخ الحملة، ص138، الحروب الصليبية، 263/2-264.

فجاءت تلك الخطوة من الأفضل لتعطي أملاً للوحدة السياسية بين القوى الإسلامية تواجه به الإمارات الصليبية الجاثمة على أرضهم والساعية للتمدد أكثر وأكثر.

واصل الأفضل سياسة التقارب مع سلاجقة دمشق السنة دون اعتبار للخلافات المذهبية، وذلك رغبةً منه في جعلهم عاملاً مساعدًا له في حربه ضد الصليبيين، فتراه يغض النظر ولا يتحرَّج في السكوت حينما بلغه خبر تسليم صور من قبل واليها عز الملك أنوشتكين الأفضلي إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق سنة 506هـ/1112م، نظرًا لما كانت تمر به مصر وقتها من شدة اقتصادية بسبب الوباء الذي اجتاحها تلك السنة والسنة التي قبلها، مما عرقل الأفضل على إرسال المؤن والذخائر لأهالي صور[1].

فقد رأى الأفضل أن بقاء المدينة تحت سلطة إسلامية سواء كانت سنية أم شيعية هو أفضل من استيلاء الصليبيين عليها، وبهذا قطع الأفضل الطريق على الصليبيين لتملُّك صور[2]، كما وأنَّ طغتكين بادل الفاطميين حسن الثقة التي وضعوها فيه، فكتب بمجرد تسلمه المدينة إلى الأفضل الفاطمي يعلمه بما حدث في صور ويتعهد له بتسليم المدينة لأحد نوابه متى تحسنت الظروف بمصر[3].

وزيادةً على ذلك فقد أمر طغتكين بإبقاء الخطبة في صور للخلفاء الفاطميين وصك العملة باسمهم أيضًا[4]، وقد أبدى الأفضل إزاء هذا الموقف من طغتكين ارتياحًا شديدًا وأثنى عليه كثيرًا، فأكرم رسول طغتكين وأعاده إلى دمشق بجواب جاء فيه" هذا أمرٌ وقع منَّا أجمل موقع وأحسن موضع"[5].

ومن المواقف الدالة كذلك على التقارب السياسي بين الفاطميين الشيعة وسلاجقة دمشق السنيين، استجابة الأفضل لطلب طغتكين بتجهيز أسطول عام 507هـ/1113م نجدةً لأهل صور من الوضع الاقتصادي الخانق الذي يمرون به، حيث وصل الأسطول بقيادة شرف الدولة بدر بن أبي الطيب – الوالي الذي كان بطرابلس زمن تملُّكها من قبل الصليبيين- مُحملاً بالمؤن والعدة والعتاد ومال النفقة على الأجناد والعسكر وما يباع على الرعية من الغلاة والأرزاق، كما حمل معه الخلع الفاخرة إلى طغتكين وولده بوري

---

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص182، العظيمي، تاريخ، ص365، ابن الأثير، الكامل،9/144-145، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 51/3.

[2] سليمان عبد العبد الله الخرابشة، المرجع السابق، ص392.

[3] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 182.

[4] نفسه، ص182.

[5] سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 64/20.

وخواصه، وللأمير مسعود والي صور السلجوقي، وقد كان لهذا المدد من الفاطميين لأهالي صور وقعه الإيجابي فتحسنت أحوالهم ورخصت الأسعار، وتوفرت لديهم الغلاَّة وتقووا بها، فزال طمع الصليبيين عنها[1].

استمر التعاضد السني الشيعي الاسماعيلي في مقارعة الصليبيين من قبل الوزير الأفضل الفاطمي والأمير طغتكين الدمشقي، وهذه المرة كان التنسيق أكثر تأكيدًا على تجاوز الطرفين مرحلة الاحتقان المذهبي[2]، حتَّى أنَّ المؤرخ سعيد عبد الفتاح عاشور[3] يصف هذا الحدث "بالمعجزة"، فيقول:" وهكذا تمت المعجزة، فتحالف الدماشقة السنيون مع الفاطميين الشيعة ضد الصليبيين، مما أنذر بتهديد مملكة بيت المقدس تهديدً خطيرًا"، فالتحمت بعسقلان لأجل ذلك سنة 512هـ/1118م القوات الدمشقية السنية مع القوات الفاطمية الشيعية تحت سلطة طغتكين وبأوامر من الأفضل، وهو الأمر الذي لم يكن مطروحًا خلال تلك الفترة إلى حدٍّ كبير.

وسبب ذلك التنسيق أن بلدوين ملك بيت المقدس قد تجرأ على تهديد سلطة الفاطميين في عقر عاصمة حكمهم بمصر، فخرج على رأس قوة من رجاله سنة 511هـ/1118م عبر بها الصحراء من غزة إلى العريش حتَّى وصل إلى الفرما[4] الواقعة على ساحل البحر المتوسط فاستولى عليها وأحرق مساجدها وكثيرًا من بيوتها[5]، وقد قصد بلدوين من هذه الخطوة إرهاب الفاطميين وإشعارهم بقوته وحتَّى لا يفكروا مستقبلاً في مهاجمته، ولكنَّ أَجَلْ الملك الصليبي لم يمهله لمواصلة مسيره داخل الأراضي المصرية حيث توفي في أواخر سنة 511هـ/1118م[6].

---

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص188، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 64/20، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 52/3،

(2) Setton, op, cit, p411-412.

(3) الحركة الصليبية، 403/1.

(4) الفرما (فاراميا عند فوشي الشارتري)، هي مدينة قديمة على ساحل البحر، ولا تبعد كثيرًا عن أحد فرعي النيل المسمى بفرع دمياط، الذي تقع على مصبه مدينة أخرى أقدم منها تسمى تنيس، وليم الصوري، فوشي، تاريخ، ص162، الحروب الصليبية، 239/2.

(5) فوشي الشارتري، تاريخ، ص162، وليام الصوري، الحروب الصليبية، 328/2-329، ابن القلانسي، ذيل، ص199، العظيمي، تاريخ، ص368، الذهبي، تاريخ الإسلام، 315/35، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 56/3، ابن تغري بري، النجوم الزاهرة، 171/5، رنسيمان، تاريخ، 161/2، وقد جاء ذكر هذه المحاولة من طرف بلدوين عند ابن مأمون البطائحي ابن الوزير الفاطمي ولكن في حوادث سنة 509هـ، أنظر، نصوص من أخبار مصر، ص13.

(6) وتتضارب حول وفاة بلدوين ملك بيت المقدس الروايات التاريخية بين المؤرخون المسلمين ونظراءهم من الإفرنج، فهذا فوشي الشارتري ووليام الصوري يذكران بأنَّ وفاته كانت بسبب تناوله وجبة من السمك كان قد اصطاداه رجاله من نهر النيل بعد سيطرتهم على قرية الفرما،

أبرقت تلك الخطوة الجريئة من الملك الصليبي للفاطميين بمدى الخطر الذي صار يهدد ملكهم، ودفعت الأفضل للإسراع في اتخاذ خطوات عملية يرد بها على الصليبيين، فشرع سنة 512هـ/1118م في تجهيز حملة عسكرية جديدة قوامها سبعة آلاف فارس سارت إلى عسقلان بهدف تعقب قوات بلدوين، ولكنَّ هذه الحملة لم تستطع اللحاق بالصليبيين فعسكرت بعسقلان في انتظار تعليمات الأفضل، وبالتزامن مع ذلك فإنَّه قد وقع اتصال بين الأفضل الفاطمي وطغتكين أمير دمشق السني، اتفقا فيه على الوقوف سويًا في وجه العدو المشترك، كما وافق الأفضل على وضع مسؤولية قيادة القوات المشتركة على عاتق طغتكين[1].

توجه أمير دمشق السني بجيوشه إلى عسقلان حيث ترابط القوات الفاطمية، وعندئذ أخبره قائد الجيش الفاطمي بأنَّ لديه تعليمات من الأفضل بالوقوف عند رأي طغتكين والتصرف على ما يحكم به، غير أنَّ تلك القوات لم تستطع لقاء الصليبيين، ولم تقم بأي عمل عسكري، إذ رابط كل من المسلمين والصليبيين مُدَّة شهرين أو ثلاثة، ثمَّ انصرف كل فريق من حيث أتى[2].

منحت السياسة الفاطمية الجديدة من قبل الوزير الأفضل والقائمة على اعتبار القوى السنية في جنوب الشام حلفاء وليسوا أعداء، دفعًا عمليًا ومعنويًا للجبهة الإسلامية في مقاومة الوجود الصليبي، وأبانت على إمكانية اتحاد القوى الإسلامية سياسيًا دون اعتبار للانتماء المذهبي، ولكن واقع الأمر وسير الأحداث بعد ذلك أبانت على أن تلك السياسة لم تكن سوى مواقف اتخذها الأفضل بن بدر الجمالي الوزير القوي، ولم تعكس التوجه الحقيقي للدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية القائمة أساسًا على معاداة القوى السنية والساعية للإطاحة بهم والتوسع على حسابهم منذ تأسيسها.

فقد برز داخل البيت الفاطمي تيارٌ مُعادٍ لسياسة الأفضل المتساهلة مع جيرانه من السنة، وعُدَّت سياسته هذه انحرافًا مذهبيًا على الدعوة الفاطمية، ورأى ذلك التيار في مهادنة الصليبيين وتركهم في

فساءت حالته ورجع به رجاله إلى القدس فتوفي في الطريق بالعريش وأمَّا ابن الأثير فيذكر عن سبب وفاته أنَّه لما بلغ تنيس سبح في النيل فانتفض جرح كان به، فلمَّا أحس بالموت عاد إلى القدس فمات بها، أنظر، تاريخ الحملة، ص163، الحروب الصليبية، 2/239-330، الكامل، 9/178.

[1] ابن الأثير، الكامل، 9/179.

[2] فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص185، ابن الأثير، الكامل، 9/178، العظيمي، تاريخ، ص369، ابن الوردي، تتمة المختصر، 2/34، ابن العماد الحنبلي، الأنس الجليل، 1/309، رنسيمان، تاريخ، 2/232-233.

مواقعهم بالجنوب الشامي ضمانًا لحماية ممتلكات الفاطميين من أطماع السلاجقة[1]، وقد ظهر هذا الاتجاه بقوة بين المتطرفين من الشيعة الإسماعيلية وبدعمٍ من الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله (495هـ-524هـ/1101م- 1130م)[2] الساعي للإطاحة بوزيره، فخلصوا في النهاية إلى تدبير قتله فكان ذلك سنة 515هـ/1121م على يد جماعة من الباطنية[3].

وقد أرجع سعيد عبد الفتاح عاشور[4] هذا الاغتيال لسياسة الأفضل السابقة في التقارب مع طغتكين أتابك دمشق السني والسماح له بالمشاركة في الدفاع عن صور، أمَّا ابن الأثير[5] فيذكر عن أسباب اغتياله مايلي:" وكان الإسماعيلية يكرهونه لأسبابٍ منها تضييعه (تضييقه) على إمامهم (الخليفة الفاطمي)، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم، ومنها معارضة أهل السنة في اعتقادهم والنهي عن معارضتهم وإذنه للنَّاس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها"، وذهب ابن القلانسي[6] إلى القول بأنَّ الأفضل كان حسن الاعتقاد في مذهب السنة، وهو الأمر الذي خلق له الأعداء من الإسماعيلية المتشددين.

وهكذا تغلب التيار المتطرف في الدولة الفاطمية على التيار المعتدل، وعادت العلاقات الفاطمية مع الدماشقة السنيين إلى مراحلها الأولى من عهد الغزو الإفرنجي، ليضيع معها أمل الوحدة السياسية بين القوى السنية والشيعية الذي بادر الأفضل في بلورته، حيث استهل الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله

---

[1] المقريزي، المواعظ، 310/2، أنظر سعيد عبد الفتاح عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص190.

[2] هو الخليفة الفاطمي أبو علي منصور، ولقبه الآمر بأحكام الله بن المستعلي بالله، ولد في أول سنة تسعين وأربعمائة، واستخلف وله خمس سنين، وبقي في الملك تسعًا وعشرين سنة وتسعة أشهر، يقول عنه الحافظ الذهبي أنَّهُ كان رافضيًا كآبائه فاسقًا ظالمًا جبارًا متظاهرًا بالمنكر واللهو، ذا كبر وجبروت، وكان مدبِّر سلطانه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش، ولي الآمر وهو صبي فلمَّا كبر قتل الأفضل وأقام في الوزارة المأمون أبا عبد الله محمد بن مختار بن فاتك البطائحي، وفي أيامه أخذ الفرنج عدَّة مدن وحصون كعكا وطرابلس وعرقة وبانياس وتبنين وغيرها، الذهبي، تاريخ الإسلام، 123/36، ولمزيد عن ترجمته، راجع، ابن خلكان، وفيات، 299/5-301، ابن ميسر، أخبار مصر، ص 70-71، 110، النويري، نهاية الإرب، 176/28، الداواداري، الدرة المضية، 504-505، ابن تغري، النجوم الزاهرة، 168/5-172.

[3] ابن مأمون البطائحي، نصوص، ص15-16، ابن الأثير، الكامل، 207/9-208، أبو الفدا، المختصر، 235/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 216/5-217، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 60/3، ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص59.

[4] شخصية الدولة الفاطمية، ص191.

[5] الكامل، 208/9.

[6] ذيل تاريخ دمشق، ص204.

ووزيره الذي خلف الأفضل – أبو محمد عبد الله البطائحي[1]- سياستهما المتطرفة مع أتابكة دمشق بالعمل على التخلص من القوات الدمشقية التي كانت تشترك معهم في الدفاع عن صور، كما أمر الخليفة الآمر بالقبض على سيف الدولة مسعود مندوب طغتكين في تلك المدينة وإحضاره إلى القاهرة[2].

كان لهذا العمل من قبل الخليفة الفاطمي أثرٌ سيئ على أهالي صور، حتَّى أنَّ المؤرخ ابن تغري بردي[3] قد انتقده على ذلك التصرف لأنَّه حرم صور من الرجل القوي الذي "فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة"، وابن تغري هنا يتحدث عن سيف الدولة مسعود الذي امتدحه ابن الأثير[4] كذلك بقوله:" كان شهمًا شجاعًا عارفًا بالحرب ومكايدها".

فسرعان ما اضطربت الأحوال بصور لعدم اهتمام الفاطميين لأحوالها، مما أطمع الصليبيين فيها مستغلين الشقاق الواقع بين دمشق والقاهرة، فيقول عن ذلك ابن الأثير[5]:"ولما سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها، وحدثوا نفوسهم بملكها، وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها وحصرها".

لما أحسَّ أهالي صور بشدة وطأة الصليبيين عليهم، بعثوا إلى الخليفة الآمر بأحكام الله يشكون إليه حالهم، ويستنجدون به لحمايتهم، ونتيجة ضعف الفاطميين وقتها وعدم مقدرتهم على تقديم العون لصور وغيرها من المدن فقد أشار الخليفة بأن يُردَّ أمرها إلى طغتكين فأرسل إليهم يقول:" قد رددنا أمرها إلى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها، والذب عنها"[6].

---

(1) المأمون البطائحي، أبو عبد الله محمد بن الأجل بن نور الدولة أبي شجاع الآمدي، تولَّى الوزارة سنة 515هـ/1121م، وقتل سنة 522هـ/1128م، أنظر، ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص63، النويري، نهاية الإرب، 176/28.

(2) ابن ميسر، أخبار مصر، ص93.

(3) النجوم الزاهرة، 180/5.

(4) الكامل، 228/9.

(5) نفسه، 228/9.

(6) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص211، ابن الأثير، الكامل، 228/9، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 86/3، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 181/5، الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، قسم الفاطميين، ص87.

ورغم ذلك فإنَّ مصير صور كان السقوط بأيدي الصليبيين، بعد أن وقف طغتكين على عدم مقدرته على رد الصليبيين دون عون الفاطميين المنشغلين بأمورهم الداخلية[1]، فقرر مراسلة الصليبيين وعرض عليهم تسليم المدينة مقابل السماح لمن بها من الجند والرعية بالخروج بأمان مع أموالهم وممتلكاتهم، فاستقر الرأي على ذلك وفتحت صور أبوابها للصليبيين في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة 518هـ/1124م [2].

وعلى أية حال فإنَّ السياسة المضطربة التي انتهجها الآمر مع جيرانه الدماشقة؛ والمدفوعة بالعصبية المذهبية أحيانًا والمصالح الإستراتيجية أحيانًا أخرى قد كان لها بالغ الأثر على سير الأحداث بمدينة صور وبما تلا من مراحل الصراع الإسلامي – الصليبي، فكان أن دخلت السياسة الفاطمية اتجاه العدوان الصليبي مرحلةً من الانكفاء انتفت خلالها مبادرات المقاومة الجدية في سبيل طردهم عن الأراضي التي استولوا عليها؛ واكتفت جهود الفاطميين في دفع خطر الصليبيين عن إقليم مصر إلى غاية سقوطها واعتلاء بنو أيوب حكمها.

2- الإسماعيلية النزارية واستهداف قادة المقاومة الإسلامية الأوائل:

منذ أن صار الغزو الصليبي لأقاليم المشرق الإسلامي أمرًا واقعًا وماثلاً، لم يَعُد أمام المسلمين سوى مواجهته والسعي لطرده قبل استفحال وطأته واقتطاع أقاليم جديدة على حسابهم، خاصةً بعد أن تمكن لغاية سنة 492هـ/1102م من الاستيلاء على عديد المدن ثم تأسيس ثلاث كيانات صليبية على ممتلكاتهم هي الرها وأنطاكية وبيت المقدس.

وعلى الرغم من تشتت القوى الإسلامية خلال تلك الفترة وعدم وجود جبهة موحَّدة ومنظمة لرد هؤلاء الغزاة بالقوة اللازمة لإنهاء وجودهم، إلاَّ أنَّ بوادر تشكل تلك الجبهة لاحت إلى الأفق بوجود قادة مسلمين حملوا على عاتقهم مسؤولية مجابهة ذلك الغزو بصدق وتوحيد ديار الإسلام وطرد المحتل من

---

[1] ويذكر العظيمي أنَّ سبب عدم استجابة الفاطميين لطلب طغتكين بغية الوقوف في وجه الصليبيين، هو انشغالهم بإخماد الفتنة التي قام بها بعض المناوئين في صعيد مصر خلال تلك الفترة، إضافةً إلى اشتغال الأسطول الفاطمي بالدفاع عن ثغر الإسكندرية من حملة عسكرية بحرية قام بها البنادقة في تلك السنة، تاريخ، ص374.

[2] فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص215، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 3/41-43، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص211، العظيمي، تاريخ، 374، ابن الأثير، الكامل، 9/228، ابن ميسر، أخبار مصر، ص96-97، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 3/107، أبو الفدا، المختصر، 2/237، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/228.

أراضيهم، وقد كان صاحب حمص جناح الدولة حسين ومودود بن التونتكين وآق سنقر البرسقي من بين الشخصيات البارزة في هذا الشأن .

غير أنَّ أكبر عقبة واجهت جهود هؤلاء القادة في ذلك المسعى، ما كانت تعانيه الجبهة الإسلامية الداخلية من اضطراب وتشتت سياسي، زادته الفُرقة المذهبية والغلو في تبني العقيدة، وهو الأمر الذي ميّز القوى الإسلامية الحاكمة في بلاد الشام والجزيرة ومصر، وكان متحكّمًا في مواقفها وعلاقاتها اتجاه بعضها البعض وكذا في تقديرها لحقيقة الخطر الصليبي وردود فعلها اتجاهه، فكان أن راح ضحية التطرف المذهبي لدى المسلمين خلال تلك الفترة العديد من قادة المقاومة الإسلامية الذين قرروا رفع لواء المقاومة ضد العدو الصليبي وردِّه عن مخططاته.

ولعلَّ طائفة الإسماعيلية النزارية أو الحشاشون قد كانت أبرز الفرق المذهبية التي أربكت الجهود الإسلامية المواجهة للعدوان الصليبي، بتصيُّدها لقادة المقاومة الإسلامية السنيين – في غالبهم- ضد الوجود الصليبي فضلاً عن الخلفاء والوزراء والعلماء والقضاة والوعاظ، فكان مصير كل قائد مسلم ينادي بتوحيد الجبهة الداخلية والوقوف في وجه الخطر الصليبي مصيره القتل على أيدي هؤلاء[1]، فلم يكن للتواجد الصليبي على الأرض الإسلامية ولا المذابح المرتكبة في حق الأهالي المسلمين ببيت المقدس ومعرَّة النعمان وغيرهما لتثني هؤلاء المتطرفين عن تنفيذ مخططاتهم أو توقف مجازرهم التي أضعفت قوى الإسلام في مواجهة الخطر المحدق بهم.

تنتسب هذه الفرقة من فرق الشيعة إلى نزار بن المستنصر بالله الخليفة الفاطمي، الذي كانت وفاته سنة 487هـ/1094م مقدمةً لظهور الفرع النزاري من الدعوة الإسماعيلية بزعامة الحسن بن الصباح[2]، حيث زار هذا الأخير مصر سنة 479هـ/1086م لإكمال دراسته المذهبية في دار الحكمة والجامع الأزهر

---

[1] برنارد لويس، الحشاشون، ص196، يوسف إبراهيم الشيخ عيد، **أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين**، دار المعالي، ط1، عمان، الأردن، 1998. ص197، كمال بن مارس، العلاقات الإقليمية، ص165-168.

[2] هو الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن صباح الحميري، ولد في بلدة معصوم من مقاطعة الري، وهو من أصلٍ عربي، تلقى علومه على يد علي الموفق لدين الله النيسابوري في مدينة نيسابور مع الوزير نظام الملك والشاعر عمر الخيام، وبعد انتهاء مدة دراستهم ذهب كلا على حدة، أمَّا الحسن بن الصباح فقد عكف على دراسة العلوم الفلسفية والرياضيات واتجه إلى أصفهان سنة 469هـ/1076م، تعلَّم المذهب الإسماعيلي على يد أحد الدعاة الفاطميين في بلاده وهو الداعي الأكبر عبد الملك بن عطاش، فاظهر تفوقًا كبيرًا، ثم وفد على القاهرة لإنهاء دراسته المذهبية في دار الحكمة والجامع الأزهر، أنظر، غنية ياسر كبابشي، **المكونات الثقافية في الدولة الفاطمية (297هـ-567هـ/909م- 1171م)**، رسالة دكتوراه في فلسفة التاريخ الإسلامي، كلية التربية جامعة بغداد، 1428هـ/2007م، 425-426.

وتمكَّن من مقابلة الخليفة المستنصر بالله الذي منحه رتبة "داعي"، فأصبح من وقتها دعيًا للفاطميين في بلاد الشام والجزيرة وبلاد الروم[1]، كما وسأل الخليفة الفاطمي عند لقاءه عن الإمام من بعده فقال له: ولدي الأكبر نزار، غير أنَّ الوزير الأفضل بن بدر الجمالي سارع بعد وفاة المستنصر إلى عزل نزار وخلعه ومبايعة أخيه أبي القاسم أحمد - أخو نزار الأصغر وابن أخت الأفضل- ولقَّبهُ بالمستعلي بالله[2]

أدَّى هذا الفعل الذي قام به الأفضل إلى انقسام الدعوة الإسماعيلية وحدوث اقتتال وخصومات بين المناصرين لنزار وإمامته والذين سموا بالنزارية مع المؤيدين لإمامة المستعلي والذين أطلق عليهم اسم المستعلية، واستمر في نسله حكم الدولة الفاطمية في مصر وبلاد الشام، وأمَّا النزارية فقد تزعَّم أنصارها — كما أشرنا سابقًا- الحسن بن الصباح الذي اتخذ بلاد فارس منطلقاً لنشر الفكر النزاري فاستطاع إقامة دولة إسماعيلية في الشرق مكونة من عدَّة قلاع وحصون، عرفت في التاريخ بأسماء متعددة مثل: الإسماعيلية الشرقية والدولة الإسماعيلية النزارية والحشاشون وغيرها[3].

وفي خضم صراع الشرعية على حكم المسلمين بين الطوائف والفرق الإسلامية، فقد سعت النزارية للتوسع على بلاد الشام وبلاد الجزيرة والعراق لنشر عقائدها وأفكارها، مستغلَّةً في ذلك الوضع المضطرب في المنطقة بسبب ضعف حكام السلاجقة وتشتت كلمتهم، وكذا ظهور الحركة الصليبية التي أحدثت نوعًا من الفوضى؛ فازداد على ذلك نفوذ هذه الطائفة خصوصًا بعد أن وجدوا الدعم من قبل بعض القادة في بلاد الشام[4].

وإن كان لكل فرقة أسلوبًا معينًا في نشر فكرها وتحقيق مخططاتها وأهدافها فإنَّ النزارية بزعامة الصباح قد اختارت أسلوب الاغتيالات كخيار استراتيجي لتحقيق الأهداف السياسية والعسكرية والدينية للطائفة[5]، ولأنَّ نجاح قادة المقاومة — السنيين في غالبهم- في مواجهة الصليبيين وطردهم سيمنح لهم زخمًا سياسيًا فضلاً على الحضور الروحي للاتجاه السني لدى المسلمين مشرقًا ومغربًا؛ فقد كان استهدافهم بالاغتيال من قبل هذه الطائفة أبرز اهتماماتهم.

---

[1] نفسه، ص426.

[2] ابن الأثير، الكامل، 497/8-498، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 14/3.

[3] يوسف إبراهيم الشيخ عيد، أثر الحركات الباطنية، ص47-48،

[4] محمد كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، ص91-92، كمال بن مارس، العلاقات الإقليمية، ص164.

[5] محمد عبد الله مقدم، الاغتيالات، ص67.

كان جناح الدولة حسين بن ملاعب صاحب حمص أول القادة الذي ذهبوا ضحيةً لمؤامرات هذه الفرقة الباطنية المتطرفة بالتحالف مع بعض القوى الشامية، فكان لمقتله أثر بالغ على سير حركة المقاومة الإسلامية وعلى تماسك وحدة الجبهة الداخلية، فكانت هذه الطائفة بمثابة الخنجر المسموم الذي غرس في جسد الأمة الإسلامية لإضعافها وتكبيل جهود المخلصين من أبنائها[1].

وعلى أية حال فإن تاج الدولة تتش قبل مصرعه سنة 488هـ/1093م قام بتنصيب جناح الدولة حسين بن ملاعب أتابكًا لابنه الأكبر رضوان – صاحب حلب-ومنحه حكم حمص، كمَّا زوجه من أم رضوان، فعمل جناح الدولة على تدبير أمره والحفاظ على أملاك أبيه، غير أنَّ العلاقة بين الأمير وأتابكه قد أخذت تسوء مع مرور الوقت، حين أحسَّ رضوان بمدى تكالب القادة من حوله على الوصاية عليه وخاصة ياغي سيان حاكم أنطاكية وجناح الدولة صاحب حمص، وشعر بقدرته على تدبر ملكه لوحده دون وصاية من أي جهة[2]، إضافةً إلى جهود الطائفة النزارية الحشيشية في استمالة رضوان إلى دعوتهم ووعدهم له بدعمه في مواجهة خصومه ممن يسعون للاستيلاء على سلطته.

ففي غمرة ذلك الاضطراب والفوضى بسبب النزاع بين رضوان صاحب حلب وأخيه دقاق أمير دمشق وازدياد مطامع القادة الأتراك في بلاد الشام[3]، وفد على حلب سنة 490هـ/1097م شخص يدعى بالحكيم المنجم أسعد أو كما أسماه ابن القلانسي الحكيم المنجم الباطني، وهو أحد رجال الدعوة الإسماعيلية النزارية وأول من أظهر مذهبهم في حلب والشام[4]، فاستطاع في شيء من الدهاء والحيلة أن يتصل بالأمير رضوان وأن يستميله إليه حتَّى صار ألعوبة في يديه، كما وأخذ يوسوس له تآمر زوج والدته جناح الدولة وأخيه دقاق أمير دمشق عليه وأنَّهما يكيدان له لأخذ ملكه، وراح يحرضه على تجيش الجموع لمواجهتهما واعدًا إياه بمساعدة الإسماعيلية، فغرَّه ذلك منهم، وظنَّ أنَّهم سيولونه الإمارة عليهم[5].

---

[1] نفسه، ص 92.

[2] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص133، العظيمي، تاريخ، ص359، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 479/19، ابن العديم ، زبدة الحلب، 120/2، 123.

[3] حول النزاع بين الأخوين رضوان ودقاق ابنا تاج الدولة تتش راجع، مسفر سالم عريج الغامدي، **الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية بمصر 491هـ- 569هـ/ 1097م- 1173م**، دار المطبوعات الحديث، جدة، ط1، 1986م، ص 42 وما بعدها.

[4] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 142، ابن سبط الجوزي، مرآة الزمان، 523/19، ابن العديم، زبدة الحلب، 145/2.

[5] محمد كامل حسين، الطائفة الإسماعيلية، ص 92-93،

تمكَّن الدعاة الإسماعيلية من تحقيق مرامهم باستمالة الأمير رضوان لدعوتهم، حيث بنا لهم مركزًا للدعاية لمذهبهم بحلب سماه "دار الدعوة"، كما أحاط أصحابها بالعطف والرعاية والدعم[1]، فيقول عن ذلك ابن العديم[2] "واستمال –الحكيم- رضوان إلى الباطنية جدًّا وظهر مذهبهم في حلب وشايعهم رضوان وحفظ جانبهم وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة، وصارت لهم دار دعوة بحلب في أيامه، وكاتبه الملوك في أمرهم فلم يلتفت ولم يرجع عنهم".

وأقام رضوان سنة 490هـ/1096م الخطبة للخليفة الفاطمي المستعلي بالله في حلب وأسقطها على خليفة بغداد لأربع أشهر وفق قول المقريزي أو أربع جُمع على ما ذكره ابن الأثير وأبو الفدا وابن كثير والذهبي وابن القلانسي[3]، وقد أراد رضوان بهذا الفعل أن يستعين بعساكر مصر لأخذ دمشق من أخيه دقاق، بعد أن أغري من طرف الرسل المصريين الذين قدموا إلى حلب ببذل المال وإنفاذ العساكر له في نزاعه مع أخيه دقاق وصهره جناح الدولة[4].

غير أن عدم التزام الفاطميين بما تمَّ الاتفاق عليه وتحت ضغطٍ وإنكار من طرف القادة الأتراك الشاميين كياغي سيان صاحب أنطاكية والأمير سقمان بن أرتق اضطر رضوان للعدول وإعادة الخطبة للخليفة العباسي المستظهر بالله ثم إلى السلطان بركياروق[5].

وبالعودة إلى دور الطائفة الإسماعيلية النزارية ببلاد الشام زمن الحروب الصليبية وكيف أثَّرت بمواقفها السلبية على سير أحداث الصراع الإسلامي – الصليبي فإنَّ أول ضحاياهم كان جناح الدولة حسين صاحب حمص[6]، هذا الأخير وبعد أن رأى من رضوان صاحب حلب تغيُّرًا في سياسته نحوه وخاصةً بعد أن حالف أنصار النزارية وقرَّبهم منه، بدأ التفكير في الانسحاب من حلب إلى إقطاعه في حمص، وبالفعل

---

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص142، ابن سبط الجوزي، مرآة الزمان، 523/19، ابن العديم، زبدة حلب، 145/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 167/5.

[2] ابن العديم، زبدة الحلب، 145/2.

[3] ذيل تاريخ دمشق، ص133، الكامل، 11/9، المختصر، 210/2، العبر، 362/3، البداية والنهاية، 161/16، اتعاظ الحنفاء، 19/3.

[4] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص133، ابن العديم، زبدة الحلب، 127/2-128، ابن ميسر، أخبار مصر، ص64.

[5] الذهبي، العبر، 362/3، عثمان عبد الحميد عشري، **الاسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية 491هـ – 691هـ/ 1097م– 1290م**، ص 85-86، مسفر الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص51.

[6] مسفر بن سالم عريج الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص59.

نجح جناح الدولة سنة 490هـ/1096م في الفرار من حلب ليلاً مع زوجته أم الملك رضوان[1] فوصل إليها مع عسكره وخواصه، أين استلمها من نائبه قراجة فعمل على تحصينها وتثبيت أمور السلطة بها[2].

أسس جناح الدولة في حمص إمارة مستقلة أخذت في النمو والتوسع مع مرور الأيام، في حين تعرضت الأعمال الحلبية الخاضعة لرضوان للتقلص المستمر بفعل إغارة الصليبيين عليها، فاضطر لطلب العون والنجدة من زوج أمه صاحب حمص، خاصة بعد هزيمته في معركة الأثارب[3] ضد صليبيي أنطاكية في شعبان 492هـ/جوان1099م، وبفضل تلك المساعدة التي قدمها جناح الدولة اضطر الصليبيون إلى التراجع نحو أنطاكية، غير أنَّ رضوان لم يحسن معاملة صاحب حمص رغم دعمه له، فتركه مرابطًا بقواته في ظاهر حلب لعدة أيام دون إعارته أي اهتمام، مما دفع جناح الدولة إلى العودة صوب حمص وفي نفسه أمر على رضوان وحلفائه النزارية[4].

انتظر جناح الدولة ثلاث سنوات كاملة لتحقيق رغبة الانتقام من رضوان وحلفائه من الباطنية، ففي سنة 495هـ/1102م وفي أثناء حصار رضوان لسرمين[5] هاجمه جناح الدولة فهزمه وشتت جيشه وسلب معسكره، ففر رضوان في كثير من جنده، أمَّا وزيره أبا الفضل بن الموصول فقد وقع في الأسر مع فريق من الجند حملوا إلى حمص، وقد تأسَّف جناح الدولة لعدم عثوره على الحكيم المنجم زعيم النزارية في بلاد الشام ضمن القتلى أو الأسرى، حيث فرَّ منهم عند محاولتهم القبض عليه[6].

لم يستطع رضوان تقبل تلك الهزيمة في سرمين وسعى لرد الاعتبار لنفسه كأحد القادة السلاجقة الكبار، خاصةً وقد أقنعه دعاة النزارية بضرورة تصفية جناح الدولة ووعدوه بتقديم المساعدة اللازمة لتحقيق ذلك، وعليه شرع أتباع هذه الفرقة المتطرفة في تنفيذ مخطط التخلص من قائد إسلامي كان له دورٌ بارز في حركة المقاومة الإسلامية، فكان من ألد أعداء القائد الصليبي ريموند دي صنجيل (Raymond

---

[1] ابن القلانسي، ذيل، ص133، العظيمي، تاريخ العظيمي، ص359، ابن الأثير، الكامل، 11/8.

[2] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 133، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 479/19.

[3] الأثارب، قلعةٌ معروفة بين حلب وأنطاكية، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، ياقوت، معجم البلدان، 87/1.

[4] عشري، الاسماعيليون، ص88، مقدم، الاغتيالات، ص93.

[5] سرمين، بلدةٌ مشهورة من أعمال حلب، ذكر ياقوت بأنَّ أهلها في زمنه كانوا إسماعيلية، معجم البلدان، 215/3.

[6] ابن العديم، زبدة حلب، 145/2، الاغتيالات، ص93، العشري، الاسماعيليون، ص88، عاشور، الحركة الصليبية، 318/1-319.

صاحب أنطرسوس، حيث وقف جناح الدولة في وجه مخططات هذا الأخير التوسعية ببلاد الشام؛ فلم يستطع التحرك بحرية إلاَّ بعد مقتله[1].

ففي سنة 495هـ/1102م شنَّ ريموند هجومًا عنيفًا على حصن الأكراد[2] بغية ضمه لإمارته المأمولة في طرابلس، وما إن علم جناح الدولة بخطوة الصليبيين حتَّى بدأ في الاستعداد لرد الهجوم ودفع المعتدين[3]، غير أنَّ الموت كان أسرع إليه، فبينما هو يؤدِّي صلاة الجمعة بجامع حمص الكبير انقضَّ عليه ثلاثة من الباطنية النزارية متنكرين في زي الصوفية فأردوه قتيلاً بسكاكينهم مع جماعة من خاصة أصحابه وذلك في 22 رجب 495هـ/1مايو 1102م، ليكون أول ضحايا الإجرام النزاري ببلاد الشام زمن الحروب الصليبية[4].

وهكذا خسرت الجبهة الإسلامية عمومًا والمعسكر السني على الخصوص نتيجة تطرف هذه الفرقة أحد رجالات المقاومة ضد الوجود الصليبي، حيث وصفه ابن تغري بردي[5] بأنَّه "كان أميرًا مجاهدًا شجاعًا يباشر الحروب بنفسه"، أمَّا ابن الأثير[6] فقد أشار إلى تحمس ريموند دي صنجيل بعد مقتل جناح الدولة للاستيلاء على حمص وطرابلس، فيقول:" فلمَّا قتل صبح صنجيل حمص من الغد ونازلها وحصر أهلها وسلك أعمالها"، ليتخلَّص بذلك الصليبيون من شخصية إسلامية بارزة دون أي جهدٍ منهم.

لم يعش زعيم النزارية الحكيم المنجم بعد وفاة جناح الدولة طويلاً، حيث يذكر ابن العديم[7] بأنَّه توفي بعد أربع وعشرون يومًا من مقتل صاحب حمص، أمَّا ابن القلانسي وابن تغري بردي[8] فيذكران بأنَّ وفاته كانت بعد أربعة عشر يومًا، ليخلفه على رأس الطائفة بحلب أبو الطاهر الصائغ العجمي، والذي كان

---

(1) محمد عبد الله المقدم، الاغتيالات، ص93، يوسف إبراهيم الشيخ، أثر الحركات الباطنية، ص204.

(2) حصن الأكراد، حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، وهو بين بعلبك وحمص، وكان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجًا وجعل فيه قومًا من الأكراد طليعةً بينه وبين الفرنج، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 264/2.

(3) ابن الأثير، الكامل، 56/9، أبو الفدا، المختصر، 216/2.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص142، سبط بن الجوزي، مرآة، 523/19، ابن الأثير، الكامل، 56/9، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 167/5،(وقد ذكر ابن القلانسي تاريخ مقتل جناح الدولة ضمن أحداث سنة 496هـ بخلاف ابن الأثير وابن تغري وأبو الفدا وسبط ابن الجوزي الذين ذكروه في حوادث سنة 495هـ)

(5) النجوم الزاهرة، 167/5.

(6) الكامل، 56/9.

(7) زبدة الحلب، 147/2.

(8) ذيل تاريخ دمشق، ص 142، النجوم الزاهرة، 169/5.

أكثر جرأة وإقدام على تنفيذ مخططاتهم الطائفية، كما كان على جانب كبير من النفوذ والسلطان عند حليفه رضوان[1].

استمر نشاط النزارية الدموي في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ليكون ضحيتهم هذه المرة صاحب حصن أفامية[2] خلف بن ملاعب، وكان ذلك في الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة 499هـ/30 جانفي1106م[3]، حيث كتب أبي الفتح السرميني وهو داعية من النزارية كان مقيمًا بأفامية إلى أبي الصائغ العجمي في حلب من أجل إقناع رضوان بإرسال من يغتال خلف بن ملاعب ليتسلم بعد ذلك الملك رضوان أفامية منه.

وقد دبَّر أبو الفتح خطةً محكمة مفادها؛ أن يرسل رضوان وحليفه أبو الطاهر الصائغ إلى أفامية ثلاثمائة رجل من أهل سرمين –كانوا على عقيدة النزارية–[4] ويبعث معهم خيلاً من خيول الصليبيين وسلاحًا من أسلحتهم، ورؤوسًا من رؤوسهم ويأتون إلى ابن ملاعب ويتظاهرون أمامه بأنَّهم غزاة ويشكون إليه سوء معاملة الملك رضوان وأصحابه، وبأنَّهم فارقوه بسبب ذلك، فلقيهم فرقة من الصليبيين فهزموهم وجاءوا يحملون إليه ما ظفروه منهم، فإذا وافق على استقبالهم عنده بأفامية نفَّذوا فيه عملية الاغتيال، ففعل ابن الصائغ ما عرضه عليه السرميني وسارت الأحداث مثلما رسم لها تمامًا[5].

وبموت هذا القائد المسلم ومُلك النزارية لحصن أفامية، طمع الزعيم الصليبي تانكرد (498هـ-506هـ/1104م-1112م) في ضمه لممتلكات الصليبيين، فكان له ذلك بعد أن حاصرها وضيَّق على أهلها، فلم يكن لصاحبها داعي الإسماعيلية النزارية أبا الفتح السرميني قوة لردهم فملك تانكرد الحصن وقتل صاحبه وكان ذلك في المحرم من سنة500هـ/سبتمبر1106م[6]، كما تمكن الصليبيون من القضاء على ابن الصائغ زعيم النزارية في حلب وبلاد الشام حسب بعض الروايات التاريخية[7].

---

(1) العشري، الاسماعيليون، ص91.

(2) أفامية، مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص، يسميها بعضهم فامية بغير همزة، ياقوت، معجم البلدان، 227/1.

(3) ابن الأثير، الكامل، 94/9، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 149، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 190/5، ابن ميسر، تاريخ مصر، ص76.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 215/3.

(5) ابن الأثير، الكامل، 94/9- 96.

(6) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 540/19، ابن العديم، زبدة حلب، 152/2.

(7) ابن الأثير، الكامل، 95/9، أبو الفدا، المختصر، 220/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 189/5،

لم تقتصر ارتدادات عمل النزارية باغتيال خلف بن ملاعب على أفامية فقط، وإنَّما شمل عديد المدن الواقعة في أعمال حلب، ليجنيَ رضوان حصاد ممالأته لهذه الفرقة المتطرفة، حيث تمكَّن تانكرد المستولي على أفامية من ضم حصن الأثارب سنة 504هـ/1110م[1]، ممَّا ترتب عليه ضعف الجبهة الحلبية بشكل كبير، استغلها تانكرد في مطالبة رضوان بإطلاق سراح الأسرى الأرمن الذين وقعوا في أسره حين إغارته على أنطاكية سنة 504هـ/1110م، مع أسرى آخرين من الإفرنج، فما كان من رضوان على ضعفه سوى القبول بطلبات القائد الصليبي، ليواصل هذا الأخير الاسترسال في إذلال رضوان وبعض الأمراء ببلاد الشام، فصالح هذا الأخير على اثنتين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الثياب والخيل، كما صالح صاحب شيزر سلطان بن علي بن منقذ على عشرة آلاف دينار، وصاحب حماة – علي الكردي – على ألفي دينار[2].

وأمَّا ثالث رجال المقاومة السنيين الذي راحوا ضحية الغدر الطائفي النزاري فقد كان حاكم الموصل شرف الدين مودود بن التونتكين (502هـ- 507هـ/1108م-1113م) الذي قال عنه وليم الصوري[3] " بأنَّهُ أميرٌ قوي شريف المنبت"، هذا القائد الإسلامي الذي سجَّل له التاريخ قيادته لعديد الحملات العسكرية ضد الوجود الصليبي استجابةً لنداء إخوانه من أمراء المسلمين، وسعيه الحثيث لتوحيد القوى الإسلامية في الشام والجزيرة ضد الصليبيين.

ومنها رئاسته لذلك الحلف الذي أمر بتشكيله السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه سنة 503هـ/1109م رفقة عدد من القادة السلاجقة وعلى رأسهم نجم الدين أيل غازي بن أرتق صاحب ماردين[4] لمواجهة الصليبيين في الرها، غير أنَّ ذلك الحلف لم يحقق مكاسب على الطرف الصليبي، ليعود مودود والقادة الآخرون إلى بلادهم، بينما عاد طغتكين الذي قدم من دمشق لمؤازرة مودود إلى بلاده[5].

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، 170-171، ابن الأثير، الكامل، 140/9، ابن العديم، زبدة الحلب، 157/2.

(2) العشري، الاسماعيليون، ص 96-97.

(3) تاريخ الحروب الصليبية، 299/2-230.

(4) ماردين، قلعةٌ مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين، وقُدَّامها ربضٌ عظيم فيه أسواقٌ كثيرة وخانات ومدارس ورُبط وخانقاهات، الحموي، معجم البلدان، 39/5.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 169-170، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 38/20-39، ابن العديم، زبدة الحلب، 154/2-155.

وعلى الرغم من أنَّ هذه الحملة التي قادها مودود لم تؤدِّ إلى سقوط معاقل الصليبيين بيده، إلاَّ أنها أعطت دفعًا قويًا لحركة المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي انطلاقًا من إقليم الجزيرة، كما أسهمت في تعزيز روح الوحدة بين القوى الإسلامية الشامية والجزرية لتشكيل جبهة قوية في مواجهة العدوان الصليبي، وهو ما تمَّ بالفعل بعد حملة الرها.

فقد أدَّى استيلاء الصليبيين على حصن الأثارب سنة 504هـ/1110م وتضييقهم المستمر على حلب وأعمالها وفرضهم على صاحبها ما لا طاقة له به من أموال إلى تردي أوضاع السكان وتذمرهم[1]، خاصةً بعد ازدياد فتن النزارية وتلاعبهم بشؤون الحكم وإقبالهم على إحراق الأسواق وبيوت التجارة، فتعالت الأصوات تنادي بضرورة رد الأعداء وحماية حلب.

ولما لم يكن من القادة المسلمين وقتها من بإمكانه تلبية نداء الاستغاثة سوى شرف الدين مودود فقد سار بقواته من الموصل بأمر من السلطان محمد بن ملكشاه سنة 504هـ/1110م، لينضمَّ إليه عدد من الأمراء السلاجقة الأراتقة بحرَّان في 505هـ/1111م[2]، ثم التحق بهم طغتكين صاحب دمشق بعد ذلك[3].

لم يحقق المسلمون أي تقدم على الطرف الصليبي، وذلك بسبب سوء معاملة رضوان للقوات الإسلامية المرابطة بأعمال حلب ورفضه فتح المدينة لدخول تلك القوات خوفًا على سلطانه بها، إضافةً إلى عقد بعض القادة لاتفاقيات هدنة مع الصليبيين كصاحب مراغة[4] أحمد يل الكردي الذي لاطفه جوسلين على مبلغ من المال مقابل انسحابه من حلف مودود، كما أنَّ صاحب دمشق طغتكين قد اطَّلع من الأمراء على نيات فاسدة في حقه فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الصليبيين سرًا، فتفرقت على إثر ذلك العساكر الإسلامية وفشلت الحملة[5].

---

(1) يذكر ابن القلانسي أنَّ تانكرد المستولي على حصن الأثارب قد استقرَّت الموادعة بينهُ وبين الملك فخر الملوك رضوان على أن يحمل إليه هذا الأخير من مال حلب في كل سنة عشرين ألف دينار مقاطعةً وعشرة أرؤس (رؤوس) خيلاً وفكاك الأسرى واستقرت على هذه القضية، ذيل تاريخ دمشق، 170-171.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص173، 175، ابن الأثير، الكامل، 143/9، ابن العديم، زبدة الحلب، 158/2-159.

(3) ابن الأثير، الكامل، 144/9.

(4) مَرَاغَة، بلدة مشهورة عظيمة، أعظمُ وأشهرُ بلاد أذربيجان، ياقوت، معجم البلدان، 93/5.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص175-177، ابن الأثير، الكامل، 143/9-144، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 43/20-44.

واصل شرف الدين مودود أتابك الموصل جهوده في تقويض الوجود الصليبي بأراضي المسلمين دون كلل، ليشترك سنة 1113/507م في حلف آخر بطلب من طغتكين صاحب دمشق الذي أدرك استحالة وقوفه لوحده في وجه بلدوين (Boudouin) ملك بيت المقدس العازم على الاستيلاء على صور والمدعَّم من حلفائه جوسلين صاحب تل باشر وروجر صاحب أنطاكية -خلف تانكرد سنة 506هـ/1112م- وبونز Pons صاحب طرابلس.

وعلى إثر معركة ضارية دارت رحاها في سهل الأقحوانة – جنوب بحيرة طبرية- تمكَّن الحلف الإسلامي من تحقيق النصر على الصليبيين وهزمهم شرَّ هزيمة قتل فيها ألف ومائتين من المشاة وثلاثين فارس[1]، وممن أسر الملك بلدوين صاحب القدس لكنَّهُ لم يعرف، فبذل شيئًا للذي أسره فأطلقه، وبفضل وصول نجدات الإمارات الصليبية تمكَّنت القوات الصليبية من استعادة بعض قوتها وتحصَّنت بالجبل، فضرب عليها مودود حصارًا لمدة ستة وعشرين يومًا، ثمَّ رفعه بسبب حلول الشتاء وأمر عساكر الموصل بالعودة في الربيع، أمَّا مودود فقد قرر البقاء في دمشق عند طغتكين[2].

لقد كان لذلك النصر الذي أسهم فيه مودود بشكل كبير نقطة تحول كبيرة في مسار حركة المقاومة الإسلامية، فقد أبرق للطرف الصليبي بمدى إمكانية توحد القوى الإسلامية في محاربته ورده عن تنفيذ مخططاته، كما منح للمسلمين جرعة أمل في طرد الأعداء واستعادة ممتلكاتهم منهم بعدما أيسوا من ذلك، فكان شرف الدين مودود من بين القادة المسلمين الأوائل الذين أسهموا في زرع بذرة المقاومة ضد الصليبيين والتي نمت بعد ذلك على يد عماد الدين زنكي وابنه نورالدين وكذا صلاح الدين.

ولكن مسيرة هذا القائد المجاهد انتهت بمجرد عودته إلى دمشق من تلك المعركة رفقة طغتكين، حيث تعرَّض لطعنات غادرة أسفل سرته من أحد الباطنية بعد فراغه من صلاة الجمعة بالمسجد الأموي وذلك في آخر جمعة من ربيع الأول سنة 507هـ/10 أكتوبر 1113م[3]، فيقول عن ذلك ابن الأثير[4]":

---

[1] فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص152، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 301/2.

[2] وليم الصوري، الحروب الصليبية، 300/2-301، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص185، ابن الأثير، الكامل، 149/9-150، الذهبي، العبر، 389/2.

[3] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، 185، ابن الأثير، الكامل، 150/9، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 34/20، أبو الفدا، المختصر، 226/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 203/5، شذرات الذهب، 33/6، الذهبي، العبر، 389/2.

[4] الكامل، 150/9.

قيل إنَّ الباطنية بالشام خافوه وقتلوه"، فكان مقتله خسارة كبيرة للجبهة الإسلامية، ومنح ارتياحًا للصليبيين الذين تفاجئوا لمقتله، حيث يذكر ابن الأثير أنَّ بلدوين ملك بيت المقدس كتب إلى طغتكين يقول:" إنَّ أمةً قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها".

لقد عبَّر الملك الصليبي بحق عن مستوى التطرف الذي بلغته بعض الطوائف المحسوبة على الإسلام وخاصةً النزارية، فلم يكن يهمها وزن الشخصية المستهدفة بالاغتيال وأثر ذلك على واقع المسلمين المتردي أصلاً، كما لم تعر بالاً لحرمة المسجد الذي يعتبر بيت الله الذي يعبد فيه ولا يوم الجمعة الذي يعد عيدًا بالنسبة للمسلمين، فكانت رسالة بلدوين مليئة بالشماتة والسخرية لحال المسلمين نتيجة التطرف المذهبي.

لم يقتصر هذا الموقف من مقتل مودود على القادة الصليبيين بل حذا حذوهم مؤرخو الفترة من الصليبيين كفوشي الشارتري[1] الذي تهكم على مقتل مودود بعد قيادته لذلك النصر في طبرية بالقول:" إنَّ النصر الذي يؤدِّي إلى هزيمة المنتصر لسيئ الطالع"، كما استبشر لمقتله المؤرخ وليام الصوري[2] من خلال الإشارة لدوره في ردع الصليبيين بالقول:" "الذي أنزل كثيرًا من البلوى بالمملكة".

كما امتدت أيدي الغدر الطائفي إلى قائدٍ آخر من قادة المقاومة الإسلامية ضد العدوان الصليبي، ألا وهو قسيم الدولة آقسنقر البرسقي أمير الموصل وحلب وكثير من مدن الشام، فقد حمل البرسقي راية الجهاد ضد الصليبيين منذ دخوله حلب سنة 518هـ/1124م وإنقاذها من السقوط في أيديهم، فوجَّه كل الطاقات الإسلامية في سبيل استعادة الأراضي المغتصبة منهم، فكانت الوحدة بين الموصل وحلب حجر الزاوية في تلك الجهود؛ وصارت الجبهة الإسلامية في وضعٍ يسمح لها بالوقوف الند للند مع الطرف الصليبي[3].

ولكن خنجر النزارية كان أسبق من طموحات البرسقي وآمال المسلمين المضطهدين تحت حكم الصليبيين، فبعد اشتراكه مع طغتكين في مواجهة الصليبيين على مشارف حلب سنة 520هـ/1126م مرض طغتكين وعاد إلى دمشق، بينما توجَّهَ البرسقي إلى الموصل بعد أن ائتمن ابنه عزالدين مسعود على حلب، وأخذ يعدُ العدة لجولة أخرى مع الصليبيين، كانت جماعةٌ من النزارية ينتظرونه في الموصل لينفذوا فيه

[1] تاريخ الحملة، ص154.

[2] الحروب الصليبية، 303/2.

[3] أنظر، يوسف إبراهيم الشيخ، أثر الحركات الباطنية، ص208، محمد عبد الله مقدم، الإغتيالات، ص104.

حكم الاغتيال أثناء تأديته صلاة الجمعة بالمسجد العتيق وذلك في ذي القعدة 520هـ/نوفمبر 1126م[1].

وهكذا استفاد الصليبيون من ارتدادات الصراع المذهبي لدى الطرف الإسلامي أيَّما إفادة وتخلصوا بفضل خناجر الإسماعيلية النزارية من عديد زعماء الوحدة الإسلامية الذين كانوا كالبلاء على إماراتهم ومملكتهم[2]، بل وساهمت تلك الاغتيالات في حدوث ارتباك داخلي للجبهة الإسلامية وصار الاحتياط من الغدر الطائفي جزءًا من إستراتيجية المقاومة ضد الصليبيين ممَّا زاد من معيقات رد الطرف الصليبي وطرده عن الممتلكات الإسلامية.

3- دبيس بن صدقة والقاضي بن الخشاب وتناقضات الصراع المذهبي بالمشرق في مواجهة الصليبيين:

لقد رسمت حالة الوضع المذهبي المضطرب بالمشرق الإسلامي خلال القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين صورًا متناقضة لسير حركة المقاومة ضد الوجود الصليبي من قبل القوى الإسلامية الحاكمة آنذاك، فبعد أن تحقق للصليبيين الاستيلاء على كثير من المدن وتمكنهم من تأسيس أربع كيانات ببلاد الجزيرة والشام، أخذت تلك القوى الإسلامية في التعامل مع ذلك الوجود الأجنبي بمواقف متباينة ومتناقضة تتحكم فيها العديد من العوامل أبرزها الانتماءات المذهبية القائمة على الصراع كسمة لذلك العصر.

وكمثال على حالة التناقض في التعامل مع الوجود الصليبي بالمشرق في ظل الصراع المذهبي المستشري بين القوى الإسلامية الحاكمة بالمنطقة، نورد صورتين مثَّلتهما شخصيتان شيعيتان كانا لهما حضور مؤثر على مسرح الأحداث وقتها، فأمَّا الأولى فتتمثل فيما قام به أمير الحلَّة دبيس بن صدقة – وهو شيعي إمامي المذهب-[3] من التحالف مع الصليبيين ضد حكام حلب من السنة[4]، حيث يذكر ابن

---

[1] ابن القلانسي، ذيل، ص214، العظيمي، تاريخ، ص41، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 223/21، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 56/3 (يذكر وليم هنا أنَّ البرسقي قتل من طرف خدمه وأفراد بيته)

[2] كمال بن مارس، العلاقات الإقليمية، ص168.

[3] دبيس بن صدقة، هو أبو الأغر دبيس بن سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي الناشري، الملقّب نور الدولة ملك العرب صاحب الحلةّ المزيدية، ولد سنة ثلاثة وستون وأربعمائة، تمكَّن في خلافة المسترشد واستولى على كثير من بلاد العراق، وهو من بيت كبير، وكان دبيس في خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، وهم نازلون على باب المراغة من بلاد أذربيجان ومعهم الإمام المسترشد بالله فيقال أنَّ السلطان دسَّ عليه جماعة من الباطنية فهجموا خيمته –أي المسترشد بالله- وقتلوه يوم

العديم[1] عن ذلك بقوله:" ثمَّ إنَّ دبيسًا صادق جوسلين وبغدوين الفرنجيين وصافاهما واتفق مع الفرنج على حصار حلب".

وأمَّا الصورة الثانية المناقضة لموقف أمير الحلَّة من الوجود الصليبي، هي صورة قاضي حلب أبو الفضل بن الخشاب[2] – وهو فقيه شيعي إمامي– حيث قادت هذه الشخصية جهود الدفاع عن حلب رفقة حكامها السنيين وبعض القادة الآخرين السنيين كذلك كنجم الدين إيلغازي حاكم ماردين سنة 513هـ/1119م[3]، والمساهمة في إنقاذ المدينة مرة أخرى من الحصار الصليبي الذي فرضه بلدوين ملك بيت المقدس سنة 518هـ/1124م وذلك بالاستنجاد بحاكم الموصل السني آقسنقر البرسقي[4].

وفي تفصيل هذين الحالتين المتناقضتين نذكر، أنَّ دبيس ووالده صدقة بن مزيد كانا في عداءٍ شديد مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، ولعل من بين أسباب ذلك العداء هو الاختلاف المذهبي بين الطرفين، فيشير إلى ذلك المؤرخ عبد الفتاح عاشور[5] بالقول:" إنَّما مبعثهُ تشيعه في حين كانت الخلافة العباسية سنية".

كما ويشير الداعي الاسماعيلي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في سيرته، عن العلاقة الطيبة لبني مزيد –وهم شيعة إمامية– مع الخلافة الفاطمية الإسماعيلية المذهب[6]، العدو التقليدي للخلافة العباسية

الخميس الثامن والعشرون من ذي القعدة سنة تسعٍ وعشرين وخمسمائة، وخاف السلطان أن تنسب القضية إليه، وأراد أن يتحمَّلها دبيس، فتركهُ إلى أن جاء إلى الخدمة، وجلس على باب خيمة السلطان، فسيَّر بعض مماليكه، فجاءه من وراءه وضربه بالسيف على رأسه، وأظهر السلطان بعد ذلك أنَّهُ فعل ذلك انتقاما لقتله الإمام (الخليفة المسترشد) وكان ذلك بعد شهر، وللمزيد حول ترجمته راجع، ابن خلكان، وفيات، 263/2-265، الذهبي، العبر، 435/2، سير أعلام النبلاء، 612/19، ابن تغري، النجوم الزاهرة، 249/5، الحنبلي، شذرات، 149/6.

(4) الأثير، الكامل، 230/9، أبو الفدا، المختصر، 237/2، رنسيمان، تاريخ، 275/2.

(1) زبدة الحلب، 222/2-223.

(2) هو القاضي أبو الفضل بن الخشاب ابراهيم بن سعد بن يحي بن محمد بن الخشاب أبو الطاهر الحلبي، كان من أعيان الحلبيين وكبرائهم، فضلاً عن أنَّهُ أديبًا وشاعرًا وفقيهًا، أنظر، الصفدي، الوافي بالوفيات، 355/5.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص200-201.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص212، العظيمي، تاريخ حلب، ص374-375، ابن الأثير، الكامل، 229/9، ابن العديم، زبدة الحلب، 294/1.

(5) الحركة الصليبية، 417/1-418.

(6) السيرة المؤيدية، ص127-128.

السنية، وعليه فمن المرجح أن يكون دافع التحالف الذي أقامه دبيس مع الصليبيين للاستيلاء على حلب من حكامها السنة تتحكم فيه إلى حدٍّ ما النزعة المذهبية والولاء الروحي للطائفة.

وتزيدنا فحوى الرسالة التي بعث بها دبيس إلى قادة الصليبيين جوسلين أمير أنطاكية وبلدوين الثاني (Boudouin II) ملك بيت المقدس لإقناعهما بجدوى محالفته في السيطرة على حلب، تأكيدًا على استغلال هذا الأمير للوضع المذهبي المضطرب ببلاد الشام عمومًا وحلب بالخصوص، حيث كان التشيع بها مستحكمًا بفرعيه الإمامي والاسماعيلي على المستوى الشعبي في حين أنَّ السلطان السياسي كان بيد قادة سنيين.

وممَّا جاء في رسالته إلى قادة الصليبيين أنَّ أهل حلب شيعة وأنَّ مشاعرهم ستميل إليه بمجرد دخوله إليهم، وبأنَّهُ سيلقى الدعم منهم لاشتراكهم معه في المذهب، وبالمقابل تعهد دبيس للصليبيين بعد دعمهم له بأنَّه سيكون تابعًا مطيعًا لهم ونائبًا عنهم في حكم حلب[1].

وهكذا اشترك دبيس بن صدقة الأمير المسلم مع الحلف الصليبي ضد حكام حلب، آملاً في تحقيق مطامع خاصة، واضعًا نفسهُ وقواته تحت طاعة وخدمة الصليبيين[2]، كما انضم إلى هذا الحلف أميرين مسلمين سنيين هما سلطانشاه بن الملك رضوان الذي كان يحلم باسترداد ملك والده من تمرتاش الذي اعتبره مغتصبًا لحقه في حكم حلب، وتغريل أرسلان وهو أحد أمراء السلاجقة المغمورين بالأناضول[3]، غير أنَّ وزن هذين الأميرين لم يكن يقارن مع وزن دبيس بن صدقة في ذلك التحالف.

تقدَّمت إذًا قوات ملك بيت المقدس بلدوين الثاني مدعومة بجيوش صليبية قادمةً من الرها وأنطاكية سنة 518هـ/1124م وبصحبتهم دبيس بن صدقة والأميرين المسلمين صوب حلب ففرضوا عليها حصارًا خانقًا ووطنوا أنفسهم على المكوث طويلاً في محاصرتها لغاية تملُّكها[4]، حتَّى أنَّهم بنوا البيوت بظاهرها من

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 230/9، ابن العديم، زبدة الحلب، 222/2-223.

(2) عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 419/1، حامد زيان غانم زيان، **الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1403هـ/1983م، ص 74، Setton ; op, cit, vol 1, pp423-424.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، 224/2، رنسيمان، تاريخ، 275/2.

(4) يذكر فوشي أنَّ حصار الصليبيين لحلب كان لأزيد من خمسة أشهر، مستغلين ما كان يعانيه أهلها من نقص المؤن والمجاعة، تاريخ الحملة، ص219-220.

أجل حمايتهم من البرد والحر[1]، وقد كان ذلك الحصار من أسوء ما تعرضت له حلب خلال فترة الوجود الصليبي بالمنطقة،[2] فلم يكن أمام أهلها لمواجهة تبعات الحصار إلاَّ الاستنجاد بمن يقوى على ردِّهم فأرسل أهل حلب إلى تمرتاش – المسؤول الأول عن المدينة- الذي كان منشغلاً بأمر ماردين فلم يجب ندائهم[3].

توجَّه بعد ذلك وفدٌ من أهالي حلب صوب بلاد الجزيرة مستنجدين بحاكم الموصل السني آق سنقر البرسقي[4]، وقد كان على رأس الوفد قاضي المدينة الشيعي الإمامي أبو الفضل بن الخشاب، فأجاب البرسقي ندائهم وتوجه لنجدة المدينة بعد أن انضمت إليه قوات كل من طغتكين أتابك دمشق وصمصام الدين خيرخان بن قراجا صاحب حمص، وحين وصول القوات الإسلامية المتحالفة في 518هـ/أواخر يناير 1125م فرَّت جيوش التحالف خوفًا ورهبةً من حرب البرسقي ورفعوا الحصار عن حلب وعادوا من حيث أتوا[5].

وعلى الرغم من انتهاء ذلك الكابوس برفع الصليبيين حصارهم عن حلب إلى أنَّ تصرف دبيس بن صدقة الأمير العربي المسلم ومحاولته استغلال الوضع المذهبي في تحقيق أطماعه الخاصة بحلب، قد كانت نتائجه وخيمة على أهلها الذين قابلوا تصرُّفه بمقتٍ واحتقارٍ شديدين لكونه صاحب مبادرة الحصار، فكانوا يصيحون عليه من فوق الأسوار بـ "يا دبيس يا نحيس"، كما وأنَّ الصليبيين المحاصرين لحلب قد أمعنوا في إهانة المسلمين بنبش قبور موتاهم وأخذ ثوابيتهم وجعلها أوعيةً لطعامهم، وتدنيس المصحف الشريف بطريقة مستفزة لهم[6]، وكُلَّ هذا بسبب موقف دبيس الغير مسئول.

وأمَّا تفصيل الصورة الثانية، صورة القاضي الإمامي بن الخطاب (ت519هـ/1125م)، فكانت مثالاً صادقًا للتعاضد المذهبي بين القوى الإسلامية ضد العدو الأجنبي، وهي صورة مناقضة تمامًا لموقف

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 230/9، أبو الفدا، المختصر، 237/2.

(2) زبدة الحلب، 226/2-227.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص211-212، ابن الأثير، الكامل، 230/9، أبو الفدا، المختصر، 237/2-238.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص212، العظيمي، تاريخ حلب، ص374-375، ابن الأثير، الكامل، 230/9، أبو الفدا، المختصر، 238/2.

(5) فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص220، وليام الصوري، الحروب الصليبية، 43/3-45، ابن الأثير، الكامل، 229/9، ابن العديم، زبدة الحلب، 228/2-229، أبو الفدا، المختصر، 238/2.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب، 224/2-225.

دبيس بن صدقة، حيث قاد هذا القاضي جهود الدفاع عن حلب وحمايتها ضد صليبيي أنطاكية الذين زحفوا على المدينة وحاصروها طامعين في تملُّكها بعد أن غاصت في الاضطراب والفوضى السياسية والعسكرية عقب وفاة حاكمها رضوان بن تتش سنة 507هـ/1113م، وقد كانت تلك الجهود بمعية قادة سنيين كابن بديع – قائد قوات الأحداث السنية في حلب-[1] ونجم الدين إيلغازي –حاكم ماردين- وغيرهم[2].

فقد بادر ابن الخشاب – وهو وقتذاك الرجل الأكثر نفوذًا في المدينة -[3] أو كما وصفه بن العديم برئيس حلب[4]، إلى إرسال وفد من أعيان المدينة سنة 513هـ/1119م لطلب النجدة من حاكم ماردين وديار بكر السني نجم الدين إيلغازي، الذي قدمَ بجيشه مجيبًا النداء، ولكنَّه عاد وتراجع عن نجدتهم لما رآه من سوء الوضع في المدينة واضطراب أحوالها، ورفض بعض أعيانها مجيئه ودخوله إلى المدينة؛ فكرَّ عائدًا إلى ماردين، ولكنَّ ابن الخشاب وأعيانًا آخرين لحقوا به وألحُّوا عليه بضرورة وقوفه إلى جانبهم في رد الحصار الصليبي، فظلوا على ذلك حتَّى أقنعوه، فرجع[5].

---

[1] الأحداث أو الحدثان، جمع حدث وهو "الفتى السن"، ويقال رجلٌ حدث أي شاب، وهؤلاء غلمان حدثان، أي أحداث، أنظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة حدث، 22/2-23، وطائفة الأحداث تكوَّنت في بعض مدن الشام منذ النصف الثاني من القرن 4هـ/10م بهدف مقاومة الحكم الفاطمي، وهم عبارة عن جماعات من القوات المدنية كان يوكل إليهم إلى جانب ذلك عدد من المهام داخل المدن، كحفظ النظام ومكافحة الحرائق وإغاثة المنكوبين، إضافةً إلى أنَّهم كانوا يلحقون بالقوات النظامية عندما يعلن داع الجهاد النفير العام للخروج لقتال الأعداء، متى دعت الحاجة إليهم، وعليه فالأحداث لم تكن أسمائهم تدرج ضمن قوائم العسكر النظامي، وإنَّما كانوا يخرجون للجهاد تطوعًا، وقد كان يطلق على زعيم هذه الفرقة لقب مقدم أو رئيس الأحداث، أنظر حول مشاركة هذه الفرقة في نشاط المقاومة، ابن الأثير، الباهر، ص107، حاشية المحقق، وراجع بأكثر تفاصيل، عبد الله بن سعيد بن محمد سافر الغامدي، **دور المتطوعة في حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول**، مجلة المؤرخ العربي، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب، العدد الثاني، المجلد الأول، مارس 1994، القاهرة، ص342-344.

[2] ابن العديم، زبدة الحلب، 172/2، 181-182.

[3] الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص161.

[4] وقد أطلق هذا الاسم أيضًا أي "رئيس حلب" على ابن بديع قائد قوات الأحداث السنية في حلب، ولعل هذا من دلائل الاضطراب السياسي في المدينة عقب وفاة رضوان بن تتش فلم يكن بها حاكم واحد يؤتمر بأمره، ويزيدنا تأكيدًا حول هذا الأمر أنّ إيلغازي لما استنجد به للدفاع عن المدينة حدث الاختلاف حول دخوله إليها وهو ما دفعه للعودة صوب ماردين، أنظر، ابن العديم، زبدة الحلب، 185/2-186.

[5] زبدة الحلب، 185/2.

وقد كان من جملة الأعيان الذين لحقوا بإيلغازي لحثِّه على العود عن قرار الانسحاب ابن بديع قائد قوات الأحداث الشعبية السنية بحلب، غير أنَّهُ تعرض للاغتيال من قبل اثنين من النزارية الحشاشين وهو في طريقه إليه[1].

وعلى أية حال فإنَّ ما أبداه القاضي ابن خشاب الشيعي مع ابن بديع السني من تعاضد في الدفاع عن حلب يؤكِّد على أنَّ التقارب المذهبي بين القوى الإسلامية خلال تلك الفترة لم يكن بالأمر المستحيل أو البعيد التحقق، ذلك لأنَّ المصير في المنطقة مشترك وأنَّ الصليبيين هم من كانوا المستفيد الوحيد من حالة الصراع تلك، وقد توضَّح ذلك في أكثر من مناسبة منذ وطأة أقدامهم أراضي المسلمين.

تحقق على ذلك النحو المرجو من الجهود التي قام بها ابن الخشاب، إذ تمكَّن ايلغازي بن أرتق من تنظيم القوات المشتتة والمضطربة في حلب، واستطاع إقناع بعض القادة المسلمين للانضمام إلى قواته، كصاحب بدليس[2] وأرزن[3] الأمير طغان أرسلان بن المكر وطغتكين أتابك دمشق الذي قدم بنفسه للمشاركة[4]، كما أعلن أبو العساكر سلطان بن منقذ أمير شيزر استعداده لمهاجمة إمارة أنطاكية من ناحية الجنوب لإجبار حاكمها روجر على الانصراف إلى جهة أخرى[5].

ليحتشد لايلغازي من القوات ما يقارب الأربعين ألف من المقاتلين، سار بهم لنصرة حلب في واحدة من أقوى المعارك بين المسلمين والصليبيين[6]، والتي يطلق عليها في المصادر العربية بمعركة سرمدا وفي المصادر اللاتينية باسم معركة حقل الدم وذلك في 16 ربيع الأول 513هـ/25 جوان 1119م[7]، وقد كان فيها النصر لصالح المسلمين ووُجد مُقدِّمهم روجير صريعًا بين القتلى[8].

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، 186/2-187.

(2) بدليس، بلدةٌ بنواحي أرمينية قرب خلاط، ذات بساتين كثيرة، ياقوت، معجم البلدان، 358/1.

(3) أرزن، مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعةٌ حصينة، وكانت من أعمر نواحي أرمينية، ياقوت، معجم البلدان، 150/1.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص200، ابن الأثير، الكامل، 185/9.

(5) رنسيمان، تاريخ، 236/2.

(6) فايد حماد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية –العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي–**، مؤسسة الرسالة، ط4، بيروت، 1408هـ/1988م، ص164.

(7) أطلق فوشي الشارتري على هزيمة صليبيي أنطاكية أمام الحلف الإسلامي بقيادة ايلغازي "بالمذبحة"، كما وأنَّهُ لم يتعرَّض إلى تفاصيل المعركة وعمد على المرور عليها مرور الكرام معللاً ذلك بقوله:" لا نودُّ أن نثقل على قارئ هذا التاريخ بتعداد كل الحوادث المشؤومة التي وقعت ذلك العام في منطقة أنطاكية"، كما وأشار إلى تعداد قتلى الصليبيين فيها فأحصاهم بسبعة آلاف من الرجال في حين لم يقتل من

ويضيف أيضًا ابن القلانسي[1] مشيدًا بهذا النصر فيقول:" وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح والنصر الممنوح، لم يتَّفق مثلهُ للإسلام في سالف الأعوام ولا الآنف من الأيام"، وبهذا تحقق للمسلمين النصر على الصليبيين بفضل الموقف الإيجابي لشخصية شيعية عملت على شحذ همم قادة سنيين للدفاع عن الكيان الإسلامي ضد العدو بعيدًا عن تأثير الخلاف والتعصب المذهبي، الذي لم يجن منه المسلمون منذ مجيء الصليبيين سوى مزيد من الضعف والهوان وشدَّة المآسي[2].

غير أنَّ هذا الموقف لابن الخشاب لم يكن الوحيد في سعيه للحفاظ على حلب من السقوط تحت سيطرة الصليبيين من خلال الاستعانة بقادة مسلمين سنيين، حيث ضرب هذا الفقيه الإمامي موقفًا آخر لا يقل أهمية عن مساهمته في نصر سرمدا، وذلك حينما حاصر ملك بيت المقدس بلدوين الثاني حلب سنة 518هـ/1125م راغبًا في تملُّكها، وذلك بمساعدة قوى صليبية قادمة من الرها وأنطاكية وقوى إسلامية متعاونة أبرزهم الأمير الشيعي دبيس بن صدقة حاكم الحلَّة – وقد تناولنا أحداث هذه المحاولة سابقًا-.

فقد آثر ابن الخشاب الوحدة مع قوى سنية لرد الحصار الخانق على المدينة على سقوطها بيد القوات الصليبية، متجاوزًا بذلك سمة التطرف المذهبي الغالب على كثير من رجالات تلك المرحلة عند الطرف الإسلامي، فاستنجد -كما أشرنا آنفًا- بحاكم الموصل السني آق سنقر البرسقي، وبعث إليه وفدًا من ضمنهم جدُّ المؤرخ ابن العديم، يستحثُّه على إنقاذ حلب من السقوط[3].

وصل الوفد الحلبي إلى الموصل فوجدوا البرسقي مريضًا طريح الفراش، وقد مُنعَ الناس من الدخول عليه سوى الأطباء، فاستأذنوا للدخول عليه فأُذن لهم، فدخلوا إليه واستغاثوا به مما أصاب أهل حلب من الكرب جراء الحصار الصليبي، فأكرمهم ووعدهم إن عوفي من مرضه سار إليهم لنصرهم على عدوهم؛ فما

المسلمين سوى عشرين، أمَّا وليم الصوري فقد عرض للمعركة بتفاصيلها الدقيقة، أنظر، تاريخ الحملة، ص186، الحروب الصليبية، 348/2-352.

[8] ذيل تاريخ دمشق، ص200-201، وانظر أيضًا حول هذه المعركة عند، فوشي الشارتري، تاريخ الحملة، ص186، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 248/2-252، ابن العديم، ابن الأثير، الكامل، 185/9-186. زبدة الحلب، 271/1-272.

[1] ذيل تاريخ دمشق، ص201.

[2] الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص164.

[3] ابن العديم، زبدة الحلب، 227/2، وأنظر، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص212، العظيمي، تاريخ حلب، ص374-375، ابن الأثير، الكامل، 230/9، أبو الفدا، المختصر، 238/2.

مضت ثلاثة أيام بعد ذلك حتَّى تعافى من مرضه، فأمر عساكره بالتأهب لمساندة إخوانهم في حلب ضد عدوه وعدوهم[1].

جمع آق سنقر جيشًا عظيمًا وسار به صوب حلب، وحينما اقترب الجيش تفرَّقت جموع الصليبيين المحاصرين خوفًا من البطش والتنكيل، لعلمهم بعدم قدرتهم على مواجهته وهو في تلك الجموع، فيقول في هذا الصدد ابن القلانسي[2]:" فلمَّا وصل إليهم في ذي الحجة من السنة (518هـ) وعرف الإفرنج خبره وحصوله قريبًا منهم وما هو عليه من القوة وشدة الشوكة، أجفلوا مُوَّلين ورحلوا منهزمين"، فدخل على إثر ذلك البرسقي حلب مظفَّرًا دون قتال رافعًا عن أهلها الحصار ومنهيًا عنهم الضيق والهوان.

وهكذا منحت لنا صورتي أمير الحلة وقاضي حلب الإماميين موقفين متناقضين لأثر الصراع المذهبي على سير نشاط المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي بالمشرق، فمثَّل أحدهما الموقف المتعصِّب الساعي لاستغلال الفرقة المذهبية بين المسلمين في تحقيق مآرب شخصية ضيقة، في حين أعطت مواقف ابن الخشاب مثالاً على مدى إمكانية تجاوز الأطراف الإسلامية للاحتقان المذهبي في سبيل تحقيق المصالح العليا لأمة الإسلام.

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، 228/2، وأنظر، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص212، العظيمي، تاريخ حلب، ص374-375، ابن الأثير، الكامل، 229/9-230.

(2) ذيل تاريخ دمشق، ص212.

الفصل الرابع

الفصـل الرابع

جهود الزنكيين لتحقيق الوحدة المذهبية وتقوية الجبهة الداخلية ضد الصليبيين

(521 هـ - 569هـ/1127م- 1173م)

أولاً: آل زنكي، جهود لإعادة رسم الخريطة المذهبية ببلاد الشام وأخرى لمقارعة الوجود الصليبي:

1- عماد الدين زنكي ورسم معالم الوحدة

2- مساعي نورالدين محمود زنكي لتغليب كفة التسنن بحلب ودمشق

3- ردود فعل الشيعة على مواقف نورالدين وجهوده في إضعاف مذهبهم ببلاد الشام

ثانياً: استهداف مصر، جهود نورالدين محمود لتحقيق الوحدة المذهبية بين الشام ومصر:

1- ترنُّح التشيع في صالح مشروع الوحدة

2- مصر الإسماعيلية بين سنيي الشام وصليبيي بيت المقدس

3- نورالدين وعموري الأول وجولات الصراع لضم مصر

أولاً: آل زنكي، جهود لإعادة رسم الخريطة المذهبية بالمشرق وأخرى لمقارعة الوجود الصليبي:

خلصنا – فيما سبق- إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ تمكُّن الصليبيين من تأسيس كيانات لهم بالمنطقة في ذلك الوقت الوجيز إنَّما سببه المباشر الصراع المذهبي بين قوتي السلاجقة السنيين من جهة والفاطميين الشيعة الإسماعيلية من جهة أخرى، إضافةً إلى نشاط النزارية (الحشيشية) المتنامي خلال تلك المرحلة، وكل ذلك من منطلق الأحقية الشرعية في تولي أمور المسلمين الدينية وسياستهم في شؤونهم الدنيوية.

كما تطرقنا في الفصل نفسه إلى جهود العديد من القادة المسلمين من الطرفين (السني والشيعي) في محاولة تجاوز ذلك الخلاف المذهبي – ولو مؤقتًا – للحفاظ على ما تبقى للمسلمين من أقاليم كانت مهددة بالتوسع الصليبي الزاحف وخاصةً مصر، ومن هؤلاء حكام الموصل وابن عمار صاحب طرابلس وطغتكين أتابك دمشق والأفضل بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي، وقاضي حلب الفقيه الإمامي ابن الخشاب، غير أنَّ تلك الجهود لم يكتب لها الاستمرار طويلاً بسبب حدَّة التطرف في تبني العقيدة لدى بعض الأطراف الإسلامية في بعض الأحيان، وعدم وجود من يضع استراتيجيات وحدوية بعيدة المدى توفر للجبهة الإسلامية الاستقرار المنشود والقوة العسكرية اللازمة تحت قيادة واحدة رشيدة.

ومع دخول القرن السادس الهجري عقده الثالث وتولي آل زنكي (عماد الدين ثم ابنه نورالدين محمود) الحكم في بلاد الجزيرة والشام بدأت حركة المقاومة الإسلامية تأخذ منحى آخر نحو الإيجابية، بعد أن أخذ حكام هذه الأسرة على عاتقهم ترميم الجبهة الداخلية سياسيًا وعقائديًا[1]، فانصبَّ على ذلك اهتمامهم بإنهاء ظاهرة الانقسام السياسي وتشتت الولاء الروحي لبناء جبهة موحَّدة قادرة على الوقوف في وجه الأطماع الصليبية المتنامية.

1- عماد الدين زنكي ورسم معالم الوحدة (521هـ-541هـ/1127م- 1146م):

تولى عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر البرسقي حكم الموصل وبلاد الجزيرة بعد وفاة حاكمها عزالدين مسعود بن أقسنقر البرسقي سنة 521هـ/1127م، حيث ذهب وفدٌ من أعيان الموصل إلى السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه يلتمسون منه تعيين عماد الدين زنكي على ولاية الموصل، لما رأوه فيه من كفاءة ومقدرة على مواجهة الصليبيين، إذ شارك من قبل في عدَّة معارك رفقة

---

[1] عبد الله بن سعيد محمد سافر الغامدي، **مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين "زمن عماد الدين زنكي وابنه نورالدين محمود**، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1414هـ، ص6، وأنظر، محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، ص88-89.

كربوغا وقادة آخرين أبان فيها عن شجاعة وإقدام كبيرين[1]، فاستجاب السلطان لمطلبهم وأصدر منشورًا بتعيين عماد الدين حاكمًا للموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام.[2]

وقد لخَّص ابن الأثير[3] الحال الذي كان عليه المسلمين زمن تولي عماد الدين حكم الموصل، ودور هذا الأخير خلال تلك المرحلة فذكر بأنَّ الفرنج حينها قد اتسعت بلادهم وكثر جندهم وزادت سطوتهم وبطشهم، وملكوا الكثير من ديار الإسلام، ولم يكن المسلمون قادرين على ردعهم لضعفهم واضطراب أحوالهم، فساموهم سوء العذاب "وركبوهم بالتبار والتباب، واستطار في البلاد شررهم، وعمَّ أهلها شديد حيفهم، وعظيم قهرهم"، فكان عماد الدين زنكي رجل المرحلة القادر على مواجهتهم لما عرف عنه من الشجاعة والشهامة وحسن الرأي.

وإن كان عماد الدين قد تولى حكم الموصل – أهم مدن المقاومة وقتذاك- في العقد الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي؛ أي بعد ثلاثين سنة من قدوم الصليبيين سنة 489هـ/1096م، وفي فترة كانت موازين القوة مائلة للطرف الصليبي إلى حدٍّ كبير، إلاَّ أنَّ خبرته التي كسبها بمعاصرته قادة بعث فكرة الجهاد الإسلامي في الموصل منذ عهد كربوغا، جعلته يعي جيدًا عوامل القوة التي تمتع بها الصليبيون خلال كل تلك الفترة[4]، وفي المقابل كان يدرك أتمَّ الإدراك أهم نقاط الضعف

---

[1] للاطلاع أكثر على مساهمات عماد الدين في حركة المقاومة الإسلامية قبل ولايته للموصل وبلاد الجزيرة، وذلك تحت قيادة رجالات المقاومة في الموصل ككربوغا وجكرمش والأمير مودود بن ألتونتكين وآقسنقر البرسقي (ليس والده)، راجع، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت630هـ/1232م)، **الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل**، تح، عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963، وأنظر، حامد غنيم أبوسعيد، الجبهة الإسلامية، ص163-168، مسفر بن سالم عريج الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص177-185.

[2] ابن الأثير، الكامل،242/9-243، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 206/20-207، أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت665هـ)، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1422هـ/2002م، 155/1-156، ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ)، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح، جمال الدين الشيال**، 31/1-33، أبو الفدا، المختصر، 239/2.

[3] التاريخ الباهر، ص32-33.

[4] اشترك عماد الدين في عدة مواجهات بين حكام الموصل والقوى الصليبية في المنطقة قبل توليه الحكم، حيث اشترك مع مودود بن الونتكين حاكم الموصل في حملة استهدفت فتح الرها سنة 505هـ/1111م، غير أنَّ المدينة استعصت على القوات الإسلامية ممَّا حمل مودود على رفع الحصار عنها، كما شارك عماد الدين في الهجوم الذي قاده تحالف مودود وطغتكين ضد ممتلكات إمارة بيت المقدس سنة 507هـ/1113م، وقد أظهر عماد الدين خلال تلك المعارك شجاعةً نادرة لم يسمع بمثلها، أنظر، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 17-19.

التي أربكت الجبهة الإسلامية وجعلتها غير قادرة على المواجهة بندية، فضلاً على تحقيق مكاسب ملموسة وفعَّالة ضد العدو الطارق رغم الجهود الحثيثة المبذولة من قبل عديد القادة السابقين له.

وعلى هذا الأساس وانطلاقًا من هذا الوعي والإدراك وضع عماد الدين زنكي سياسة مغايرة لسابقيه في مواجهة التواجد الصليبي بالمنطقة وخاصة في بلاد الجزيرة وشمال الشام الأقرب إلى إقليم حكمه، سياسةً ترتكز على تقوية الجبهة الداخلية الإسلامية وتوحيدها سياسيًا وعقائديًا قبل توجيه جهودها لمواجهة الصليبيين، وذلك من خلال القضاء على ظاهرة التفتت والانقسام والعمل على جمع القوى الصغيرة المتناثرة والمتناحرة فيما بينها في المنطقة تحت لوائه لتكوين جبهة قوية موحدة.

وقد أشار إلى هذه السياسة كل من ابن الأثير وأبوشامة وابن واصل [1]، حيث ذكروا أنَّ أكبر هَمٌّ كان لدى عماد الدين زنكي – حاكم الموصل- هو عبور الفرات وتملُّك الأراضي بين الموصل وحلب ومن ثمَّ التفرغ لجهاد الصليبيين، لذلك بادر إلى مهادنة جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التي بيد الفرنج في إقليم الجزيرة لمدة يسيرة يعلمُ أنَّهُ يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي لهُ من البلاد الشامية والجزرية وإصلاح شأنها وإقطاعها لمن يَعرفُ نصحهم وشجاعتهم.

ساهمت الظروف السياسية المضطربة التي مرَّت بها منطقة الجزيرة وشمالي بلاد الشام عقب وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه 485هـ/1092م ودخول أفراد البيت السلجوقي في صراعات مريرة حول الحكم، في تشكُّل مجتمعات منعزلة إلى حدٍّ ما نتيجةً لضعف الرابطة السياسية بين الإمارات المحلية المتناثرة بالمنطقة، واستقلال كل واحدة منها في مواجهة مشكلاتها ومعالجة شؤونها، فأضحى لكلٍّ واحدة من هذه الوحدات السياسية كيانها الخاص وذاتيتها المتميزة، فرأى عماد الدين زنكي ضرورة ضم هذه الوحدات المحدودة الاتساع والضعيفة القوة إلى سلطانه لتقوية جبهة المقاومة الطامح لإقامتها انطلاقًا من هذه المنطقة[2].

شرع عماد الدين في تجسيد سياسته عمليًا فضمَّ بلدة البوازيج[3] الواقعة على الطريق إلى الموصل في نفس السنة التي تولَّى فيها حكم الموصل وبلاد الجزيرة، ثمَّ ضمَّ جزيرة ابن عمر التي كانت تحت حكم

---

[1] التاريخ الباهر، ص37، الروضتين، 157/1، مفرج الكروب، 36/1.

[2] محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، ص99.

[3] البوازيج، بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة، ياقوت، معجم البلدان، 503/1.

أحد مماليك أقسنقر البرسقي[1]، ثمَّ سار عنها إلى نصيبين وكانت لحسام الدين تمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين، فلمَّا نازلها عماد الدين سار صاحبها حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان صاحب حصن كيفا[2] يستنجده على دفع أتابك الموصل، فأجابه داود لذلك، غير أنَّ أهل نصيبين رأوا تسليم المدينة إلى عماد الدين بعدما خافوا على أنفسهم وعلموا عدم قدرتهم على حفظ البلد قبل قدوم نجدة حسام الدين وابن عمِّه إليهم، وكان ذلك سنة 521هـ/1127م كذلك[3].

سار عماد الدين بعد نصيبين نحو سنجار[4] فامتنعت عليه وقاومه أهلها في البداية، لكنّهم عادوا وصالحوه وسلموا إليه البلد، ثُمَّ واصل مسيره صوب الخابور[5] فملك كُل ما يحيط به من قرى، ليواصل بعدها سيره صوب حرّان[6] التي كانت في ضيق شديد من حصار الصليبيين المسيطرين وقتها على الرها وسروج وكُلُّها مدن من أعمال الجزيرة، ولم يكن بحرَّان من يدافع عنها أو يحميها، فأرسلوا إلى عماد الدين يستحثونه على الوصول إليهم، فسار إليهم مُجدًّا حتَّى نزل عندهم فاستبشروا بقدومه وخرجوا إلى لقائه مرحبين[7].

بعد أن فرغ عماد الدين من ضم الكثير من البلاد الجزرية التي كانت بيد الأراتقة، وكذا بعض المماليك الذين كانوا تابعين لآقسنقر البرسقي، أخذ يحضِّرُ لملك حلب باعتبارها أبرز مدن شمال الشام التي يمكن الاعتماد عليها كنقطة انطلاق في مواجهة الصليبيين، بالإضافة إلى كون حلب كانت في يوم من الأيام تحت حكم والده آقسنقر الحاجب، وبها قبره، فلا غرو أن يكون الاستيلاء عليها من أهم الأمور عند

---

[1] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص36، ابن الأثير، الكامل، 243/9، أبو الفدا، المختصر، 239/2.

[2] حصن كيفا، أو كيبا، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، وهي لصاحب آمد من ولد داود بن سقمان بن أرتق، ياقوت، معجم البلدان، 265/2،

[3] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص36–37، ابن الأثير، الكامل، 244/9، أبو الفدا، المختصر، 239/2،

[4] سنجار، مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 78/5، القزويني، آثار، ص393، البكري، معجم ما استعجم، 760/3، الاصطخري، المسالك، ص53، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص154.

[5] الخابور، هو اسم لنهر كبير بين رأس عين الفرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة وبلدان جمَّة غلب عليها اسمه فنسبت إليه، ياقوت، معجم البلدان، 334/2.

[6] حرّان، مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وبينها وبين الرّقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والرّوم، ياقوت، معجم البلدان، 235/2، وأنظر، القلقشندي، صبحي الأعشى، 319/4.

[7] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص37، ابن الأثير، الكامل، 244/9، أبوشامة، الروضتين، 77/1، أبو الفدا، المختصر، 239/2.

عماد الدين زنكي[1]، فعاد في سنة 522هـ/1128م إلى الموصل قصد عبور الفرات والاتجاه للسيطرة على حلب.

وفيها (حلب) كان الفرنج يقاسمون أهلها على رحا بباب الجنان، فلمّا سمع من بها بقرب وصول عماد الدين إليهم، أرسلوا إليه يستغيثون به ويستنصرونه ويذعنون له بالطاعة والولاء لتخليصهم ممَّا هم فيه، فسار إليهم عبر الفرات فملك مدينة منبج وحصن بُزاعة[2]، ثمَّ سار إلى حلب فالتقاهُ أهلها بفرحٍ وسرور فدخلها سنة اثنتين وعشرون وخمسمائة[3].

واصل عماد الدين جهوده لإخضاع القوى والإمارات الصغيرة المتناثرة في إقليم الجزيرة وشمال بلاد الشام وفق الإستراتيجية التي خطَّها في مواجهة الصليبيين، غير أن تلك الجهود السياسية لعماد الدين زنكي لم تكن سوى الخط الأول على طريق الوحدة المرجوة بالنسبة للجبهة الإسلامية، إذ حرص هذا الأخير وولده نورالدين بعد ذلك وبالموازاة مع الخط الأول على السعي في تحقيق الوحدة المذهبية للمشرق الإسلامي[4] بأساليب عدَّة ومتنوعة، تراوحت بين وحدة الولاء الروحي لخليفة بغداد السني واعتباره الممثل الشرعي لجبهة المقاومة ضد الصليبيين وأنَّ الزنكيين ممثلين عنه في تلك الجبهة ووجب طاعتهم والامتثال لقيادتهم، وبين السعي إلى مقاومة المذهب الشيعي فكريًا وإضعاف وجوده على مستوى جبهة المقاومة بالتمكين للمذهب السني لبلوغ جبهة سنية خالصة سياسيًا وعقائديًا، على أنَّ الأسلوب الثاني قد عرف اهتمامًا ونشاطًا أكبر على عهد حكم نورالدين محمود.

تركزت جهود الوحدة على عهد عماد الدين زنكي على الجانب السياسي بحكم اضطراب الأوضاع بالمنطقة زمن حكمه للموصل، وفي نفس الوقت كانت تلك الجهود القاعدة التي ارتكز عليها ثمّ انطلق منها خلفهُ نورالدين لتحقيق الوحدة المذهبية للجبهة الإسلامية، كما حرص الزنكيون على إضفاء الشرعية الكاملة على تلك الجهود في بلاد الجزيرة والشام ثمَّ مصر من خلال التقرب من الخلافة العباسية في بغداد والإذعان لها بالولاء والطاعة، إذ لم يكن خافيًا عليهم ما كان للسلطة الروحية من دور إيجابي في استثارة

---

[1] حول فترة حكم قسيم الدولة أقسنقر والد عماد الدين لحلب، راجع، محمد ضامن، **من تاريخ حلب – حكم قسيم الدولة آق سنقر**، مجلة دراسات تاريخية، السنة التاسعة، عدد29، جامعة دمشق، ص 189 ومابعدها.

[2] بُزاعة، وهي بلدةٌ من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب، بينها وبين كل واحدة منهما مرحلة، فيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 409/1.

[3] التاريخ الباهر، ص37.

[4] محمد سافر الغامدي، مقومات حركة الجهاد، ص20.

حماس المسلمين في كلِّ مكان وحثِّهم على التوافد إلى ميادين الشرف والبطولة والانضواء تحت لواء القادة الممثلين لهم للدفاع عن دينهم ومقدساتهم وممتلكاتهم(1).

على أنَّ هذا الولاء للخليفة العباسي من قبل الزنكيين واعتباره رمزًا للشرعية، والذي يمثل أحد مظاهر إستراتيجيتهم في تحقيق الوحدة المرجوة للجبهة الإسلامية، لا يعني أنَّهم دُفعوا إلى ذلك اضطراريًا في سبيل إنجاح أهدافهم، وأنَّ نفوسهم غير راغبةٍ لهذا الفعل، ولكن هذا الأمر وفق تعبير محمد بن المختار الشنقيطي متأصِّل في ثقافة العنصر التركي منذ اعتناقهم الإسلام، حيث يرى أنَّ مكانة الخلفاء العباسيين الرفيعة لدى الأتراك قد تردد صداهُ في عديد مراسلات القادة السلاجقة في بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر إلى الخلفاء في بغداد، ففي هذه المراسلات كثيرًا ما ردد القادة السياسيون والعسكريون السلاجقة طاعتهم للخلفاء العباسيين، وتعلُّقهم القلبي بالأسرة النبوية التي انتسب إليها أولئك الخلفاء، واستمدوا منها قسطًا مهمًا من شرعيتهم السياسية (2).

ويضيف كذلك: "لقد استمر إضفاء مكانة دينية خاصة على الخلفاء العباسيين في الثقافة التركية، واعتبارهم مصدرًا لشرعية أي قائد تركي صاعد، على مدى قرونٍ مديدة، حتَّى بعد أن فقد الخلفاء العباسيون كل قوة سياسية وعسكرية على الأرض، وتحوَّلوا مجرد رمزٍ لوحدة المسلمين المعنوية، وكان العثمانيون هم أول قيادة تركية حرّرت نفسها تمامًا من السلطة الرمزية للعباسيين، في قطيعة مع تراث الدول التركية المتعاقبة، من طولونيين، وإخشيديين، وغزنويين وسلاجقة، ومماليك"(3).

وأكثر من ذلك، فإنَّ ولاء الزنكيين (الأتراك) الروحي للخلافة العباسية قد ظلَّ قائمًا رغم خوضهم في الصراعات التي نشبت بين العباسيين والسلاجقة على عهدهم، ووقوفهم في صف أفراد من البيت السلجوقي الطامعين لوراثة السلطنة متحدِّين في ذلك سلطة الخليفة العباسي السياسية، والذي يقف هو الآخر في صف شخصيات سلجوقية أخرى، فحدث أن تقدَّمت قوات عماد الدين زنكي سنة 526هـ/1132م لفرض سلطة مسعود بن محمد بن ملكشاه على سلاجقة العراق، لكن الخليفة المسترشد بالله رأى في ذلك تحدِّيًا لسلطته وقرر التوجه إلى تكريت لإيقاف تقدُّمه(4).

(1) محمد سافر الغامدي، مقومات حركة الجهاد، ص21.

(2) الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص51.

(3) نفسه، ص51.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، 1/47-48.

التقت جيوش الخليفة بقوات عماد الدين عند قصر معشوق[1] على الجهة المقابلة لمدينة سامراء، وانتهى اللقاء بهزيمة عماد الدين زنكي وأسر عدد كبير من قواته، لينسحب بعدها إلى تكريت[2] حيث أُكرم من طرف حاكمها نجم الدين أيوب –والد صلاح الدين- وسهَّل له سبيل عودته إلى الموصل[3].

على أنَّ هذا المثال – المقدَّم سابقًا- لا يُعبر بالضرورة على سائر مراحل العلاقات الزنكية – العباسية، حيث شهدت في بعض مراحلها علاقات ود سياسي مدفوعة بالمصالح الإستراتيجية لكل طرف، كما كان بين عماد الدين والخليفة الراشد سنة 530هـ/1136م[4].

وعلى أية حال فإنَّ ما يمكن أن نلخِّص به العلاقة المتناقضة للزنكيين مع الخلافة العباسية هو قول أرنولد الذي ذكر بأنَّ السلاجقة كانوا لا يحترمون الخليفة لمركزه السياسي، بل لأنَّه خليفة الله في الأرض[5]، وهذا القول يمكن أن يُطلق على باقي الترك ممن حكموا في ظل الخلافة العباسية قبل وبعد السلاجقة ومنهم آل زنكي.

وهكذا فإنَّ عماد الدين زنكي قد كان في أمس الحاجة لإضفاء الشرعية على جهوده الوحدوية، حتَّى يتحقق له القبول في الأقاليم التي يضمُّها إلى سلطانه، ويتمكَّن بعد ذلك من تشكيل جبهة قوية سياسيًا ومتماسكة عقديًا تواجه الطرف الصليبي بكل اقتدار وندِّية، وتعمل على استعادة الأقاليم التي استولوا عليها في حملتهم الصليبية الأولى.

إنَّ عملية تقييم جهود الوحدة الإسلامية التي رسم معالمها عماد الدين زنكي خلال سني حكمه، لا يمكن تلمُّس نتائجها إلاَّ من خلال المكاسب المحققة ضد الوجود الصليبي بالمنطقة، تلك المكاسب التي ستمنح لا محالة الزنكيين شرعيةً أعمق ونفوذًا أكبر وامتدادًا أوسع على مستوى الجبهة الداخلية، ولهذا فقد

---

[1] قصر معشوق، هو اسم لقصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامراء، بينه وبين تكريت مرحلة، عمَّرهُ المعتمد على الله، ياقوت، معجم البلدان، 156/5.

[2] تكريت، بلدةٌ مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخًا، ولها قلعةٌ حصينة في طرفها الأعلى راكبةً على دجلة، ياقوت، معجم البلدان، 38/2.

[3] ابن الأثير، الكامل، 265/9، ابن واصل، مفرج الكروب، 48/1-49.

[4] راجع حول أثر تداخل المصالح السياسية لعماد الدين زنكي والخلافة العباسية على العلاقة التي كانت تربطهما، محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، ص88-98، عبد الكريم حتاملة، **دور الخليفة المسترشد بالله في مواجهة نفوذ السلاجقة (512هـ-528هـ/1118م-1135م)**، مجلة جامعة أم القرى، السنة الحادية عشرة، ع18، الشريعة والدراسات الإسلامية (2)، 1419هـ/1998م، ص284-285.

[5] Arnold, the caliphate ,p 80.

انتقل زنكي بعد أن اطمئن على استقرار جبهته الداخلية نسبيًا وحصوله على التأييد والمباركة من قبل الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، إلى مواجهة الصليبيين في معاقلهم ومحاولة استعادة ما يمكن من حصون ومدن استولوا عليها قبلاً.

استهل عماد الدين زنكي حاكم الموصل وحلب حركة الجهاد والمقاومة ضد القوى الصليبية في المنطقة حين انتهز فرصة اضطراب الأحوال بأنطاكية سنة 524هـ/1130م، فخرج على رأس جيوشه وعسكر أمام حصن الأثارب[1] المتاخم لأعمال حلب، فاشتبك مع حاميتها في قتال عنيف انتهى بسقوط الحصن ومصرع العديد من الجند الصليبية[2]، ليتوجه بعد ذلك غربًا صوب قلعة حارم بالقرب من أنطاكية وهي بيد الصليبيين، فهادنه أهلها وبذلوا له نصف دخلها حتَّى لا يتعرض لهم، فأجابهم إلى ذلك[3].

كان لتلك الانتصارات المحققة من قبل عماد الدين زنكي في مستهل حكمه أثرٌ بالغ على الصليبيين الذين أحسُّوا بتغير كبير على مستوى ميزان القوة بينهم وبين المسلمين، حيث يصف ابن الأثير[4] شعورهم بقوله: "وضعفت قوى الكافرين وعلموا أنَّ البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع"، أمَّا عن المسلمين فقد استبشروا خيرًا بتلك الانتصارات وأيقنوا بالشام بالأمن وحلول النصر، فسيرت البشائر إلى البلاد، وأعلنت في الحاضر والباد، على وصف ابن الأثير دائمًا[5].

غير أنَّ جهود عماد الدين في مواجهة الصليبيين قد شُغلت بالصراع الداخلي الذي نشب في بغداد عقب وفاة السلطان محمود بن محمد سنة 525هـ/1130م، وخوضه في النزاع الذي قام بين أبناء البيت السلجوقي على السلطنة، ثُمَّ تعرضه للهجوم الذي قام به الخليفة المسترشد بالله على الموصل سنة

---

[1] الأثارب، جمع أثرب، من الثَّرب وهو الشحم الذي غشي الكرش، وهو من أمنع القلاع الصليبية المتاخمة لمدينة حلب، حيث ظلَّ هذا الحصن يشكِّل عاملاً من عوامل الضغط الصليبي على المدينة، فكان أهلها يلاقون الكثير من الضرر والضيق من هذا الحصن، ويعتبر أضرَّ شيء على حلب، أنظر، ابن الأثير، الكامل، 254/9، الحموي، معجم البلدان، 89/1.

[2] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص39-42، الكامل، 254/9، أبو الفدا، المختصر، 3/3، أرنست باركر، المرجع السابق، ص155-156.

[3] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص42، ، الكامل، 254/9.

[4] الكامل، 254/9.

[5] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص42.

526هـ/1131م[1] – تعرضنا له سابقًا –، فعماد الدين لم يكن بمقدوره تجنب الخوض في ذلك الصراع ليقينه بأنَّ استقرار الأوضاع في دار الخلافة عامل أساسي في نجاح حملاته ضد الإمارات الصليبية.

أخذ ذلك الصراع في حاضرة الخلافة يخفُّ ابتداءً بسنة 531هـ/1136م، بعد أن استقرت الخلافة للمقتفي بأمر الله أخ الخليفة المسترشد، كما تقرَّ الصلح بين السلطان مسعود بن محمد وعماد الدين زنكي[2]، ليعود أتابك الموصل إلى إكمال مسيرة المقاومة ضد الصليبيين مُحققًا العديد من الانتصارات كانتزاع حصن بعرين (أوبارين)[3]سنة 531هـ/1137م بعد حصارٍ خانق، وكذا الاستيلاء على كفرطاب وحصن عرقة سنة 532هـ/1138م، كما تمَّ لهُ استعادة حصني بُزاعة والأثارب في مستهل سنة 533هـ/1139م[4].

وعلى أية حال فإنَّ كُلَّ ما حققه زنكي إلى غاية سنة 533هـ/1139م، لا يمكن أن يقارن بما حققه بعد ذلك، وذلك لأنَّ الصليبيين لا يزالون محافظين على إماراتهم التي أسسوها في حملتهم الصليبية الأولى، فإنْ أراد عماد الدين منح قيمة لانتصاراته أمام المسلمين، وكذا لإبراز قوته للصليبيين فقد وجب عليه استعادة تلك الإمارات منهم، وعليه فقد كانت إمارة الرها هدفه المنشود[5].

سعى عماد الدين إلى استعادة الرها بشتى الطرق، حتَّى وإن كانت بالحيلة، فعماد الدين رأى بأن مسيره إلى الرها مباشرة سيدفع بالفرنجة إلى التوحُّد ضده، وبالتالي إحباط حملته، فاتجه إلى ديار بكر مُوهمًا صاحب الرها (جوسلين الثاني الذي كان بتل باشر) بأنَّه مُنشغلٌ عنه بإخضاع حليفه صاحب ماردين قر

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 263/9-265، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص44- 46، ابن واصل، مفرج الكروب، 47/1، 52، وللاستزادة حول الموضوع راجع عبد الكريم حتاملة، دور الخليفة المسترشد في مواجهة السلاجقة، ص 282-284.

[2] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص256-257.

[3] كانت هذه القلعة من أمنع معاقل الصليبيين وأحصنها، حيث اتخذها الصليبيون قاعدةً يشنون منها الغارات على البلاد الواقعة بين حمص وحلب، وقد تسلَّم عماد الدين القلعة من أهلها مقابل خمسين ألف دينار، وذلك بعد أن سمع بوصول إمدادات الصليبيين من الجيوش أنظر، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص259، ابن الأثير، الكامل، 298/9-299، أمَّا أبو شامة فقد ذكر فتح بعرين سنة 534هـ/1130م، أنظر، الروضتين، 165/1-166، أنظر أيضًا ابن الأثير، الباهر، ص59، ونلاحظ هنا تناقض ابن الأثير في كتابيه الكامل والباهر حول سنة فتح هذا الحصن.

[4] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص57، ابن العديم، زبدة الحلب، 269/2-270، ابن واصل، مفرج الكروب، 83/1.

[5] كانت إمارة الرها الصليبية تشكل خطرًا كبيرًا على المسلمين، لموقعها بين العديد من الإمارات الإسلامية، فكانت عائقًا حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها لصالح خصوم عماد الدين من الأمراء المسلمين في المنطقة، كما أنَّها كانت تُمثِّل قاعدة للصليبيين في غاراتهم على أملاك المسلمين في بلاد الجزيرة، ولهذا فقد كان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية ودينية، أنظر، ابن الأثير، الكامل، 331/9، الباهر، ص67، ابن واصل، مفرج الكروب، 93/1، Grousset, op, cit, vol2, p172

أرسلان، فتمكَّن عماد الدين من الاستيلاء على العديد من القلاع في ديار بكر،[1] أما صاحب الرها فلم يكن بإمكانه الانشغال عن حليفه أمير ماردين فخرج بجيوشه لمساعدته في رد حملة عماد الدين،[2] تاركاً حماية الرها لأهاليها من الأرمن والسريان والنساطرة واليعاقبة، وكان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة.[3]

لما سمع عماد الدين بتحرك جوسلين من الرها، عقد الصلح مع الأراتقة وسار إليها،[4] وفرض عليها حصارًا دام أكثر من ثمانية وعشرين يومًا، أرسل فيها لأهل المدينة يعرضُ الأمان مقابل تسليمها إيَّاه، لكنَّ زعماء المسيحيين رفضوا عرض زنكي أملاً في وصول نجدات الأمراء الصليبيين، ممَّا دفع بعماد الدين إلى تشديد الهجمات عليها حتى سقطت في حوزته، في 16 جمادى الآخرة 539هـ/23 ديسمبر 1144م.[5]

كان لانتصار عماد الدين زنكي المظفَّر على صليبيي الرها الأثر البالغ في خضوع منطقة شرق الفرات للسيطرة الإسلامية، حيث أنَّه وباستعادة الرها تمكَّن من استرجاع العديد من القلاع والأقاليم المجاورة للمدينة والَّتي كانت تحت السيطرة البيزنطية كسروج[6] والبيرة[7] وغيرها.[8]

واصل عماد الدين زنكي سياسيته في تقويض الوجود الصليبي في بلاد المسلمين، منذ استعادته للرها وإلى غاية تعرضه للاغتيال على يد أحد غلمانه، وذلك في ربيع الثاني 541هـ/سبتمبر 1146م،[9]

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 331/9ابن واصل، مفرج الكروب، 93/1، Setton : op.cit, Vol1,p 461 .

[2] رنسيمان، تاريخ، ص379، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 167.

[3] عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، 168.

[4] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 279، ابن واصل، مفرج الكروب، 93/1،

[5] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص279، ابن الأثير، 331/9، ابن العديم، زبدة حلب، 277/2–279، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 94/3، ابن واصل، مفرج الكروب، 93/1–94، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 2/ 606.

[6] سروج، بلدة قريبة من شمال حران في ديار مضر ببلاد الجزيرة، حسنة حصينة، كثيرة الأشجار والمياه والفواكه والزبيب، طولها ثلاث وسبعون درجة وعرضها سبع وثلاثون، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 5/ 42، البكري، معجم ما استعجم، 737/3، الاصطخري، المسالك والممالك، ص 55، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 101/3.

[7] البيرةّ، قلعة حصينة على جبل مشرف على الفرات من شرقيها على الطول مائي، لها مما يلي الفرات حائط ممتد، ومما يلي البر سور وأبرجة طولها اثنتان وسبعون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها سبع وثلاثون، ابن شداد، الأعلاق، 120/3.

[8] ابن الأثير، الكامل، 102/11، أبو شامة، الروضتين، 103/1، ابن واصل، مفرج الكروب، 96/1، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 106/3.

[9] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص444، ابن الأثير، الكامل، 110/11، أبو شامة، الروضتين، 107/1، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 3/ 183، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 278/5. Stevenson, op, cit, p131

لتنتهي بذلك صفحة مشرقة في تاريخ المقاومة الإسلامية على يد هذا البطل الذي قيل بأن مقتله كان بمثابة قتل المسلمين جميعًا.

وممَّا سبق ذكره يمكن القول أنّ عماد الدين زنكي قد تمكَّن من تحقيق أهدافه التي وضعها خلال مسيرته القيادية لجبهة المقاومة الإسلامية إلى حدٍّ كبير، والمتمثلة أساسًا في تحقيق الوحدة للجبهة الداخلية الشمالية سياسيًا تحت سلطانه، وإخضاعها بالموازاة لسلطة روحية واحدة هي سلطة الخليفة السني ببغداد، فكانت بذلك على قدرٍ كبير من التماسك والقوة، وتمتعت بوحدة القرار والتوجيه السياسي والمذهبي، هذا الأمر الذي افتقدته الجبهة الإسلامية قبل ذلك والذي أدّى إلى تمكُّن الصليبيين من تأسيس كيانات لهم بالمنطقة قبلاً.

وبقي لنا الإشارة إلى أنَّ سعي عماد الدين لضمان وحدة الولاء الروحي للجبهة الإسلامية الخاضعة لسلطانه لصالح خليفة بغداد السني لم تكن على مستوى الإقناع الفكري للرعية الشيعية المنتشرة في العراق وبلاد الشام ومحاولة إحداث تغيير جوهري على الاعتقاد الشيعي لصالح المذهب السني، ولكن بغية ضمان الاستقرار لجهود الوحدة السياسية الساعي إليها على أقل تقدير، وقد تكفَّل بهذا الأمر أي عملية **مناهضة** المذهب الشيعي فكريًا وإضعاف وجوده عقائديًا نجل عماد الدين زنكي القائد نورالدين محمود والذي خلفه في قيادة جبهة المقاومة، كما ولا بد من الإشارة كذلك إلى أنَّ نشاط عماد الدين زنكي قد شمل جزءًا من الجبهة الإسلامية والمتمثل في إقليم الجزيرة وشمال ووسط بلاد الشام، لتكون مهمة إكمال الطوق بضم الجنوب الشامي ومصر على عاتق نجله نورالدين محمود دائمًا.

أمَّا الهدف الثاني الذي نجح عماد الدين في تحقيقه خلال مسيرته النضالية الممتدة على مدار عشرون سنة هو ترجيح كفة الصراع مع الصليبيين لصالح المسلمين في كثير من موقعة بعد أن كانت مائلة كل الميل لهم، بل واستطاع إضعاف الوجود الصليبي في منطقة الجزيرة وشمال الشام باستعادته للرها أولى الإمارات الصليبية المؤسسة في البلاد الإسلامية، على أنَّ هذا الهدف لم يكن ليكتب له النجاح لولا قدرته على إنجاح الهدف الأول، فكانت الوحدة الداخلية سياسيًا وروحيًا بمثابة القاعدة المتينة التي مكَّنت لعماد الدين زنكي من تحقيق تلك المكاسب على الطرف الصليبي.

وبوفاة عماد الدين سنة 541هـ/1146هـ، انتقلت قيادة جبهة المقاومة الإسلامية لابنه نورالدين محمود فكان مُطالبًا بالعمل على تحقيق ثلاثة محاور أساسية تضمن الاستمرارية لجهود والده والمتمثلة في:

أولاً: استكمال مسار الوحدة السياسية بضم باقي مدن وأقاليم الشام الجنوبية إضافة إلى مصر لجبهة المقاومة التي وضع أسسها عماد الدين في الشمال، وإكمال الطوق على الإمارات الصليبية المتبقية وحصرها في الساحل الشامي.

ثانيًا: إنهاء ظاهرة تشتت الولاء الروحي للقوى الإسلامية بين خليفة بغداد السني وخليفة القاهرة الاسماعيلي وخليفة النزارية من شيوخ الجبل المتعاقبين، والسعي في تعزيز الوحدة المذهبية وتعميقها بجمع المسلمين تحت راية مذهب واحد وهو المذهب السني سياسيًا وعقديًا، فقد كان التوحيد في نظره يتضمن توحيد الصف والهدف في آن واحد، فأمَّا توحيد الصف فهو جمع بلاد الشام ومصر في إطار سياسة واحدة، وأمَّا توحيد الهدف فهو جمع المسلمين تحت راية مذهب واحد، وهو مذهب أهل السنة"[1].

ثالثًا: مواجهة الصليبيين بكل حزم وعزم لتحقيق مزيد من المكاسب واستعادة ما أمكن من أقاليم استولوا عليها زمن الضعف والاضطراب الذي كانت عليه القوى الإسلامية بالمنطقة.

2- مساعي نورالدين محمود لتغليب كفة التسنن بحلب ودمشق:

بعد وفاة عماد الدين زنكي (541هـ/1146م) انقسمت إمارته إلى قسمين، سيطر فيها الابن الأكبر سيف الدين غازي على الموصل، أمَّا أخوه نورالدين فقد تولَّى حكم حلب، فيما وُلِّي الابن الثالث نصير الدين حكم حرَّان التابعة لنورالدين، في حين بقي الابن الرابع قطب الدين في رعاية أخيه غازي بالموصل[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ حلب قد أخذت مكان الموصل من حيث الأهمية في حركة المقاومة الإسلامية خلال العهد النوري، فدور الموصل قد أخذ يتضاءل مع مُضي الزمن، لكون الوجود الصليبي في الجزيرة قد تحطم بسقوط مدينة الرها الصليبية بعد استعادتها من قبل عماد الدين زنكي سنة 539هـ/1144م، فصار تبعًا لذلك دور الموصل ثانويًا وارتقت حلب لتصبح عاصمة جهود المقاومة

---

(1) محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، ص 252.

(2) الأصفهاني، تاريخ آل سلجوق، ص191-192، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 284-285، ابن الأثير، الكامل، 341/9-342، ابن الأثير، الباهر، ص76 وما بعدها، ابن واصل، مفرج الكروب، 107/1.

Elisseeff (Nikita) ; **L'Orient Musulman au Moyen Age**, 622- 1260, Paris, 1977, p244.

الإسلامية وتتحمل حينها عبء المرحلة كُلَّه[1]، ولهذا ركَّز نورالدين نشاطه في التضييق على التشيُّع وتعزيز حضور المذهب السني في حلب لضمان استقرارها وتوجيه مختلف جهوده الفكرية والعسكرية انطلاقًا منها.

كان نورالدين محمود يعي جيدًا أنَّ قصر جهود الوحدة على الجانب السياسي فقط دون إحداث تغيير جوهري على الوضع المذهبي بالمنطقة من خلال تغليب كفة المذهب السني وترسيخه كعقيدة، (الحضور العقدي والفكري للمذهب السني لا الولاء الروحي الظاهري في الإطار السياسي) وفي المقابل التضييق على التشيع بفروعه (الإمامي والاسماعيلي والنزاري) وبخاصة في عاصمة حكمه حلب، هو أمرٌ في غير صالح إستراتيجيته، تلك الإستراتيجية التي خطَّها والده عماد الدين من قبل والقائمة على إنهاء ظاهرة التفتت الداخلي الإسلامي سياسيًا ومذهبيًا من جهة وتوفير الأمن والاستقرار لهذه الجبهة الداخلية من جهة ثانية، لتوجه تلك القوة بعد ذلك لدحر الوجود الصليبي بالمنطقة.[2]

سعى نورالدين محمود منذ أن آل حكم حلب إليه إلى إنهاء الانقسام المذهبي فيها فاستهدف الشيعة بفرقتيها الإمامية والإسماعيلية النزارية، ساعيًا لتغليب كفة التسنن بها، وهو يرى في ذلك من أوجب الأمور في سياسته الرامية لتقوية الجبهة الداخلية قبل الانتقال لمواجهة الخطر الخارجي المتمثل في الصليبيين، الذين لا يزالون محافظين على الكثير من قوتهم بتواجد ثلاث كيانات على الساحل الشامي (أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس) – رغم ما تحقق للطرف الإسلامي على عهد والده عماد الدين–، في مقابل ضعف الجبهة الإسلامية واضطرابها.

وقد أشرنا سابقًا عند الحديث عن الوضع المذهبي بحلب خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي كيف أن التشيع الإمامي بالمدينة قد غلب واستحكم منذ حكم بني حمدان لها، وأنَّ الإسماعيلية النزارية قد صار لهم النفوذ والسلطان منذ عهد الملك رضوان بن تتش 488هـ/1094م، ليشكل بذلك الشيعة غالبية سكان المدينة[3].

ولعلَّ من الوقائع التي تبرز مدى التغلغل الشيعي ونفوذه بحلب، أنَّ صاحبها سليمان بن عبد الجبار بن أرتق عندما عزم على بناء أوَّل مدرسة سنية في المدينة عام 517هـ/1123م اصطدم برفض أهلها

---

[1] حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص186.

[2] حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص186.

[3] محمد حمادة، تاريخ الشيعة، ص268، محمد محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية، ص457، الشيخ علي الابراهيم الطرابلسي، التشيع في طرابلس وبلاد الشام، ص72-74.

لذلك، ففسَّر ابن شداد[1] هذا السلوك بقوله:" إذ كان الغالب عليهم حينئذٍ التشيع، فكان كُلَّما بُني فيها شيءٌ بالنهار خربوه ليلاً إلى أن أعياه ذلك فأحضر الشريف زهرة بن علي بن محمد الحسيني[2]، والتمس منه أن يباشر بناءها بنفسه ليكُفَّ العامة عن هدم ما يبنى فيها، فباشر الشريف البناء، ملازمًا له، حتَّى فُرغَ منها"، وعليه فإنَّ اعتماد ابن أرتق على هذه الشخصية العلوية ذات المكانة والوجاهة لدى شيعة حلب لإنشاء المدرسة السنية أبرز مثال على استحكام التشيع وتمكنه بالمدينة.

ابتدأ نورالدين جهوده في إعادة رسم الخريطة المذهبية بالمشرق بالتضييق على التشيع بحلب، فألزم الشيعة بتغيير صيغة الأذان بمساجدهم إلى الصيغة المعتمدة لدى أهل السنة وذلك في رجب سنة 543هـ/نوفمبر1148م، كما أنكر عليهم إنكارًا شديدًا جهرهم بسب الصحابة رضي الله عنهم وحذرهم من مغبة العود لفعل ذلك، وقد ساعده على ذلك الفقيه الإمام برهان الدين أبو الحسن علي الحنفي وجماعة من السنة بحلب، فضاقت صدور الشيعة لما أقره نورالدين غير أنَّهُ لم يكن بمقدورهم مقاومة ذلك التغير بحلب[3].

كما أبعد نورالدين عن حلب بعض أعيان الشيعة ووجهائهم، وعلى رأسهم والد المؤرخ الحلبي يحي بن أبي طيء[4]، حيث يقول عن ذلك صاحب الروضتين[5]:"فإنَّ نورالدين رحمه الله تعالى كان قد أذلَّ

---

(1) الأعلاق الخطيرة، ج1 ق1، ص241.

(2) وكان الشريف من أكابر الأشراف وذوي الرأي والأصالة والوجاهة، مقدَّمًا في بلده، يرجعُ النَّاس إلى أمره ونهيه، وكان مُعظَّم القدر عند الملوك، ولما توجه عماد الدين زنكي إلى الموصل في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة أخذه معه، وأخذ القاضي أبا الحسن بن الخشاب وعزالدين أبا عبد الله محمد بن إسماعيل بن الجلي، فمات الشريف بالموصل سنة أربعين، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص241-242.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص301، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 384/20، أبو شامة، الروضتين، 213/1، ابن العديم، تاريخ حلب، 657/2-658، ابن تغري بردي، ابن قاضي شهبة بدر الدين (ت874هـ)، **الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نورالدين محمود بن زنكي)**، تح، محمود زايد، دار الكتاب الجديد، ط1، بيروت، 1971، ص130، النجوم الزاهرة، 272/5.

(4) هو منتجب الدين أبو زكرياء، وقيل أبو الفضل يحي بن حامد أو حميدة بن ظافر بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن الحسن بن صالح بن علي بن سعيد بن أبي الخير الطائي الغساني الحلبي النجار المؤرخ والأديب الحلبي المولد والمنشأ، ولد سنة 575هـ/1179م، ومات سنة 630هـ/1233م، وأمَّا والده فتذكر المصادر أنَّهُ ولد في العقد الأوَّل من القرن السادس الهجري (ما بين 501هـ- 509)، وكان من أعيان حلب ووجهائهم ورئيس حرفة النجارين فيها، وقد حظي والد ابن أبي طيء في حلب على التقدير والاحترام بوصفه أحد زعماء الشيعة فيها، غير أنَّ هذا الأمر عرَّضهُ للخلاف الشديد مع حكام حلب في عهد نورالدين ومن جاء بعدهُ، الكتبي، فوات الوفيات، 269/4، لؤي ابراهيم بواعنة، **يحي بن أبي طيء مؤرخا**، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد3، العدد2، 2009، ص41-44.

(5) أبوشامة، 77/2.

الشيعة بحلب وأبطل شعائرهم وقوّى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طيء من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب".

وقد قاد تعصُّب نورالدين ومعاونيه على الشيعة في حلب رغبةً منه في إنهاء سطوتهم، أن أمر الفقيه أبا الحسن علي بن الحسن البلخي الحنفي[1] برمي كل مؤذن من فوق منارة المسجد إذا رفع الأذان بالصيغة الشيعية، "ومنع المؤذنين من قولهم:"حي على خير العمل" وجلس تحت المنارة ومعه الفقهاء، وقال لهم:" من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه"، فأذنوا الأذان المشروع، واستمر الأمرُ من ذلك اليوم"[2].

زيادةً على كل هذه الإجراءات فقد رأى نورالدين أنَّ إضعاف الوجود الشيعي بحلب لن يتحقق إلاَّ بحركة فكرية مضادة تشابه ما قام به الوزير السلجوقي نظام الملك خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، فيكون التسنن من خلالها حاضرًا بقوة فكرية ثقافية تضاهي أو تفوق الحضور السياسي السني تحت سلطانه، وهذا كلُّه لإحداث نوع من التوازن بين المذهبين ثُمَّ التغلب في المستقبل، فاتخذ في سبيل ذلك بناء المدارس للمذاهب الفقهية السنية وخاصة على المذهبين الحنفي والشافعي وكذا خوانق الصوفية التي اهتمت في ذلك الزمن بالعبادة والدرس، إضافةً إلى دور تدريس الحديث الشريف[3].

ومن جملة المدارس التي بناها نورالدين في حلب المدرسة الحلاوية، وذلك سنة 543هـ/1148م، حيث اهتمت بتدريس الفقه الحنفي[4]، وقد أوكل مهام التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي، فكان هذا الفقيه وتلاميذه خير عون لنورالدين على تحقيق سياسته الرامية لمقاومة الفكر الشيعي.

كما بنى نورالدين للشافعية مدرسةً في السنة الموالية 544هـ/1149م وهي المدرسة النفرية النورية، وقد أوكل مهام التدريس فيها للإمام قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري الطرثيني المتوفى سنة

---

[1] هو الإمام أبو الحسن علي بن الحسن بن محمد البلخي الحنفي، الذي تنسب إليه المدرسة البلخية بباب البريد، نزيل دمشق ومدرِّس الصادرية، وعظ وأقرأ وجعلت له دار الأمير طرخان مدرسة، ثارت عليه الحنابلة لأنَّهُ نال منهم، وكان ذا جلالة ووجاهة، يلقَّبُ بالبرهان البلخي، توفي سنة ستة وأربعين وخمسمائة ودفن بمقابر باب الصغير، أنظر، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 276/20، ابن كثير، البداية والنهاية، 363/16، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 368/1.

[2] زبدة الحلب، 658/2.

[3] عبد المجيد أبو الفتوح، التاريخ السياسي والفكري، ص208-209.

[4] ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص 264.

(578هـ/1182م)[1]، وهو أحد أساتذة نظامية نيسابور، قدم على دمشق سنة 540هـ/1145م، فأقام بها يعظُ ويُعلِّم، فاستدعاه نورالدين إلى حلب للتدريس بهذه المدرسة[2].

ويرى الدكتور عبد المجيد عبد الفتوح[3] أنَّ اختيار نورالدين لأساتذة المدارس التي أنشأها في حلب لم يكن اعتباطيًا، وإنَّما سعى للاعتماد على من لهم قدم راسخة في علم الكلام وخاصةً من أئمة الشافعية وفقهائهم باعتبارهم الفئة التي كانت مهيأة للدفاع عن العقيدة السنية بعد أن تسلَّح معظمهم بعقيدة الأشعري ونذروا أنفسهم للدفاع عنها، فكان نورالدين بحاجة إلى مثل هؤلاء في حلب لمجابهة الفكر الشيعي بفرعيه الإمامي والاسماعيلي المتسلح هو الآخر بالجدل والفلسفة، وهذا كلُّه رغم كونه حنفي المذهب، ولكنَّهُ في دمشق اهتم أكثر بالعناية بمذهبه وفقهائه الحنفية باعتبارها بيئة سنية في طابعها والمذهب الشيعي لم يكن متغلغلاً بشكل كبير.

سعى نورالدين كذلك في إطار سياسته لتقوية المذهب السني على العموم بحلب وتلافي وقوع صدامات داخل المدارس الفقهية السنية، للاعتناء بعلماء وفقهاء المالكية والحنابلة وأوقف لهم بالمسجد الجامع بحلب زاويتين لتدريس فقههما[4]، وهو في ذلك يستفيد من السلبيات التي صاحبت تأسيس المدارس النظامية زمن نظام الملك والتي اهتمت بالتمكين للفقه الشافعي على حساب باقي المدارس الأخرى ممَّا خلق وضعًا فكريًا سُنيًا غير مستقر أدَّى في كثير من الأحيان إلى حدوث صدامات بين الشافعية وباقي المدارس الأخرى، وعليه فقد ساهمت هذه الخطوة من قبل نورالدين في التخفيف من حدَّة الصراع بين المدارس السنية[5].

إضافةً إلى كل ذلك فقد رأى نورالدين ضرورة العناية بتدريس الحديث الشريف وعلومه، وخاصةً خلال تلك الفترة لأهميته في تعبئة النّاس للجهاد في سبيل تحرير المقدسات والأقاليم الإسلامية التي استولى

---

(1) هو الفقيه العلامة أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود الطريثيثي الشافعي، ولد سنة خمس وخمسين ومائة، تفقَّهَ على محمد بن يحيى صاحب الغزالي وتأدَّب على أبيه، وسمع من هبة الله السيدي وجماعة، برع في الوعظ، وقدم دمشق سنة أربعين وخمسمائة، درَّس بالمجاهدية والغزالية، ثمَّ عاد بعد مدَّة إلى دمشق وانتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي بها، أنظر، الذهبي، العبر، 3/76-77، الحنبلي، شذرات، 432/6.

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص 248.

(3) التاريخ السياسي والفكري، ص 209- 211.

(4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص286.

(5) أنظر، عبد الفتوح، التاريخ السياسي والفكري، ص211، عبد الرحمن عزام، **صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني**، تر، قاسم عبده قاسم، دار بلومزبري، ط1، الدوحة، قطر، 2012، ص46، ، علال كبير، التعصب المذهبي، ص58 وما بعدها.

عليها الصليبيون، فكانت العناية بالحديث من ضرورات المرحلة بالنسبة لنورالدين والأيوبيين من بعده، وقبل ذلك فالاهتمام بالحديث الشريف هو من بين الوسائل التي اعتمدها نورالدين في التمكين للمذهب السني في الجهات التي انتشر بها التشيع ومنها حلب، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الأحاديث إلاَّ إذا كانت مروية عن آل البيت، وبذلك فهم يطعنون في صحاح السنة[1]، فخصص لأجل ذلك زاوية بجامع حلب ودارًا أخرى لتدريس الحديث[2].

وعلى نفس النهج سارت جهود نورالدين في دمشق للتمكين للمذهب السني، حيث اعتمد على المواجهة الفكرية كأسلوب للتضييق على الفكر الشيعي، وذلك منذ استيلاءه على دمشق سنة 549هـ/1154م[3]، فسعى في بناء المدارس السنية وربط الصوفية، وخصَّ في ذلك فقهاء المذهبين الحنفي والشافعي بأكثر الاهتمام[4]، فأنشأ المدرسة النورية الكبرى سنة 563هـ/1168م وجعلها وقفًا على الحنفية[5] وأوكل مهام التدريس بها لشيخ الحنفية في دمشق بهاء الدين بن عسكر، المعروف بابن العقادة (ت596هـ/1199م)، كما بنى للحنفية كذلك مدرسة بجامع القلعة سميت بالمدرسة النورية الصغرى[6]، وأما الشافعية فيذكر النعيمي[7] أنَّهُ بنى لهم بدمشق ثلاث مدارس هي: الصلاحية والعمادية والكلاسة.

---

(1) عبد الفتوح، التاريخ السياسي والفكري، ص 211.

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص286.

(3) تمكَّن نورالدين محمود من ضم دمشق لمنطقة نفوذه بعد جهود مضنية، بسبب ما كان يربط أهلها بصليبيي مملكة بيت المقدس من عهود تحالف، ولرغبته في عدم الدخول في صدام عسكري مع حاكمها مجير الدين أنر بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابك حقنًا لدماء المسلمين، فسعى نورالدين لأخذها بالحيلة من خلال إظهار المودة لحاكمها، كما عمل على بث نار الفتنة بينه وبين أمرائه، فكان يبعث برسائل من حين إلى آخر لمجير الدين يُخبره بأنَّهُ تلقى عروضًا من أمرائه للتدخل ضده، لكنه رفض للمودة التي كانت بينهما، وهو الأمر الذي دفع مجير الدين للتخلص منهم ومصادرة أملاكهم، حتَّى أنَّهُ حين قدم إليه نورالدين للاستيلاء على المدينة وجد نفسهُ وحيدًا أمام قوات نورالدين، أنظر، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص326-328، ابن الأثير، الكامل، 398/9، أبو شامة، الروضتين، 284/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 304/5.

(4) عبد الفتوح، التاريخ السياسي والفكري، ص 215.

(5) النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ)، **الدارس في تاريخ المدارس**، أعدَّ فهارسه، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، بيروت، 1990، 466/1.

(6) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 499/1، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص218.

(7) الدارس في تاريخ المدارس، 250/1، 308، 340.

لم يهمل نورالدين أصحاب المذهبين الآخرين والمتصوفة، فأوقف على زاوية المغاربة -وهم مالكية- بالجامع الأموي بدمشق ما يعينهم على تحصيل العلم وتدريس فقههم، وأمَّا الصوفية فشيَّد لهم خانقاه خارج المدينة[1] وأسند أمور ربطهم وزواياهم إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي بن حمويَّة.

ومثلما كان الاهتمام بالحديث الشريف وعلومه في حلب كان الأمر كذلك في دمشق، للأهمية التي بيَّناها سابقًا سواءً في مناهضة الفكر الشيعي أو تعبئة النَّاس لأمر الجهاد ضد الصليبيين، ومن ثمَّ بنا نورالدين أكبر دارٍ للحديث بدمشق، ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفًا كثيرة[2]، وأوكل أمر مشيختها لأحد كبار علماء عصره وهو الحافظ الكبير، تقي الدين أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر (ت571هـ/1175م)[3].

وأولى نورالدين عناية بالغة بتربية النشئ تربية سنية بعيدة عن بدع عقائد الشيعة، فبنى في دمشق وغيرها من المدن الخاضعة لنفوذه مكاتب للأيتام، وأجرى عليهم وعلى مدرسيهم النفقات، كما خصص للأيتام الذين يقرأون القرآن في المساجد التي شيَّدها أوقافًا معلومة، حيث يذكر ابن كثير[4] أنَّ نورالدين "وقف وقفًا على من يُعلم الأيتام الخط والقرآن، وجعل لهم نفقة وكسوة".

عمل نورالدين محمود كذلك على كسب ود الخلافة العباسية وربط علاقات طيبة معها -كما فعل والده عماد الدين من قبل- حتَّى يضفي على نشاطاته العسكرية والفكرية صبغة شرعية تمكِّنه من استكمال مشروع الوحدة السياسية والمذهبية للجبهة الإسلامية، ومن ثمَّ مواجهة الصليبيين بكل قوة واقتدار[5].

---

(1) ابن جبير، الرحلة، 231-232.

(2) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 74/1-75.

(3) هو الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله أبي الحسن بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر الدمشقي، الملقب ثقة الدين، كان محدث الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غلب عليه الحديث فاشتهر به، وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره، صنَّف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلد، أتى فيه بالعجائب، وهو على نسق "تاريخ بغداد"، وكانت ولادته في أول محرَّم من سنة تسعٍ وستين وأربعمائة وتوفي ليلة الاثنين الحادي عشر من رجب سنة إحدى وسبعين وخمسمائة دمشق، ودفن عند والده بمقابر باب الصغير- رحمهم الله تعالى-، وصلى عليه الشيخ قطب الدين النيسابوري وحضر الصلاة عليه السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى، أنظر، ابن خلكان، وفيات، 309/3-311.

(4) البداية والنهاية، 481/16.

(5) محمد مؤنس أحمد عوض، **في الصراع الإسلامي- الصليبي، السياسة الخارجية للدولة النورية (541هـ-569هـ/1146م 1174م)**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 1998م، ص55-56، مسفر بن سالم الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص291.

وفي حقيقة الأمر أنَّ الخلافة العباسية السنية هي الأخرى كانت بحاجة لقوة نورالدين محمود مادام يخدم مصالحها المذهبية، وبالخصوص سعيه في إنهاء السطوة الشيعية على بلاد الشام وطموحه في إسقاط حكم الفاطميين بمصر أعداء الخلافة الألداء، وجهوده كذلك في رد الصليبيين على الأقاليم الشامية والجزرية التي يعتبرها الخليفة العباسي جزءًا من أقاليم خلافته، وبهذا فقد توافقت رغبة الخلافة العباسية ومصالحها مع أهداف نورالدين زنكي في توحيد الجبهة الإسلامية(1).

تجلَّى ذلك التقارب وحسن العلاقة بين الطرفين في عدَّة مواقف، من بينها إرسال نورالدين إلى الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (530هـ-555هـ/1135م-1160م) جملة من الغنائم والأسرى التي حصل عليها بعد هزمه الصليبيين في بغراس(2) سنة 543هـ/1148م، كما أرسل في السنة الموالية 544هـ/1149م جمجمة وذراع ريموند صاحب أنطاكية بعد أن سقط صريعًا في معركة إنب التي قادها نورالدين(3).

كما بادر الخليفة العباسي عقب استيلاء نورالدين على دمشق سنة 549هـ/1154م بإرسال عهد لهذا الأخير ببلاد الساحل ومصر وأعمالها، وأمره بالمسير إلى مصر ولقَّبهُ بالملك العادل(4).

استمرت علاقات الود بين الطرفين رغم تعاقب أكثر من خليفة عباسي طيلة فترة حكم نورالدين؛ المقتفي لأمر الله (530هـ-555هـ/1135م-1160م)، المستنجد بالله (555هـ-566هـ/1160م-1170م)، المستضيء بأمر الله (566هـ-577هـ/1170م-1180م) لتكلل تلك العلاقات بتحقيق كل طرف لأهدافه المأمولة، فتمكَّن نورالدين من إتمام مسار الوحدة في بلاد الشام وضمَّ بعدها مصر لنفوذه سنة 567هـ/1171م، كما أنَّ هذا التاريخ نفسه يمثل سنة سقوط الخلافة الموازية للخلافة العباسية

(1) محمد مؤنس أحمد عوض، السياسة الخارجية، ص55-56، مسفر بن سالم الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص291.

(2) بغراس، مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربع فراسخ على يمين القاصد لأنطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرسوس، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 467/1.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 304-305، ابن الأثير، الكامل، 356/9، ابن الأثير، الباهر، ص91-92، ابن العديم، زبدة الحلب، 292/2-293، أبو شامة، الروضتين، 1-211، 215، ابن واصل، مفرج الكروب، 114/1، 120، أبو الفدا، المختصر، 20/3-21، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، 525/2-526، وإنب، حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 258/1، Stevenson, op, cit, p165

(4) الأصفهاني، دولة آل سلجوق، ص216، ابن واصل، مفرج الكروب، 132/1، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 223/3، السيوطي، حسن المحاضرة، 3/2.

وأشد أعدائها في العقيدة والمتمثلة في الخلافة الفاطمية الإسماعيلية، وقبل ذلك كان نورالدين قد أضعف مذهب مخالفيهم في حلب ودمشق وكثير من أقاليم الشام[1].

هذه هي أبرز الجهود التي قام بها نورالدين زنكي في سبيل إعادة رسم الخريطة المذهبية في كل من حلب ودمشق – أبرز مدن المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي الجاثم على المنطقة–، وقد كللت هذه الجهود بنتائج بالغة الأهمية على مستوى الجبهة الداخلية؛ حيث ولأول مرة منذ مجيء الصليبيين صارت جبهة المقاومة ضد العدو الصليبي من بلاد الجزيرة إلى جنوب الشام على قدرٍ كبير من القوة بفضل خضوعها روحيًا وسياسيًا لجهة واحدة ممثلة في الطرف السني (الخليفة العباسي ونورالدين محمود بن زنكي)، بالرغم ممَّا أبداه الشيعة من الإسماعيلية (نزاريين وفاطميين) والإمامية من ردود فعل اتجاه سياسة نورالدين المذهبية.

3- ردود فعل الشيعة على مواقف نورالدين وجهوده في إضعاف مذهبهم:

تركت جهود نورالدين في التمكين للمذهب السني في حلب ودمشق على الشيعة خوفًا ورهبةً على مستقبل مذهبهم، ورأوا بأنَّ ترك نورالدين يواصل تطبيق سياسته هذه بحرية سيؤدّي ذلك لا محالة لإضعاف التشيع والقضاء عليه تدريجيًا ببلاد الشام، فظلُّوا ينتهزون الفرص المواتية لإعادة نفوذ مذهبهم على المنطقة وممارسة شعائرهم الشيعية بحرية تامة.

كانت أولى الردود التي أبداها الشيعة في حلب في هذا الشأن سنة 552هـ/1157م حينما أصيب نورالدين بمرض ألزمه الفراش وأشرف على إهلاكه، فقام باستدعاء أخيه نصرة الدين أمير ميران وأسد الدين شيركوه وأعيان الأمراء والمقدّمين وأوصى إليهم ما رأى فيه ضروريًا لاستقرار الوضع بمملكته، فقرر معهم أن يكون نصرة الدين خليفته في الحكم بعده ويكون مقيمًا بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، كما أخذ على الأمراء العهد بتنفيذ ما تمَّ الاتفاق عليه[2].

ولكن، حينما قدِم على حلب نصرة الدين لخلافة أخيه على حكم المدينة، أغلق والي القلعة مجد الدين أبوابها في وجهه ومنعه من الدخول إليها، فوجد الشيعة في ذلك فرصة مواتية لإنهاء السطوة النورية على مذهبهم بالتقرب من نصرة الدين وتقديم العون له في أخذ الملك، شريطة السماح لهم بالعودة إلى

---

(1) مسفر بن سالم الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص291.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 349، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص153.

ممارسة شعائرهم التي أبطلها نورالدين كالتأذين "بحي على خير العمل"، فوعدهم بذلك ثُمَّ أجابهم بعد أن تمكَّن من دخول القلعة بمعاونتهم[1].

كان من نتائج هذا الدعم لشيعة حلب من قبل نصرة الدين ونظرًا لغلبتهم على المدينة، أن ثارت فتنة بين السنة والشيعة، نَهَب على إثرها الشيعة بعض المراكز التعليمية السنية كمدرسة ابن عصرون[2]، فلمَّا بلغ خبر ذلك إلى نورالدين أمر قاضي المدينة أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة بالمضي إلى الجامع وإقامة الصلاة بالنّاس، وأمر المؤذن بإعادة الأذان إلى ما كان عليه بصيغته السنية، فاجتمع أنصار الشيعة تحت منارة الجامع مستهجنين، فخرج إليهم القاضي وحذرهم، وبيَّن لهم أنَّ هذا من أمرِ نورالدين وأنَّهُ عوفي من مرضه وسيعود لحكم مملكته، فكان ذلك كفيلاً بتهدئتهم وإسكات صوت الفتنة داخلهم[3].

وأمَّا محاولتهم الثانية فقد كانت سنة 564هـ/1169م حيث أقدم الشيعة الإسماعيلية على حرق المسجد الجامع بحلب، لإسماع صوت الغضب فيهم من جراء سياسات التضييق التي مارسها نورالدين على شعائر مذهبهم، واختاروا لذلك جامع حلب باعتباره صار منارة سنية في المدينة، خاصةً بعد أن أوقف فيه نورالدين الكثير من الزوايا على المالكية والحنابلة وأهل الحديث، ليعيد نورالدين بناءه وتوسعته بعد ذلك[4].

كما ويرجح قيام إسماعيلية حلب بذلك العمل كرد فعل على تمكُّن نورالدين من الاستيلاء على السلطة بمصر عبر قائدي جيوشه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين والتي كانت تحت نفوذ الفاطميين الشيعة الاسماعيليون، فكانت تلك المحاولة من قبلهم لتشتيت جهود نورالدين وصرف نظره عن مصر لكونها عاصمة مذهبهم ونهايته بها يعني نهايته في الشام وباقي الأقاليم[5].

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، 2/308-310 (وهنا ابن العديم يؤرخ لأحداث سنة 554هـ، بخلاف ابن القلانسي الذي يوردها في أحداث سنة 552هـ)، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 349.

(2) كانت هذه المدرسة دارًا لأبي الحسن علي ابن أبي الثُّريا – وزير بني مرداس- فصيَّرها الملك العادل نورالدين محمود بن زنكي بعد انتقالها إليه بالوجه الشرعي مدرسةً وجعل فيها مساكن للمرتبين فيها من الفقهاء، وذلك في سنة خمسين وخمسمائة، واستدعى لها من حبل(جبل) – بناحية سنجار- الشيخ الإمام شرف الدين أبا سعد عبد الله بن أبي السِّري محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي بن أبي عصرون بن أبي السِّري التميمي الحديثي ثم الموصلي الشافعي، وكان من أعيان فقهاء عصره، ولما وصل إلى حلب ولِّي تدريس المدرسة المذكورة، والنظر فيها، وهو أوَّل مُدرِّس بها، فعُرفت باسمه، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص244-245.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، 2/309-310.

(4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص106.

(5) عبد المجيد أبو الفتوح، التاريخ السياسي والفكري، ص213.

لم تقتصر ردود فعل الشيعة على جهود نورالدين في إضعاف مذهبهم والقضاء عليه على إثارة الفوضى داخل حلب ودمشق بل سعوا في محالفة الصليبيين وتقديم العون لهم ضد نورالدين وحلفائه من السنة وخاصة من طرف النزاريين، فقد حدث أن تحالف علي بن الوفاء شيخ الإسماعيلية النزارية وانضم ببعض رجاله مع الزعيم الصليبي ريموند دي بواتييه في صفر من عام 544هـ/جوان 1149م، لرد الهجوم الذي بادر به نورالدين مع حليفه معين الدين أنر صاحب دمشق على حصن إنب التابع للصليبيين[1].

أسفرت نتائج تلك المعركة على هزيمة فادحة للفرنج وحلفاءهم النزارية؛ فقتل المسلمون منهم خلقًا كثيرًا، وسقط ضمن ضحاياها البرنس صاحب أنطاكية "وكان عاتيًا من عتاة الفرنج وذوي التقدم فيهم والملك"[2]، كما وقتل فيها كذلك الزعيم الصليبي رينالد صاحب كيسوم[3] ومرعش[4]، فضلاً على شيخ النزارية علي بن الوفاء، الذي كان مرافقًا للصليبيين ومحاربًا معهم في هذه المعركة راغبًا في التخلص من نورالدين الذي أذاق أتباعه الكثير من الأذى[5].

كما ودفعتهم سياسة نورالدين الإقصائية اتجاه مذهبهم إلى محاولة اغتياله كما فعلوا من قبل مع العديد من القيادات السياسية السنية على مدى المرحلة السابقة من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي من أمثال مودود بن ألونتكين وآقسنقر البرسقي، خاصةً عندما تولى راشد الدين سنان (559هـ- 589هـ/1163م- 1193م)[6] زمام الأمور في الطائفة، حيث تمتع بقوة سياسية كبيرة مكَّنته من السيطرة الكاملة على أتباعه على نحو لم يتسنَّ لغيره من كبار مقدمي الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام[7].

---

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 304-305، ابن الأثير، الكامل، 362/9-363، ابن الأثير، الباهر، ص 91-92، ابن العديم، زبدة الحلب، 292/2، أبو شامة، الروضتين، 215/1-216، ابن واصل، مفرج الكروب، 114/1-115، أبو الفدا، المختصر، 20/3-21.

[2] ويؤكد ابن القلانسي على قوة وبأس ريموند ومكانته بين قادة الصليبيين فيقول:" ووجد اللعين البلنس مقدَّمهم صريعًا بين حماته وأبطاله فعُرف وقُطِع رأسه وحُملَ إلى نورالدين فوصل حاملهُ بأحسنِ صلة، وكان هذا اللعين من أبطال الإفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل وعظم الخِلقة مع اشتهاره بالهيبة وكبر السطوة والتناهي في الشر، أنظر، ذيل تاريخ دمشق، ص304-305، وكذا ابن الأثير، الباهر، ص98-99.

[3] كيسوم، قرية مستطيلة من أعمال سميساط، وفيها سوق ودكاكين وافرة، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 497/4.

[4] مرعش، مدينةٌ في الثغور بين الشام وبلاد الروم، لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني، بناه مروان بن محمد الشهير بمروان الحمار، ياقوت، معجم البلدان، 107/5.

[5] أنظر، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 622/2، محمد مؤنس، المرجع السابق، ص34- 35.

[6] هو سنان بن سلمان بن محمد بن راشد الدين أبو الحسن، مقدِّم الإسماعيلية النزارية وصاحب الدعوة بقلاع الشام، وأصله من البصرة (ت588هـ/1192م)، قال عنه ابن جبير في رحلته، ص242-243 "عندما مرَّ بالقرب من ديار الإسماعيلية: قيَّض لهم شيطان من

ومن ردود الشيعة أيضًا على سياسة نورالدين اتجاه مذهبهم ما ذكره جعفر المهاجر[1] عن شيعة جبل عامل[2] –وهم شيعة إمامية- الذين هادنوا الصليبيين ولم يبدو أي جهد في مقاومتهم أو مد يد العون لإخوانهم المسلمين في ذلك فيقول:" لم يُذكر لأهل الجبل أي عمل في مقاومة الاحتلال والمحتلين، اللهم إلاَّ اشتراك رجَّالة كثيرين من أهل الجبل في أعمال الدفاع عن مدينة "صور" المحاصرة عام 505هـ/1111م، والظاهر أنَّ هؤلاء قدموا من أطراف جبل عامل التي ظلت طاهرة من الاحتلال".

وقد أرجع جعفر المهاجر هذا السلوك لشيعة جبل عامل لعدة عوامل منها، قسوة الاحتلال الصليبي على أهل الجبل وكذلك بسبب غياب السند الخارجي لهم وحالة الشلل شبه الكامل الذي عانت منه القوى الإسلامية، إضافةً إلى السياسة المنتهجة من قبل الأمراء السنيين الممسكين بزمام السلطة السياسية والعسكرية في بلاد الشام كنورالدين محمود، حيث يذكر عنه بأنَّهُ:" كان قائدًا عسكريًا بارزًا ولا ريب، ولكنَّهُ كان مثل كل القادمين من أصول تركية يعاني من عصبية مذهبية عنيفة جدًّا، بدت في كثير من عناصر سياسته ومواقفه، الأمر الذي سدَّ كل سُبل التعاون بينه وبين الجماعات والقوى الشيعية في مصر والشام"[3].

ويذكر المهاجر[4] كذلك في مؤلف آخر حول هذه النقطة، فيقول:" ولا شك أنَّ ما ارتكبهُ نورالدين في حلب ودمشق وغيرهما، مثلاً، كان يصل إلى مسامع أهل "جبل عامل"، مما يكفي لإجراء

الإنسان يُعرفُ بسنان، خدعهم بأباطيل وخيالات، موَّهَ عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها، فاتخذوه إلهًا يعبدونه ويبذلون الأنفس دونه، وأنظر المزيد من ترجمته عند الذهبي، سير أعلام النبلاء، 182/21-190، الحنبلي، شذرات، 483/6-484، القلقشندي، صبحي الأعشى، 247/13-248.

[7] محمد مؤنس، المرجع السابق، ص37.

[1] **حسام الدين بشارة أمير جبل عامل**، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2005، ص20.

[2] جبل عامل، وقد سمَّاه المقدسي بجبل صديقا، بين صور وبانياس وصيدا، أحسن التقاسيم، ص188، ولمزيد من تاريخ هذا الجبل راجع، جعفر المهاجر، **التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية**، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1992، ص 201-204.

[3] حسام الدين بشارة أمير جبل عامل، ص21.

[4] التأسيس لتاريخ الشيعة، ص 222-223، وقد ردَّ الدكتور الشنقيطي على المهاجر في هذه النقطة، حيث قال:" ويبدو أنَّ المهاجر فقد حاسة المؤرخ اليقظ، فنسي أنَّ أهل جبل عامل دخلوا تحت الحكم الصليبي بُعيد الحملة الصليبية الأولى، أي قبل أن يولد نورالدين (511هـ-569هـ/1118م-1174م) بأعوام، وأنَّهم ظلوا على تلك الحال نحو نصف قرن قبل أن يستولي نورالدين على حلب، عام (543هـ/1146م)، ثم على دمشق بعد ذلك ببضع سنين، فما الذي تعلَّمه شيعة جبل عامل من سياسات نورالدين يقنعهم بالخضوع لسلطة الفرنجة بعد نصف قرن من الخضوع لها"، أثر الحروب الصليبية، ص184.

مقارنة سريعة بين السياسة الصليبية التي لم تكن تتعرض بشكل مباشر لمعتقداتهم، ولم تكن تمارس نحوهم سياسة تمييزية أساسها مذهبهم، وبين سياسة القمع الدموي التي مارسها أولياء الأمر من المسلمين".

لقد تباينت تحليلات المؤرخين والكتَّاب حول سياسة نورالدين محمود الرامية لخلق بيئة سنية على المستوى الشعبي، كما هي موجودة على مستوى السلطة السياسية وخاصةً في المناطق التي تكون منطلق لحركة المقاومة ضد الوجود الصليبي (حلب ودمشق ثُمَّ مصر بعد ذلك)، وهذا على حساب التشيع المستحكم فيها، فمنهم من عدَّها سياسة وحدوية ضرورية للجبهة الإسلامية، بحكم التجارب السابقة من مراحل المقاومة التي كان فيها الانقسام المذهبي وتوزع الولاء الروحي بين القوى الحاكمة في المنطقة من أبرز سلبيات تلك الجبهة، وأنَّ هذه السياسة وعلى الرغم من أنَّها أخذت من الوقت والجهد وكان لها بعض الانعكاسات كحنق الشيعة وتذمرهم وارتماء البعض منهم في أحضان الصليبيين –كما أشرنا سابقًا- إلاَّ أنَّ نتائجها قد ظهرت فيما بعد من خلال تحقيق العديد من المكاسب على الطرف الصليبي في أواخر حكم نورالدين وعهد صلاح الدين الأيوبي وعلى العهد المملوكي أيضًا[1].

أمَّا البعض الآخر –ومنهم جعفر المهاجر على سبيل المثال- فقد اعتبرها سياسة ظالمة لا مبرر لها إطلاقًا وقِصر نظر من قبل السلطة السياسية والعسكرية الحاكمة، فكان من الواجب التوجه نحو لم شمل القوى الإسلامية في جبهة إسلامية متماسكة تقارع الاحتلال، ويضيف المهاجر فيقول:" ولا شك أنَّ هذه السياسة، لم تنظر إلى أبعد من المصالح الضيقة لأرباب الطبقة العسكرية الجديدة، قد منحت المحتلين فُرصًا ذهبية اهتبلوها حتَّى النهاية، وأربكت الصف الإسلامي وأطالت مُدَّة الاحتلال".[2]

ثانيًا: استهداف مصر، جهود نورالدين محمود لتحقيق الوحدة المذهبية والسياسية بين الشام ومصر:

1/ ترنُّح التشيُّع في صالح مشروع الوحدة:

كانت دولة الفاطميين بمصر من أقوى دول الشيعة مناهضةً للحكم السني على العالم الإسلامي، لدرجة أنها نصَّبت إمامها الاسماعيلي منافسًا بديلاً عن ذلك الحكم، كما وأنّها تمكَّنت في فترات محددة من تاريخ حكمها من إحداث تفوق واضح فكريًا وسياسيًا على خلافة بغداد السنية، ولا أدلَّ على ذلك من

---

[1] حول اعتبار جهود نورالدين ومن بعده صلاح الدين في محاربة التشيع وتقوية المذهب السني كخطوة ضرورية لتقوية الجبهة الإسلامية السياسية والعسكرية ضد الوجود الصليبي بناء على تجارب سابقة، راجع، عبد المجيد أبو الفتوح، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، الفصلين الثاني والثالث.

[2] وقد سار على نفس التحليل بعض الكتاب الشيعة، أنظر، جعفر المهاجر، التأسيس لتاريخ الشيعة، ص 222.

القرن الرابع الهجري (قرن التشيع) وسنة 450هـ- 451هـ أين أعلنت الخلافة فاطمية على منابر العراق ومختلف أمصار العالم الإسلامي محل الخلافة العباسية، بفضل القائد التركي أبي الحارث أرسلان البساسيري المتشيِّع إسماعيليًا، وقد استمرت قوة الفاطميين في المشرق قرابة قرن وعقد من الزمن (358هـ-466هـ/969م-1074م-)، عُرفت تاريخيًا بفترة "حكم الخلفاء" أو "حقبة الأئمة".

دخل بعدها الحكم الفاطمي – أي في مستهل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي – مرحلةً من الاضطراب والفوضى السياسية، بعد أن ثارت الفتن في مصر كتلك التي وقعت سنة 454هـ/1062م بين الجنود الأتراك بقيادة الحسن بن الحسين بن حمدان من ناحية وجماعة العبيد (السودانيين) الموالين للخليفة الفاطمي من جهة ثانية، والتي لم تهدأ إلاَّ بعد مقتل ابن حمدان سنة 465هـ/1073م[1]، وعن هذا الوضع يحدثنا ابن تغري بردي فيقول[2]:" في أيامه (يعني المستنصر بالله) ثارت الفتن في بني حمدان وأكابر القواد، وغلت الأسعار، واضطربت الأحوال واختلت الأعمال، وحُصر في قصره وطُمع فيه".

كما وزاد من سوء الأوضاع بالخلافة الفاطمية وقتذاك ما عانته مصر من أزمات اقتصادية خانقة اصطلح عليها المؤرخون تسمية "سنوات الشدة" أو "الشدَّة العظمى"، والتي يشبهونها بالسنوات التي واجهتها مصر زمن النبي يوسف عليه السلام، حيث دامت سبع سنين، عانت فيها مصر قحطًا شديدًا أفنى الكثير من الخلق فلم يوجد من يزرع لموت الناس واختلاف الولاة والرعية[3].

وقد أعطى مؤرخ مصر ابن تغري بردي[4] نتيجة تلك الفتن والأوضاع الاقتصادية السيئة وصفًا مؤسفًا لحال الرعية، فأشار إلى جلاء خلقٍ كثير من مصر جراء الغلاء الذي زاد على الحد، والجوع الذي لم يسبق وأن وقع في مصر والدنيا كلها، فمات أكثر أهل مصر وأكل بعضهم بعضا، حتَّى أنَّهُ يذكر من قساوة تلك الأوضاع أنَّ بعضًا من الطباخين ذبحوا عدَّةً من الصبيان والنساء وأكلوا لحومهم وباعوا منها بعد طبخها.

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 81/10.ابن ميسر، أخبار مصر، 38-39.

[2] النجوم الزاهرة، 90/5-91.

[3] نفسه، 3/5.

[4] النجوم الزاهرة، 15/5.

انعكست تلك الأوضاع التي عانتها مصر على الواقع السياسي للدولة الفاطمية، فكان من أثرها أن قُطعت الخطبة عن الخليفة المستنصر بالله بالحجاز وأقيمت للخليفة العباسي[1]، كما وتدلُّنا أحوال الوزارة في ذلك العهد عن مدى الفوضى والاضطراب السياسي الذي ميَّز حكم الفاطميين، حيث تقلَّد هذا المنصب أربعٌ وخمسون وزيرًا في خمسة عشر سنة ابتداءً من سنة 450هـ/1058م إلى 465هـ/1073م، لم يمكث فيها بعضهم أكثر من يوم واحد، حتَّى أنَّ الخليفة المستنصر اضطر إلى إلغاء هذا المنصب[2].

وأمام هذه الفوضى والوضع المتأزم سياسيًا واجتماعيًا، ونتيجة عدم قدرة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله على تهدئة الأوضاع وإعادة الاستقرار للدولة، قام باستدعاء أحد كبار رجال الدولة وهو والي عكا بدر الجمالي الأرمني وذلك سنة 466هـ/1074م، ومَنَحَهُ تفويضًا بحكم الدولة الفاطمية ولقبه بأمير الجيوش[3]، ليبدأ مع هذا الوزير عهدٌ جديد في حياة الخلافة الفاطمية أطلق عليه بفترة "نفوذ الوزراء" أو "مرحلة وزراء التفويض"[4]، وقد امتدَّ هذا العهد إلى غاية سقوط الدولة سنة 567هـ/1171م، على يد وزير سني هو صلاح الدين الأيوبي الذي صار بعد ذلك سلطانًا على مصر[5].

استطاع بدر الجمالي أن يخلِّص الخلافة الفاطمية من المشكلات التي كانت تتخبط فيها وبخاصة حركات التمرد، فأعاد النظام وعمَّ الاستقرار، ليوجه جهوده بعد ذلك نحو إصلاح حال البلاد[6]، على أنَّ هذا الاستقرار الذي تمتَّعت به الخلافة الفاطمية نسبيًا بمجيء بدر الجمالي، كان له أثرٌ بالغ على نفوذ وسلطان الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ومن جاء بعده من الخلفاء، حيث صار منصب الوزير منذ عهد بدر الجمالي هو المتحكم في جميع شؤون الدولة، ولم يعد للخلفاء معهم من أمر سوى الحصول على بعض المظاهر التشريفية[7].

---

[1] الذهبي، العبر، 249/3، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 84/5.

[2] أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني المعروف بابن طوير (ت 617هـ)، ابن طوير، **نزهة المقلتين في أخبار الدولتين**، تح، أيمن فؤاد السيد، دار النشر فرانتس شتايز شتوتغارت، ط1، ألمانيا، 1412هـ/1992م، ص43، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 262/2-263، الدواداري، الذرة المضية، ص 386،

[3] النجوم الزاهرة، 2/5، الداواداري، الدرة المضية، ص399، السيوطي، حسن المحاضرة، 204/2.

[4] ابن طوير، نزهة المقلتين، ص43-44.

[5] الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص113.، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص 23-24.

[6] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 141/5، ابن كثير، البداية والنهاية، 189/12.

[7] ابن طوير، نزهة المقلتين، ص44، القلقشندي، صبحي الأعشى، 80/10، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 4/5، 23.

ولعلَّ من أبرز مظاهر التَّسلط التي تمتَّع بها بدر الجمالي في البلاط الفاطمي هو توريثهُ منصب الوزارة لابنه أبو القاسم شاهنشاه الملقَّب بالأفضل وذلك سنة 487هـ/1094م، دون أن يجد من يعارضهُ أو يقف في وجهه، ليستمر تحكُّم الوزراء في حكم الدولة الفاطمية، بل أنَّ ما يُذكر عن الأفضل من نفوذ فاق بكثير ما كان يتمتع به والده قبلاً، فيقول عنه ابن تغري[1]:" ولم يكن للمستعلي (خلف المستنصر) مع الأفضل ابن أمير الجيوش حكم"، ويقول عنه أيضًا:" ولكنَّهُ عظُمَ في الدولة أضعاف مكانة أبيه"، أمَّا المقريزي[2] فيقول فيه:"ولم يكن للمستعلي سيرةٌ فتذكر، فإنَّ الأفضل كان يدبِّرُ أمر الدولة تدبير سلطنةٍ وملك لا تدبير وزارة".

وهكذا فبقدر ما كان لمنصب الوزير من فضل على عهد بدر الجمالي في الحفاظ على الدولة الفاطمية من السقوط، بقدر ما صار فيما بعد مصدر قلق وإزعاج للخلفاء الفاطميين وعامل من عوامل زوال هيبتهم وتداعي حكمهم، فبعد وفاة الوزير الأفضل بن بدر سنة 515هـ/1121م صار التنازع على منصب الوزارة – على أهميته- السِّمة المميِّزة للعهد الثاني من حياة الدولة والذي اصطلح عليه بعصر "نفوذ الوزراء"، فصارت "الوزارة في مصر لمن غلب، والخلفاء وراء الحجاب، والوزراء كالمتملِّكين، وقلَّ أن وُليها أحدٌ بعد الأفضل إلاَّ بحرب أو قتل، وما شاكل ذلك" على ما ذكر ابن الأثير[3].

وإن كان هذا حال السلطة السياسية بمصر الفاطمية في عهدها الثاني، فكيف يا ترى حال عقيدتها الإسماعيلية؟ والتي قامت في الأصل على أساسها، وظلت بفضلها تستمد شرعيتها ووجودها، وبها أيضًا كانت تتوسع على حساب أعدائها في المذهب (السنيين)؟، فهل تأثرت عقيدة الدولة الإسماعيلية بالاضطراب والفوضى السياسية التي شهدتها مصر خلال مرحلة سيطرة الوزراء؟ وهل كان سقوط الدولة الفاطمية في مصر على يد نورالدين وصلاح الدين السنيين ضمن مشروع الوحدة سببه الفوضى السياسية فقط؟ أم أنَّ ترنُّح التشيع الاسماعيلي له نصيب في السقوط كذلك؟

إنَّ الإجابة على هذه التساؤلات تُرجعنا إلى الحديث على فترة قوة الخلافة الفاطمية في عهدها الأول وحال العقيدة الإسماعيلية في هذه الفترة، فخلفاء الدولة الفاطمية في مصر منذ عهد المعز لدين الله (341هـ-365هـ/953م-975م) وإلى وصول بدر الجمالي للحكم في منصب الوزارة

[1] النجوم الزاهرة، 141/5.

[2] اتعاظ الحنفا، 27/3.

[3] الكامل، 389/9-390.

(466هـ/1074م)، كانوا أصحاب الكلمة والنفوذ وتميزت سياستهم الخارجية بالجسارة وبالدافع المذهبي الواضح[1]، فعملوا جاهدين على دعم عقيدتهم وسعوا في نشرها وتغليبها على الفكر والعقيدة المعادية (السنية) في مصر وبلاد الشام ومختلف الأمصار الإسلامية، واتخذوا في سبيل ذلك العديد من الأساليب تراوحت بين الدعم الفكري للمذهب عن طريق الدعاية والتدريس من جهة واضطهاد مخالفيهم السنيين والتضييق على معتقداتهم وإنكارها من جهة أخرى [2].

والحقيقة أنَّ اهتمام الخلفاء الفاطميين في العهد الأول بالعقيدة الإسماعيلية وخاصةً ما تعلق بمكانة الإمام الفاطمي وقضية النص في الإمامة والتي تكون في الأعقاب، وكذا عصمة الإمام وسلطته الروحية، هو أمر طبيعي وضروري لإثبات أحقيتهم في حكم المسلمين، وكذلك من أجل استمالة أكبر عدد من الأتباع لتحقيق التفوق السياسي والعسكري ضد المخالفين لهم في المذهب، وقد كان لهم ذلك في كثير من فترات هذا العهد مثلما ذكرنا آنفًا، لتسير بذلك قوة العقيدة وانتشارها خلال ذلك العهد جنبًا إلى جنب مع التفوق السياسي للخلافة الفاطمية، بل يمكن القول أنَّ الحضور القوي للمذهب الاسماعيلي هو من أعطى التفوق لسلطة الفاطميين السياسية والعسكرية.

ولكن حال العقيدة الإسماعيلية بعد ذلك أي خلال العهد الثاني "عهد تسلط الوزراء" لم يكن على أحسن حال، - وإن أرجع بعض المؤرخين المحدثين هذا الضعف والتقهقر في عقيدة الاسماعيليين إلى ما قبل تنفُّذ الوزراء وبالضبط زمن حكم الخليفة الحاكم بأمر الله-[3]، فقد حدث أن ضاعت تلك الهالة المقدَّسة التي كان يتمتع بها الخلفاء الفاطميون كأئمة مُعينون بنص إلهي ويتمتعون بحق شرعي في الحكم لا ينازعهم فيه أحد، بعد أن صار وزرائهم أصحاب الكلمة والنفوذ وهم المتحكمون في زمام السلطة، بل صاروا هم المشرفين على شؤون الدعوة والدعاة وتلقَّبوا بألقاب تخصُّ الأئمة مثل "كافل قضاة المسلمين" و"هادي دعاة المؤمنين"[4].

---

[1] الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص 112، برنارد لويس، الحشاشون، ص59.

[2] حسن إبراهيم حسن، **الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص**، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1932، الأبواب الثالث الرابع والخامس.

[3] محمد كامل حسين، **دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين**، مؤسسة الهنداوي سي آي سي، د ت، د ط، ص10.

[4] ابن طوير، نزهة المقلتين، ص43، المقريزي، الخطط، 382/1، النويري، نهاية الإرب، 301/28، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 76/3، وانظر، ماجد، نظم الفاطميين، 84/1، محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء، ص135-136، برنارد لويس، الحشاشون، ص60.

بل أكثر من كل ذلك، فقد تجرأ هؤلاء الوزراء على حقوق الخلفاء الدينية والمستمدة في الأصل من صميم عقيدتهم، فيذكر عن ذلك الدكتور أحمد فؤاد السيد:" والواقع أن وزراء التفويض الفاطميين، كانوا قد حجروا على الخلفاء تمامًا، ولم يقتصر هذا الحجر على مجرد الاستيلاء على السلطة الزمنية، بل امتد نفوذ وزراء التفويض إلى السلطات القضائية والدينية الخاصة بالخلفاء، والمتعلقة بصميم أحقيتهم للإمامة، من وجهة نظر الفكر السياسي الفاطمي، أعني شئون القضاء والدعوة، لكون الخليفة هو المجتهد المطلق في الفقه الاسماعيلي لميراثه للعلم اللدني الذي اختصَّ به الأئمة من آل البيت وما أكسبهم هذا من قدرة على تأويل آيات القرآن، ولكون الهدف الأول من الدعوة الفاطمية هو تأكيد عقيدة "الولاية" أي الطاعة للأئمة في نفوس المستجيبين للدعوة"[1].

ويضيف هذا الباحث أيضًا في نفس السياق فيقول:"ووصل الحد بتهاون وزراء التفويض بالخلفاء ونفوذهم الروحي، إلى الحد الذي تلاعبوا به بالنص، وهو الوصية بولاية عهد الخلافة، التي يعتقد الشيعة أنَّ الخليفة الفاطمي موحى بها من الله، فكان وزراء التفويض يعدون أولياء عهود الخلفاء الكبار، ويدَّعون النص على أمراء صغار من البيت الفاطمي، ليسهل السيطرة عليهم وعلى الدولة"[2].

ولا أدلَّ على ما أشار إليه هذا الباحث في قوله الأخير، ما كان أحدثه الوزير القوي الأفضل بن بدر الجمالي (487هـ-515هـ/1094-1121م) من انقسام في الدعوة الإسماعيلية، بعد أن تجاوز بنفوذه حدود صلاحياته، فاعتدي على أصل من أصول العقيدة الإسماعيلية، وحاد عن الوصية التي تركها الخليفة المستنصر بالله (427هـ-487هـ/1036م-1094م) والنّاصة على تولية ابنه الأكبر نزار شؤون الدعوة وأمور الحكم بعد وفاته، وفق ما تقتضيه شروط الولاية في المذهب الاسماعيلي، ولكن هذا الوزير قلَّدها للأخ الأصغر أبو القاسم أحمد (487هـ-495هـ/1094م-1101م) والذي صار يعرف بلقب "المستعلي بالله"[3]، وهذا الأخير هو ابن أخت الوزير الأفضل بن بدر الجمالي[4].

---

[1] أحمد فؤاد السيد، **تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب (567هـ- 648هـ)**، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 2002، ص 39.

[2] أحمد فؤاد السيد، تاريخ مصر، ص39، محمد كامل حسين، دراسات في الشعر، ص10.

[1] تشير المصادر العربية إلى سبب قيام الأفضل بذلك العمل إلى ما وقع بينه وبين نزار في حياة المستنصر، حينما دخل الأفضل مرةً أحد أبواب قصر المستنصر راكبًا بغلة، فلمَّا رآه نزار قال له: انزل يا أرمني يا نجس، فحقد عليه الأفضل وانتهز فرصة وفاة المستنصر وحال بينهُ وبين الخلافة، أنظر، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 141/5-142، المقريزي، الخطط، 356/1.

[4] ابن طوير، نزهة المقلتين، ص38، أنظر، ابن خلكان، وفيات، 180/1.

وقد ترتب على عمل الأفضل أن انقسم الفاطميون ودعوتهم إلى فريقين، أحدهما يساند المستعلي بالله، والآخر يقف مع نزار، فقامت على إثر ذلك حرب أهلية بين الفريقين أرجعت مصر إلى سنوات الفتن التي سبقت مجيء بدر الجمالي، وانتهت أحداثها بمقتل نزار على يد الأفضل سنة 488هـ/1095م[1].

لتنقسم على إثر ذلك الدعوة الإسماعيلية بين من ناصر المستعلي وأقروا بخلافته وهؤلاء يطلق عليهم أسماء"المستعلية" و"الفاطميون"و" الإسماعيلية الغربية"، وأما الفريق الذي وقف في صف نزار معتبرًا أحقيته في الإمامة فقد أسسوا فرقة إسماعيلية نسبت إليه وهي النزارية، ثمَّ حملت بعد ذلك عدَّة أسماء كالإسماعيلية الشرقية أو الباطنية أو الحشيشية[2].

ويذكر المؤرخون أيضًا عدة مسائل تخصُّ العقيدة الإسماعيلية وإمامها، كان الأفضل قد تدخَّل فيها، والتي دأب الخلفاء على الاهتمام بها والحرص عليها لكونها تعبِّرُ عمَّا يعتقدون به، فقام مثلاً بإلغاء الاحتفالات بمولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وابنته فاطمة الزهراء والإمام علي بن أبي طالب، ومولد الخليفة الفاطمي[3]، كما وأغلق دار العلم التي ابتناها الخليفة الحاكم بأمر الله، حيث كانت منارة علمية تحوي الآلاف من كتب الشيعة، وكان داعي دعاة الإسماعيلية يجلس فيها ويجتمع إليه من التلامذة من يتكلَّمُ في العلوم المتعلِّقة بمذهبهم[4] وقلَّص كذلك من دور الخليفة في صلاة العيد فمنعهُ من التوجه لأدائها في المصلَّى وإلقاء خطبته فيها[5].

---

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان، 450/2، وانظر، محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء، ص136-137، محمد حسن دخيل، **الدولة الفاطمية –الدور السياسي والحضاري للأسرة الجمالية**، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، بيروت، 2009، ص 91-92، محمد كامل حسين، دراسات في الشعر، ص10.

[2] الغزالي، فضائح الباطنية، ص37، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 27/3، برنارد لويس، الحشاشون، ص61.

[3] ابن طوير، نزهة المقلتين، ص217، ص102، وأنظر، حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص133، 279، المناوي، الوزارة والوزراء، ص137.

[4] وقد جعل الحاكم بأمر الله لهذه الدار جزءً من أوقافه التي وقفها على الجامع الأزهر وجامعي المقس وراشدة، ثمَّ أبطل الأفضل أمير الجيوش هذه الدار لاجتماع النَّاس فيها وخوضهم في المذاهب، خوفًا من اجتماع النزارية به، وأعادها الآمر بعد مقتل الأفضل بوساطة خدَّام القصر بشرط أن يكون الداعي هو الناظر فيها، أنظر، المقريزي، اتعاظ الحنفا، هامش الصفحة 84/3، القلقشندي، صبحي الأعشى، 362/3، المقريزي، الخطط، 445/1-458-460.

[5] يصف العديد من المؤرخين مظاهر احتفال الخلفاء الفاطميين بصلاة العديد فيذكرون بأنهم عنوا بها عناية خاصة وكانوا يعتبرونها ضمن المناسبات المهمة التي يركبون فيها المواكب العظام، فكانت إحدى أهم المظاهر الاحتفالية التي تظهر فيها عظمة الخلفاء للرعية، أنظر، المقريزي، ابن طوير، نزهة المقلتين، ص176- 186، اتعاظ الحنفا، 83/3، القلقشندي، صبحي الأعشى، 503/3-521، حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص281-283.

استمر ذلك التقهقر للمذهب الاسماعيلي على عهد الوزير الأفضل، فدفعهُ عدم احترامه لخصوصيات العقيدة الإسماعيلية القائمة في الأساس على معاداة الحزب السني وممثليه من القوى المختلفة باعتبارهم مغتصبون لحق الأئمة الفاطميين في حكم المسلمين، إلى التقارب والتنسيق العسكري معهم (سلاجقة دمشق) في مواجهة ارتدادات الحملة الصليبية الأولى التي استهدفت مناطق النفوذ الفاطمي في بلاد الشام وطمعت في الاستيلاء على مصر، فعُدَّ ذلك من قبل الخليفة الآمر ورجالاته المتعصِّبين للمذهب بأنَّهُ تعدٍّ على أصول العقيدة، واعتبروا ممالئة السنيين والتنسيق أو التحالف معهم هو اعتراف بسلطانهم السياسي وبالتالي الروحي، وهو الأمر المناقض لجوهر عقيدة الإمامة عندهم والمحصورة في البيت العلوي من ولد فاطمة[1].

لم يتوقف امتهان عقيدة الاسماعيليين وأئمتهم من قبل وزراء التفويض بمقتل الأفضل، فقد صار هذا الوضعُ شبه متوارث مثلما وُرِّث منصب الوزارة قبلاً، حيث عمل أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي الملقب بـ "الأكمل" والذي تولى الوزارة لمدة سنة واحدة وشهرين (15 ذي القعدة 524هـ – 16 محرم 526هـ)[2]على إحداث تغييرات عديدة مسَّت بعقيدة الفاطميين، لم يسبق أن أُحدثت من قبل في أي محطَّة من تاريخ الدولة، شبهها محمد حسن الدخيل بـ" الثورة العقيديَّة"[3]، وقد كان من عمق هذه التغييرات وأثرها أن اضطرب المؤرخون في تحديد عقيدة الأكمل وحقيقة ميولاته المذهبية، فقال عنه الذهبي وابن تغري بردي بأنَّهُ سُنِّي[4]، بينما وصفه كل من المقريزي وابن الأثير بأنَّهُ إمامي إثني عشري[5].

---

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص204، ابن الأثير، الكامل، 208/9.

[2] بعد مقتل الأفضل في أواخر شهر رمضان من سنة 515هـ/1121م على يد الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله أبي علي منصور (495هـ-524هـ/ 1101م-1130م) أودع ابنه أبي علي أحمد الملقَّب بالأكمل السجن، وقد قام الخليفة بهذا السلوك سعيًا منهُ لإنهاء سطوة الأسرة الجمالية التي تغلغل نفوذها في البلاط والرعية على السواء وصار لها أتباع وأنصار يوالونها أكثر من موالاة أئمة الدولة، وخوفًا من محاولة استيلائه على السلطة إن تُرك حُرًّا طليقًا، وقد ظلَّ الأكمل في سجنه قرابة التسع سنوات يتحيَّنُ فرصة الثأر من قتلة أبيه، ليتحقق هذا الأمر في الثالث من ذي القعدة عام 524هـ/1129م حين خرج الخليفة الآمر من القاهرة متجهًا للجزيرة، وبينما هو يعبُرُ الجسر إذ وثب عليه نفرٌ من جماعة الأفضل الجمالي وعاجلوه بسيوفهم فتوفي من يومه عن عُمرٍ يناهز الرابعة والثلاثون، أنظر، ابن ميسر، أخبار مصر، ص115- 116.

[3] الدولة الفاطمية –الدور السياسي والحضاري للأسرة الجمالية، ص103.

[4] العبر، 428/2، سير أعلام النبلاء، ويشير في هذا الصدد أيضًا ابن تغري بردي فيقول:" إنَّهُ كان سنيًا كأبيه، وأظهر التمسُّك بالإمام المنتظر في آخر الزمان، فجعل الدعاء في الخطبة له، وغيَّر قواعد الرافضة"، وهذا القول يناقض أوله آخره وهو غير صحيح فأهل السنة لا ينتظرون إمامًا في آخر الزمان ولا يدعون له، أنظر، النجوم الزاهرة، 234/5.

[5] اتعاظ الحنفا، 140/3، الكامل، 261/9.

وممَّا يورده مؤرخو تلك الفترة عن أعماله؛ من أنَّهُ عيَّنَ على القضاء بمصر أربع قضاة يحكم فيه كل قاضٍ بمذهبه ويورِّثُ بمقتضاه، فكان الفقيه سلطان بن إبراهيم بن المسلم بن رشا قاضي للشافعية، وأبو عبد الله محمد اللبني المغربي قاضي المالكية، وأبو الفضائل هبة الله بن عبد الله بن الحسن الملقَّب بابن الأزرق قاضي الإسماعيلية، وابن أبي كامل قاضي الإمامية، وهو العمل الذي يقول عنه المقريزي وابن ميسر بأنَّه غريب عن الملَّة الإسلامية ولم يسمع بمن قام به في السلف(1).

والأكمل بسلوكه هذا في الحقيقة يضرب العقيدة الإسماعيلية في أصولها القائمة على أساس وجود إمام واحد في الزمان، وهو الإمام الفاطمي من نسل إسماعيل بن جعفر الصادق، ومذهبه هو الأحق بالإتباع، فوجود مذاهب إسلامية أخرى سنيةً كانت أم شيعية إمامية تنشط على مستوى إقليم الدولة وبترخيص منها أمرٌ مناقض لذلك المبدأ، وينسف اعتقادات المذهب الاسماعيلي بالكلية، حتَّى وإن كان ذلك من باب المراعاة السياسية وحفظ الاستقرار، لأنَّ المذهب الاسماعيلي أساس تشكل دولة الفاطميين، واستمرارها كذلك مرتبط به، فأي تقهقر لتلك العقيدة في نفوس المستجيبين هو إيذانٌ بنهاية العمر السياسي للدولة.

ومن التغييرات العميقة التي أحدثها الأكمل أيضًا إسقاط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق وهو الإمام السابع الذي تنتسب إليه دولة الفاطميين من الخطبة، وأسقط كذلك ذكر الإمام الفاطمي الحافظ لدين الله (524هـ-544هـ/1130م-1149م) منها بعد أن كان حجر عليه في مستهل استوزاره، واخترع لنفسه – أي الأكمل- دعاءً يُدعى به له على المنابر(2)، كما أنَّهُ صك النقود باسم الإمام المهدي المنتظر، ونقش عليها " الله الصمد الإمام محمد"، وأسقط من الآذان الصيغة المميِّزة لمذهب التشيع وهي عبارة "حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر"(3).

أربكت تلك الإجراءات من قبل الأكمل رجالات الدولة الفاطمية، ورأوا من خلالها تهاوي تعاليم مذهبهم لصالح قيام دولة شيعية إمامية بمصر، وهذا كُلُّه رغم مرور فترة قصيرة على تولي الأكمل منصب الوزارة، فتيقَّنوا بأنَّه يحمل مشروعًا ثوريًا في عقيدة المصريين وليست مجرد رغبة في السيطرة على السلطة

(1) اتعاظ الحنفا، 142/3، ابن ميسر، أخبار مصر، ص114.
(2) أنظر نص الدعاء الذي ابتدعه الأكمل لنفسه في ابن الأثير، الكامل، 261/9، اتعاظ الحنفا، 143/3-144،
(3) ابن ميسر، أخبار مصر، ص116، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 141/3، 143، ابن الأثير، الكامل، 261/9، أبو الفدا، المختصر، 5/3-6،

السياسية والانتقام من قتلة أبيه، فعملوا على التخطيط لإنهاء ذلك الوضع قبل استفحاله بالتفكير في تصفيته سريعًا[1].

ظلّ معارضو سياسة الأكمل بزعامة يانس الأرمني وبتنسيق من الخليفة الحافظ المحجور عليه يتربّصون بالوزير الدوائر، لتحين لهم الفرصة في السادس عشر من محرم سنة 526هـ/1132م، حيث خرج الأكمل على عادته إلى البستان الكبير خارج باب الفتوح، فكمن له هناك عشرة رجال، "فصاح أبو علي، عادةً من يسابق الخيل: راحت، فقال العشرة: عليك، وحملوا عليه وطعنوه حتّى قُتِل"[2].

تخلّصت الخلافة الفاطمية ومذهبها الاسماعيلي بمقتل "الأكمل" من وضعٍ شاذ وغريب كاد ينهي الدولة وعقيدتها معًا، فأعيد الحافظ بعد رفع القيود عنه إلى منصب الخلافة وجددّت البيعة له، ودعي له على المنابر بدعاءٍ اختاره هو[3]، ولكن هذه النهاية لم تُرسِّم القطيعة مع عصر نفوذ الوزراء وتحكُّمهم في زمام السلطة، فلم يَعدُ الأمر سوى تعافي محدود لسلطة الخليفة الفاطمي الروحية ومذهب الدولة، أمَّا السلطان السياسي فظلّ بيد وزراء السيف والقلم "وزراء التفويض"، وهو الأمر الذي يعني أيضًا بقاء حال العقيدة في ترنُّح تنتظر من يلغيها.

ومن الدلائل حول ذلك أنَّ وزير الخليفة الحافظ رضوان بن الولخشي الذي كان سني المذهب دأب على القدح بشكل علني في مذهب الفاطميين وأمام مرأى من الخليفة وخواصه ورجالات قصره، بل وبادر بخلعه بحجة أنَّهُ ليس بخليفة أو إمام وإنَّما هو كفيلٌ لغيره، وقام هذا الوزير بإحضار فقيه الزمان أبا الطاهر بن عوف وداعي الدعاة ابن أبي كامل وناقشهما في قضية عزل الحافظ واستخلافه بشخصٍ آخر عينه لهم، ولولا أن الحافظ نجح في التخلص من وزيره لكان قد أتمّ ما عزم عليه، فكان من نتيجة هذه الهزات التي تعرَّضت لها العقيدة الإسماعيلية أن انصرف النَّاس عن المذهب وضعفت ثقتهم فيه وخاصةً بين رجال الدولة[4].

---

[1] محمد حسن دخيل، المرجع السابق، ص106، المناوي، الوزارة والوزراء، ص139.

[2] ابن ميسر، أخبار مصر، ص116، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 143/3.

[3] وممّا جاء في الدعاء "اللهم صلّ على الذي شيَّدت به الدين، بعد أن رام الأعداء دثوره، وأعززت الإسلام بعد أن جعلت طلوعهُ على الأمة ظهوره، وجعلتهُ آيةً لمن تدبَّر الحقائق بناظر البصيرة، مولانا وسيدنا إمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي الميمون"، ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، ص95.

[4] المناوي، الوزارة والوزراء، ص140.

وكما أشرنا إليه سابقًا من كون قوة الدولة الفاطمية على عصرها الأول (عصر نفوذ الأئمة) كان بفضل قوة العقيدة الإسماعيلية القائمة على فكرة قدسية الإمام، فإنَّ ما خلصنا إليه من تقهقر للمذهب الإسماعيلي – منذ تولي بدر الجمالي منصب الوزارة وفقدان الأئمة لسلطاتهم السياسية ومكانتهم الدينية المرتبطة بشكل مباشر بفكرة الإمامة الإلهية كعقيدة لدى الشيعة –، أدَّى بالضرورة لتداعي الحكم السياسي لهذه الدولة، ودخل إقليمها ضمن معادلة الصراع الزنكي – الصليبي؛ الساعي كل طرف فيها إلى الاستقواء بها على خصمه.

قابل هذا التقهقر للمذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر منذ انقسام الدعوة عقب وفاة الخليفة المستنصر بالله؛ صعودٌ للتسنن في بلاد الشام بفضل حركة الإحياء السني التي اعتمدها نورالدين محمود في إستراتيجيته الوحدوية لجبهة المقاومة ضد العدوان الصليبي، فكان ممَّا أعان نورالدين على تحقيق أهدافه الداخلية مذهبيًا وسياسيًا ما بلغته العقيدة الإسماعيلية من تراجع وضعف، بل أنَّ حال الفاطميين ذاك أغرى نورالدين محمود للتوسع جنوبًا لضم مصر لنفوذه ويحقق بذلك أبلغ مرام سياسته؛ وهي إسقاط الحكم الفاطمي الشيعي وإكمال آخر حلقات الطوق على الإمارات الصليبية في المنطقة.

2- مصر الإسماعيلية بين سُنِّي الشام وصليبيي بيت المقدس

لقد مرَّ بنا سابقًا الحديث عن الموقف المتخاذل للفاطميين من أحداث الغزو الصليبي لأقاليم المشرق الإسلامي وخاصةً في بلاد الجزيرة وشمال الشام، التي كانت تحت سلطة أعدائهم السلاجقة السنيين، وذلك عن سوء إدراك لحقيقة الحركة الصليبية بالمنطقة أم لغاية مبيَّتة تتحكم فيها حدَّة الصراع المذهبي بين الطرفين خلال تلك الفترة، ثُمَّ مرَّ بنا كذلك الحديث عن محاولات تدارك سوء الإدراك والفهم لتلك الحركة من قبل الوزير الفاطمي القوي الأفضل بن بدر الجمالي من خلال إرسال حملات عسكرية لمواجهة الصليبيين في بيت المقدس إضافةً إلى التنسيق مع سلاجقة دمشق السنيين بقيادة طغتكين لمواجهة الخطر الصليبي الذي صار يهدد ممتلكاتهم في الساحل الشامي الجنوبي وحتَّى عاصمة حكمهم مصر.

غير أنَّ سياسة التقارب مع القوى السنية التي سار عليها الأفضل لحماية ممتلكات الفاطميين قد قوبلت من قبل المتعصبين الشيعة من المستعلية بمصر والنزارية في بلاد الشام بالرفض والاستهجان، والتي اعتبروها تعديًا على عقيدتهم بممالئة أعدائهم، بل واتهموا الأفضل بميله لمذهب أهل السنة، فيقول عن ذلك

ابن الأثير[1]: " وكان الإسماعيلية يكرهونه لأسبابٍ منها تضييعه (تضييقه) على إمامهم (الخليفة الفاطمي)، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم، ومنها معارضة أهل السنة في اعتقادهم والنهي عن معارضتهم وإذنه للنَّاس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها"، وقد قاد ذلك الموقف المتعصِّب إلى مقتل الأفضل على يد النزارية سنة 515هـ/1121م[2].

انتفت بوفاة الوزير الأفضل جهود التقارب والتنسيق بين الفاطميين وسلاجقة الجنوب الشامي لردع الصليبيين، بل وانتفت مع وفاته أيضًا أي مبادرات فاطمية جدِّية لمضايقة الصليبيين في معاقلهم بالساحل الشامي الجنوبي، لتدخل بذلك السياسة الفاطمية اتجاه الوجود الصليبي مرحلة من الانعزال والانكفاء بسبب المشاكل السياسية التي أعقبت مقتل الأفضل فصار التنازع على منصب الوزارة – المتحكم الرئيسي في شؤون الحكم – السمَّة البارزة فيما تبقى من عمر الخلافة الفاطمية وأدَّى بها في النهاية إلى زوالها في محرم 567هـ/سبتمبر1172م.[3].

وفي مقابل ذلك الوهن والاضطراب الذي ميَّز مصر الفاطمية فإنَّ الجبهة الشمالية (الجزيرة وبلاد الشام) بقيادة حكام الموصل وحلب قبل وبعد الزنكيين قد بذلوا جهودًا حثيثة في مواجهة الصليبيين؛ حققت للجبهة الإسلامية الكثير من المكاسب، وأسهمت بشكل بالغ في ترجيح كفة الصراع إلى مستوى من التوازن المرضي للطرف الإسلامي، خاصةً بعد استعادة مدينة الرها سنة 539هـ/1144م أولى الإمارات المستولى عليها من قبل الصليبيين في حملتهم الأولى 490هـ/1097م.

قاد انكفاء الخلافة الفاطمية بمصر على نفسها خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، أو بالأحرى منذ وفاة وزيرها القوي الأفضل بن بدر الجمالي 515هـ/1121م، وانشغالها بمشاكلها الداخلية (الصراع على منصب الوزارة) إلى ضعف موقفها من الأحداث الجارية في

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 208/9.

[2] ابن الأثير، الكامل، 207/9-208، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 216/5-217، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 60/3، أبو الفدا، المختصر، 235/2، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص203.

[3] سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 169/21، ابن الأثير، الكامل، 34/10، الباهر، ص 156، أبو شامة، الروضتين، 124/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 201/1، النويري، نهاية الإرب، 228/8، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 325/3-326، البنداري، سنا البرق الشامي، ص58.

محيطها[1]، فكان أن فقدت السلطة بمصر مدينة عسقلان أخر معاقلها في بلاد الشام لصالح الصليبيين سنة 548هـ/1153م[2]، كمَّا تمكَّن نورالدين محمود –قائد الإحياء السني وقتذاك– من توسيع دائرة نفوذه في الجنوب الشامي بضم دمشق لحكمه سنة 549هـ/1154م –[3].

وأكثر من كل ذلك، فقد أدَّى ضعف الفاطميين واضطراب أحوالهم خلال تلك الفترة إلى ازدياد أطماع كل من صليبيي بيت المقدس بزعامة عموري الأول (أملريك)(1163م-1174م/ 558هـ-569هـ)[4] وسنيي الشام بقيادة نورالدين محمود، لا في التوسع على حساب ممتلكاتهم ببلاد الشام وحسب ولكن للسيطرة على عاصمة حكمهم بمصر، وقد كان كل طرف منهما (الصليبيون ونورالدين) يرى في ذلك من أهم أولوياته السياسية والعسكرية لمواجهة الآخر[5]، فضلاً على رغبة نورالدين المذهبية في القضاء على التشيع بالمنطقة وإخضاعها لسلطة روحية واحدة ممثلة في سلطة الخليفة العباسي ببغداد لاستكمال مسار الوحدة المنشود للجبهة الإسلامية[6].

فبالنسبة للصليبيين فإنَّ مصر لم تكن غائبة عن أطماعهم قبل هذه الفترة (أي قبل النصف الثاني من القرن السادس الهجري)، فقد كانت لديهم فكرة السيطرة على مصر حتَّى من قبل استيلائهم على بيت المقدس[7]، غير أنَّ ظروفهم الداخلية والمتغيرات الخارجية وخاصةً علاقاتهم مع القوى الإسلامية في إقليم الجزيرة وشمال الشام حالت دون قيامهم بحملات تستهدف الاستيلاء عليها.

---

[1] حول الصراعات على منصب الوزارة في الخلافة الفاطمية وأثر ذلك على تدهور وضعها السياسي، راجع، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص 206-212.

[2] أنظر، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، 321-322، ابن الأثير، الكامل، 391/9-392، أبو الفدا، المختصر، 27/3، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص144، أنتوني بردج، **تاريخ الحروب الصليبية**، تر، أحمد غسان سبانو، نبيل الجيرودي، دار قتيبة للطباعة والنشر، ط2، ص182-183.

[3] حول ضم نورالدين لدمشق أنظر، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص327-330، ابن الأثير، الكامل، 398/9، أبو شامة، الروضتين، 284/1، أبو الفدا، المختصر، 29/3، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص144، Elisseeff (Nikita); **Nur ad-Din un grand prince Musulman de Syrie au Temps des Croisades (521- 569H/1118-1174),** 3Vol, Damas, 1967, II, p481-482, L'Orient Musulman, p251.

[4] يطلق على هذا الملك الصليبي اسم عموري أو أموري الأول أوأملريك وفي بعض المصادر الإسلامية اسم مري، تولى الحكم في مملكة بيت المقدس بين (1163م-1174م/558هـ-569هـ)، أنظر، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، هامش ص 218.

[5] حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص 212، أنتوني بردج، المرجع السابق، ص 180.

[6] الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص201.

[7] حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص215.

ومع الانتصارات التي حققتها جبهة المقاومة الإسلامية على عهد عماد الدين زنكي في الجزيرة وشمال الشام (521ه-541ه/1127م- 1146م) ثم على يد ابنه نورالدين (541ه-569ه/1146م- 1171م) من خلال توسيع نطاق الجبهة نحو الجنوب الشامي ونجاحه في تحقيق الوحدة بين حلب وحماه وحمص ودمشق[1]، صار الاستيلاء على مصر بالنسبة للصليبيين أمرًا في غاية الأهمية بل والاستعجال كذلك، والسبب يوضحه حامد غنيم أبو سعيد[2] فيقول:" فمن ناحية الصليبيين كان الاستيلاء على مصر لا يعني فقط العودة بموازين القوى لصالحهم، بل كان يعني فوق وأهم من ذلك تأمين وجودهم ضد خطر التطويق الذي كان يعمل من أجله نورالدين"، وقد وافق أطماع عموري الأول في مصر ما كانت تعانيه الخلافة الفاطمية من انحلال واضطرابات داخلية، بسبب الصراع على منصب الوزارة[3].

لقد فرض ضغط المقاومة من قبل الزنكيين على الجبهتين الشمالية والجنوبية لبلاد الشام توجه الصليبيين للتفكير في السيطرة على مصر المجاورة لهم من الناحية الغربية، فكانت عين أملريك (عموري الأول) ملك بيت المقدس لا تفارق مصر، راغبًا في غزوها وتملُّكها، وهو في ذلك يسعى لتحييدها عن نورالدين وبذلك إفشال مخططه لإقامة الوحدة بين الشام ومصر، وقد كان الملك الصليبي موقنًا بالخطر الداهم لمملكته وللوجود الصليبي برمته إن تمكَّن نورالدين من ضمّ مصر لنفوذه[4].

وأمَّا عن الأهمية التي اكتسبتها مصر بالنسبة لنورالدين فتشمل شقين أحدهما سياسي عسكري والثاني مذهبي، وهما أساس إستراتيجيته في مواجهة الصليبيين، فأمَّا عن الأول فإنَّ مصر تعدُّ آخر حلقات طوق المقاومة الساعي نورالدين لِلَفِهِ حول الإمارات الصليبية المتبقية بالساحل الشامي لحصرها وسد المنافذ عنها من الجهة الجنوبية الغربية، ثمَّ السعي في طردها نهائيًا من المنطقة، فيقول عن ذلك:"وما قصدنا بفتحها إلاَّ فتح الساحل وقلعِ الكفار منه"[5]، فنورالدين كان يراقب عن كثب مطامع الصليبيين في الاستيلاء على

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 537/1.

(2) الجبهة الإسلامية، ص 215-216، وانظر، Setton: op. cit, I, p536.

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 537/1.

(4) الكامل، 466/9.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 321/5.

مصر بسبب ما آلت إليه من ضعف، ولذلك كان حريصًا على تفويت أي فرصة يمكن استغلالها من طرفهم لاستعادة قوتهم المنهارة في بلاد الشام أو تعزيز ما تبقى لهم من مدن بالساحل.

إضافةً إلى ذلك فنورالدين كان مدفوعًا بحماس للسيطرة على مصر بعد أن منحهُ الخليفة العباسي سنة 549هـ/1154م عهدًا بحكم مصر والشام[1]، وهو الهدف نفسه –أي ربط الشام بمصر- الذي رسمه نورالدين ووالده عماد الدين في إستراتيجيتهما لبناء جبهة إسلامية موحَّدة من بلاد الجزيرة والعراق مرورًا ببلاد الشام إلى مصر في مواجهة الإمارات الصليبية الجاثمة على ديار الإسلام، ومن هنا أخذ نورالدين يتطلَّع للاستيلاء على مصر[2].

وأمَّا الشق الثاني في تلك الأهمية فيتمثل في إنهاء الانقسام المذهبي بالمشرق الإسلامي، كون مصر عاصمة التشيع الاسماعيلي ومقر الدعوة وإمامها، ونورالدين معروف عنه مقته للفاطميين ومذهبهم، ولا يُخفي تحمُسه لنصرة مذهبه السني (على عقيدة الأشعري) على حساب التشيع وكذا ولاؤه للخليفة العباسي الخصم الروحي والسياسي للأئمة الفاطميين[3]، وقد بانت هذه المواقف من نورالدين اتجاه التشيع في الحركة الفكرية السنية التي قادها في بلاد الشام (حلب ودمشق) ضد الفكر الشيعي.

وعليه فقد توافق لنورالدين في مصر هدفين أساسيين يخدمان الإستراتيجية التي خطَّها والده عماد الدين من قبل، فكان حريصًا على عدم ترك الصليبيين يُفيدون من وضع مصر المضطرب، وفي نفس الوقت سعى لأن تكون مصر عامل قوة يضاف إلى ما حققه على مستوى الجبهة الشامية،

3- نورالدين وعموري الأول وجولات الصراع لضم مصر (558هـ-567هـ/1163م- 1171م)

ظل الصراع على منصب الوزارة في الخلافة الفاطمية أبرز سمات عصرها الثاني، والذي أسهم في إضعاف الحضور العقدي للمذهب الإسماعيلي والانحدار السياسي للدولة، كما ظلَّ ذلك الصراع محصورًا في حدود مصر ولم يتدخل فيه أي طرف خارجي، إلاَّ بمجيء شاور بن مجير السعدي لهذا المنصب سنة 558هـ/1163م بعد هزمه لرزيك بن طلائع بن رزيك، وهذا على عهد الخليفة العاضد بالله[4].

---

[1] الأصفهاني، دولة آل سلجوق، ص216، ابن واصل، مفرج الكروب، 132/1، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 223/3، السيوطي، حسن المحاضرة، 3/2، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص146-147.

[2] حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص 216، الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص299.

[3] أرنست باركر، الحروب الصليبية، ص99، الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص 201، الجهاد ضد الصليبيين، ص 300، سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص13.

[4] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 345/5.

وصل شاور للوزارة في محرَّم سنة 558هـ/1163م فلم يكن بأحسن حال ممن سبقوه في المنصب، حيث أساء السيرة وعامل الخليفة بأعمال قبيحة وتسلَّط على كبار الأمراء واضطهدهم خوفًا من منافستهم له[1]، وهو ما دفع ببعض ولاة الفاطميين للتآمر عليه وإبعاده عن الوزارة ومن هؤلاء أبو الأشبال ضرغام بن عامر المنذري، وذلك في رمضان 558هـ/أوت 1163م، حيث تمكَّن بمساعدة من انضم إليه من إخراج شاور من القاهرة بعد هزمه في معركةٍ قتل فيها اثنان من أولاد شاور هما طيء وسليمان، فصارت الوزارة من وقتها لصالح ضرغام الذي تلقَّب بالملك المنصور[2].

التجأ شاور السعدي بعد تلك الهزيمة إلى بلاد الشام واستنجد بنورالدين محمود في دمشق، مقدِّمًا لهُ عرضًا مقابل إرسال العساكر معه لمساعدته في استعادة منصب الوزارة من ضرغام، وقد احتوى عرض شاور على حصة من خراج مصر مقدارها الثلث سنويًا والاعتراف بسيادة نورالدين على المناطق الواقعة على التخوم مع مصر، وأن يمنح جنده الإقطاعيات ويسمح لهم بالإقامة في الأراضي المصرية، وأن يكون شاور نائبًا له في مصر ويتصرف تحت أمره ونهيه، وزيادةً على ذلك فقد وعدهُ بدفع كامل نفقات الحملة[3].

وجد نورالدين في عرض شاور فرصةً مواتية لتحقيق هدفه بالسيطرة على مصر وضمِّها إلى جبهة المقاومة الإسلامية، ولكن ذلك كان على حذرٍ شديد حيث ظلَّ يقدِّمُ رجلاً ويؤخِّرُ أخرى واقعًا بين خيار نجدة شاور وطلب الزيادة في الملك والتقوّي على الفرنج من جهة وخوفه من الطريق كون الصليبيين فيه من جهة أخرى[4].

ومع ذلك فقد قرر نورالدين إجابة دعوة شاور والمسير معه إلى مصر، حتَّى يكسب بعض النقاط لصالحه في حرب الصليبيين، فبالسيطرة عليها سيتمكَّنُ من استغلال أسطولها البحري القوي ضد السواحل

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 460/9، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 426/5، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 260/3-264.

[2] ابن الأثير، الكامل، 460/9، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص75، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 261/3، ابن خلكان، وفيات، 444/2، النويري، نهاية الإرب، 217/28-218،

[3] ابن الأثير، الباهر، ص120، ابن الأثير، الكامل، 465/9، ابن شداد النوادر السلطانية، ص75، أبو شامة، الروضتين، 350/1، ابن واصل، مفرج الكروب، 138/1، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص163-164، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 330/5، ابن خلدون، العبر، 10/4.

[4] الباهر، ص120-121.

الشامية الخاضعة لهم، وبالتالي قطع خطوط اتصالاتهم مع أوروبا الغربية، إضافةً إلى خلق طريق تجاري تخرج منه تجارة دمشق بحيث لا تمر عبر الأراضي الصليبية[1].

أرسل نورالدين في جمادى الأولى 559هـ/أفريل 1164م أسد الدين شيركوه ومعهُ ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب على رأس جيشٍ إلى مصر قصد إعادة شاور إلى منصبه والإطلاع عن قرب على أحوال مصر، وفي الوقت ذاته خرج نورالدين بعساكره إلى أطراف البلاد الخاضعة للصليبيين ليشغلهم عن التعرض للحملة المتجهة إلى مصر، ولأنَّ الوزير ضرغام لم يكن بمقدوره رد ذلك الجيش الشامي فقد لجأ إلى ملك بيت المقدس عموري الأول وطلب منه المساعدة لصد شيركوه وشاور عن مصر مقابل تعهده بأن يدفع له أموالاً كبيرة، ولكن الملك الصليبي لم يلتفت لطلب الوزير الفاطمي بسبب ما تعرضت له بلاده من هجمات عنيفة من قبل نورالدين محمود[2].

وعلى أية حال فقد تمكَّنت القوات النورية بقيادة أسد الدين شيركوه من الوصول إلى مصر وأن توقِع بضرغام الهزيمة فقتل على إثرها هو وأخويه، وتمَّ إعادة منافسه شاور إلى منصبه في الوزارة الفاطمية وذلك في رجب 559هـ/جوان1164م[3]، وأمّا شيركوه فأقام بعساكره في ظاهر القاهرة وأخذ يطَّلعُ على أحوال البلاد بهدف التعرف على طبيعتها الجغرافية، وخلالها أيضًا حدث أن اتصل به بعض الفقهاء السنة المصريين كأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري الشافعي و ابن حطبة والشيخ عمر بن مرزوق وشرحوا له أحوال مصر وشجعوه على فتحها[4].

وبعد أن استقر شاور في منصبه الجديد القديم تنكَّر لكل وعوده التي سبق وقطعها على نفسه لكل من نورالدين وأسد الدين[5]، بل الأكثر من هذا الموقف هو توجُّه شاور إلى الصليبيين يستصرخهم على

---

[1] محمود محمد الحويري، بناء الجبهة الإسلامية، ص130-131، سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص15-16.

[2] ابن الأثير، الكامل، 465/9-466، أبو شامة، الروضتين، 356/1، أبو الفدا، المختصر، 40/3، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 264-266.

[3] ابن الأثير، الكامل، 466/9، أبو شامة الروضتين، 355/1-356، ابن واصل، مفرج الكروب، 137/1-139، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 266/3-270، 172-273، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص164.

[4] المقريزي، اتعاظ الحنفا، 268/3، 271-272.

[5] ابن الأثير، الكامل، 466/9، الباهر، 121، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 330/5، Elisseeff (N); Nur ad- Din, II, p585.

أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين ويخوفهم من مغبة استيلاء نورالدين على مصر، وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها. [1]

وجد صليبيو بيت المقدس في عرض شاور فرصة مواتية للاستيلاء على مصر، وهي التي ظلت تحت نظر أطماعهم منذ مجيئهم إلى بلاد الشام، فتمَّ على ذلك الاتفاق بينهم وبين شاور على ما كان تعهَّد به إليهم من أموال كبيرة يدفعها إليهم فاقت ما وعدهم به ضرغام من قبل[2]، فجهَّز عموري الأول جيشه مستعينًا بما وصلهُ من الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس وسار بهم إلى مصر في رمضان 559هـ/أوت1164م[3]، لتكون قوة الصليبيين المدعمة من الفاطميين وقوة نورالدين في مواجهة مباشرة على إقليم مصر لأول مرة.

فور وصول عموري الأول إلى مصر اتصل بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس[4]، - وقد اتخذها أسد الدين وصلاح الدين قاعدةً لهم بعد غدر شاور-، وبعد ثلاثة أشهر من الحصار دافع خلالها أسد الدين على بلبيس بقوة رغم ضعف تحصيناتها، تمَّ الاتفاق بينه وبين عموري في ذي الحجة 559هـ/أكتوبر1164م على مغادرة مصر، بعد أن اتضح لشيركوه بأنَّ الموقف لم يعد في صالحه لأنَّ المؤن والذخائر المتبقية لديه أوشكت على النفاذ، فضلاً عن تفوق الجيوش الصليبية- الفاطمية في العدد، أمَّا عموري الأول فقد حرص على الانسحاب لأنَّ نورالدين انتهز فرصة تغيُّبه في مصر وشدد هجماته على المعاقل الصليبية بالشام، وخاصةً في قلعة حارم وبانياس لإرغامه على رفع الحصار عن شيركوه[5].

---

[1] أبو شامة، الروضتين 359/1.

[2] من بين الوعود المالية التي منحها شاور للصليبيين في سبيل مساعدته على إخراج شيركوه من مصر، بذل ألف دينار عن كلِّ مرحلة يسيرها الجيش الصليبي إلى مصر والمقدرة بسبعٍ وعشرين مرحلة، بالإضافة إلى هدية أخرى لمن يصحبه من الأمراء الفرنج وأن يتكفَّل بنفقات خيولهم، كما ويشير المؤرخ الحموي إلى قيمة أكبر في ذلك الاتفاق تناهز الأربعمائة دينار مصرية وعقد معاهدة معهم لمدة خمس سنوات، أنظر، ابن الأثير، الكامل، 466/9-467، ابن العديم، زبدة الحلب، 317/2، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 276/3-277، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، 595/2.

[3] سليمان عبد العبد الله الخرابشة، الصراع الفاطمي السلجوقي، ص430.

[4] بلبيس، مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، ياقوت، معجم البلدان، 376/1.

[5] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص121-122، ابن الأثير، الكامل، 467/9-468، ابن شداد، النوادر السلطانية، 75-76، أبو شامة، الروضتين، 359/1-360، ابن العديم، زبدة الحلب، 317/2، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 279/3، ابن واصل، مفرج الكروب، 140/1.

انتهى بذلك الاتفاق جولة من جولات الصراع بين عموري ونورالدين على التحكم في مقدرات مصر وإمكانياتها، غير أنَّ ذلك لم يكن يعني خمود فكرة الاستيلاء عليها لدى الطرفين، وخصوصًا لدى نورالدين الذي رأى في نهاية الجولة الأولى خسارةً أكثر من كونها اتفاق بين طرفين، حيث أثبتت الأيام والسنوات التالية أنَّ الصليبيين قد جعلوا لهم موطئ قدم ونفوذ في مصر بعد المساعدة التي قدَّموها لشاور، حيث منحهم هذا الأخير الأموال وأقطعهم الإقطاعات وأنزلهم دور القاهرة وبنى لهم أسواقًا تخصُّهم[1]، وهو ما أقلق نورالدين ودفعهُ للتفكير في معاودة إرسال حملة عسكرية إلى مصر يُؤِّدب فيها شاور على غدره ويُبعدُ نفوذ الصليبيين عنها.

جاءت الفرصة التي كان نورالدين ينتظرها على شكل استغاثة من الخليفة الفاطمي العاضد ضد وزيره شاور المستبد بالسلطة دونه ولِما أوصل إليه الخلافة الفاطمية؛ بعد أن كشف لكل الأطراف ضعفها واضطراب أحوالها[2]، فكانت استجابة نورالدين لاستغاثة الخليفة بالإيجاب طبيعية جدًّا لكونها وافقت طموحاته في مصر وتخوفاته من التواجد الصليبي فيها[3].

سارت الجيوش النورية بتعداد ألفي فارس وبقيادة أسد الدين شيركوه وعدد من الأمراء في مقدمتهم صلاح الدين الأيوبي في ربيع الأول 562هـ/جانفي 1167م مؤذنةً بدخول الصراع بين نورالدين والصليبيين جولته الثانية[4]، وكعادة الوزير شاور فقد عاود الاتصال بالصليبيين في بيت المقدس يستغيث بهم ويطلب عونهم على رد قوات شيركوه، والصليبيون من جانبهم لم يكونوا في حاجة إلى استصراخ شاور لمساعدته، لإدراكهم بأنَّ أي تغيير في مصر يسير في صالح نورالدين والجبهة الإسلامية سيدفعون ثمنه غاليًا، فيذكر ابن الأثير[5] عن موقفهم بعد استغاثة شاور بهم فيقول: "وكان شاور لما بلغهُ مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول، فتارةً يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير، وتارةً يحدوهم خوفهم أن يملكها العسكر النوري، فجدُّوا على الإسراع في المسير، فالرجاء يقودهم، والخوف يسوقهم".

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 332/5.

(2) نفسه، 334/5.

(3) حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص219، الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص303.

(4) ابن الأثير، الكامل، 4/10، ابن العديم، زبدة الحلب، 322/2، أبو شامة، الروضتين، 363/1-367، ابن واصل، مفرج الكروب، 150/1، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص169.

(5) التاريخ الباهر، ص132.

قاد أملريك (عموري الأول) الجيوش الصليبية إلى مصر، وفيها التقى بشاور ورجاله فاتخذوا من الشاطئ الشرقي للنيل على مقربة من القاهرة معسكرًا لهم، وعلى الجانب الآخر كان يعسكر جيش أسد الدين، هذا الأخير الذي علم أنَّ ميزان القوة في غير صالحه لكثرة عدد جيوش خصومه بالمقارنة مع من كانوا معه، إضافةً إلى عدم تحمس الكثير من الأمراء في جيشه لخوض القتال، وأمَّا من وافقه لدخول المعركة فكان دافعهم الخوف على إقطاعاتهم في بلاد الشام أن يجردهم منها نورالدين لا الحماس في حرب الفاطميين والصليبيين، وعليه فقد سار شيركوه بجيشه صوب الصعيد حتَّى وصل إلى مكان يعرف بالبابين وفي أثره القوات الصليبية – الفاطمية المتحالفة فلحقوا به هناك في جمادى الآخرة سنة 562هـ/أفريل 1167م[1].

وهناك دارت بين الطرفين معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة شاور وحلفائه، ووقوع عدد كبير من خيرة الفرسان الصليبيين في الأسر، على الرغم من قلة عساكر شيركوه وكثرة رجال أعدائه، وقد علَّق ابن الأثير[2] عن ذلك، فقال:"وكان أعجب ما يؤرخ به أنَّ ألفي فارس يهزم عسكر مصر وفرنج الساحل".

وتجدر الإشارة إلى أنَّ شيركوه حاول قبل المعركة استمالة شاور من خلال عرض لإقامة حلفٍ مشترك بين القوات الشامية والمصرية تواجه الصليبيين وتطردهم نهائيًا من المنطقة، إلاَّ أنَّ شاور رفض العرض لأنانيته المعهودة وآثر التحالف مع الفرنج ضد شيركوه على محالفة شيركوه ضدهم[3].

وعلى أية حال وبعد معركة البابين في الصعيد اتجه شيركوه شمالاً صوب الإسكندرية التي وُصفت بكونها مركز المعارضة للحكم الفاطمي لكثرة أنصار المذهب السني بين سكانها، فما إن وصلها أسد الدين شيركوه حتَّى استقبله فيها أهلها بالترحاب وسلموها له "لميلهم إلى مذهب أهل السنة وكراهتهم لرأي

---

[1] ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص169.

[2] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص133، وأنظر، البنداري، سنا البرق الشامي، ص20، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 283/3-284.

[3] يذكر أبو شامة عن تلك المحاولة بالقول: "فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له: أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلاَّ هو، وبكل يمينٍ يثق بها المسلم من أخيه، أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبدًا، ولا أمكِّنُ أحدًا بالتعرض لها، ومن عارضك منها كنت معك ألبًا عليه، وما أؤمل منك إلاَّ نصرة الإسلام فقط، وهو أن العدو قد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسير، وأريد منك أن تجتمع أنا وأنت وننتهز فيه الفرصة التي أمكنت والغنيمة التي قد كتبت، فنستأصل شأفته، وتخمد ثائرته، وما أظنُّ أن يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبدًا"، أنظر، الروضتين، 425/1.

المصريين" على قول ابن واصل، فاستناب بها ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، أمَّا هو فإنَّهُ عاد إلى الصعيد بجزءٍ من جيشه فملكهُ وجبى أمواله[1].

سارت الأحداث بعد ذلك في اتجاه الصدام على أرض الإسكندرية بين القوات الفاطمية – الصليبية المتحالفة والقوات الشامية المتعاضدة بأهل المدينة المصرية، لكنَّ النتيجة لم تكن حاسمة للطرفين ووقع الاتفاق على الصلح الذي عرضه الصليبيون وحليفهم شاور، وممَّا نصَّ عليه الاتفاق انسحاب أسد الدين شيركوه بقواته إلى الشام وأن يستلم من شاور خمسين ألف دينار مضافةً إلى ما أخذه من البلاد التي مرَّ بها من الأموال، وألاَّ يقيم الصليبيون في البلاد المصرية ولا يتملَّكوا فيها قريةً واحدة، وهذا الشرط الأخير هو أهم ما كان يصبو إليه نورالدين لإبعاد النفوذ الصليبي على مصر، بل هو ما دفعهُ للمسير إليها في هذه السنة أي 562هـ/1167م[2].

غير أنَّ الاتفاق شيء والواقع على الأرض شيءٌ آخر، إذ وبعد عودة شيركوه وصلاح الدين إلى الشام في ذي القعدة 562هـ/أوت1167م، اتخذ شاور مع الصليبيين موقفًا معاكسًا لشروط الصلح المبرمة بين الطرفين، فاتفق معهم على أن يبقى لهم بالقاهرة شحنةً أو مندوبًا، وتكون أبوابها بيد فرسانهم لحمايتها من عسكر نورالدين، وأن يمنح شاور للصليبيين مبلغا قدره مائة ألف دينار، وقد جرى كل هذا والخليفة العاضد لا يعلم شيئًا من الأمر، لأنَّ شاور قد حجب عليه ومنعه من الأمور كلِّها[3].

سارت الأحداث على أرض مصر بعد ذلك في صالح الصليبيين، خاصةً بعد الامتيازات التي حصلوا عليها من الوزير شاور، وصارت مصر قاب قوسين أو أدنى من الخضوع للسيطرة الصليبية، فتنفَّذوا وتحكموا وطغوا، فنال المسلمون منهم أذى شديد وقهرًا زائد.

زادت أطماع الصليبيين في مصر من مجرد الاستفادة من خيراتها وتحييد قوة نورالدين عنها إلى الرغبة في الاستيلاء عليها وإخضاعها بطريقة مباشرة لسلطة المملكة الصليبية في بيت المقدس، فكان أن أبرقت الحامية الصليبية بالقاهرة للملك عموري الأول برسالةٍ تحثُّهُ فيها على القدوم إلى مصر وتسلُّمها نظرًا لخلوها

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص133-134، ابن واصل، مفرج الكروب، 151/1، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص171.

(2) ابن الأثير، الكامل، 4/10-5، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص133- 134، أبو شامة الروضتين، 9/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 151/1-152، البنداري، سنا البرق الشامي، ص20-21.

(3) ابن الأثير، الكامل، 5/10 ، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص134، ابن واصل، مفرج الكروب، 152/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 333/5، السيوطي، حسن المحاضرة، 4/2، 338-358، .Lane-pool ; The story of Cairo,p164

من المدافعين عنها، فاجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدم، وأشاروا عليه بالمسير والاستيلاء عليها[1]، غير أنَّ الملك لم يتحمَّس في البداية؛ ولكنَّهُ رضخ في النهاية لرغبة فرسانه المتحمِّسين[2].

وقد حدث أيضًا أن اتصل الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين Manuel Comanen في 563هـ/1167م بعموري الأول مبديًا له رغبته في مساعدة الصليبيين في حملتهم على مصر، وكان رد الملك الصليبي بالقبول المبدئي وبحاجته للدعم العسكري من الإمبراطورية البيزنطية مقابل اقتسام الغنائم والمكاسب على أرض مصر، لكن إمبراطور بيزنطة طلب مهلةً ينهي فيها حروبه في البلقان قبل تسيير جموعه لإقامة الحلف مع الصليبيين، وأمَّا عموري الأول وتحت ضغط بعض الأمراء كوليم الرابع كونت نيفر والفرسان الاسبتارية[3] وكذلك ما بلغه من أخبار تفيد بضعف موقف شاور بمصر؛ فقد قرر التعجيل بالمسير إليها حتَّى قبل وصول الدعم الإمبراطوري[4].

سارت جموع الصليبيين في أعدادٍ كبيرة من بيت المقدس بقيادة عموري الأول فتظاهروا في الأول بقصدهم حمص حتَّى يخادعوا نورالدين، ولكن سرعان ما توجهوا إلى عسقلان ثم نزلوا ببلبيس واستولوا عليها في صفر سنة 564هـ/نوفمبر1168م، بعد مقاومة من أهلها دامت ثلاثة أيام، وهناك أقاموا مذبحةً كشفت لشاور الوجه الحقيقي لهؤلاء[5]، يقول عنها المؤرخ رنسيمان[6]:" وتلى دخول الفرنج إلى الحصن (بلبيس) إجراء مذبحة مروعة"، ومنها زحف الصليبيون إلى القاهرة وفرضوا عليها حصارًا استبسل فيه أهلها

---

(1) ابن الأثير، الباهر، ص137.

(2) ابن الأثير، الباهر، ص137، ابن واصل، مفرج الكروب، 156/1.

(3) الاسبتارية، Hospitallers : وتعني بيت المرضى وهي نسبة إلى الاسبتار (تحريف للكلمة)، أسسها بعض تجار مدينة أمالفي عام 463هـ/1070م، في بيمارستان قرب كنيسة القيامة للعناية بالفقراء الحجاج الأوروبيين، وقدموا مساعدات كبيرة للصليبيين حالة وصولهم بيت المقدس، أنظر، كمال بن مارس، **أساليب القتال الإسلامية- الصليبية عصر الحروب الصليبية**، المجلة التاريخية المصرية، الدار العربية للكتاب، مج 46، السنة 2008-2009، هامش ص58.

(4) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، 612/2-613، .Stevenson, op, cit,p193

(5) ابن الأثير، الباهر، ص138، ابن الأثير، الكامل،12/10، أبو شامة، الروضتين، 32/2-33، الفتح بن علي البنداري، **سنا البرق الشامي**، تح، فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي للنشر، مصر، 1979، ص39، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 292/3-293، السيوطي، حسن المحاضرة، 4/2،

(6) تاريخ، 615/2.

في الدفاع عنها حتَّى أعجزوا على الاستيلاء عليها، أمَّا الفسطاط فإنَّ شاور قد أمر بإشعال النيران بها، بعد نقل أهلها إلى القاهرة فظلت تحترق مدة أربعة وخمسين يومًا(1).

وأمام هذه المحنة القاسية لم يكن أمام الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله سوى الاستنجاد بنورالدين محمود مرةً ثانية، فأرسل إليه في حلب يستعين به ويعرفه ضعف المسلمين بمصر على رد الصليبيين، ولإثارة الحماسة في نفس نورالدين فقد أرسل العاضد في الكتب شعور نسائه وقال:" هذه شعور نسائي من قصري يستغيثون بك لتنقذهن من الفرنج"، زيادةً على إقراره بمنح نورالدين ثلث خراج مصر وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيمًا عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجًا عن الثلث الذي لنورالدين(2).

وجد نورالدين في استغاثة الفاطميين الفرصة التي سيحقق بها طموحاته في ضم مصر إلى جبهة المقاومة الإسلامية الممتدة من بلاد الجزيرة إلى بلاد الشام، وكذا إنهاء الانشطار الروحي للمسلمين بين خليفتين في نفس الزمن، فضلاً على تحقيق مزيد من المكاسب على الطرف الصليبي بتعزيز انتشاره في المنطقة، ولهذا لم يتردد في إجابة المستغيثين وسارع إلى تجهيز قوة عسكرية كبيرة أوكل قيادتها لأسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، سارت في منتصف ربيع الأول سنة 564هـ/نوفمبر1168م وصلت بعد ثلاثة أسابيع إلى القاهرة، وحينها كان الصليبيون قد غادروها قبل ستة أيام عائدين إلى بيت المقدس(3).

ونكتفي هنا بهذه التفاصيل حول الصراع بين نورالدين والصليبيين للاستيلاء على مصر رغم زخم الأحداث وتشعبها والتي تناولتها المصادر المعاصرة الإسلامية منها والصليبية بكل حيثياتها، وبقي لنا سوى أن نقول أنَّ أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين قد عزما على تخليص مصر والإسلام من شاور الذي يقول فيه ابن تغري بردي(4)" شاور فساد العباد والبلاد وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك

---

(1) ابن الأثير، الباهر، ص138، ابن الأثير، الكامل،12/10-13، أبو شامة، الروضتين، 33/2، ابن العديم، زبدة الحلب، 326/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 157/1، المقريزي، الخطط، 158/3- 159.

(2) ابن الأثير، الباهر، ص139، ابن الأثير، الكامل،13/10، أبو شامة، الروضتين، 33/2، ابن العديم، زبدة الحلب، 326/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 158/1، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 299/3-300، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص176.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص79، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص175- 176.

(4) النجوم الزاهرة، 334/5.

الإسلام"، وفي ربيع الآخر 564هـ/جانفي 1169م ذهب شاور إلى معسكر شيركوه وهناك هاجمه صلاح الدين وسجنه في خيمة، ثمَّ قُتل بأوامر من الخليفة العاضد[1].

ولَّى الخليفة الفاطمي – بعد مقتل شاور- قائد الجيوش النورية أسد الدين شيركوه منصب الوزارة، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، لتكون هذه الخطوة أولى الخطوات في تأسيس الدولة الأيوبية ومعها إكمال بناء الجبهة الإسلامية المنشودة، غير أنَّ أسد الدين توفي بعد فترةٍ وجيزة من توليه المنصب[2]، ما دفع بالخليفة العاضد لأخذ العهد بالوزارة لصلاح الدين ولقبه بالملك الناصر وكان ذلك في جمادى الآخرة 564هـ/مارس1169م[3].

وعليه فإنَّ أمل الوحدة المذهبية والسياسية التي سعى إليها آل زنكي على عهد عماد الدين ونجله نورالدين بغية تقوية الجبهة الداخلية قد صارت أمرًا واقعًا، وأن مساعيهم في ترجيح كفة الصراع العسكري مع الصليبيين قد تحقق منه الشيء الكثير، وما السيطرة على كامل الظهير الشامي[4] ومصر بأهميتهما في ذلك الصراع لأحسن دليل على ذلك الرجحان.

ورغم كل هذه النجاحات للأسرة الزنكية إلى هذا التاريخ 564هـ/1169م وخاصةً على مستوى الجبهة الداخلية للمقاومة بضم مصر؛ فإنَّ ذلك لا يعني أنَّ مصر قد صارت قاعدة يمكن أن يعوَّل عليها لمواصلة طريق المقاومة ضد الصليبيين المسيطرين على الساحل الشامي، وذلك لأنَّ مصر لا يزال هواها

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 15/10، ابن العديم، زبدة الحلب، 327/2 ابن خلكان، وفيات، 440/2، أبو شامة، الروضتين، 38/2-40، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 301/3-302، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص178، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 361/5-362.

[2] لم تدم فترة حكم أسد الدين شيركوه في الوزارة الفاطمية سوى خمس وستون يومًا توفي بعدها، فكانت وفاتهُ في 22 جمادى الآخرة 564هـ/23 مارس 1169م، ويذكر المؤرخون أنَّ سبب وفاته هو كثرة تناوله للحوم المدهنة فأصيب بالتخمة والخوانيق، أنظر، ابن الأثير، الكامل، 15/10-16، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 80-81، ابن العديم، زبدة الحلب، 328/2، أبو شامة، الروضتين، 47/2-48، ابن واصل، مفرج الكروب، 167/1-168، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص179، ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، 211/4.

[3] أبي عبد الله محمد بن علي بن حماد (ت628هـ)، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تح، التهامي نقرة، عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، ص108. ابن الأثير، الكامل، 15/10، ابن العديم، زبدة الحلب، 328/2-329، أبو شامة، الروضتين، 76/2-77، ابن واصل، مفرج الكروب، 168/1-169، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 308/3، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص179.

[4] الظهير الشامي هو المنطقة الممتدة بعد الساحل حتى أعالي الأردن وإلى خليج العقبة، وبمعنى آخر هو المنطقة الممتدة شمالاً من حلب إلى أيلة جنوبًا على بحر القلزم (الأحمر) في الضفة الغربية لخليج العقبة، أنظر، كمال بن مارس، **الظهير الشامي في عصر الحروب الصليبية (من الحملة الصليبية الأولى إلى الحملة الصليبية الثالثة)**، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2003-2004.

شيعي اسماعيلي وحركة المقاومة قادتها سنيين متعصِّبين لمذهبهم، وأنَّ وجود صلاح الدين في منصب الوزارة بمصر لم يكن يعني أنَّ الأمور مستقرة لقادة المقاومة لإكمال مشروعهم ضد الوجود الصليبي، فالخلافة الفاطمية لا تزال قائمة وتوجُّس المصريين من السيطرة السنية على مصر سيؤدّي لا محالة لمناهضة هذا الواقع الجديد.

الفصل الخامس

الفصـل الخامس

الأيوبيون ونهاية الانقسام المذهبي، مرحلة جديدة على مسار المقاومة ضد الصليبيين (564هـ-589هـ/1169م-1193م)

أولاً: صلاح الدين في مصر، مخاض التحول المذهبي وتوحيد مصر بجبهة الجزيرة والشام

1- منغصات الانتقال المذهبي السياسي في مصر

2- إستراتيجية صلاح الدين لتحقيق التغيير المذهبي وإسقاط الحكم الفاطمي بمصر

3- سياسة السلطان صلاح الدين لدعم المذهب السني وإضعاف الحضور الإسماعيلي

ثانيًا: المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين في ظل الوحدة المذهبية والسياسية بالمشرق

1- ارتدادات ما بعد سقوط الحكم الفاطمي الشيعي على مصر وأثرها على نشاط المقاومة ضد الصليبيين

2- علاقة صلاح الدين بالإسماعيلية النزارية في بلاد الشام

3- نصر حطين واسترداد بيت المقدس ثمار جهود الوحدة

أولاً: صلاح الدين في مصر، مخاض التحول المذهبي وتوحيد مصر بجبهة الجزيرة والشام:

عرف نشاط المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي على العهد الزنكي تغيُّرًا كبيرًا نحو الإيجابية بفضل الجهود الوحدوية التي قادها عماد الدين زنكي ونجله نورالدين محمود على مستوى الجبهة الجزرية والشامية، تلك الجهود التي ركَّزت على إنهاء ظاهرة الانقسام المذهبي داخل الجبهة الإسلامية والتي نجم عنها في كثير من الأحيان صراع مرير على النفوذ والسلطان، أفاد منه الصليبيون أيَّما إفادة في تثبيت أقدامهم بالمنطقة، فكان أن حققت جهود هذين القائدين نوع من توازن القوى بين المسلمين والصليبيين إلى حدٍّ كبير وهو الذي كان مفقودًا قبل ذلك.

استمرت تلك الجهود الوحدوية من قبل الزنكيين لتستهدف في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي إقليم مصر مقر الخلافة الفاطمية الشيعية المستهدف الأول في حركة الإحياء السني التي قادها السلاجقة قبلاً واستمر على نهجهم القادة الزنكيون، فرأينا كيف ساهمت الظروف على مستوى الخلافة الفاطمية في إتاحة الفرصة لنورالدين محمود لدخول مصر ثُمَّ السيطرة عليها بعد ذلك بفضل قائدي جيوشه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين بن نجم الدين أيوب.

تولَّى أسد الدين شيركوه منصب الوزارة بعد مقتل الوزير شاور في ربيع الآخر 564هـ/جانفي 1169م ولكن ذلك لم يستمر طويلاً فقد توفي أسد الدين بعد فترة قصيرة من توليه المنصب، ليعهد الخليفة الفاطمي العاضد بأمر الله لابن أخ شيركوه وهو صلاح الدين بن أيوب بمنصب الوزارة في جمادى الآخرة من سنة 564هـ/مارس1169م، ومع هذا الأخير تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع المذهبي الإسلامي عنوانها "إنهاء الانقسام المذهبي واستكمال مسار الوحدة المذهبية والسياسية للجبهة الداخلية"، ومعه أيضًا تبدأ مرحلة جديدة في مسار المقاومة ضد الصليبيين عنوانها "قطف ثمار الوحدة".

1- منغصات الانتقال المذهبي والسياسي في مصر:

لم تمر السنوات الثلاث الأولى التي استوزر فيها صلاح الدين السني لخليفة الفاطميين الإسماعيلي بمنأى عن المنغصات والارتدادات الداخلية والخارجية، سواء مع الفاطميين المتوجسين من التواجد السني في منصب الوزارة وسعيهم في التخلص من صلاح الدين بتدبير المؤامرات والدسائس لذلك، خاصةً وهم على علم بما تعرَّض لهُ مذهبهم في بلاد الشام على يد نورالدين ولا يستبعدون أن يقوم نائبه في مصر بنفس العمل على إقليم مصر، أو من محاولات التحالف المسيحي (البيزنطي- الصليبي) لإبعاد سلطة نورالدين

على مصر باستهداف مدينة دمياط، وهذا لإرغام صلاح الدين على الخروج من القاهرة في مواجهتهم ليتسنى لحلفائهم من المصريين إعادة نفوذهم عليها، إضافةً إلى ما شاب علاقته مع قائده ومسؤوله المباشر في الشام نورالدين محمود، بسبب الاختلاف في الرؤى بين الطرفين حول تسيير الأمور بإقليم مصر.

وعليه فإنَّ اتخاذ القرار بإنهاء الحكم الفاطمي على مصر وإلحاق هذه الأخيرة سياسيًا بالجبهة الشامية تحت قيادة نورالدين ومذهبيًا بالخلافة السنية في بغداد قد تأخَّر إلى سنة 567هـ/1172م – أي بعد ثلاث سنوات من استوزاره –، فصلاح الدين لم يكن بمقدوره تحقيق أهداف حركة المقاومة ضد الصليبيين والسير في مشروع الإحياء السني بمقاومة الفكر الشيعي على أرض مصر بسهولة ويُسر وفي وقت وجيز، أي دون تهيئة الأجواء وتذليل العقبات لتحقيق التغيير المنشود سياسيًا ومذهبيًا.

فأمَّا عن أولى المنغصات التي أعاقت صلاح الدين على تحقيق الوحدة السياسية والمذهبية بين مصر والشام بعد استوزاره، ما كان يكيده له رجالات الدولة الفاطمية من دسائس ومؤامرات، حيث نقل لنا أبو شامة[1] عن العماد الأصفهاني بعض ما تضمنته رسائل صلاح الدين التي كان يبعث بها إلى الشام بعد تقلُّده الوزارة يعبر فيها عن مخاوفه فيقول: "وترددت الكتب الصلاحية بذكر الأشواق، وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش وبرح القلوب العطاش، فإنَّ أصحابنا وإن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أمةٍ لا يعرفونها بل ينكرونها ولا يألفونها، ورأوا وجوهًا هناك بهم عباسة، وأعينًا للمكايد متيقظة، فإنَّ أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين، وعلى عقيدتهم معاقدين مخالفين".

كان ابتداء تلك المؤامرات من قبل رجالات الدولة الفاطمية سنة 564هـ/1169م حين تزعم مؤتمن الخلافة جوهر – وهو خصي كان رئيسًا لخدم القصر الفاطمي– محاولة الإطاحة بصلاح الدين، بعد أن قام هذا الأخير بالانتقاص من أطراف إقطاعات أهل القصر واقتطع أجزاءً منها ليرضي بها أمراء جيشه الشامي، فكان ذلك سببًا في تحالف من تمَّ الانتقاص من إقطاعياته ودبروا مؤامرة للتخلص منه فراسلوا في ذلك الصليبيين ودعوهم لمهاجمة مصر، فيخرج صلاح الدين بجزء من جيشه بغية ردِّهم ويتكفَّل المتآمرون بمن تبقى من قواته في القاهرة فيطردونهم، ويحاصروا صلاح الدين ومن معه بينهم وبين الفرنج[2].

---

[1] الروضتين، 51/2.

[2] ابن الأثير، الكامل، 18/10-19، أبو شامة، الروضتين، 86/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 174/1-175، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 311/3-312، رنسيمان، تاريخ، 621/2،

لم يكتب لهذه المؤامرة النجاح فقد وقعت الرسالة التي بعث بها المتآمرون إلى الصليبيين في يد صلاح الدين قبل وصولها إليهم، وهذا بعد أن ألقى القبض على حامل الرسالة في نواحي قرية البئر البيضاء[1] إحدى قرى بلبيس، فكشف من خلالها خطتهم ومن يتزعم حركتهم، وحينئذ خشي مؤتمن الخلافة على نفسه ولزم القصر واحتاط، وأمَّا صلاح الدين فقد كان يتربص به ويتسنح الفرصة المناسبة للتخلص منه، لتحين عندما خرج إلى بستانه للنزهة بناصية الحرقانية قرب قليوب، فأرسل إليه صلاح الدين من قتله في يوم الأربعاء 25 ذي القعدة 564هـ/20 أوت 1169م[2].

وعلى إثر مقتل مؤتمن الخلافة حاول جماعة من السودانيين الذين بمصر الانتقام لمقدّمهم من صلاح الدين، فجمعوا وحشدوا قواتٍ بلغت خمسين ألفًا وزحفوا بها صوب دار الوزارة، فأرسل إليهم أخاه الأكبر فخر الدين شمس الدولة توران شاه[3] ومعه العساكر التركية لقتالهم، كما سار إليهم صلاح الدين بجيوشه، ووقعت بين الطرفين معركةٌ بين القصرين بالقاهرة أدَّت إلى مقتل عدد كبير من الطرفين، ولما رأى صلاح الدين كثرة أعداد السودانيين وشدة مقاتلتهم، عمل حيلةً لتفريقهم، فأمر بإحراق محلَّتهم المعروفة بالمنصورة، والواقعة خارج باب زويلة[4].

وأتلف أموالهم، وأهلك أولادهم وحريمهم، فلمَّا علموا بذلك اختلَّ توازنهم وولوا منهزمين تتعقبهم جيوش صلاح الدين، فكانوا يلاحقونهم في كل موضعٍ يلتجئون إليه، فاضطروا إلى طلب الأمان، وأمَّنوا على من بقي منهم أن يخرجوا من القاهرة، فأخرجوا إلى الجيزة، وأخربت محلَّتهم وأصبحت بستانًا، واستولى صلاح الدين على دورهم وضياعهم، في يوم السبت 28 ذي القعدة عام 564هـ/22 أوت 1169م،

---

[1] البئر البيضاء، هي اسم لأربع قرى في مصر، الأولى من كورة الشرقية (وهي المقصودة هنا) والثانية غربي النيل بين مصر والإسكندرية، والثالثة من ضواحي الإسكندرية، والرابعة قرب المحلة، ياقوت، معجم البلدان، 336/2، حاشية رقم1 المقريزي، اتعاظ الحنفا، 312/3، ابن واصل، مفرج الكروب، 175/1.

[2] ابن الأثير، الكامل، 19/10، أبو شامة، الروضتين، 87/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 176/1، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 312/3، رنسيمان، تاريخ، 621/2.

[3] هو الملك المعظم شمس الدولة توارن شاه بن أيوب بن شاذي بن مروان ، أبو المفاخر فخر الدين، ولد بمصر سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وهو آخر من بقي من إخوة صلاح الدين، وكان أكبر منه، سمع الحديث بدمشق من محيي الدين الثقفي، وأجازه ابن بري، وكان ذا شجاعة وعقل، وكان مقدم الجيش الحلبي، وهو كان المقدم لما التقوا بالخوارزمية سنة 537هـ/1142م بقرب الفرات، فأسر يومئذٍ وهو مثخنٌ الجراح، وانهزم عسكرهُ هزيمةً قبيحة، توفي يوم الخميس في مستهل صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة بثغر الإسكندرية، ابن خلكان، وفيات، 306/1-307، أبو شامة، الروضتين، 83/2، الحنبلي، شفاء القلوب، ص79.

[4] باب زويلة، وهو باب مهم في الجهة القبلية من أسوار القاهرة، وهو أكبر أبوابها عليه مئذنتان مازالا قائمينإلى اليوم علقت عليهم رؤوس رسل هولاكو، سمي كذلك نسبةً إلى قبيلة زويلة التي قدمت مع الفاطميين من المغرب إلى مصر، ياقوت، معجم البلدان، 160/3.

وفي الجيزة هاجمهم توران شاه في جماعة من عسكره، وأبادهم بالسيف ولم يبق منهم إلاَّ القليل، ولكثرة أعداد القتلى من السودانيين فقد عرفت هذه المعركة بمعركة السودان أو العبيد[1].

وأمَّا ثاني المنغصات على طريق الوحدة المنشودة فقد مثَّلها التحالف البيزنطي الصليبي الذي تشكَّل بعد فشل عموري الأول في ضمان موطئ قدم للصليبيين بأرض مصر وهزيمته أمام نورالدين في آخر جولات الصراع بينهما، وهو ما أشعر صليبيي بيت المقدس بالخطر المحدق الذي يتهددهم إن استمر الوضع في مصر على هذا النحو – أي بقائها تحت السطوة النورية–، خاصةً وأنَّهم في ذلك الوضع بين فكي كماشة نورالدين زنكي في شرقهم وشمالهم (بلاد الشام والجزيرة) وصلاح الدين في الجنوب منهم (مصر)، ولم يتبق لهم سوى الساحل الذي ما فتئ يضيق عليهم بفضل الهجمات المتتالية لقوات نورالدين[2].

ولأن الصليبيين في بيت المقدس لم يكونوا بالقوة التي تمكنهم من مجاراة قوات نورالدين وصلاح الدين، فقد أرسل عموري الأول سفارات إلى ملوك أوروبا والإمبراطور البيزنطي يطلب فيها المعونة لإخراج القوات النورية من مصر ودفع خطره الذي يوشك أن يقضي على الإمارات اللاتينية المسيحية ببلاد الشام[3]، والملك الصليبي بهذا العمل سعى لاستثارة حماسة المسيحيين في أوروبا وبيزنطة ممنيًا النفس بإرسال حملة صليبية جديدة إلى المنطقة[4].

وفي الوقت الذي جاءت الردود على طلب الملك الصليبي سلبية من أوروبا نظرًا للخلافات والنزاعات التي كانت تربط أباطرتهم وملوكهم، وضعف الدافع الديني لديهم والذي حرَّك قبل نصف قرن

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 19/10، أبو شامة، الروضتين، 87/2-88، ابن واصل، مفرج الكروب، 176/1-177، البنداري، سنا البرق الشامي، ص43-44.

[2] يصف ابن واصل الهلع الذي أصاب الفرنج من جراء ذلك الوضع فيقول:" ولما ملك صلاح الدين – رحمه الله – الديار المصرية، واستقرت قدمه بها، واستقرت بها العساكر النورية، أيقن الفرنج بالهلاك، وأيقنوا أنَّ بلاد الساحل من المسلمين على شفا جرف هار، وأنَّهم إن لم يتداركوا الأمر وإلاّ ذهبت البلاد من أيديهم"، مفرج الكروب، 179/1-180.

[3] ابن الأثير، الكامل، 22/10، ابن الأثير، الباهر، ص143، أبو شامة، الروضتين، 91/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 179/1-180، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 315/3، رنسيمان، تاريخ، 620/2-621، سعيد عبد الفتاح عاشور، **الناصر صلاح الدين**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، د ت، ص85.

[4] تشكلت السفارة التي سارت من بلاد الشام إلى أوروبا من عموري ملك بيت المقدس وهرنسيوس مطران قيصرية ووليم مطران عكا، وقد أزمع عموري على مكاتبة لويس السابع ملك فرنسا وهنري الثاني ملك انجلترا وفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا ووليم الثاني ملك صقلية وفيليب كونت فلاندر وهنري كونت شمبانيا، كما كاتب فرنجة الأندلس، وقد كان لنورالدين علم بكل هذه التحركات من صليبيي الشام، أنظر، حسن حبشي، نورالدين محمود والصليبيون، ص 134.

آبائهم في حروبهم على المشرق[1]، فإنَّ الإمبراطور البيزنطي أبدا تجاوبًا مع الدعوة، آملاً في أن يحقق له ذلك التحالف ما كان يصبو إليه من رغبة في الحصول على جزء من أرض مصر[2]، وهو الذي أبان قبل أشهر فقط على رغبته في مشاركة حملة عموري الأول للاستيلاء على مصر سنة 563هـ/1167م، والتي انتهت بسيطرة نورالدين عليها[3].

أنفذ الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين Manuel I Comnenus (1180م-1143م/538هـ-567هـ) إلى الصليبيين ببيت المقدس أسطولاً قويًا بقيادة إندرونيك كونستفانوس Andronic Constiphanos بعد أن مرَّ بقبرص وتزوَّد بالمئونة الكافية لثلاثة أشهر، وانضمت إليه هناك ستون سفينةً بيزنطية أخرى، إضافةً إلى إنفاذه قوة كبيرة من الفرسان والمشاة والميرة وآلات الحرب.[4]

ولعلّ أولى الملاحظات حول هذه الاستعدادات والدعم الكبير من قبل الإمبراطور البيزنطي ما يؤكِّد على حجم مطامعه في التوسع جنوبًا وإدخال مصر ضمن دائرة نفوذه، وهو الأمر الذي لم يكن خافيًا على الملك الصليبي أيضًا، ممَّا دفعه لتأجيل الرد على قائد الأسطول البيزنطي في قبرص ما زيد على شهرين، حيث توفي حينها أسد الدين شيركوه وخلفه على رأس الوزارة في مصر ابن أخيه صلاح الدين[5].

وفي صفر 565هـ/نوفمبر 1169م زحف الأسطول المسيحي (البيزنطي- الصليبي) الذي وصل عدد سفنه المائتين، قاصدًا مدينة دمياط التي يقول فيها ابن واصل[6]: "دمياط عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية"، وكانت حينذاك غير محصنة، فأقامت القوات المتحالفة ثلاثة أيام في نصب الخيام أمامها، ممَّا أتاحوا لها أن تستعد لصدِّهم، وقد كان في إمكانهم دخولها لو باغتوها بالهجوم[7].

---

(1) أنظر، حسن حبشي، نورالدين محمود والصليبيون، ص 135، سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر، ص86،

(2) الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص313.

(3) رنسيمان، تاريخ، 2/612-613، عبد الفتاح عاشور، الحركة الصلبية،2/18،. Stevenson: op, cit, p193

(4) ابن الأثير، الباهر، ص 143، سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر، ص86،

Schlumberger (Gustave): **Les Compagnes de roi Amaury 1er Jérusalem en Egypte**, paris ،1906, p258-261.

(5) ابن الأثير، الكامل، 11/157، وأنظر، حسن حبشي، نورالدين محمود والصليبيون، ص 136.

(6) مفرج الكروب، 1/179-180.

(7) ابن الأثير، الكامل، 10/22، ابن الأثير، الباهر، ص 143، أبو شامة، الروضتين، 1/91، مفرج الكروب، 1/180، رنسيمان، تاريخ، 2/623، حسن حبشي، نورالدين محمود والصليبيون، ص 136.

كان هذا الموقف أول اختبار خارجي واجهه صلاح الدين كقائد مباشر على إقليم مصر، فكان عليه مواجهته بحنكة كبيرة تضمن له التفوق العسكري على الخصم أولاً ثم الإبقاء على الحظوة والمكانة لدى الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله وقائده في الشام نورالدين محمود على السواء ثانيًا، ولا نبالغ إن قلنا أنَّ الموقف كان معقدًا للغاية بالنسبة لصلاح الدين نظرًا لحجم أسطول العدو الذي قدم إلى مصر وكذلك عدم استقرار وضعه السياسي في القاهرة بسبب المؤامرات التي ظلَّ يكيدها له الفاطميون لإبعاده عن منصب الوزارة.

وعلى أية حال فقد أرسل صلاح الدين إلى قائده نورالدين بالشام يشرح له صعوبة الموقف في مصر ويشكو له مخاوفه من مؤامرات القصر الفاطمي وجند السودان إن هو غادر القاهرة لمواجهة قوات التحالف البيزنطي – الصليبي في دمياط[1]، حيث يقول ابن الأثير[2] عن ذلك "وتابع رسله إلى نورالدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنَّهُ إن تخلَّف عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه".

استجاب نورالدين لنائبه مقدرًا خطورة الوضع وأرسل إليه بعساكر من الشام وصلت إلى دمياط في ربيع الأول 565هـ/نوفمبر 1169م على دفعات يتلو بعضها بعضًا[3]، كما قام هو ذاته – أي نورالدين – بمهاجمة مراكز الصليبيين في بلاد الشام لتخفيف وطأتهم وضغطهم على مصر، فتوغل فيها واستباحها من وقت نزول الفرنج على دمياط في مستهل صفر عام 565هـ/1169م، فوصلت غاراته إلى ما لم تكن تبلغهُ لخلو البلاد من مانع[4].

كما قام صلاح الدين بإنفاذ قوات إلى دمياط عن طريق النيل لتعزيز حاميتها، فزوَّدها بالسلاح والذخائر، وأرسل السفن مع ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه وخاله شهاب الدين محمود الحارمي، فاستطاعت دمياط بفضل ما تجمع لديها من إمدادات وذخائر وعساكر قادمة إليها من الشام والقاهرة من الصمود ومقاومة المعتدين، الذين وجدوا أنَّ الموقف لم يعد في صالحهم فقرروا الانسحاب والعودة إلى الشام

---

[1] أبو شامة، الروضتين، 91/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 181/1، البنداري، سنا البرق الشامي، ص45-46.

[2] الباهر، 143، الكامل، 22/10.

[3] ابن الأثير، الباهر، 143، ابن الأثير، الكامل، 22/10، أبو شامة، الروضتين، 91/2، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 315/3.

[4] ابن الأثير، الباهر، 144، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 155/21-156، ابن واصل، مفرج الكروب، 181/1.

يجرون أذيال الهزيمة وذلك في ربيع الآخر من نفس السنة، وقد كانت مدة إقامتهم على دمياط خمسين يومًا(1).

كانت هذه أبرز المنغصات التي وقفت في وجه صلاح الدين في سبيل التعجيل بضم مصر إلى جبهة المقاومة الإسلامية ببلاد الشام ضد العدو الصليبي، فانشغاله بمواجهة مؤامرات الفاطميين داخليًا ورد الهجوم الصليبي- البيزنطي خارجيًا دفعهُ لتأجيل عملية الانتقال السياسي والمذهبي على أرض مصر رغم الإلحاح المتكرر من قبل قائده نورالدين والخليفة العباسي في بغداد لإنهاء ذلك الوضع المتناقض والمتمثل في بقاء مصر شيعية رغم أنَّ السلطة الفعلية عليها سنية.

هذا وقد اهتمَّ صلاح الدين أيضًا - إلى جانب جهوده في القضاء على المتربصين بحكمه من أنصار الفاطميين ومواجهة التحالف النصراني- بضرورة تهيئة الأجواء على المستوى العقدي خلال فترة استوزاره، وهذا من خلال السعي في تغليب كفَّة التوجه السني والإضعاف تدريجيًا من قوة الحضور الشيعي على المستوى الفكري للرعية المصرية، وكذلك للتخفيف من حدَّة الارتداد على قرار التحوُّل المذهبي بالإقليم عندما ينقل الولاء الروحي للمصريين نحو خليفة بغداد، وفي هذا الشأن وضع صلاح الدين إستراتيجية كان لها الأثر الإيجابي على ذلك التحول تفصيلها كما سيأتي.

2- إستراتيجية صلاح الدين لتحقيق التغيير المذهبي وإسقاط الحكم الفاطمي بمصر:

واصل صلاح الدين إستراتيجية قادته الزنكيين في رسم معالم الوحدة لجبهة المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي بالمنطقة، تلك الإستراتيجية القائمة على ربط جهود الوحدة السياسية بالوحدة المذهبية، أي عدم الاكتفاء بإخضاع الأقاليم والقوى الإسلامية بالمنطقة لنفوذهم السياسي فحسب، وإنَّما السعي في تغليب العقيدة والفكر السني (عقيدة الزنكيين والأيوبيين) في مناطق التوسع تلك(2)، لجعل ولائها لهم أعمق ودفاعهم عن مصالح الجبهة نابع من قناعة دينية وسياسية، فيكون تجنُّدهم في هذا السبيل فعَّال وإمكانية تحقيق الانتصار على الأعداء (الصليبيين) أمرٌ ممكن إلى حدٍّ بعيد.

---

(1) ابن الأثير، الباهر، 144، ابن الأثير، الكامل، 10/22-23، أبو شامة، الروضتين، 2/93-94، مفرج الكروب، 1/182-183، البنداري، سنا البرق الشامي، ص45-46، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص84، وأنظر، حسن حبشي، نورالدين والصليبيون، ص137-138.

Schlumberger, op, cit, p280 -282.

(2) لمسنا هذه الإستراتيجية عند عماد الدين زنكي انطلاقًا من الموصل في بلاد الجزيرة ثمَّ في عهد ابنه نورالدين محمود وجهوده السياسية والفكرية في بلاد الشام.

وعليه فإنَّ صلاح الدين الذي استوزر لدى الفاطميين الشيعة بمصر كان مُطالبًا بإحداث تحوُّل فكري مذهبي بالإقليم يضمن تحقيق أهداف إستراتيجية المقاومة ضد الوجود الصليبي، خاصةً وأنَّهُ في فترة وزارته للدولة الفاطمية مازال خاضعًا سياسيًا لسلطة نورالدين محمود في الشام، هذا الأخير الذي سار أشواطًا كبيرة في إحداث التحوُّل المذهبي ببلاد الشام لصالح المذهب السني، فلا شك في أنَّ صلاح الدين سيواصل تلك المهمة على أرض مصر باعتبارها ركيزة أساسية في تقوية جبهة المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي.

اتبع صلاح الدين في سبيل تحقيق الانتقال المذهبي للمصريين أسلوب التدرج والتعوُّد، لخوفه من ارتدادات التغيير المفاجئ في عقيدة المصريين، ذلك لأنَّ دولتهم قائمة منذ ما يزيد عن قرنين واحتمال معارضتهم للفكر الجديد واردة[1]، وقد عبَّر عن ذلك في رسائله إلى نورالدين أوردنا منها واحدة قبلاً[2]، إضافةً إلى المؤامرات التي تعرَّض إليها في وزارته ثم في حكمه لمصر من جراء سياسة التضييق التي مارسها على أنصار الدولة الفاطمية وعقيدتها، ولعلَّ صاحب الروضتين[3] عبَّر بصدق عن هذا الأسلوب من خلال قوله:" وشرع (أي صلاح الدين) في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس".

وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ أسلوب التدرج في إحداث التغيير المذهبي في عقيدة المصريين ودولتهم الذي انتهجه صلاح الدين كان من بين الأسباب في حدوث الفتور في العلاقة مع قائده نورالدين[4]، إذ وعلى الرغم من الرسائل التي كان يبعثها صلاح الدين للشام بغية شرح الوضع بمصر وتبريره عدم إسقاط الحكم الفاطمي مباشرةً بعد استوزاره إلاَّ أنَّ نورالدين رأى في موقف نائبه تماطلاً غير مبرر بحكم ضعف الفاطميين وعدم قدرتهم على مقاومة التغيير، إضافةً إلى شكوكه في طموح صلاح الدين ومحاولته بناء مشروعه السياسي في ظل الحكم الفاطمي المترهل[5].

---

[1] عبد الرحمن عزام، صلاح الدين، ص115.

[2] أنظر، أبو شامة، الروضتين، 51/2.

[3] أبو شامة، 120/2.

[4] الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص208.

[5] أنظر تحليل هذا الموقف عند ابن الأثير، الكامل، 33/10، أبو الفدا، المختصر، 50/3، جاد محمد رمضان، **الملك العادل نورالدين محمود**، بحث غير منشور مقدم لنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ في التاريخ الإسلامي، كلية أصول الدين، الجامع الأزهر، د ت، ص203.

ومن بين أولى الخطوات في هذا الشأن – أي إضعاف الوجود الفكري الشيعي بمصر لصالح المذهب السني– قبل الإجهاز على الحكم الفاطمي سياسيًا، ما قام به صلاح الدين سنة 565هـ/1169م من منع الآذان الشيعي والأمر بالتأذين على الصيغة السنية من على جميع المنابر المصرية[1]، وهذا الإجراء نفسهُ الذي ابتدأ به نورالدين محمود حملة التضييق على التشيع حينما آل حكم حلب إليه، فعلى ما يبدو أنَّ القائدان يستهدفان بهذا المنع جس نبض الرعية الشيعية ومعرفة مدى مقاومتها للتغير، فإن كان هناك معارضة شرسة أرجأت باقي الإجراءات الأكثر تشددًا.

وأمر في ذي القعدة من نفس العام بذكر الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الراشدين في خطبة الجمعة، وذكر الخليفة الفاطمي العاضد في البداية بكلام يوحي بالالتباس على الفاطميين، ثمَّ ألغي اسم العاضد ودعي للإمام أبي محمد وهو الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي، في حين كان الفاطميون يعتقدون أنَّهُ إمامهم العاضد لدين الله[2].

كما عمل صلاح الدين على التقليل من الرمزية الروحية التي يمثلها الخليفة الفاطمي بالنسبة للمؤمنين بالعقيدة الإسماعيلية للقضاء على فكرة "الولاية" التي تعد أساسًا لكل نظرياتهم وعقائدهم، ويستمد منها الخلفاء الفاطميون قداستهم وشرعيتهم في الحكم، فأخذ في إذلال شخص الخليفة العاضد وأرغمه على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب عند وصوله إلى مصر سنة 565هـ/1169م، وهم –أي الخلفاء الفاطميون– الذين حرصوا على جعل مكانتهم محفوظة بين الرعية من خلال احتجابهم وعدم ابتذالهم بكثرة الظهور، فيذكر عن هذا أبو شامة[3]: "وركب لاستقباله، وزاد إقبال البلاد بإقباله" وقال أيضًا:" وخرج العاضد لتلقيه إلى باب الفتوح عند شجرة الاهليلج، ولم تجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهدهُ الناس".

---

(1) أبو شامة، الروضتين، 120/2، المقريزي، الخطط، 209/2، السيوطي، حسن المحاضرة، 5/2، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص233.

(2) ابن حماد، أخبار بني عبيد، ص108-109، ابن الفرات، تاريخ، م4، ح1، ص131.

(3) أبو شامة، الروضتين، 99/2.

وقد اضطر العاضد بالله أمام ضعف حاله اتجاه السلطة الجديدة إلى مخالفة التقاليد والأعراف ورسوم الدولة فمنح لنجم الدين أيوب ألقاب وزراء السيوف وخلع عليه ولقبهُ الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا[1].

وعلى مستوى القضاء قام صلاح الدين بعزل قضاة الفاطميين في مختلف أنحاء الديار المصرية، وعين مكانهم قضاة من أهل السنة، وكان على رأس هذا التغيير قاضي قضاة مصر الشيعي أبا القاسم جلال الدين هبة الله بن عبد الله بن كامل، حيث ولَّى مكانه صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي الشافعي[2] وذلك في 22 جمادى الآخرة سنة 566هـ/01 مارس 1171م، فاستناب هذا الأخير في سائر البلاد قضاة من الشافعية[3].

وبهذا التغيير فقد تظاهر الناس ابتداءً بهذه السنة في مصر بالمذهبين الشافعي والمالكي في إقامة شعائرهم الدينية، وأُبطل القضاء على المذهب الاسماعيلي الذي كان يتم عقده في أروقة الجامع الأزهر الشريف وغيره من الأماكن، كما وبرز في هذا الشأن اهتمام صلاح الدين بتعزيز حضور المذهب الشافعي في القضاء والتدريس وهذا لاعتناق هذا الأخير مذهب الإمام الشافعي الذي صار فيما بعد المذهب الرسمي للدولة الأيوبية[4].

اهتم صلاح الدين أيضًا بغية تعزيز الحضور السني بمصر ببناء المؤسسات التعليمية وعلى رأسها المدارس السنية المتخصصة لبعض المذاهب، وحسب حاجة الدولة[5]، هذا بالإضافة إلى المساجد والأربطة

---

[1] أبو شامة، الروضتين، 2/99-100.

[2] هو قاضي الديار المصرية، الإمام الأوحد صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس بن فير بن جهم بن عبدوس المارانيُّ الكرديُّ الشافعي، مولدهُ بأعمال الموصل في حدود سنة ست عشرة وخمس مئة تقريبًا، وبنو ماران إقامتهم بالمروج تحت الموصل، رحل في طلب الفقه واشتغل بحلب على أبي الحسن علي بن سليمان المراديُّ، وسمع منه، وسمع بدمشق من أبي الحسين بن البن الأسدي، والحافظ ابن عساكر، وبمصر من علي ابن بنت أبي سعد وخرَّج له الحافظ أبو الحسن بن المفضَّل أربعين حديثًا،.. كان مشهورًا بالصلاح والغزو وطلب العلم، يتبرَّكُ بآثاره للمرضى، كان من جلَّة العلماء وفضلائهم، وفي أقاربه وذريته جماعةُ فضلاء ورواة، توفي إلى رحمة الله في رجب سنة خمس وستمائة وكان من أبناء التسعين، الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، **سير أعلام النبلاء**، تح، بشار عوَّاد معروف ومحيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1984، بيروت، 21/474-475، العبر، 3/139، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/196،

[3] ابن الأثير، الكامل، 10/32، أبو شامة، الروضتين، 2/118، البنداري، سنا البرق الشامي، ص57، السيوطي، حسن المحاضرة، 2/153.

[4] ابن الأثير، الكامل، 10/32، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص40، البنداري، سنا البرق الشامي، ص41.

[5] القلقشندي، صبحي الأعشى، 3/342.

والخوانق، فأنشأ في هذه السنة -566هـ/1170م- مدرستين بجوار مسجد عمرو بن العاص، إحداهما للشافعية وهي المسماة المدرسة الناصرية[1]، والأخرى للمالكية وسميت بالمدرسة القمحية[2]، وقد كان بناء هذين المدرستين على حساب صروح فاطمية، فالأولى بنيت مكان حبس دار المعونة بعد هدمه، وهو الذي كان مركزًا لإصدار العقوبات في الدولة الفاطمية، أمَّا الثانية فشيدت مكان دار الغزل[3].

وفي رمضان من ذات العام اشترى ابن أخ صلاح الدين وهو تقي الدين عمر بن شاهنشاه منازل العز[4] وحوَّلها إلى مدرسة للشافعية، كما اشترى جزيرة الروضة وحمام الذهب وغيرها من الأملاك وجعلها وقفًا لهذه المدرسة[5].

لقد كان لهذه المدارس التي أنشأها صلاح الدين وأقاربه أثرٌ قوي في إعادة إحياء المذهب السني بمذاهبه المختلفة على أرض مصر، وفي الوقت ذاته ساهمت في إضعاف المذهب الشيعي الاسماعيلي من خلال التضييق على شعائره ومعتقداته إحياءً وتدريسًا، وكان الهدف من وراء ذلك هو تهيئة الناس فكريًا لطبيعة التغيير الذي سيقدم عليه صلاح الدين بإسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية، وإعادة مصر إلى السيادة السنية بعد ما يزيد عن قرنين من الحكم الفاطمي لها[6].

وعلى ضوء هذه الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين في مصر على المستوى الفكري وقبل ذلك على المستوى العسكري بمواجهة مؤامرات أنصار الفاطميين والتحالف الصليبي- البيزنطي في دمياط، فقد

---

[1] المقريزي، الخطط، 438/3-439.

[2] سميت بالمدرسة القمحية على عهد صلاح الدين لأنَّ القمح كان يوزع على فقهائها من ضيعة بالفيوم عرفت بالحنبوشية أوقفها صلاح الدين عليها، وكان في موقعها قبل ذلك قيسارية (سوق) عرفت بقيسارية الغزل بجوار الجامع العتيق بمصر، ووقف عليها صلاح الدين أيضًا قيسارية الوراقين وعلوها بمصر، وكانت أجلُّ مدرسةٍ للمالكية، أنظر، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 319/3، الخطط، 439/3.

[3] ابن الأثير، الكامل، 31/10-32، أبو شامة، الروضتين، 117/2-118، البنداري، سنا البرق الشامي، ص57، الخطط، 438/3-439، ابن واصل، مفرج الكروب، 197/1-198. ابن دقماق إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت809هـ)، **الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها**، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، د ت، ص93.

[4] بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز، ولم يكن بمصر أحسن منها، وكانت مطلة على النيل لا يحجبها شيء عن نظره، ومازال الخلفاء من بعد المعز يتداولونها، وكانت معدَّة لنزهتهم، وكان بجوارها حمام، ولها منها باب، وموضعها الآن مدرسةٌ تعرف بالمدرسة التقوية منسوبة للملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادي، أنظر، المقريزي، الخطط، 334/2.

[5] ابن الأثير، الكامل، 32/10، أبو شامة، الروضتين، 118/2، البنداري، سنا البرق الشامي، ص58، ابن الفرات، تاريخ، مج 4، 128/1، ابن دقماق، الانتصار، ص93، 109-110، ابن واصل، مفرج الكروب، 199/1، المقريزي، الخطط، 440/3.

[6] سليمان الخرابشة، الصراع الفاطمي السلجوقي، ص 459.

صار الجو مهيئًا لإحداث التغيير بإسقاط الخطبة للإمام الفاطمي وإعلانها باسم الخليفة العباسي، خاصةً وأنَّ هذا الأمر هو مبلغ ما كان يهدف إليه كل من الخليفة العباسي في بغداد ونورالدين زنكي في الشام.

بل أنَّ المصادر تذكر عن الخليفة العباسي المستنجد بالله (555هـ- 566هـ/1160م-1170م) تطلُّعهُ لتنفيذ هذه الخطوة منذ وقت مبكر، حيث أرسل إلى نورالدين يعاتبه على تأخر إقامة الخطبة العباسية في مصر بعد أن صارت في حكم ممتلكاته من خلال نائبيه أسد الدين وصلاح الدين وزيري العاضد، فما كان من نورالدين إلى أن أحضر نجم الدين أيوب وألزمهُ الخروج إلى ولدهِ بمصر وحمَّلهُ رسالةً جاء فيها:" وهذا أمرٌ تجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت، لاسيما وإمام الوقت متطلِّعٌ إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته"[1]، ثمَّ لما تولى المستضيء بأمر الله الخلافة (566هـ-575هـ/1170م-1180م) كرَّر لنورالدين هذا الطلب[2].

وعلى أية حال فقد كتب نورالدين إلى صلاح الدين بضرورة قطع الخطبة باسم الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، وإعلانها باسم الخليفة العباسي المستنجد بالله، إضافةً إلى ما يترتب على ذلك من خضوع مصر لسلطة نورالدين مباشرةً، غير أنَّ رد صلاح الدين على طلب قائده كان بضرورة التمهل في اتخاذ هكذا قرار، واعتذر بخوفه من الارتدادات التي سيحدثها هذا التغيير والفتنة الممكن حصولها بسبب ميل المصريين للتشيع[3].

وأمام إلحاح الخليفة العباسي بضرورة إتمام العمل السياسي والعسكري على أرض بمصر بتحقيق الوحدة المذهبية، وتوجس نورالدين من مواقف نائبه الذي صار يشكك في نواياه من إبقاء سلطة الفاطميين رغم ضعفهم[4]، فإنَّ هذا الأخير لم يصغ لأعذار صلاح الدين وتخوفاته وشدد عليه في سرعة الإجهاز على

---

[1] أبو شامة، الروضتين، 99/2.

[2] نفسه، 129/2.

[3] ابن الأثير، الكامل، 33/10، أبو شامة، الروضتين، 124/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 200/1، أبو الفدا، المختصر، 50/3، النويري، نهاية الإرب، 227/28، ابن كثير، البداية والنهاية، 450/16، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/6.

[4] يذكر ابن الأثير على أنَّ صلاح الدين كان يكره قطع الخطبة للفاطميين، ويريد بقائهم خوفًا من نورالدين، فإنَّهُ كان يخافهُ أن يدخل إلى الديار المصرية ويأخذها منه، فكان يريد أن يكون العاضد معه، حتَّى إن قصده نورالدين امتنع به وبأهل مصر عليه، غير أنَّ هذا موقف من ابن الأثير المعروف عنه تحامله على صلاح الدين، يقابلهُ رأيٌ آخر لبعض المؤلِّفين والكتاب يلتمسون العذر لصلاح الدين في عدم إجابة قائده بإسقاط الحكم الفاطمي لأنَّهُ كان الرأي الغالب عند استشارته لأمراء الجيش الشامي في أمر قطع الخطبة الفاطمية، فيذكرون أنَّ صلاح الدين كان حسن النية في موقفه ذاك، أنظر هذه المواقف في، الكامل، 33/10، جاد محمد رمضان، الملك العادل نورالدين محمود، ص203.

الفاطميين، "وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزامًا لا فسحة لهُ في مخالفته" على وصف ابن الأثير وغيره من المؤرخين[1].

لم يجد صلاح الدين من بُدٍّ في إجابة طلب قائده وتنفيذ أوامره، فوافق على ذلك بعد أن خلت مصر من كل معاند ومكابر، وسيطرته على مقاليد الأمور فيها، وتهيئة الأجواء لذلك التغيير سياسيًا وعسكريًا ومذهبيًا طيلة فترة استوزاره، فأمر في الجمعة الأولى من شهر محرم سنة 567هـ/18 سبتمبر1171م بقطع الخطبة باسم الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله وإعلانها باسم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (566هـ-575هـ/1170م- 1180م)، فلم ينكر أحد من أهل الفسطاط ذلك، وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء في مصر والقاهرة بقطع الخطبة باسم العاضد وإعلانها للمستضيء العباسي، وقد تمَّ ذلك أيضًا بنجاح تام ودونما اعتراض، وكتب صلاح الدين بذلك لكافة أعمال مصر[2].

وفي الوقت نفسه كان الخليفة الفاطمي يعاني اشتداد المرض فتوفي بعد ثلاثة أيام من إعلان الخطبة للعباسيين في القاهرة، أي في الثامن من محرم 567هـ/21 سبتمبر 1171م وهو لا يعلم بذلك لأنَّ أهل القصر رأوا أن لا يفجعوه بهذا الخبر وهو في تلك الحال من العلة وقالوا: "إن عوفي فهو يعلم"[3]، ليسدل بذلك الستار على تاريخ الدولة الفاطمية الشيعية التي عمَّرت مائتين وسبعين عامًا.

لقد كان سقوط الدولة الفاطمية الإسماعيلية المذهب حدثًا فارقًا في التاريخ الإسلامي عمومًا وتاريخ المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين على الخصوص، حيث تخلَّصت الجبهة الإسلامية من أزمة الانقسام السياسي والروحي التي كانت سببًا في كثير من الانتكاسات وكبَّلت عبر مراحل من نشاط المقاومة ضد الصليبيين جهود الصادقين من هذه الأمة في رد الأعداء واستعادة ما تمَّ الاستيلاء عليه منهم.

---

[1] الكامل، 33/10، أبو شامة، الروضتين، 124/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 200/1، أبو الفدا، المختصر، 3/50-51، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 325/3-326، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/6.

[2] سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 169/21، ابن الأثير، الكامل، 34/10، الباهر، ص 156، أبو شامة، الروضتين، 124/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 201/1، النويري، نهاية الإرب، 228/8، المقريزي، اتعاظ الحنفا، 325/3-326، البنداري، سنا البرق الشامي، ص58.

[3] ابن الأثير، الكامل، 34/10، الروضتين، 124/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 201/1، النويري، نهاية الإرب، 228/28.

فهاهو المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه[1] يعلق على هذا الحدث ويبرز مدى أهميته علي مسار أحداث الصراع الإسلامي – الصليبي فيقول: " بهذه الخطوة الكبرى تم ردم الهوة الدينية العميقة، التي كانت تفصل لمدة قرنين كاملين مسلمي مصر عن مسلمي سوريا، وكان لهذه الهوة أثرها الكبير في نجاح الحملات الصليبية، ولم تعد سوريا الإسلامية وحدها هي التي تم توحيدها تحت زعامة الزعيم القوي نورالدين محمود وحسب، بل ها هي الآن مصر برمتها تنتقل إلي سيادة الأتابك الذي لا يقهر، وتبقى في يد قائده".

وإن كان دخول مصر سياسيًا تحت عباءة الحكم النوري أمرٌ في غاية الأهمية لتضييق الخناق على صليبيي الشام وخنقهم أكثر في الساحل تمهيدًا لطردهم نهائيًا من المنطقة، فإنَّ دخول مصر تحت عباءة التسنن لهو أكبر المزايا وأجلُّ الأعمال وفق ما يراه نورالدين زنكي ضمن إستراتيجيته في الحكم وفي مقاومة الصليبيين، ولعلَّ أبرز ما يدلُّنا على مدى اهتمامه بقطع دابر مذهب التشيع في مصر وتحقيق الوحدة المذهبية للمشرق الإسلامي ما قام به في حلب ودمشق من جهود في هذا السبيل، بل أنَّ ما يزيدنا تأكيدًا على ذلك – أي الرغبة في القضاء على التشيع الاسماعيلي كعقيدة شاذة وباطلة حسب وصفه– ما تضمنتهُ الرسالة التي بعث بها للخليفة العباسي بعد إسقاط الخطبة العلوية حيث جاء فيها:

"وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية... حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها" ويضيف أيضًا:"...وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوة بدعوة المبطلين، مملوة بحزب الشياطين حتَّى أذن الله لغمتها بالانفراج، وأقدمنا على ما كُنَّا نؤمله في إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض وتقدمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة، ويقيم الدعوة العباسية هنالك، ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك"[2].

ومن الدلائل القوية والمعبِّرة كذلك على نهج نورالدين في بناء جبهة قوية موحَّدة روحيًا، وحرصه الصادق على إحداث تغيير مذهبي عميق في المجتمع المصري تُوازي الجهود السياسية المتخذة، الرسالة التي بعث بها للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون[3] في توليته القضاء بمصر، عقب خضوعها لسلطته من قبل

---

(1) رصيد **التاريخ**، تر، محمد خليل باشا، مؤسسة نوفل، بيروت، د ت، ص68.

(2) أبو شامة، الروضتين، 2/132-133.

(3) هو الإمام أبو سعد عبد الله بن أبي السَّري محمد بن هبة الله بن مطهّر بن علي بن أبي عصرون ابن أبي السّري التميمي الحديثي ثمَّ الموصلي ثم الدمشقي، الشافعي المذهب، ولد في ربيع الأول 492هـ/1098م، تفقَّهَ على يد القاضي المرتضى أبي محمد عبد الله بن القاسم الشهرزوري، وعلى أبي عبد الله الحسين بن خميس الموصلي، ثمَّ على أسعد الميهني ببغداد، شغل منصب التدريس بالموصل وسنجار وحلب،

صلاح الدين، وممَّا جاء فيها يبرز بشكل جلي موقفه من التشيع: "أنت تعلم أنَّ مصر اليوم قد لزمنا النَّظر فيها، ففيها من الفتوحات الكبار، التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعدما كانت دار كفرٍ ونفاق، فللّه المنة والحمد"[1].

كما ونلمس هذه الرغبة كذلك عند صلاح الدين اتجاه عقيدة المصريين التي يعتبرها ضالة عن الإسلام في رسالته التي بعث بها للخليفة العباسي سنة 570هـ/1175م حيث يصف الوضع المذهبي بمصر بقوله: "وتلك البدعُ بها على ما يُعلم، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللَّحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهةً تُعبدُ من دون الله وتُعظَّم وتفخَّم، فتعالى الله عن شبه العباد، وويلٌ لمن غرَّهُ تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد، فسمت همَّتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مُقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالتهُ منها...."[2]

وعلى كلٍّ فقد تحقق بسقوط دولة الفاطميين الشيعة توحيد الشام ومصر من جديد ضمن إطار الدولة العباسية السنية الواحدة، وصارت مصر تابعة روحيًا للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، ولنورالدين محمود زنكي اسميًا، ولصلاح الدين بن نجم الدين أيوب عمليًا، وقد ضربت السكة باسمهم جميعًا[3].

وفي الأخير نشير إلى أنَّ زوال الخلافة الفاطمية سنة 567هـ/1171م ظلَّ حدثًا يسيل كثير من الحبر بين المؤرخين في إطار الصراع المذهبي الشيعي – السني، الذي انتقل من ميادين المعارك إلى صفحات المؤلفات، فمن الكتاب الشيعة من عدَّهُ انقلابًا سياسيًا أيوبيًا على الحكم الفاطمي، لم يُحقق شيئًا للإسلام بقدر ما منح النفوذ والسلطان للبيت الأيوبي[4].

ثم انتقل إلى دمشق سنة 549هـ/1154م حينما فتحها نورالدين محمود، درَّس بالغزالية وولي النظر في الأوقاف، ثمَّ رجع إلى حلب وأقام بها، تولَّى القضاء في كل من سنجار ونصيبين وحرّان وديار ربيعة، عاد إلى دمشق سنة سبعين وخمسمائة، وتولى القضاء بها سنة 573هـ/1177م من قبل صلاح الدين الأيوبي، توفي بدمشق في 11 رمضان 585هـ/1189م، صنَّف كتبا كثيرة في المذهب منها، " صفوة المذهب من نهاية المطلب" في سبع مجلدات، كتاب "الانتصار" في أربع مجلدات، كتاب " المرشد في مجلدين، وغيرها أنظر المزيد عن ترجمته، ابن خلكان، وفيات، 53/3-54، أبو شامة، الروضتين، 64/4-65، ابن العديم، زبدة الحلب، 294/2.

[1] أبو شامة، الروضتين، 78/2- 79، وأنظر باقي الرسالة في الملحق رقم: 01

[2] أبو شامة، الروضتين، 234/2، وأنظر باقي الرسالة في الملحق رقم 02.

[3] المقريزي، الخطط، 86/1، اتعاظ الحنفا، 327/3.

[4] صالح الورداني، **الشيعة في مصر من الإمام علي إلى الإمام الخميني**، مكتبة مدبولي الصغير، ط1، القاهرة، 1414هـ/ 1993م، ص55.

في حين كتب أحد الكتاب السنة عن الحدث بكونه انقلابا فكريًا مذهبيًا فيقول:" كان عام 566هـ/1170م بداية انقلاب فكري في مصر هدفه القضاء على النفوذ الشيعي بها، والتمهيد لنقل الخطبة فيها إلى الخليفة السني في بغداد".[1]

3– سياسة السلطان صلاح الدين لدعم المذهب السني وإضعاف الحضور الإسماعيلي

لعلّ المتتبع لأحداث الفترة ما بين أول حملة نورية على مصر بقيادة شيركوه وصلاح الدين وحتّى سقوط الخلافة الفاطمية سنة 567هـ/1171م يستخلص ذلك الاهتمام البالغ بقضية طي صفحة التشيع في العالم الإسلامي كخلافة تضاهي الخلافة السنية في بغداد لدى كل الأطراف المؤثرة عن الطرف السني وهم الخليفة العباسي في بغداد ونورالدين محمود في بلاد الشام وصلاح الدين وزير الفاطميين في مصر؛ فلمسنا تباين الرؤى في كيفية تحقيق ذلك المسعى.

فصلاح الدين وزير الخليفة الفاطمي –وهو المعني المباشر بالوضع في مصر– اتخذ في إستراتيجيته لتحقيق إنهاء الحكم الشيعي في المنطقة أسلوب التدريج بمراعاة الظروف المحيطة به في مصر واتخاذ الأسباب الممكنة لنجاح العملية، في حين كان الخليفة العباسي مستعجل لإتمام إلحاق مصر بممتلكاته ضمن الخلافة العباسية السنية فأخذ يضغط على نورالدين من أجل إرغام صلاح الدين على المبادرة بإعلان الخطبة لبني العباس بديار المصرية وإسقاطها عن الخلفاء الفاطميين.

وعلى الرغم من تحقق الهدف بسقوط الخلافة الفاطمية الإسماعيلية المذهب سنة 567هـ/1171م، وانتقال السلطة في مصر إلى صلاح الدين كنائب عن نورالدين محمود، وغبطة الخليفة العباسي لهذا الحدث كونه صار خليفة الزمن الوحيد للعالم الإسلامي ولم يعد ينازعه في ذلك أحد، إلاَّ أنَّ كل هذا لم يكن كافيًا لمسار إعادة الاعتبار للجبهة الإسلامية المواجهة للعدوان الصليبي الجاثم على أرضه والذي لا يزال يحافظ على كثير من القوة للصمود والمواجهة.

[1] عبد المجيد أبو الفتوح، المرجع السابق، ص 230.

ولا أدلَّ على عدم كفاية حدث سقوط الخلافة الفاطمية في مسار المقاومة أنَّ من أنصارها من بقي يكيد ويدبر المؤامرات ويتحالف مع الطرف الصليبي لإعادة إحيائها من جديد كما كان سنة 564هـ/1169م مع مؤتمن الخلافة[1]، وسنة 569هـ/1174م مع الشاعر عمارة اليمني وبعض أفراد القصر[2]، ومع كنز الدولة في أسوان سنة 570هـ/1174م كذلك[3]، وإن دلَّت هذه المؤامرات والثورات عن شيء إنَّما تدل على ولاء المصريين للدولة الفاطمية وتعلُّقهم بها بعدما عاشوا في كنفها خلال كثير من محطات عمرها رُقيًا وازدهارًا يشهد به القريب والبعيد.

فيقول عن هذا أحمد فؤاد السيد[4]: "وأفصحت الثورات ومحاولات الانقلاب المتكررة على صلاح الدين الأيوبي، أول استقلاله بالحكم في مصر على مدى حب المصريين للدولة الفاطمية، وولائهم لها، وتعلُّقهم بها، والذكريات التي حملوها واحتفظوا بها لهذه الدولة، حين كانت في أوج مجدها وقمَّة ازدهارها، ومنتهى نفوذها وسطوتها وقوتها، وهي ثورات وانقلابات عديدة، لم تقتصر على مدينة القاهرة، بل تعدتها إلى مدينة الإسكندرية، ومدن صعيد مصر".

ويناقض هذا الرأي القائل بولاء المصريين للخلافة الفاطمية؛ رأيًا آخر يرى في أنَّ المصريين لم يبدو أي ردود أفعال ضد سقوط الفاطميين لكون المذهب الشيعي كان له تأثير ضئيل في مصر رغم الطول النسبي لحكم الفاطميين، وأنَّ تلك الثورات والمؤامرات ليست معيارًا للوفاء والولاء، ولو كان ذلك صحيح – حسب القائلين بهذا الرأي– لما تمكَّن صلاح الدين من إسقاط الحكم الفاطمي ولما استطاع رد المعارضة بعد ذلك[5].

وعلى أية حال فإنَّ تلك الثورات كان من شأنها أن تُبقي الجبهة الإسلامية مشلولة وتُعرقل أي جهد في سبيل مواجهة الصليبيين، فكان على صلاح الدين أن يوفِّر للجبهة المصرية المزيد من عوامل القوة

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 18/10-19، أبو شامة، الروضتين، 86/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 174/1-175، رنسيمان، تاريخ، 621/2.

(2) ابن الأثير، الكامل، 53/10-54، أبو شامة، الروضتين، 1185/2-186، ابن واصل، مفرج الكروب، 243/1-244، ابن خلدون، العبر، 287/5، ابن تغري بردي، 70/6.

(3) ابن الأثير، الكامل، 64/10-65، ابن واصل، مفرج الكروب، 16/2-17، أبو شامة، الروضتين، 221/2-222، المقريزي، السلوك، 167/1، البنداري، سنا البرق الشامي، ص80.

(4) تاريخ مصر الإسلامية، ص15.

(5) من القائلين بهذا الرأي الدكتور قاسم عبده قاسم ، أنظر، **في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2010، ص35.

والاستقرار؛ وفي الوقت نفسه العمل على التقليل من مواطن الضعف والاضطراب، قبل الشروع في مرحلة المواجهة العسكرية الحاسمة مع الطرف الصليبي.

وعليه فمجرد إسقاط الخطبة للخليفة الاسماعيلي لصالح الخليفة العباسي لم يكن بالأمر الكافي رغم أهميته في تحقيق الوحدة السياسية والمذهبية المنشودة، فلا جدال في أنَّهُ ليس من السهل اليسير أن يُقتلعَ مذهبٌ من المذاهب بمجرد تغيير النظام السياسي في بلدٍ من البلاد، إنَّما يحتاجُ التغيير إلى سنواتِ عديدة، وإلى تدابير ليست هي من تدابير القوة والبطش فحسب[1]، فيصف صلاح الدين هذا الواقع بمصر من خلال الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة العباسي المستضيء ومما جاء فيها:" وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم"[2].

وعلى ما يبدو فإنَّ الوضع المتناقض في مصر بوجود قيادة سنية على رعية ظلت لمدة قرنين من الزمن تحت حكم شيعي اسماعيلي عمل بكل الوسائل والطرق لنشر وتثبيت عقيدته وفكره، كان من أبرز معيقات نشاط المقاومة ضد الصليبيين بالجدية اللازمة، وهذا لما للعقيدة من دور في تلك الفترة من تاريخ المسلمين في تحقيق التمكين السياسي وبالتالي إمكانية تجنيد وتجييش الجميع ضمن فكرة المقاومة عن رضا وقناعة، على اعتبار أنَّ هؤلاء الأعداء يستهدفون جزءًا من ممتلكات الخلافة التي يدينون لها بالولاء والطاعة ومن واجبهم الشرعي حمايتها والدفاع عنها أينما كان الخطر، والعكس في كل هذا الكلام صحيحٌ تمامًا.

وعلى هذا النحو فصلاح الدين كان مُطالبًا بشغل الفراغ الفكري والعقدي للدعوة الإسماعيلية بعد سقوط الدولة الفاطمية، بفكر سياسي وعقدي بديل يتواءم مع المذهب السني[3]، فيُحقِق من خلاله ولاءً أكبر للمصريين اتجاه الخليفة الجديد الممثل في الخليفة السني في بغداد، فتضعُف معهُ حركات المعارضة والعداء لحكم صلاح الدين، وتتعزز فرص تقوية الجبهة الإسلامية الداخلية المواجهة للعدو الصليبي في بلاد الشام.

وهذه السياسة التي انتهجها صلاح الدين بالتضييق على التشيُّع واستئصاله من أرض مصر وبالمقابل تعزيز الحضور السني عقديًا وفكريًا تذكرنا بالحركة الفكرية التي قام بها الوزير السلجوقي نظام الملك (ت485هـ/1091م) في العراق قبيل الغزو الصليبي لممتلكات المسلمين، وورثها عنه نورالدين زنكي

---

[1] محمد كامل حسين، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، ص13.

[2] أبو شامة، الروضتين، 234/2.

[3] محمد كامل حسين، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، ص83.

وطبقها في حلب ودمشق في منتصف القرن السادس الهجري، فكأنَّما واصل صلاح الدين مسيرة من سبقوه وفق مخطط معد ومدروس ابتدأه السلاجقة وصقله الزنكيون وحصد ثماره بنو أيوب.

شرع صلاح الدين في تنفيذ سياسته المذهبية على أرض مصر منذ استوزاره لدى الخليفة العاضد بالله الفاطمي سنة 564هـ/1169م، يقول ابن شداد[1]:" هذا كلُّه وهو وزير متابعٌ للقوم لكنَّهُ مقوٍّ لمذهب السنة، غارسٌ في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين"، وهي المرحلة الأولى التي كان هدفها التمهيد لنقل الخطبة من الفاطميين إلى العباسيين.

وأمَّا المرحلة الثانية فكانت لتعزيز خطوات المرحلة الأولى والتجسيد العميق لفكرة القضاء على الانقسام المذهبي داخل الجبهة الإسلامية وجعل الوحدة بين أطرافها أكثر متانة، وتبتدئ هذه المرحلة بعد أن تمكَّن صلاح الدين من ضبط الأمور في جنوب بلاد الشام (دمشق) عقب الاضطرابات التي عمَّتها بوفاة نورالدين محمود وتولي ابنه الصالح إسماعيل(569هـ- 576هـ/1173م-1181م)[2] صاحب الحادية عشر سنة زمام السلطة.

ومن جملة الخطوات التي باشرها صلاح الدين في هذا الشأن الإكثار من بناء المدارس السنية والسعي إلى جذب العلماء السنيين إلى مصر والاعتناء بالفقه السني على اختلاف مذاهبه، فأنتجت تلك المدارس هُوية سُنية متشددة ووعيًا جماعيا تراثيا كان له الأثر البالغ على الوضع في مصر وبلاد الشام خلال القرون التالية[3]، كما اهتم صلاح الدين بالحديث الشريف وأصول العقيدة على المذهب الأشعري، مع الاهتمام الزائد بحسن علاقاته بالخلافة العباسية الممثل الشرعي للاتجاه السني[4].

---

[1] النوادر السلطانية، ص 81.

[2] هو أبو الفتح إسماعيل بن السلطان نورالدين محمود زنكي، ختنه أبوه وعمل وقتًا باهرًا وزينت دمشق، ثم مات أبوه بعد ختانه بأيام وأوصى له بالسلطنة، فلم يتم وبقيت له حلب، وكان شابًا عاقلاً محببًا إلى الحلبيين بحيث أنَّهم قاتلوا عن حلب صلاح الدين قتال الموت، ولما مرض بالقولنج في رجب ومات أقاموا عليه المأتم وبالغوا في النوح والبكاء وفرشوا الرماد في الطرق، وكان له تسع عشرة سنة، وأوصى بحلب لابن عمه عزالدين مسعود بن مودود فجاء وتملَّكها، الذهبي، العبر، 73/3.

[3] عبد الرحمن عزام، صلاح الدين، ص157.

[4] عبد المجيد أبو الفتوح، التاريخ السياسي والفكري، ص232، عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، ص159.

ففي سنة 572هـ/1176م أمر صلاح الدين ببناء مدرستين إحداهما للشافعية عند قبر الإمام الشافعي عرفت بالمدرسة الصلاحية[1] أوكل مهام التدريس بها للشيخ نجم الدين بن الموفق الخبوشاني،[2] وقد وصفها ابن جبير نظير اتساع مساحتها وجمال بنائها بأنَّهُ لم يعمر مثلها في البلاد، وأضاف بأنَّهُ يُخيَّل لمن يطوف عليها بأنَّها بلدٌ مستقل بذاته، كما وأجرى عليها صلاح الدين النفقات الكبيرة لأداء وظيفتها كما يجب[3].

وأمَّا الثانية فقد أقامها للحنفية، وهي المدرسة السيوفية وسميت بهذا الاسم نظرًا لقربها من سوق السيوفيين، وقد كان دخل هذه المدرسة يأتي من وقف اثنين وثلاثين حانوتًا في سويقة أمير الجيوش[4]، كما ابتنى مدرسةً بجوار المشهد المنسوب للحسين بن علي رضي الله عنهما وجعل عليها وقفًا كبيرًا وحلقة تدريس فوَّضها للفقيه البهاء الدمشقي[5].

وفي سنة 580هـ/1184م بنى القاضي الفاضل[6] المدرسة الفاضلية ووقفها على الشافعية والمالكية، وخصص إحدى قاعاتها لإقراء القرآن وتعلم علم القراءات على الإمام القاسم أبي محمد الشاطبي

---

[1] يقول السيوطي في هذه المدرسة أنَّهُ ينبغي أن يقال لها: تاج المدارس، وهي أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق لشرفها بجوار الإمام الشافعي، ولأنَّ بانيها أعظم الملوك، ليس في ملوك الإسلام مثله، لا قبله ولا بعده، بناها السلطان صلاح الدين بن أيوب رحمه الله تعالى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، حسن المحاضرة، 257/2.

[2] هو أبو البركات نجم الدين محمد بن موفق بن سعيد الخبوشاني الشافعي، ولد بنيسابور سنة 510هـ/1116م، يذكر ابن خلكان أنَّ صلاح الدين لما استقل بمصر قرَّبهُ إليه لأنَّهُ كان يعتقد في علمه ودينه، وأنَّهُ –أي الخبوشاني- هو من أشار على صلاح الدين ببناء هذه المدرسة، كما كان من أشد الفقهاء المتحمِّسين الذين وقَّعوا على الوثيقة التي خلعوا فيها آخر خلفاء الدولة الفاطمية، وأول من خطب في جامع عمرو بن العاص للخليفة العباسي، وذلك في الوقت الذي رفض فيه الفقهاء الآخرون ذلك، توفي بالقاهرة سنة 1182/578م، أنظر، وفيات الأعيان، 239/4-240، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 204/21-207

[3] ابن جبير، الرحلة، ص22-23.

[4] المقريزي، الخطط، 443/3.

[5] نفسه، 204/2- 205.

[6] هو الإمام العلاَّمة البليغ القاضي الفاضل محيي الدين، يمين المملكة، سيد الفصحاء أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد المفرّج، اللَّخميُّ، الشَّميُّ، البيسانيُّ الأصل، العسقلانيُّ المولد، المصريُّ الدار، الكاتب، صاحب ديوان الإنشاء الصلاَّحي، ولد سنة تسع وعشرون وخمسمائة بعسقلان، وزر للسلطان الملك الناصر صلاح الدين، رحمه الله تعالى، وتمكَّن منه غاية التمكن، وبرز في صناعة الإنشاء، يقول فيه العماد الأصفهاني في كتاب الخريدة: صاحب القران، العديم الأقران، وواحد الزمان، العظيم الشان، ربُّ القلم والبيان، والَّلسن واللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرَّزة، والفضل الذي ما سمع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، ويطلع الأنوار، ويبيع الأزهار، وهو ضابط الملك بآرائه، رابط السلك بآلائه، إن شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة ما لو دوَّن لكان

(ت596هـ/1198م) ووقف على هذه المدرسة الكثير من الكتب قيل أنّها بلغت مائة ألف كتاب، وجعل إلى جانبها كُتَّابًا وقفهُ على تعليم الأيتام، فكانت على وصف المقريزي من أعظم مدارس القاهرة وأجلِّها[1]، وقد توالى بعدها بناء المدارس السنية في أماكن متعددة من القاهرة وسائر البلاد من قبل الأمراء الأيوبيين وأعوانهم[2]، فكانت هذه المدارس هي السبب الأول في تحوُّل الشيعة في مصر إلى رأي الجماعة والسنة[3].

ولأجل ضمان جودة التعليم بتلك المدارس وضمان نجاحها في تحقيق المبتغى من إنشائها وهو تغليب المذهب السني وانتشاره في الديار المصرية وبلاد الشام على حساب التشيع وفكره، فقد سعى صلاح الدين إلى جذب أشهر العلماء السنيين وتخيَّر من هُم أهلٌ للعلم والفضل والصلاح ومن ضبطت شهرتهم في العالم الإسلامي، كما عمل على تيسير أسباب العلم للطلاب الراغبين فيه مقيمين منهم ووافدين، فأوقف عليها الأوقاف الكثيرة ووفَّر لهم فيها سبل المعيشة لاستمرار نشاطها التعليمي[4].

ولنا فيما ذكره الرحالة المغربي ابن جبير[5] كشاهد عيان - زار مصر في مطلع العصر الأيوبي- مثال على تلك الأوقاف التي يطول الخوض في ذكرها كلَّها، حيث يقول: "ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخره العائدة إلى سلطانه: المدارس والمحارس[6] الموضوعة فيه لأهل الطِّبِّ والتعبُّد، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوي إليه ومدرِّسا يعلِّمهُ الفنَّ الذي يريد تعلُّمه وإجراءً يقوم به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتَّى أمر بتعيين حمّامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانًا لعلاج من مرض منهم، ووكَّل بهم أطباء يتفقَّدون أحوالهم...".

لأهل الصناعة خير بضاعة، أين قس عند فصاحته، وابن قيس في مقام حصافته، ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته، أنظر، خريدة العصر (قسم شعراء مصر)، ص 35 وما بعدها، ابن خلكان، وفيات، 3/158-159، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 21/338-340.

[1] المقريزي، الخطط، 3/444.

[2] وللاستزادة حول إنشاء المدارس السنية بمصر وبلاد الشام من قبل صلاح الدين ومن خلفه من الأيوبيين بغية تحقيق التغلب المذهبي السني على بقايا التشيع الاسماعيلي والإمامي، راجع من المصادر، ابن شداد الأعلاق الخطيرة، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، الجزء الثاني، المقريزي، الخطط، ج3، ص436 وما بعدها، ومن المراجع، عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر، ص149 وما بعدها، أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها (العصر الأيوبي)**، جزءان، دار المعارف، القاهرة، 2/99 وما بعدها.

[3] محمد حسين كامل، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، ص 30.

[4] عبد المجيد أبو الفتوح، التاريخ السياسي والفكري، ص234، 238، أحمد فؤاد السيد، تاريخ مصر الإسلامية، ص84-85.

[5] الرحلة، ص15.

[6] المحارس، مفردها محرس، وهو مأوى مخصص للزهاد والمسافرين والفقراء، أنظر، ابن جبير، الرحلة، هامش الصفحة 15.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ عناية الأيوبيين بالمذهب الشافعي كان أكثر من بقية المذاهب الفقهية السنية الأخرى، على اعتبار أنَّهُ المذهب الرسمي للدولة، وهو الذي يقوم عليه القضاء ويعتنقه جميع الأيوبيين[1]، ولم يشذ عنهم في ذلك سوى الملك المعظم عيسى بن العادل (576هـ- 624هـ/11890م-1227م)[2] الذي كان حنفي المذهب، ثُمَّ اقتدى به بنوه في إتباعه، كما أنَّ أغلب من تولَّى المناصب الرئيسية في الدولة كانوا من الشافعية كالقاضي الفاضل والعماد الأصفهاني وبهاء الدين ابن شداد، فلا ريب أنَّ اهتمامهم بالمذهب الشافعي كان أكبر.

ويشير في هذا الاتجاه – أي عناية الأيوبيين بالمذهب الشافعي- الدكتور عبد المجيد أبو الفتوح[3] فيذكر بأنَّ غالب الظن لم يكن هذا الأمر تعصُّبًا، وإنَّما كان استجابة طبيعية لحركة الثقافة السنية في هذه الفترة التي انتشر فيها خريجو المدارس النظامية وقد كان غالبهم من الشافعية وتمكنوا من اعتلاء مراكز سياسية حساسة وتصدروا مراكز القيادة والتوجيه الفكري، وكان من هؤلاء الخريجين العماد الأصفهاني وبهاء الدين بن شداد.

وتأكيدًا لطرح هذا المؤرخ فقد أشرنا سابقًا عند الحديث عن جهود نورالدين زنكي لتغليب كفة التسنن في بلاد الشام على حساب التشيع، كيف أنَّه اعتمد في مدارسه التي كان يؤسسها على أئمة وفقهاء الشافعية رغم كونه حنفي المذهب وخاصةً في حلب، ودوافعهُ في ذلك أنَّ هؤلاء الفقهاء كانوا متسلِّحين بعقيدة الأشعري ومدافعين عليها فرأى فيهم اليد القادرة على البطش بالشيعة فكريًا والمتسلِّحين

---

[1] المقريزي، الخطط، 209/3، الحنبلي، شفاء القلوب، ص242.

[2] هو عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي، الملك المعظم شرف الدين، ابن الملك المعظم، العالم الفقيه، المجاهد الغازي، النحوي اللغوي، ولد بالقاهرة سنة ست وسبعين، ونشأ بالشام، قرأ القرآن، وتفقَّه على مذهب الإمام أبي حنيفة على يد جمال الدين الحصيري (وهو شيخ الحنفية في عصره ت636هـ، أنظر، النجوم الزاهرة، 312/6)، انفرد عن بني أيوب بالمذهب الحنفي فإنَّهم لم يكن فيهم حنفي غيره، بل كلُّهم شافعية، وعوتب في ذلك، أما ترضون أن يكون فيكم واحدٌ مسلم؟ ولما وقف على تاريخ بغداد للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت ووجد فيه مطاعن على أبي حنيفة – رضي الله عنه- فردَّ عليه في كتابٍ سمَّاه " السهم المصيب في الردِّ على الخطيب"، وكان المعظم شجاعًا مقدامًا، كثير الحياء، متواضعًا، مليح الصورة، ضحوكًا، غيورًا جوَّادًا، حسن العشرة، محافظًا على الصحبة والمودَّة، أنظر، الحنبلي، شفاء القلوب، ص242-243، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 285/22-286، ابن خلكان، وفيات، 494/3، ابن واصل، مفرج الكروب، 208/4-209، المقريزي، السلوك، 346/1، الحنبلي، شذرات الذهب، 201/7-202.

[3] التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص244.

هم أيضًا بالفلسفة والجدل[1]، وعليه فإنَّ الحديث على عصبية مذهبية لدى الأيوبيين في الاهتمام بالمذهب الشافعي لا نرى لها مبررًا على الإطلاق.

ومن القضايا المهمة التي اعتنى بها صلاح الدين وخلفاؤه كذلك، الحرص على نشر العقيدة وأصولها على مذهب الأشعري وجعلها ذات النفوذ في المؤسسات الفكرية الدينية التي أنشأها من مدارس وخوانق ودور ومكتبات، وكان معظم السلاطين الأيوبيين عارفين عالمين بأصول هذه العقيدة مناكفين عنها[2]، فيقول ابن شداد[3] على صلاح الدين:" وكان –رحمة الله عليه– حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، وتفهَّم من ذلك ما يحتاجُ إلى تفهُّمهِ، بحيث إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسنًا، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه، جاريةً على نمط الاستقامة، موافقةً لقانون النظر الصحيح، مرضيةً عند أكابر العلماء".

وأمَّا الاعتناء بالحديث الشريف كجزءٍ من حركة الإحياء السني من طرف الأيوبيين فإنَّ أول دارٍ متخصصة لتدريس علومه بمصر ابتناها السلطان الكامل بن العادل سنة 622هـ/1235م عرفت بالمدرسة الكاملية، وقد أسند التدريس فيها للمحدث الأندلسي الشهير الحافظ أبو الحطاب عمر بن الحسين بن علي المعروف بابن دحيه الكلبي[4]، وقد بنيت هذه المدرسة على غرار دار الحديث النورية بدمشق التي شيَّدها نورالدين محمود لنفس الغرض وهو نشر علوم السنة كوسيلة لمحاربة التشيع والتضييق عليه[5].

---

(1) عبد المجيد أبو الفتوح، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص 209-211.

(2) يقول المقريزي 212/3:" فلمَّا ولى السلطان صلاح الدين.. سلطنة مصر، وولَّى القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الماراني الشافعي، كان من رأيه ورأي السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري في الأصول، فحمل النَّاس إلى اليوم على اعتقاده حتَّى يُكفِّر من خالفه، وتقدَّم الأمر إلى المؤذنين أن يعلنوا في وقت التسبيح على المآذن بالليل بذكر العقيدة التي تعرف بالمرشدة، فواظب المؤذنون على ذكرها في كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى وقتنا هذا".

(3) النوادر السلطانية، ص33.

(4) المقريزي، الخطط، 467/3-468، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 258/6، السيوطي، حسن المحاضرة، 262/2.

(5) وإن كان بناء هذه الدار قد عرفه القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وهذه الفترة غير معني بها هذا البحث، إلاَّ أنَّه رأينا التطرق إليها لتبيان أنَّ حركة الإحياء السني لم تكن مشروع شخصي لصلاح الدين وإنَّما توجه عام وعاه الحكام الأيوبيين بحكم انتمائهم لدائرة المذهب السني، ولأجل تحقيق أهداف الجبهة الإسلامية في ظل مواصلة مشروع جبهة موحدة مذهبيًا وسياسيًا قادرة على إخراج الصليبيين من الأقاليم التي لا يزالون يسيطرون عليها.

وممَّا اهتم به كذلك صلاح الدين بغية تعزيز الحضور السني في مصر وبلاد الشام تشجيع التصوف وفكره، حيث يذكر القلقشندي[1] أنَّ الخوانق والربط – وهي مراكز المتصوفة – "لم تعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية، وكان المبتكر لها السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب، فابتنى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء"[2]، فكان دور خوانق الصوفية لا يختلف كثيرًا عن دور المدارس من حيث تشجيع نشر علوم السنة واجتذاب مريدي المذهب الإسماعيلي إلى المذهب السني، بل تقترن بها وتكملها[3].

كما كان حرص واهتمام صلاح الدين وخلفاؤه من بعده بحسن العلاقة مع الخلافة العباسية كبيرًا باعتبارها رمزًا للسلطة السنية، فكان سلوك الأيوبيين اتجاه الخلفاء امتدادًا لسلوك نورالدين محمود الذي وصفه سبط بن الجوزي[4] بأنَّهُ: "كان يتديَّنُ بطاعة الخليفة"، وفي هذا الشأن يؤِّكد صلاح الدين على أنَّهُ جزءٌ من مشروع رسم معالمه عماد الدين زنكي في مطلع القرن السادس الهجري، فظلَّ محافظًا على أسس هذا المشروع المرتكز على ضمان الوحدة السياسية وبدرجة أكبر الوحدة المذهبية للجبهة الإسلامية الداخلية، حتَّى تكون على قدر كبير من القوة في مواجهة مخططات الصليبيين، فكان لأجل ذلك حرصه الكبير على الخضوع بالولاء الروحي للخليفة السني في بغداد.

ومن الدلائل على هذا الحرص جملة الرسائل التي كان يرسلها صلاح الدين إلى بغداد بعد وفاة نورالدين محمود، والتي تحمل عبارات الولاء والطاعة للخلافة العباسية وأنَّه هو – أي صلاح الدين- لا يعدو أن يكون قائدًا عسكريًا ضمن جنود الخليفة وأنَّ ما يفتتحه من أقاليم بسيفه هي جزء من ممتلكات الخليفة، فجاء في إحدى هذه الرسائل التي بعثها بها سنة 570هـ/1174م - عقب الاضطرابات التي عمت الشام بوفاة نورالدين محمود واختلاف الأمراء النورية في تسيير الدولة بسبب صغر سن الملك الصالح إسماعيل بن نورالدين محمود زنكي- قوله:" والمراد الآن هو كلَّ ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبَّق بالاسم العباسي كل ما تطبقهُ العهاد،

---

[1] صبحي الأعشى، 343/3، 364.

[2] وتجدر الإشارة إلى وجود اختلافات حول وجود خوانق وربط الصوفية قبل العصر الأيوبي وانتشارها بمصر على العهد الفاطمي بحكم قرب آراء الصوفية وآراء الإسماعيلية، وقد قدَّم الدكتور أحمد فؤاد السيد حول هذه الجزئية شرحًا مستفيضًا في كتابه، تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص106- 114.

[3] عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، ص106، محمد كامل حسي، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، ص56، أحمد فؤاد السيد، تاريخ مصر الإسلامية، ص112.

[4] مرآة الزمان، 210/21.

وهو تقليدٌ جامعٌ بمصر واليمن والمغرب والشام، وكلُّ ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكلُّ ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا..."[1].

ولتحقيق الغاية نفسها أي الإضعاف من الحضور الفكري والعقدي للمذهب الإسماعيلي في عقول ووجدان المصريين، فإنَّ صلاح الدين ومن خلفه لم يكتفوا بتعزيز الحضور الفكري والعقدي السني بمختلف الخطوات التي أتينا على ذكرها سلفًا وحسب، ولكنَّهم حرصوا بالموازاة من ذلك على طمس التراث والمعالم وإزالة الرسوم المقترنة بدولة الفاطميين ومذهبهم، وذلك بتحويلها إلى منارات ومعالم سنية تعكس التوجه الفكري والعقدي الجديد تارةً وبطمسها وإزالتها من خلال الهدم والحرق والإتلاف تارةً أخرى[2]، وهي خطوةٌ أخرى تبرز مدى الاهتمام البالغ من قبل الأيوبيين في اقتلاع التشيع من أرض مصر من جذوره وعدم ترك الفرصة لإعادة إحيائه من جديد.

وقد أشرنا إلى بعض هذه الإجراءات قبلاً من خلال بناء المدارس السنية في مكان معالم وصروح فاطمية كحبس المعونة ودار الغزل ومنازل العز[3]، وهي المواضع ذات الدلالة المذهبية لأنصار الدولة الفاطمية، وإزالتها عن المشاهدة اليومية والاستذكار هو في الحقيقة تمهيدٌ لنسيانها كمظهر يرمز لفكر وعقيدة الإسماعيلية، وإن لم يكن ليتحقق هذا آنيًا ولكنّهُ سيحدث لا محالة في المستقبل.

وفي السياق ذاته قام صلاح الدين بإزالة جميع النقوش والآثار التي تُخلِّد أسماء خلفاء الفاطميين على الجوامع الكبرى في مصر، ففي سنة 567هـ/1171م قلع المناطق الفضة التي كان قد عملها الخليفة المستنصر بالله الفاطمي في صدر المحاريب بجامع القاهرة، وخاصةً جامع عمرو بن العاص، وفي سنة 569هـ/1172م التي كان فيها انتهاء الخلفاء الفاطميين قلع صلاح الدين منطقة الفضة من محراب جامع الأزهر، وقلع أيضًا المناطق من بقية الجوامع[4].

---

[1] أبو شامة، الروضتين، 239/2.

[2] يقول المقريزي:" لما استبد الناصر صلاح الدين ... بملك مصر بعد وفاة العاضد غيَّر رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة، وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد"، الخطط ، 364/3.

[3] ابن الأثير، الكامل، 31/10-32، أو شامة، الروضتين، 117/2-118، البنداري، سنا البرق الشامي، ص57، الخطط، 438/3-439، ابن واصل، مفرج الكروب، 197/1-198. ابن دقماق، الانتصار، ص93.

[4] المقريزي، الخطط، 217/3.

وعمد صلاح الدين كذلك إلى الآلات الملوكية الفاطمية، وكنوز القصر الفاطمي، فعمل على إفسادها، وأهدى بعضها إلى نورالدين زنكي، والبعض الآخر للخليفة العباسي، ثمُّ طرح باقيها للبيع بحيث دام البيع فيها مدَّة عشر سنين، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين[1].

كما وضع صلاح الدين يديه على مكتبة القصر الفاطمي التي كانت تحوي مئات الآلاف من الكتب في شتى المجالات[2]، فأقدم على حرق جميع الكتب المتعلقة بالدعوة الإسماعيلية وألقاها على جبل المقطم[3]، ثمَّ فرَّق الكتب الغير المذهبية منها على كبار علماء وأنصار دولته، كالعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل وأبي شامة الأصفهاني[4]، وهو بهذا السلوك يؤكِّد على طبيعة مشروعه المتمثل في القضاء على كل ما يتصل بتراث الفاطميين المذهبي والمرتبط في الوقت ذاته بوجودهم السياسي[5].

ومن مظاهر التشيع كذلك التي حرص الأيوبيون على إزالتها أيضًا من نفوس المصريين ووجدانهم الأعياد المذهبية، وهذا لما لها من تأثير في الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم، فألغى صلاح الدين الاحتفال بجميع تلك الأعياد ممَّا أدَّى إلى انقراضها من مصر، كمَّا حوَّل أهم أعيادهم وأشهرها وهو يوم عاشوراء المصادف ليوم العاشر من محرَّم من كل سنة من يومٍ للحزن الشديد على مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء على يد الأمويين إلى عيدٍ بهيج استمر طوال العصرين الأيوبي والمماليكي[6].

لقد حققت جهود صلاح الدين لدعم المذهب السني على حساب عقيدة التشيع في مصر وبلاد الشام الأهداف المرجوة منها إلى حدٍّ بعيد، فتحقق له إنهاء ظاهرة توزع الولاء الروحي لجبهة المقاومة الإسلامية بين خليفتين في الزمن بإسقاط الحكم الفاطمي وإعادة مصر لحاضنة الخلافة العباسية السنية، كما وأخذت إجراءاته العملية فكريًا واجتماعيًا تأخذ طريقها نحو عصر مذهبي جديد في إقليم مصر، وهو مبتغى

---

(1) أبو شامة، الروضتين، 136/2-137، 154-155.

(2) يذكر المقريزي عن مكتبة القصر وما تحتويه فقال:" ووجد من الكتب النفيسة مالا يعد، ويقال أنَّها كانت ألف ألف وستمائة ألف كتاب، منها مائة ألف مجلَّد بخطٍّ منسوب، وألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، فباع السلطان جميع ذلك، وقام البيع فيها عشر سنين"، اتعاظ الحنفا، 331/3.

(3) جبل المقَطَّم، بضم أوله وفتح ثانيه، وتشديد الطاء المهملة وفتحها، وميم، وهو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة، على شاطئ النيل الشرقي حتَّى يكون منقطعه طرف القاهرة، ويسمَّى في كل موضع باسم، وعليه مساجد وصوامع للنصارى، ياقوت، معجم البلدان، 176/5.

(4) أبو شامة، الروضتين، 292/2.

(5) أحمد فؤاد السيد، تاريخ مصر الإسلامية، ص62.

(6) عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين، 125/1، أحمد فؤاد السيد، تاريخ مصر الإسلامية، ص63.

إستراتيجيته لبناء جبهة مقاومة للعدوان الصليبي تتمتع بوحدة قرارها الروحي والعسكري، وتتلافى مسببات الانتكاسة والخذلان.

ثانيًا: المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين في ظل الوحدة المذهبية والسياسية بالمشرق:

1- ارتدادات ما بعد سقوط الحكم الفاطمي الشيعي على مصر وأثرها على نشاط المقاومة ضد الصليبيين:

كان لسقوط الخلافة الفاطمية الشيعية سنة 567هـ/1171م وتحقق الوحدة بين الشام ومصر تحت سلطة نورالدين السني خطوة بالغة الأهمية بالنسبة لجهود المقاومة الإسلامية ضد التواجد الصليبي في المنطقة، حيث كان هذه الحدث تتويجًا لما قام به القائد الزنكي انطلاقًا من مقر حكمه في دمشق ضد الصليبيين ببلاد الشام، فكان أن تمكَّن من ترجيح كفة الصراع مع الصليبيين إلى مستوى متوازٍ إن لم نقل أنَّ كفة الجبهة الإسلامية صارت مائلة في ذلك الصراع بملكه لمصر.

ولعلَّ من أبرز الدلائل على ذلك التفوق الإسلامي بقيادة نورالدين خلال تلك المرحلة هو تمكنه من تحييد قوة الصليبيين على مصر بعد أن انتهت جولات الصراع حولها مع ملك بيت المقدس عموري الأول إلى استحواذ القيادة الزنكية عليها سنة 564هـ/1169م، وهو الحدث الذي استبشر به نورالدين وأمر بضرب البشائر في سائر البلاد، كما ويعبر عن أهمية ذلك الإنجاز – ضم مصر- صاحب الباهر[1] بقوله:" والحق بيده، فإنَّهُ كان فتحًا جديدًا لمصر وحفظًا لسائر بلاد الشام وغيرها".

إضافةً إلى عدم قدرة التحالف البيزنطي – الصليبي على طرد صلاح الدين – نائب نورالدين- عن مصر وفشلهم في الاستيلاء على مدينة دمياط سنة 565هـ/1170م، وقبل ذلك فإنَّ فشل الملك الصليبي في إثارة ملوك أوروبا وأباطرتها وإقناعهم بإرسال حملة صليبية جديدة لطرد نورالدين من مصر يعدُّ أيضًا مؤشر على ضعف الطرف الصليبي في مواجهة الزنكيين.

وعليه فإنَّ سنة 567هـ/1171م -عام الوحدة السياسية والمذهبية للجبهة الإسلامية- كان يأمل منها كلٌّ من نورالدين محمود وصلاح الدين أن تكون الانطلاقة نحو تحقيق الهدف الأسمى لجبهة المقاومة الإسلامية وهو طرد من تبقى من الوجود الصليبي بالمنطقة من خلال اتحاد القوات النورية الشامية

---

[1] ابن الأثير، ص139.

والصلاحية بمصر على ذلك، وهي الأمنية التي طالما راودت قادة المقاومة الإسلامية منذ مجيء الصليبيين سنة 490هـ/1096م.

غير أنَّ تلك الأماني لم توافقها الظروف التي أعقبت سقوط الخلافة الفاطمية، فواجهت الجبهة الإسلامية عدَّة عقبات حالت دون الشروع في ذلك المسار، حيث استنفذت من جهود الجبهة ما يزيد عن عقدٍ من الزمن كان بالإمكان استثمارها في تحقيق مكاسب على الطرف الصليبي، خاصةً والكفة وقتذاك مائلة بشكل واضح للطرف الإسلامي، فانشغل صلاح الدين عن حرب الصليبيين بالسعي في تذليل تلك العقبات لتحقيق مزيد من الاستقرار والتماسك للجبهة الداخلية.

ولعلَّ من أبرز العقبات التي واجهها صلاح الدين وجبهة المقاومة على العموم عقب إنهائه للحكم الفاطمي الإسماعيلي على مصر، حركة المعارضة التي قادها أنصار الدولة المنهارة ضد السلطة الجديدة، والذين لم يهضموا سقوط دولتهم وزوال مذهبهم وفقدانهم للامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في ظلِّها، فسعوا إلى إعادة إحيائها من جديد.

ففي رمضان من سنة 569هـ/أفريل1174م دبَّر جماعة من أصحاب الخلفاء العلويين – على وصف ابن الأثير– مؤامرة للوثوب بصلاح الدين ودولته الناشئة، وكان على رأس هؤلاء الشاعر عمارة بن أبي الحسن اليمني[1] وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة ابن عبد القوي، فضلاً عن غيرهم من جند مصر، وبقايا السودان وحاشية القصر، ووافقهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده[2].

وقبل عرض تفاصيل هذه المؤامرة من الضروري الوقوف عند جزئية مهمة ومتناقضة مع حركة الأحداث خلال تلك المرحلة، وهي قيادة عمارة اليمني وهو الشخصية السنية شديدة التعصب لمذهبها السني على قول ابن خلكان[3]، لمشروع المؤامرة ضد الدولة الجديدة السنية العقيدة، وقائدها الحريص على

---

[1] هو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن ريدان بن أحمد الحكمي اليمني، الملقب نجم الدين، الشاعر المشهور، كان فقيهًا شافعيًا شديد التعصب للمذهب السني، له كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن ثُمَّ بمصر وهو الكتاب المسمى "النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية"، صلب سنة 569هـ، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/431-432، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/70.

[2] ابن الأثير، الكامل، 10/53-54، أبو شامة، الروضتين، 2/1185-186، ابن واصل، مفرج الكروب، 1/243-244، ابن خلدون، العبر، 5/287، ابن تغري بردي، 6/70.

[3] وفيات الأعيان، 3/431-432.

القضاء على التشيع بأرض مصر، فيذكر أبو شامة[1] عن دور عمارة اليمني في هذه المؤامرة فيقول:" وكان عمارة اليمني الشاعر عقيدهم، ودعا للدعوة قريبهم وبعيدهم".

فالطبيعي وفق جدلية الصراع المذهبي بين المسلمين المهيمنة على سير الوقائع التاريخية وقتذاك أنَّ هذا الفقيه السني سيكون من أكبر المرحِّبين والداعمين للتوجه الجديد في إقليم مصر، رغم ما تربطه بالدولة المنهارة وخلفائها من روابط سياسية وامتيازات دنيوية[2]، مثلما فعل القاضي الفاضل الذي انتقل من خدمة الفاطميين إلى أكبر الداعمين لصلاح الدين في مشروعه للقضاء على الدولة الفاطمية ومذهبها الإسماعيلي[3].

وقد قدَّم صاحب الروضتين تفسيرًا لحالة الشاعر عمارة اليمني بين وضعه القديم والجديد حيث يذكر بأنَّهُ كان من المنتفعين في عهد الحكم الفاطمي، ثمَّ اختلَّ وضعه في العهد الجديد فصار يظهر في فلتات لسانه في شعره ونثره ما يدلُّ على فساد نيته اتجه بني أيوب وكان إن مدحهم تكلَّف في ذلك، وصرَّح وعرَّض فيه بما في ضميره[4].

وقد حفل شعر عمارة بقصائد يؤكِّدُ فيها تعلُّقهُ الشديد بدولة المصريين- على تعبير مؤرخ مصر تقي الدين المقريزي- ويبدي حنينه إلى أيامها وحكامها، وفي المقابل نَظَمَ العديد من القصائد تحمل عتابًا للدولة السنية الناشئة بعد أن ساء حاله معها وتغيَّر إلى نقيض ما كان يعيشه في ظل الدولة الفاطمية، وممَّا قال في رثاء الدولة الفاطمية بعد سقوطها[5]:

يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة	لك الملامة إن قصَّرت عذلـــي
بالله زُرْ ساحةَ القصرين وابكي معي	عليهما، لا على صفَّينَ والجملِ
لهفي ولهف بني الآمال قاطبةً	على فجيعتنا في أكــرم الــدول

---

[1] الروضتين، 185/2.

[2] الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص209-210.

[3] حول شخصية القاضي الفاضل بين خدمة الفاطميين ومساهمته في مشروع صلاح الدين المذهبي والسياسي، أنظر، هادية دجاني شكيل، **القاضي الفاضل ودوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1994، عصام مصطفى عقلة، فوزي خالد الطواهيّة، **القاضي الفاضل (526هـ- 596هـ/1132م-1200م) وكتابه " المياومات في التأريخ: دراسة في مصادر تأريخ صلاح الدين والدولة الأيوبية المبكرة،** المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 10، العدد 1، 2016.

[4] أبو شامة، الروضتين، 191/2.

[5] القصيدة من البحر البسيط، أبو شامة، الروضتين، 193/2-194.

مررتُ بالقصر والأركانُ خاليةً ... من الوفود وكانت قبلةُ القُبَلِ

فملتُ عنها بوجهي خوفَ منتقد ... من الأعادي ووجهُ الوُدِّ لم يَمِلِ

أسبلتُ من أسفٍ دمعي غداة خلت ... رحابكم وغدتْ مهجورة السبلِ

أبكي على مأثراتٍ من مكارمكم ... حالَ الزمانُ عليها وهي لم تحلِ

وفي قصيدةٍ أخرى يرثي فيها زمن حكم العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين فيقول[1]:

أسفي على زمن الإمام العاضد ... أسفَ العقيم على فراق الواحد

جالست من وزرائه وصحبتُ من ... أمرائه أهلُ الثناءِ الخالد

لهفي على حجرات قصرك إذ خلت ... يا ابن النبيِّ من ازدحام الوافدِ

وعلى انفرادكَ من عساكرِكَ الذي ... كانوا كأمواج الخضم الرَّاكد

فعسى الليالي أن تردَّ إليكم ... ما عوَّدتكم من جميل عوائدِ.

وعلى أية حال يبدو أنَّ هؤلاء المتآمرين كانوا مدركين عجزهم على مواجهة صلاح الدين بمفردهم، فاتصلوا بزعيم الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام سنان شيخ الجبل وطلبوا منهُ التدبير لقتله – وهم المهرة في هذا المجال وضحاياهم من قادة المقاومة الإسلامية كثر–، كما استعانوا بالصليبيين في بلاد الشام وصقلية فاتفقوا معهم على غزو مصر مقابل مال وجزء من البلاد، فإذا خرج إليهم صلاح الدين ثاروا هم في القاهرة ومصر، وأعادوا الدولة العلوية، وإن بقي صلاح الدين في القاهرة وأرسل العساكر لمواجهة الصليبيين، ثاروا به وأخذوه أخذًا باليد لعدم الناصر له[2].

ولكن هذه المؤامرة تعرضت للفشل كسابقتها التي حيكت سنة 564هـ/1169م، فقد كُشفت خيوطها لصلاح الدين من طرف زين الدين علي بن النجا الواعظ والقاضي المعروف بابن النجية[3]، وهو أحد رجالاته، فأمره صلاح الدين بملازمتهم ومخالطتهم وتعريفه بما يخططون له أولاً بأول ففعل ذلك، وبعد

---

[1] القصيدة من البحر الكامل، أبو شامة، الروضتين، 192/2–193.

[2] ابن الأثير، الكامل، 53/10–54، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 194/21، أبو شامة، الروضتين، 186/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 243/1–244، ابن خلدون، العبر، 287/5،

[3] هو علي بن إبراهيم بن نجا زين الدين، الأنصاري الدمشقي الحنبلي الواعظ، المعروف بابن نجية، نزيل مصر ولد سنة 508هـ/1114م، سمع من علي بن أحمد بن قيس المالكي، ورحل وحمل "جامع الترمذي" عن عبد الصبور الهروي، وكان من رؤساء العلماء، له وجاهة ودنيا واسعة وهمة عالية، توفي في رمضان عن إحدى وتسعين سنة (599هـ/ماي 1203م)، الذهبي، العبر، 125/3، ابن كثير، البداية والنهاية، 725/16، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 183/6، الحنبلي، شذرات، 554/6.

وقوفه على المؤامرة قبض على رؤوس مدبريها وصلبهم في رمضان سنة 569هـ/أبريل 1174م، ثمَّ التفت إلى بقية المتآمرين من الفاطميين فنفاهم إلى الصعيد، أمَّا أهل القصر ففرض عليهم رقابة شديدة، حتَّى لم يعد يصل إليهم شيء من أمر الدولة، وأمَّا الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم، ولا أعلمهم أنَّهُ علم بحالهم[1].

وأمَّا بالنسبة لصليبيي بلاد الشام، فحين بلغهم خبر انكشاف مؤامرة حلفائهم وأنَّهُ لا قبل لهم بمواجهة صلاح الدين وجيوشه فقد التزموا أماكنهم ولم يفعلوا شيئًا[2]، وأمَّا ملك صقلية فعلى ما يبدو استجاب لطلب المتآمرين في حينه وأرسل أسطولاً ضخمًا إلى مصر، سار حتَّى وصل إلى الإسكندرية في ذي الحجة من سنة 569هـ/جويلية 1174م، وهناك دارت معركةٌ كبيرة بينه وبين قوات صلاح الدين في البر والبحر، انتهت بانتصار جيوش صلاح الدين[3].

لم تتوقف مؤامرات بقايا الفاطميين ولم تقتصر على القاهرة فحسب، فقد واجه حكم صلاح الدين حركة معادية في الجنوب على الحدود مع النوبة، تزعمها أحد رجال الفاطميين وهو كنز الدولة حاكم أسوان[4]، الذي التف حوله جمعٌ كبير من المصريين أوهمهم بأنَّهُ يملك الديار المصرية ويعيد الخلافة الفاطمية فيها، فأقدم على خلع طاعة صلاح الدين ودعا للأمير داوود بن العاضد الفاطمي، وتجرأ على قتل أحد أمراء صلاح الدين الذين كانت لهم إقطاعات بتلك البلاد[5]، وهو ما زاد في غضبه وقرر وأد فتنة كنز الدولة قبل استفحالها، فجهَّز جيشًا كبيرًا أسند قيادته لأخيه الملك العادل، سار به حتَّى تقابل مع القوات

---

(1) ابن الأثير، الكامل،10/ 54-55، سبط بن الجوزي، 194/21، أبو شامة، الروضتين، 186/2-187، ابن واصل، مفرج الكروب، 245/1-246، المقريزي، السلوك، 162/1-163.

(2) ابن الأثير، الكامل، 55/10.

(3) أبو شامة، الروضتين، 219/2-220، المقريزي، السلوك، 164/1-165.

(4) الكنوز أو بنو كنز هم بطن من القبيلة العربية "ربيعة"، استقروا حول أسوان وفي بلاد النوبة، ثم اختلطوا بنوبيين وتزوجوا منهم، و"كنز الدولة" لقب أطلقه لأول مرة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لحاكم النوبة في عهده أبو المكارم هبة الله بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي، وكان آخر من لقب منهم بهذا اللقب كنز الدولة هذا المعاصر لصلاح الدين، ابن واصل، مفرج الكروب، 16/2.

(5) ذكر ابن الأثير أنَّ الأمير المقتول هو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين الهذباني وهو من أكبر الأمراء الصلاحية وأشجعهم، الكامل، 64/10.

المعادية أين دارت بين الطرفين معركةٌ قتل فيها زعيم التمرد وعدد كثير من عسكره، وعاد الملك العادل إلى القاهرة بعد أن قضى على تلك الفتنة وذلك في صفر 570هـ/سبتمبر1174م[1].

وأمَّا ثاني العقبات التي واجهت جبهة المقاومة الإسلامية عقب سقوط الخلافة الفاطمية الشيعية، ذلك الخلاف الذي طبَعَ العلاقة بين صلاح الدين وقائده نورالدين، حيث اصطلح المؤرخون على تلك الفترة من العلاقة بين القائدين "بالفجوة" و"الوحشة"،[2] والتي تطورت لتصير شبه عداء بينهما، وهي أزمة ثقة في العلاقة بين الرجلين برزت معالمها قبل إسقاط صلاح الدين الخطبة للعاضد الفاطمي وإعلانها للخليفة العباسي المستضيء بالله، أين لاحظ نورالدين عدم تحمس نائبه في مصر إلى تطبيق أوامره، وفي المقابل رأى صلاح الدين أنَّهُ الأدرى بما يقع في إقليم مصر من أخطار، وبالتالي تطبيق أوامر نورالدين البعيد في الشام دون مراعاة للوضع بمصر أمرٌ غير واقعي، مع احترامه لسلطة قائده عليه وعلى ما بيده من إقليم[3].

ومن المرجح أن تكون طبيعة العلاقة السياسية بين الشخصيتين هي العامل المتسبب في تعكر الصفو بينهما، فصلاح الدين كان وزيرًا لخليفة الفاطميين ومُعين من قبله وفي نفس الوقت يعتبره نورالدين السني نائبه في مصر وهو مطالب بالالتزام بتنفيذ أوامره[4]، إضافةً إلى اختلاف الرؤية السياسية لأحداث المرحلة بين الرجلين حيث كان نورالدين يرى أنَّ بلاد الشام هي ميدان الصراع الرئيسي ضد الصليبيين وأنَّ دور مصر لا يعدو أن يكون ممون بمواردها الاقتصادية وأنَّ يكون رصيدها البشري احتياطيًا للقوى الشامية والعراقية، غير أنَّ طموحات صلاح الدين بعد توليه السلطة بمصر كانت أكبر من مجرد النيابة عن نورالدين، واعتبر مصر مفتاح النصر في ذلك الصراع وأنَّ دورها محوري ويجب أن تكون هي من تقود لا أن تقاد[5].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 10/64-65، ابن واصل، مفرج الكروب، 2/16-17، أبو شامة، الروضتين، 2/221-222، المقريزي، السلوك، 1/167، البنداري، سنا البرق الشامي، ص80.

(2) ابن الأثير، الكامل، 10/35-36، الباهر، ص158، ابن واصل، مفرج الكروب، 1/221، أبوالفدا، المختصر، 3/52-53، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/21.

(3) أنظر حول تحليل أسباب هذه الوحشة عند، ابن الأثير، الكامل، 10/33، سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين، ص96، جاد محمد رمضان، الملك العادل نورالدين محمود، ص203.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين، ص96.

(5) السير هاملتون أ. ر جب، حررها، يوسف ايبش، **صلاح الدين الأيوبي**، مطبعة بيسان للنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 1996، ص 121، قاسم عبده قاسم، الأيوبيون والمماليك، ص35.

وهذه النظرة من طرف صلاح الدين دفعت العديد من المؤرخين إلى ترجيح طموح صلاح الدين السياسي ورغبته في إقامة كيان مستقل عن الشام تكون له بصمة في حركة المقاومة ضد الصليبيين وكذا المساهمة في التمكين للمذهب السني على أرض مصر[1]، لتكون وفاة نورالدين محمود في شوال سنة 569هـ/ماي 1173م إيذانًا بانتهاء تلك الأزمة على مستوى الجبهة الداخلية الإسلامية التي كادت تتطور لتصل لصراع عسكري بين القائدين على أرض مصر[2].

وعلى أية حال فمهما كانت مسببات تلك الوحشة بين الرجلين وأيُّهما أحق في موقفه اتجاه الآخر، فإنَّ العلاقة المشحونة بينهما كانت ستجني على الجبهة الإسلامية برمتها وتعيدها إلى نقطة التشرذم والانقسام[3]، ولا أدلَّ على تضرر الجبهة الداخلية في مواجهة الصليبيين نتيجة تلك العلاقة السيئة اشتغال صلاح الدين عن أمر الجهاد بالبحث عن ملجأ يؤويه هو وأهله إن قرر نورالدين إخراجه من مصر ففتح كل من النوبة سنة 568هـ/1172م واليمن والحجاز في السنة الموالية[4].

كما وأنَّ قوتي الشام ومصر لم تتمكنا من التوحد في جيش واحد قوي يقلب الطاولة على الصليبيين في مراكزهم وهذا بسبب تخوف صلاح الدين من الاجتماع بنورالدين في بلاد الشام واحتمال عزله، رغم ما كانت تتمتع به الجبهة الإسلامية من مظاهر قوة تمثلت في إنهاء الانقسام المذهبي على مستواها وخضوعها روحيًا لسلطة واحدة ممثلة في الخليفة العباسي وانضمام مصر لجهود المقاومة بإمكانيتها البشرية والمادية، في مقابل اضطرابات وصراعات حول الحكم لدى الطرف الصليبي.

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 33/10، ابن العديم، زبدة الحلب، 333/2، الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص317، جاد محمد رمضان، الملك العادل نورالدين محمود، ص203، أحمد الشامي، **صلاح الدين والصليبيون**، مكتبة النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1991، ص99.

[2] لمزيد من التفاصيل حول فترة الوحشة أو الجفوة في علاقة صلاح الدين بقائده نورالدين محمود زنكي راجع، ابن الأثير، الكامل، 35/10- 36، 49-55، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 172/21- 173، 185، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص86- 88، أبو شامة، الروضتين، 148/2- 149، 202، ابن واصل، مفرج الكروب، 221/1- 222، ابن تغري، بردي، النجوم الزاهرة، 21/6- 22، البنداري، سنا البرق الشامي، 32، 65-68،

[3] أشار أبو شامة إلى قضية الخلاف بين نورالدين وصلاح الدين باعتبارها اختلافًا في الرؤى وليس في الهدف فيقول ملمحًا لتلك القضية:" ولو علم نورالدين ماذا ادخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرت عينه فإنَّهُ بنى على ما أسسه نورالدين من جهاد المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها"، الروضتين، 204/2.

[4] ابن الأثير، الكامل، 52/10، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص87، أبو شامة، الروضتين، 177/2-178، ابن واصل، مفرج الكروب، 228/1-229، 237-238، الحنبلي، شفاء القوب، ص79.

وفي حقيقة الأمر فإنَّ وفاة نورالدين زنكي بقدر ما حلَّت معضلة الزعامة على الجبهة الإسلامية وأنهت بوادر انشقاق داخلها لاح في الأفق القريب، بقدر ما خلقت أزمة أخرى لهذه الجبهة، فحدث أن ساءت الأوضاع بإقليم الشام بسبب الصراعات التي قامت بين أمراء نورالدين وكبار قواده للظفر بالوصاية على خلفه في الحكم ابنه الصالح إسماعيل (569هـ- 576هـ/1173م-1181م) وكان غلامًا في الحادية عشر من عمره[1]، فكان لزامًا على صلاح الدين التدخل لتهدئة الأوضاع وعدم ترك الصليبيين يفيدون منها.

ففي دمشق عاصمة حكم نورالدين تولَّى الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدَّم تدبير ملك الصالح إسماعيل بن نورالدين زنكي، فصار بذلك مديرًا لدولته، وبالموازاة برز في حلب أحد كبار الأمراء النورية وهو شمس الدين علي بن الداية، فكان كل واحد منهما يريد أن يكون صاحب الكلمة في الدولة، ممَّا جعل هوة الخلاف تتسع بين المركزين (دمشق وحلب)، إضافةً إلى أنَّ كليهما لم يكونا يثقان في صلاح الدين ويتوجَّسان خيفةً من طموحاته[2].

كما برز في شمال الشام معضلة جديدة تمثلت في طموح سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود صاحب الموصل - وهو ابن أخ نورالدين محمود- حيث انتهز فرصة وفاة عمه وسعى للتوسع والسيطرة على كل البلاد الجزرية الواقعة شرقي الفرات والتي كانت تشكل جزءًا من مملكة نورالدين، بل امتدَّت تطلعاته إلى بلاد الشام الشمالية فعمل على ضم مدينة حلب لتكون كما كانت في عهد جدِّه عماد الدين زنكي[3].

وعلى إثر تلك الأوضاع المضطربة التي آلت إليها بلاد الشام بعد وفاة نورالدين محمود، فقد كانت الجبهة الإسلامية التي أقامها عماد الدين زنكي وابنه نورالدين والتي أحدثت في نفوس الصليبيين رُعبًا رأوا من خلاله نهاية وجودهم ببلاد المسلمين، قاب قوسين أو أدنى من الانهيار.

لم يكن بمقدور صلاح الدين الوقوف مكتوف اليدين إزاء الأحداث المتسارعة في الجهة الشرقية للجبهة الداخلية الإسلامية وهي تسير من سيء إلى أسوء، بل وتسير في اتجاه يخدم مصالح الصليبيين ومخططاتهم، فصلاح الدين كان يدرك بأنَّ الفراغ الذي تركه نورالدين محمود في الشام لابدَّ من ملأه

---

(1) عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 32/2، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص 246-247.

(2) ابن الأثير، الكامل، 58/10، الباهر، ص162-163، أبو شامة، الروضتين، 216/2-217.

(3) ابن الأثير، الكامل، 59/10، الباهر، ص175، أبو شامة، الروضتين، 218/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 5/2-6.

بشخصية قوية تسير على نفس النهج الذي رسمه عماد الدين واستمر عليه خلفه، وهو الأمر الذي لا يتوفر عليه الصالح إسماعيل بن نورالدين، ورأى بأنَّ تدخله صار واجبًا مستعجلاً لحماية جهود سلفه.

وعلى أية حال فقد تمكَّن صلاح الدين من تجاوز عقبة بقايا الفاطميين المتآمرين على حكمه بكشف مخططاتهم ونسفها، كما تخلَّص قبل ذلك من عقبة خلافه مع قائده نورالدين بوفاة هذا الأخير، لكن الوضع في بلاد الشام والجزيرة كان معقدًا للغاية بالنسبة لوحدة الجبهة الإسلامية، ذلك لأنَّ الصراعات بين الأطراف قد تشعبت وأنَّ البعض من تلك الأطراف قد ارتمى في أحضان الصليبيين وعقد معهم اتفاقيات هدن وصلح على حساب أهداف الجبهة التي رسمها نورالدين قبلاً، وهو ما رآه صلاح الدين نقضًا للعهد وخروجًا عن مسار تشكَّل بفضل تضحيات جسام على مدار عقود من الزمن[1].

وعلى أية حال فإنَّ صلاح الدين لم يبق مكتوفي اليدين إزاء ما يحدث في بلاد الشام والجزيرة من أحداث؛ ليقينه بأنَّ ما تحقق لغاية هذه المرحلة من المكاسب ضد الطرف الصليبي ما كان ليتحقق لولا تماسك الجبهة الإسلامية وخضوعها لسلطة واحدة سياسيًا ومذهبيًا على عهد نورالدين، كما وأدرك أنَّ استقرار وضعه في مصر لن يكون له جدوى في صراعه مع الصليبيين إذا ترك الحال في بلاد الشام والجزيرة على وقع الفوضى وتوزع الولاءات وممالئة البعض للصليبيين.

فأنفق صلاح الدين في هذا السبيل أي إعادة ترميم الجبهة الداخلية وضمان استمرار وحدتها ما يزيد عن عقد من الزمن (570هـ- 579هـ/1174م- 1183م) من الجهود الحثيثة؛كللت في النهاية بتحقيق الهدف وصارت جبهة المقاومة تمتد من الجزيرة إلى مصر مرورا ببلاد الشام تحت قيادته السياسية والعسكرية وتدين بالولاء الروحي للخليفة السني في بغداد.

2- علاقة صلاح الدين بالإسماعيلية النزارية ببلاد الشام:

لقد اقترن نشاط الاغتيال زمن الحروب الصليبية على بلاد الشام بطائفة الإسماعيلية النزارية، حيث سعت هذه الفرقة منذ تأسيسها على يد الحسن بن الصباح سنة 488هـ/1094م في استهداف الشخصيات والقادة الذين ترى فيهم عقبة أمام تحقيق مشروعها في تزعم العالم الإسلامي سياسيًا وعقديًا، فكان أن راح ضحية مؤامراتها العديد من قادة المقاومة ضد العدو الصليبي فضلاً عمَّن أنكر عليهم دعواهم

[1] عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 34/2.

المذهبية في شرعية إمامهم نزار بن المستنصر ومن أتى في عقبه، فالنزارية وفق تعبير برنارد لويس[1] "لم يكن هدفهم أقل من تأسيس إمبراطورية فاطمية جديدة تضم العالم الإسلامي كلِّه تحت قيادة الأئمة من آل نزار".

وقد اتَّسم نشاط هذه الطائفة في بلاد الشام خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بالتوسع والتأثير في مجريات الأحداث، وهذا بعد أن تمكنوا من استمالة بعض الأمراء والأتابكة وفرضوا أنفسهم كحلفاء في ظل الاضطراب والفوضى والصراعات الداخلية بين مختلف القوى الحاكمة آنذاك، فمالئهم رضوان بن تتش صاحب حلب وبنا لهم دارًا للدعوة لمذهبهم —أشرنا إلى ذلك قبلاً–، كما تحالف معهم أتابك دمشق ظهير الدين طغتكين ووزيره أبو الطاهر المازدقاني[2] طمعًا في دعمهم أو خوفًا من بطشهم[3]، فكانت المصالح السياسية عاملاً مهمًا في تحقيق ذلك التقارب بين النزارية والقادة السنيين خلال تلك الفترة، كما وأعانهم ذلك الوضع السياسي المريح إن صح التعبير في أهم مدن الشام (حلب ودمشق) على نشر دعوتهم وبث دعاتهم في الأرجاء[4]؛ فانضمَّ إليهم الكثير من الرعاع والسفهاء والفلاحين والعوام وغوغاء الطغام، بتعبير ابن القلانسي[5].

غير أنَّ هذا الحال قد أخذ في التغيُّر نحو الاصطدام مع القوى السياسية الجديدة؛ ونعني بهم حكام الموصل وحلب عماد الدين زنكي ونجله نورالدين محمود وحاكم دمشق تاج الملوك بوري الذي خلف والده طغتكين في حكم المدينة، حيث تعرَّض أنصار النزارية وشيوخهم لمذابح شنيعة لعلَّ من أشهرها تلك التي أوقعها فيهم تاج الملوك بوري بن طغتكين في رمضان 523هـ/ديسمبر 1129م وراح ضحيتها ما يربو عن

---

(1) الحشاشون، ص77.

(2) هو الوزير كمال الدين أبو علي المزدغاني، وزير صاحب دمشق تاج الملوك بوري بن طغتكين، اتهم بمذهب الباطنية، وقيل أنَّهُ كاتب الفرنج ليسلِّم إليهم دمشق ويعطوه صور، وأن يهجموا البلد يوم الجمعة، ووكَّل الملاحدة تغلق أبواب الجامع على الناس فقتله لأجل ذلك طغتكين في رمضان ونصب رأسهُ على باب القلعة، أنظر، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 521/19، تاريخ الإسلام، 83/36.

(3) من بين التسهيلات التي قدَّمها ظهير الدين طغتكين لصالح النزارية أن سلمهم حصن بانياس في ذي القعدة 520هـ/ ديسمبر 1126م، فترك امتلاكهم لهذا الحصن أثرًا عظيمًا في ازدياد نفوذهم وتعاظم قوتهم فخشيهم الناس وامتلأوا منهم رعبًا، كما تمكنوا بعد ذلك من الاستيلاء على حصون أخرى مجاورة لهم في جبل صهيون، أنظر، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص215، برنارد لويس، الحشاشون، ص192-193، كمال بن مارس، العلاقات الإقليمية، ص168.

(4) الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص217.

(5) ذيل تاريخ دمشق، ص215-216.

ستة آلاف[1]، كما وتعرضوا للتضييق من قبل نورالدين محمود في حلب ودمشق – بعد استيلاءه عليها– ضمن جهوده في محاربة الفكر الشيعي والتمكين للعقيدة والفكر السني.

وبحلول النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي شهد نشاط الإسماعيلية النزارية مرحلةً من الازدهار اتسمت بالقوة والعنف، بعد أن تزعَّم الطائفة رجل يشهد له التاريخ بالجرأة والذكاء وقوة الشخصية، ونعني به راشد الدين سنان الذي اتجه نحو بلاد الشام سنة 558هـ/1162م، وطمع في أن يكون الزعيم الأوحد للنزارية، بل جعل من نفسه إلهًا مقدسًا للطائفة في بلاد الشام، وامتدت نزعته في السلطة والزعامة إلى الحلم بالاستيلاء على كل الشام ثم التوسع إلى الأقاليم المجاورة.[2]

تزامن هذا النشاط والطموح لدى النزارية الشاميين في ظل الزعامة الجديدة مع وصول صلاح الدين إلى الحكم في مصر وسعيه للمحافظة على جهود قادته الزنكيين الوحدوية ضمن جبهة المقاومة ضد الصليبيين، والتي تعرضت لانتكاسة بالغة الخطورة عقب تولي الصالح إسماعيل بن نورالدين الحكم وهو في الحادية عشر من عمره (569هـ/1174م)، وهذا دون شك ما جعل من صلاح الدين العدو الأول للنزارية الذين مالوا –كأمر حتمي– إلى تحسين علاقتهم من الزنكيين في الموصل وحلب على اعتبارهم الخصوم الرئيسيين لصلاح الدين[3].

تعرَّض صلاح الدين في هذا الإطار إلى محاولتين لاغتياله من قبل النزاريين، فكانت الأولى في شهر جمادى الآخرة من سنة 570هـ/ديسمبر 1174م حينما كان صلاح الدين يحاصر حلب، حيث تذكر المصادر التاريخية أنَّ حكامها ووزيرهم سعد الدين كمشتكين أرسلوا إلى سنان مقدَّم الإسماعيلية بمصياف[4]

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 250/9، أبو الفدا، المختصر، 2/3-3، الذهبي، تاريخ الإسلام، 18/36، اليافعي، مرآة الجنان، 175/3، الحنبلي، شذرات الذهب، 110/6، برنارد لويس، الحشاشون، ص192.

[2] محمد حسين كامل، طائفة الإسماعيلية، ص100-101، فاروق عمر فوزي، قراءات ومراجعات، ص355، كمال بن مارس، العلاقات الإقليمية، ص170.

[3] كمال بن مارس، العلاقات الإقليمية، ص171، يوسف إبراهيم الشيخ عيد، أثر الحركات الباطنية، ص213.

[4] مصياف، تقع على الساحل الشرقي من الشام قرب طرابلس في لحف جبل اللكام، على بعد ثلاثة أميال جنوب بارين وعلى بعد رحلة يوم غربي حمص، وعن حماه جهة الغرب على مسيرة يوم، وعلى بعد تسعة أميال جنوب شرق القدموس، مبنية على الصخور الصلدة ومقامة على صخور عمودية، يبلغ ارتفاع حوائطها ستون قدمًا، استولى عليها الإسماعيلية النزارية سنة 535هـ/1141م، وكان يحكمها حينذاك مملوك لبني منقذ أصحاب قلعة شيزر، أنظر، أسامة زكي زيد، **الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1980، ص89-90، فولفغانغ مولر- فينر، **القلاع أيام الحروب الصليبية**، تر، محمد وليد الجلاد، مر، سعيد طيَّان، دار الفكر، ط2، 1404هـ/1984م، ص88-89.

وقلاعها وبذلوا له أموالاً كثيرة ليقتل صلاح الدين، فأرسل له جماعةً منهم إلى عسكره فعرفهم أحد الأمراء وهو ناصح الدين خمارتكين صاحب قلعة أبي قبيس فقال لهم:" ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم؟ فجرحوه جراحات مثخنة".

وقد حدثت مصادمة بين جماعة النزارية وبعض الجند ذهب ضحيتها عدد منهم، كما هجم أحدهم على صلاح الدين ليقتله ولكنَّهُ قُتل قبل أن يصل إليه، ثم قُتل باقي المهاجمين دون أن يتعرض صلاح الدين إلى أي أذى[1]، ليعاود خصومه من الزنكيين المحاولة لاغتياله في ذي القعدة سنة 571هـ/ماي 1176م أثناء محاصرته لقلعة أعزاز وهي من قلاع حلب المهمة[2].

حيث أرسل حكامها إلى سنان شيخ الجبل يطلبون عونه في التخلص من صلاح الدين عدوهم وعدوه، فأرسل إليهم جماعةً تنكرت بالزي العسكري للجند الأيوبي واستطاعت أن تتغلغل داخل المعسكر وانضموا إلى صفوف المقاتلين يتسنحون الفرصة المواتية لتنفيذ مخططهم، فبينما صلاح الدين في خيمة لبعض أمرائه إذ وثب عليه أحدهم فضربه بسكين فجرحه، ولولا أنَّه كان يرتدي المِغفر الزَّرد تحت القلنسوة لقتله، ثمَّ أعاد الباطني توجيه الضربات إلى صلاح الدين حيث جرح في خده وسال دمه ليدركهُ أحد القادة وهو يازكش فعمد إليه وقتله، ثم توالى جماعة النزارية المتنكرين يستهدفون صلاح الدين بخناجرهم غير أنهم قتلوا جميعًا دون أن ينالوا مرادهم[3].

ونظرًا لخطر الاغتيال الغادر الذي بات يتهدد صلاح الدين من طرف النزارية فقد قرر المسير إلى معاقلهم لتحجيم قوتهم ودفع آذاهم، فتمكَّن من السيطرة على أهم قلاعهم ببلاد الشام وهي الكهف[4]

---

[1] ابن الأثير الكامل، 67/10-68، سبط بن الجوزي، 230/21، أبو شامة، الروضتين، 229/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 44/2-45، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 76/6.

[2] ، أبو شامة، الروضتين، 268/2،

[3] ابن الأثير، الكامل، 76/10، أبو شامة، الروضتين، 268/2-269، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص52.

[4] الكهف، تقع بالقرب من القدموس على مسافة سير ساعة، وإلى شمال طرطوس في الطريق المؤدِّي من عكا إلى أنطاكية، كان حاكمها سيف الملك بن عمرون من قبل الصليبيين ولكنَّهُ باعها للإسماعيلية عام 527هـ/1133م، أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص96.

والقدموس[1] والعليقة[2] والرصافة[3]، وعزم على أخذ حصن مصياف منهم وهو أعظم حصونهم ومقر شيخهم راشد الدين سنان؛ ولكنَّهُ استعصى عليه ولم يتمكن من احتلاله حيث رحل عنه بعد أسبوعٍ من الحصار[4].

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى أنَّ سبب الذي دفع صلاح الدين لرفع الحصار عن مصياف هو تدخل خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة وتوسطه بين السلطان صلاح الدين والنزارية من أجل عقد الصلح بينهما وإنهاء حالة الحرب؛ وهذا بطلب من راشد الدين سنان، يقول ابن الأثير[5]:" فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي صاحب حماة، وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم، ويقول له: إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين وأمرائه، فحضر شهاب عند صلاح الدين وشفع فيهم وسأل الصفح عنهم، فأجابه إلى ذلك، وصالحهم، ورحل عنهم"

وعلى ما يبدو فأنَّ صلاح الدين كذلك قد كان بحاجة إلى هذا الصلح – الذي لم يوثق- حتَّى يضمن سلامته الشخصية ويتفرغ لحل خلافاته مع الأمراء الزنكيين في حلب والموصل، فضلاً على الأنباء التي بلغته من ابن المقدم صاحب بعلبك بخصوص مهاجمة الصليبيين لإمارته واصطدامه بهم، فقرر صلاح الدين العودة إلى دمشق وتوفير الجهد والمال والرجال لصد هجمات الصليبيين في حال بادروا بدل البقاء أمام أسوار مصياف[6]، ليستمر ذلك الاتفاق بين سنان شيخ النزارية وصلاح الدين طيلة السبعة عشر عامًا المتبقية من عمرهما أي حتَّى وفاتهما سنة 589هـ/1193م فلم يتعرض أحدهما للآخر[7].

وهكذا ظلت ارتدادات ذلك الصراع المذهبي عند المسلمين تتحكم في مجريات الأحداث مع الطرف الصليبي منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فكما عرقل النزارية الحشاشون

---

(1) القدموس، تقع عل بعد تسعة أميال شمال غرب حصن الخوابي، وجنوب غربي شيزر على مقربةٍ من ثغر بانياس، كانت تابعة لممتلكات بوهيموند صاحب أنطاكية الذي استولى عليها سنة 524هـ/1129م، ثمَّ نصَّب عليها سيف الملك بن عمرون، ولكن في عام 527هـ/1133م اشترى النزارية الحصن من صاحبه سيف الملك، وصعدوا إليه وأخرجوا من كان فيه من المسلمين والصليبيين، أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص92.

(2) العليقة، قلعةٌ على جبل النصيرية، راجع الخريطة (04)، ص300.

(3) الرصافة، تقع غربي الرقة وعلى أقل من مسافة يوم عن الفرات، أنظر، بن مارس، العلاقات الإقليمية، ص163.

(4) فاروق عمر فوزي، قراءات ومراجعات، ص359.

(5) الكامل، 81/10، وأنظر، أبو شامة، الروضتين، 278/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 47/2.

(6) أبو شامة ، الروضتين، 279/2، البنداري، سنا البرق الشامي، ص99-100، برنارد لويس، الحشاشون، ص194.

(7) الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية، ص222.

جهود القادة الأوائل لحركة المقاومة الإسلامية وتعرضوا لهم بالاغتيال لإخلاء الساحة أمام تحقيق مخططاتهم السياسية والمذهبية، فقد حاولوا فعل الأمر ذاته مع صلاح الدين، لتكون هذه الطائفة من أكبر مثبطات مساعي رد الصليبيين على ديار الإسلام وإزالة كياناتهم التي أسسوا عقب حملتهم الأولى سنة 490هـ/1096م.

3- نصر حطين واسترداد بيت المقدس ثمار جهود الوحدة:

حققت جبهة المقاومة الإسلامية خلال عهد عماد الدين زنكي (521هـ-541هـ/1127م-1146م) عدَّة انتصارات على الوجود الصليبي في المشرق، عكست جهود الوحدة التي رسم معالمها هذا القائد انطلاقا من بلاد الجزيرة وشمال الشام، مستفيدًا في ذلك من تجارب الفشل التي عايشها مع من سبقوه في ميدان المقاومة ككربوغا وجكرمش ومودود وغيرهم، حيث كان الانقسام والتشتت السياسي والمذهبي سمة الوضع الداخلي حينها، ولعلَّ استعادة مدينة الرها من الصليبيين سنة 539هـ/1144م[1] تعدُّ أهم نتائج تلك الجهود التي سعى في تحقيقها عماد الدين زنكي.

وأمَّا على عهد سلفه وابنه نورالدين محمود (541هـ-569هـ/1146م-1174م) فقد تعززت جهود الوحدة لجبهة المقاومة الإسلامية بالتوسع في الجنوب الشامي وضم عاصمتها دمشق إلى نفوذه سنة 549هـ/1154م[2]، مع العمل على ربط الجبهة روحيًا بالخلافة السنية في بغداد من خلال إجراءات تغليب كفة التسنن على التشيع الإمامي والإسماعيلي بأهم مدن الشام حلب ودمشق لتكون أكثر تماسكًا وفعالية.

فكان على إثرها امتداد الجبهة على خطٍّ موازي لما تبقى من الإمارات الصليبية ونقصد بها أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس، فحصرت في الساحل الشامي وفقدت بالمعنى العسكري والاستراتيجي أي مجال للالتفاف حول جبهة نورالدين وصارت في موقف المدافع أكثر منها في موقع المهاجم[3].

---

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص279، ابن الأثير، 331/9، ابن العديم، زبدة حلب، 277/2-279، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 94/3، ابن واصل، مفرج الكروب، 93/1-94، أبو الفدا، المختصر، 18/3، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 2/ 606.

[2] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص328-329، ابن الأثير، الكامل، 398/9، ابن واصل، مفرج الكروب، 125/1-126، أبو الفدا، المختصر، 26/3.

[3] راجع حول أهمية ما حققه نورالدين في عهده بالمعنى العسكري والاستراتيجي في حربه ضد الصليبيين، كمال بن مارس، الظهير الشامي عصر الحروب الصليبية.

ولهذا كان هدف الاستيلاء على مصر من أولوية الأولويات بالنسبة للطرف الصليبي وخاصة مملكة بيت المقدس، كما كان ضمها لجبهة المقاومة الإسلامية مبتغى نورالدين كذلك، فكلا الطرفين كانا يدركان أنَّ مصيرهما في ذلك الصراع ستحسمه مصر، لتتوافق طموحاتهما مع ما وصلت إليه الخلافة الفاطمية من ضعف واضطراب.

تمكَّن نورالدين —كما أشرنا قبلاً– بفضل قائدي جيوشه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي وانطلاقًا من مقر حكمه في دمشق القريب من مصر من الانتصار على عموري الأول في سباق التموقع وتملُّكه لمصر سنة 564هـ/1169 ثمَّ إنهاءه للحكم الفاطمي الشيعي بعد ثلاث سنوات من ذلك، لتتعزز وحدة الجبهة الإسلامية المقاومة للوجود الصليبي أكثر فأكثر، فكان لضم مصر الإسلامية وحرمان الصليبيين من الاستفادة من موقعها بمثابة انتصار يضاهي نصر استعادة الرها من قبل عماد الدين زنكي، فعدَّت بذلك أبرز الأعمال التي حققها نورالدين بفضل جهود الوحدة التي سعى فيها مع إقليم الشام الجنوبي.

وأمَّا صلاح الدين فقد كان من إدراكه العميق لأهمية وحدة الجبهة الإسلامية بين أقاليمها الثلاث (الجزيرة وبلاد الشام ومصر) في تحقيق أي انتصار على الصليبيين، أن استهلك أكثر عن عقدٍ من الزمن لإعادة ترتيب البيت بعد تصدُّعه نتيجة الأنانيات التي طغت على أمراء ورجالات الدولة الزنكية في بلاد الشام والجزيرة بعد وفاة زعيمها نورالدين محمود سنة 569هـ/1174م، ورغبة كل منهم في الاستئثار بالسلطة، وهو ما كان سيعيد جبهة المقاومة إلى نقطة الصفر، أي إلى ما قبل حكم عماد الدين زنكي.

وباستهلال العقد الثامن من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي شرع صلاح الدين بعد تحقيقه الاستقرار لجبهة المقاومة وضمان وحدتها في قطف أينع ثمار تلك الجهود — أي جهود الوحدة السياسية والمذهبية —، فحقق في ربيع الثاني من عام 583هـ/جويلية 1187م نصرًا مظفرًا على الصليبيين في موقعة حطين[1] كان له الأثر البالغ في استعادة العديد من المدن في فلسطين التي خضعت للصليبيين قبل أزيد من ثماني عقود، لتتوج تلك الانتصارات باسترداد مملكة بيت المقدس في رجب من نفس السنة.

---

[1] حطين، قريةٌ بين أرسوف وقيسارية، وقيل بين طبرية وعكَّا، بالقرب منها قريةٌ يقال لها حيارة بها قبر سيدنا شعيب عليه السلام، أوقع صلاح الدين فيها بالإفرنج وقعةً عظيمة منكرة سنة 583هـ/1187م، كان سببا في افتتاحه للساحل، ياقوت، معجم البلدان، 2/273-274، وحول نصر حطين راجع، العماد الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص295-299، ابن الأثير، الكامل، 10/146-148، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص126-128، أبو شامة، الروضتين، 3/177-178،

ولأنَّ التفصيل في مقدِّمات هذا النصر (نصر حطين) يطول[1]، وهو في الأساس ليس من اختصاص هذا البحث، فإننا سنتناوله كنتيجة لجهود الوحدة التي عمل صلاح الدين جاهدًا على تثبيتها روحيًا وسياسيًا، من خلال تعزيز الحضور السني في مصر وبلاد الشام بمختلف الإجراءات وتغليبه كفكر وعقيدة، ليجتمع المسلمون على سلطة خليفة واحد كما هم مجتمعون على سلطة قائد عسكري واحد (نورالدين ثم صلاح الدين)، إضافةً إلى اهتمامه بأمر الشام والجزيرة طيلة عقد من الزمن (570هـ-579هـ/1174م- 1183م) لإعادة الاستقرار لجبهته قبل الشروع في المواجهة الحاسمة مع الصليبيين.

عرفت السنوات الأربع التي سبقت موقعة حطين أي بين 579هـ- 583هـ/1183م-1187م، وقائع مهمة على المستوى الداخلي للجبهة الإسلامية وأخرى على مستوى الجانب الصليبي، جعلت ميزان القوى في ذلك الصراع يميل على قدرٍ كبير لكفة صلاح الدين وجبهته المتحدة، بعدما كان قبل سنوات قليلة متوازنًا إلى حدٍّ ما نتيجة اشتغال كل طرف بمشاكله الداخلية[2].

فعلى المستوى الداخلي استقر في صفر من سنة 579هـ/جوان 1183م أمر حلب لصلاح الدين بعد جهود مضنية قضاها في سبيل ضمها لنفوذه[3] من أصحابها الملك الصالح إسماعيل (ت577هـ/1181م) ثم ابني عم هذا الأخير عزالدين مسعود (صاحب الموصل) وعماد الدين زنكي

---

[1] لتفاصيل أكثر حول أحداث نصر حطين واسترداد بيت المقدس راجع من مصادر الفترة، كالعماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص80-84. ابن الأثير، الكامل، 146/10-148، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص126- 128، أبو شامة، الروضتين، 177/3-178، ابن واصل، مفرج الكروب، 188/2-183، البنداري، سنا البرق الشامي، ص291-309، ومن المراجع، أحمد الشامي، صلاح الدين والصليبيين، ص124- 129، عبد الله سعيد محمد الغامدي، استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين، وهي عبارة عن بحث مقدَّم لنيل درجة الماجيستير، فصَّل فيه الباحث بشكل دقيق ومدعم بعديد المصادر هذه الوقعة وهذا النصر.
المقريزي، السلوك، 207/1-208.

[2] فبالنسبة للجبهة الإسلامية كنا قد عرضنا للعقبات الداخلية التي واجهت حكم صلاح الدين وأعاقته على استئناف حركة المقاومة ضد الصليبيين بعزم وجدية، وأمَّا على مستوى الجبهة الصليبية فهي الأخرى كانت تعاني من اضطرابات، تجلَّت في انهيار ذلك التحالف بين الصليبيين والبيزنطيين، كما أنَّ العلاقات بين الأمراء الصليبيين قد ساءت خاصةً بعد وفاة ملك بيت المقدس عموري الأول (أملريك) واختلافهم في تولية خليفة له، أنظر، أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، دار النهضة العربية، ترجمة، السيد الباز العريني، بيروت، د ت، ص80-82.

[3] ابن شاهنشاه الأيوبي محمد بن تقي الدين عمر (ت617هـ)، **مضمار الحقائق وسر الخلائق**، تح، حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، ص 144، ابن الأثير، الكامل، 121/10، أبو شامة، الروضتين، 103/3-104، ابن واصل، مفرج الكروب، 141/2.

الثاني أبناء مودود بن عماد الدين زنكي[1]، فترتب على هذا العمل أن صارت مقاليد الشام كلِّها بيد صلاح الدين، واتسعت رقعة دولته بحيث شملت البلاد من دجلة إلى النيل وشواطئ أفريقيا الشمالية حتَّى طرابلس، فضلاً عن النوبة واليمن والحجاز.

وبالنسبة للصليبيين فإنَّ هذا الحدث قد أقض مضاجعهم، ووجدوا فيه ضربة خطيرة وُجهت لكياناتهم، بفضل تعاظم قوة صلاح الدين العسكرية التي صارت ممتدة بين مصر والشام في تناغم وانسجام، وغدت أملاك الصليبيين بالشام حينها محصورة داخل هذا المحور، وهم الذين ظلوا يعوِّلون على ديمومة الخلافات بين صلاح الدين بمصر وأفراد الأسرة الزنكية بالشام، واستغلالها في تحييد أي عمل مشترك بين الإقليمين يهدد وجودهم[2].

ومن الأدلة على أهمية ضم حلب لسلطان صلاح الدين ما فرضه هذا الأخير من شروط على عماد الدين زنكي الثاني بعد قبوله تسليم حلب مقابل سنجار، فوافق صلاح الدين وزاده على طلبه الخابور والرقة ونصيبين وسروج، وطلب أن تكون جيوش هذه المناطق تحت تصرفه إن هو أراد غزو الصليبيين[3]، ليضمن بذلك صلاح الدين خزانًا بشريًا يعوِّل عليه في المرحلة القادمة من الصراع.

وهنا لابدَّ من وقفة عند أسلوب صلاح الدين في مفاوضة حكام الأقاليم من أفراد البيت الزنكي وأعوانهم، حيث يتضح بما توصَّل إليه مع عماد الدين زنكي الثاني من اتفاق وبعد ذلك مع حكام الموصل

---

[1] حرص الملك الصالح إسماعيل بن نورالدين زنكي صاحب حلب بعدما اشتد به المرض إلى أن يعهد بالملك بعده لابن عمِّه عزالدين مسعود بن قطب الدين مودود حاكم الموصل رغم أنَّ خواصه أشاروا عليه بأخ عزالدين مسعود وصهره عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار، وممَّا قاله لهم أنَّ صلاح الدين صار له نفوذٌ كبير في بلاد الشام، وأنَّهُ لم يبق له من المدن سوى حلب نفسها، وإذا سلمت إلى عماد الدين لم يستطع حفظها من صلاح الدين، ومتى استولى عليها صلاح الدين فلن يبقى للبيت الزنكي مقامٌ هناك، وأنَّ من الأحسن تسليمها إلى عزالدين مسعود صاحب الموصل لكثرة عساكره وبلاده وأمواله، وعندما توفي الملك الصالح إسماعيل بن نورالدين محمود في رجب من سنة 577/ديسمبر 1181م سار عزالدين مسعود بن سيف الدين غازي إلى حلب فتسلمها ودخل قلعتها، ولكنَّ بقاءه بها لم يطل فتنازل عنها لأخيه عماد الدين زنكي الثاني بعد عدَّة أشهر، لتؤول في النهاية لحكم صلاح الدين سنة 579هـ/1186م، أنظر، ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق، ص59-60، ابن الأثير، الكامل، 106/10-107، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص99-100، ابن العديم، زبدة الحلب، 45/3، أبو شامة، الروضتين، 52/3، عزالدين ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج3، ق1، ص177، ابن واصل، مفرج الكروب، 106/2-109.

[2] أنظر، الملحق رقم (06)، خريطة توضح مناطق الخاضعة لنفوذ صلاح الدين في مقابل الإمارات الصليبية المتبقية في الشام إلى غاية تاريخ 579هـ، ص 302.

[3] ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق، ص142-143، ابن الأثير، الكامل، 121/10-122، أبو شامة، الروضتين،104-105.

سنة 582هـ/1186م[1]، بأنَّهُ لم يكن يسعى للتوسع بغية إقامة دولة مترامية الأطراف، وإنَّما هدف إلى توحيد الصف الإسلامي لكي يقف الجميع في مواجهة خطر الصليبيين، ولعلَّ في الرسالة التي بعث بها إلى ملوك الأطراف عند ألبيرة سنة 578هـ/1182م أبرز الأدلة على هذا النهج، تقول الرسالة:" من جاء مستسلمًا سلمت بلاده، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه، ومساعديه على جهاد الكفرة"[2].

لم يتبق أمام صلاح الدين من المدن المهمة في مشروع إعادة الاعتبار لجبهة المقاومة بعد إخضاع دمشق وحلب سوى مدينة الموصل بإقليم الجزيرة، رمز المقاومة ونواتها الأولى التي خطَّ منها عماد الدين زنكي مساره في تحقيق الوحدة الإسلامية ومقارعة الوجود الصليبي بالمنطقة، فكان ضمها ضرورة ملحة لدى صلاح الدين لكسب المزيد من نقاط القوة في صراعه مع الصليبيين، من خلال استغلال إمكانيتها لهذا الشأن[3].

سار صلاح الدين باتجاه الموصل في ربيع الأول من سنة 581هـ/جوان 1185م عازمًا على إخضاعها، ولكنَّهُ قبل ذلك سعى لضمان موافقة الخليفة العباسي بأن يمنحه تقليدًا يخوله الاستيلاء عليها لإضفاء نوع من الشرعية على توسعاته على حساب أملاك الزنكيين، فبعث إليه يخبرهُ بما عزم عليه من منازلة الموصل وأنَّ هناك أسبابًا تجبره على ذلك، منها أنَّ أهل الموصل يخطبون لسلطان العجم، وينقشون النقود باسمه، كما أنَّهم يراسلون الصليبيين ويحرِّضونهم على مهاجمة بلاد الإسلام، وأنَّهُ لا يقصد بذلك الطمع في الملك أو التخلص من البيت الزنكي، وإنَّما قصد ردِّهم لطاعة الخليفة ونصرة الإسلام، وقطعهم عن مواصلة العجم[4].

وبعد سلسلة من الأحداث جرت وقائعها في إقليم الجزيرة بين سنتي 581هـ- 582هـ/1185م-1186م، حقق صلاح الدين خلالها العديد من المكاسب للجبهة الإسلامية حيث خضعت له كلٌّ من خلاط في ربيع الثاني 581هـ/1185م وميافارقين[5] في جمادى الأولى من نفس السنة وكان ذلك

---

(1) هاملتون، صلاح الدين، ص141.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، 117/2.

(3) هاملتون، صلاح الدين، ص137-138.

(4) ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق، ص214، ابن واصل، مفرج الكروب، 166/2.

(5) ميافارقين، من أشهر مدن ديار بكر ببلاد الجزيرة، قالوا سميت باسم ميابنت لأنها أول من بناها، وفارقين هو الخلاف بالفارسية يقال له بارجين لأنها كانت أحسنت خندقها فسميت بذلك، ياقوت معجم البلدان، 236/5.

صُلحًا[1]، فوقع لصلاح الدين التمكين في أغلب بلاد الجزيرة وضاق الخناق أكثر على الموصل عاصمة الإقليم والمستهدف الأول في حركة التوسع.

والأهم في تلك الانتصارات ما نالهُ صلاح الدين من تشريف من قبل الخليفة العباسي زاد مركزه قوة وصار كل عملٍ يقوم به مصبوغًا بصبغةٍ شرعية، فيقول عن ذلك العماد الأصفهاني نقله أبو شامة[2]:" فكتب إلى الخليفة يطلبُ منهُ كتاب تقليدٍ ببلاد الأرمن وديار بكر والموصل، فجاءه بعد فتح ميافارقين مثال شريف بتقليده النَّظر في ديار بكر، والنظر في مصالح أيتام ملوكها".

عاود صلاح الدين بعد ذلك محاصرة الموصل[3] في شعبان من سنة 581هـ/نوفمبر 1185م، وهنا على ما يبدو أنَّ صاحبها عزالدين مسعود قد يأس من قدرته على حفظها أمام عزم صلاح الدين في ضمها لنفوذه، خاصةً بعد فشله في الحصول على النجدة من الخليفة العباسي وأمراء الصليبيين المتحالف معهم؛ وقد كان مؤخنا ابن شداد رسول مسعود إلى الخليفة العباسي في بغداد[4].

وعلى الأرجح فإنَّ صلاح الدين لم يكن يريد إراقة الدماء في سعيه لضم الموصل ومدن الجزيرة إلى سلطانه، وإنَّما هدف إلى استغلال كل طاقات الجبهة الإسلامية في حربه ضد الصليبيين، وهذا لن يتأتى إلاَّ من خلال ضمان ولاء تلك المنطقة له، مع ما يترتب عن ذلك من إبطال المعاهدات التي كان قد أبرمها أفراد البيت الزنكي ومنهم عزالدين مسعود صاحب الموصل مع الإمارات الصليبية في الشام[5].

فحدث وفق ذلك، أي أيس عزالدين مسعود من وصول نجدات تعينه على رد توسعات صلاح الدين وفي المقابل رغبة صلاح الدين في عدم إرهاق الجبهة الإسلامية بالدخول في حرب داخلية، أن ترددت الرسل بين الطرفين لغاية الصلح اختلف المؤرخون فيمن ابتدأ بذلك أولاً، فمنهم من ذكر بأنَّ

---

(1) ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق، ص217، 219-221، ابن الأثير، الكامل، 134/10، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص118، أبو شامة، الروضتين، 149/3-150، ابن خلكان، وفيات، 206/5-207، ابن واصل، مفرج الكروب، 169/2-170،

(2) أبو شامة، الروضتين، 149/3.

(3) يذكر المؤرخون أنَّ صلاح الدين ضرب الحصار على الموصل ثلاث مرات، تقرر في آخرها عقد صلح مع حاكمها عزالدين مسعود على أن تكون ضمن نطاق نفوذه وتشارك بجندها في حروبه ضد الصليبيين، أنظر، ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق، 222-226، ابن الأثير، الكامل، 114/10، 131، 134، ابن شداد بهاء، النوادر السلطانية، ص116، 117-118، أبو شامة، الروضتين، 145/3، 147، 152-153.

(4) النوادر السلطانية، ص119.

(5) عبد الله محمد الغامدي، المرجع السابق، ص89.

صلاح الدين أرسل إلى عماد الدين الثاني صاحب سنجار يطلب وساطته مع حاكم الموصل[1]، في حين يذكر البعض الآخر أنَّ عزالدين مسعود أرسل إلى صلاح الدين نساءً أتابكيات معرِّضات للشفاعة.

ومهما يكن من أمر فقد استقر الصلح بين الطرفين وحلف كلٌّ منهما للآخر، وترتب على ذلك أن أقيمت الخطبة لصلاح الدين بديار بكر، والبلاد الأرتقية، وذلك في ذي الحجة من سنة 581هـ/ مارس 1186م، فحقق بذلك صلاح الدين مكسبًا كبيرًا لجبهة المقاومة الإسلامية يضاف إلى ما حققه في شمال الشام بإخضاع حلب، خاصةً وأنَّ من شروط الاتفاق التي تمَّ بها الصلح مع المواصلة أن تكون عساكرهم في خدمة جبهة المقاومة ضد الصليبيين[2].

وأمَّا عن الجانب الصليبي الطرف الثاني في معادلة الصراع، فإنَّ أوضاعهم كانت تسير في نحوٍ يخدم أهداف الجبهة الإسلامية بقيادة صلاح الدين، ففي الوقت الذي كان فيه هذا الأخير يستعد في مصر وبلاد الشام سياسيًا وعسكريًا للمعركة الكبرى الفاصلة بينه وبين الصليبيين[3]، حدث وأن احتدم الخلاف بين بلدوين الرابع (1174م-1186م/569هـ- 580هـ)[4] ملك بيت المقدس وزوج أخته الكبرى سيبيلا (سيبل) وهو جاي لوزيجنان (1186م- 1190م/580هـ – 584هـ)، وقد باءت كل محاولات الصلح بين الطرفين بالفشل، ممَّا جعل المملكة المقدَّسة في وضعٍ غير مستقر[5].

ازدادت حدَّة الانقسام والخلاف بين الصليبيين بعد وفاة الملك بلدوين الخامس في سنة 582هـ/1186م، حيث تفجَّر الصراع بين المناصرين للملكة سيبيلا (سيبل) وزوجها جاي لوزيجنان من ناحية، وريموند كونت طرابلس الذي كان وصيًا على الملك بلدوين الخامس- عُيِّنَ كذلك عند تولية بلدوين

[1] أبو شامة، الروضتين، 151/3-153، ابن واصل، مفرج الكروب، 171/2.

[2] جاء ذكر هذا الشرط على لسان العماد الأصفهاني الذي كتب بأمرٍ من صلاح الدين كتابًا إلى أخيه سيف الإسلام باليمن لشرح الحال لما عقد الصلح وفيه:" ونزل لنا صاحب الموصل عن جميع ما وراء الزاب من البلاد والقلاع والحصون والضياع وشهرزور ومعاقلها وأعمالها وولاية بني قفجاق، وولاية القرابلي والبوازيج وعانة، وقررنا عليه الموصل وأعمالها على أنَّهُ يكون بحكمنا، وينفذ عسكره إلى خدمتنا، وتكون الخطبة والسكَّة باسمنا..."، أبي شامة، الروضتين، 152/3-153.

[3] عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 54/2

[4] خلف بلدوين الرابع الملقب بالأبرص والده أملريك (عموري الأول)، وكان لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، كان مصابًا بالبرص وعرف في كتب التاريخ بالملك المجذوم، كانت عمره عند وفاته أربعة وعشرون سنة.

[5] رنسيمان، تاريخ، 709/2-710.

الرابع الحكم وعمره ثلاثة عشرة سنة- من ناحية ثانية، وهو الصراع الذي انتهى لصالح أخت الملك وزوجها.

وعلى أية حال فإنَّ صلاح الدين ورغم اشتغاله لأزيد من عقد وأربع سنوات (569هـ-583هـ/1174م- 1187م) في سبيل إعادة ترميم الجبهة الإسلامية التي تعرضت للكثير من العقبات سواء في عاصمة حكمه مصر أو في بلاد الشام والجزيرة، إلاَّ أنَّ ذلك لم يثنه عن القيام بواجبه في تخليص أراضي المسلمين من السيطرة الصليبية خلال تلك الفترة، كمَّا ويمكننا القول: بأن أحداث تلك السنوات التي قضاها صلاح الدين في سبيل إعادة بناء الجبهة الداخلية الإسلامية كانت عاملاً مهمًا وحاسمًا فيما تبقى من مرحلة الصراع الصليبي- الإسلامي بعد ذلك.

فموازين القوى بين الصليبيين والمسلمين في تلك الفترة كانت متعادلة إلى حدٍ ما، نظرًا لما شهدته كلتا الجبهتين من إضرابات داخلية -كما أشرنا آنفًا- فانعكس ذلك على الصراع بينهما، فتارة يكون النصر للصليبيين كما حدث في موقعة الرملة 573هـ/ 1177م[1]، وتارةً يكون النصر حليف المسلمين كما وقع في معركة بانياس[2]573هـ/ 1177م، الَّتي قتل فيها هنفري، أحد الأمراء الصليبيين الأشداء، وكذا في معركة مرج عيون 575هـ/1179م[3]، وكانت النتيجة في بعضها دون منتصر، كما وقع في ربيع الأول 578هـ/جويلية 1182م، حين التقت القوتين الإسلامية والصليبية على مشارف قلعة كوكب الهوى، أين دارت معركة عنيفة بين الطرفين انتهت دون نتيجة حاسمة لكليهما، وقد عرفت تلك الفترة نوعًا من الهدوء النسبي خلال بعض السنوات سببه ما كان يجري بين صلاح الدين والصليبيين من اتفاقيات هدنة غالبًا ما يتم نقضها من الطرف الصليبي[4].

فحدث في 582هـ/1187م أن نقض الأمير أرناط (رينو دي شاتيون) صاحب إمارة الكرك شرقي البحر الميت الهدنة مع صلاح الدين، وقام بالاستيلاء على قافلة كبيرة كانت متجهة من القاهرة إلى

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 85/10، ابن شداد، النوادر، ص 97، المقريزي، السلوك، 175/1.

[2] بانياس، على طرف الحولة وحدة الجبل، وهي بلدة صغيرة، ذات أشجار محمضات وأنهار، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميل إلى الجنوب والصبيبة اسم لقلعتها، وهي من الحصون المنيعة، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 249، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 160، القلقشندي، صبحي الأعشى، 104/4.

[3] ابن واصل، مفرج الكروب، 73/2- 75.- 77.

[4] ابن الأثير، الكامل، 110/10-111، ابن واصل، مفرج الكروب، 81/2- 82، الحويري، بناء الجبهة الإسلامية، ص 185.

دمشق، ولم يُجب إلى طلب صلاح الدين بإطلاق سراح أسرى القافلة وتقديم تعويضات لهم[1]، فما كان أمام صلاح الدين إلاَّ إعلان القتال ضد الصليبيين، فأرسل إلى القوات الإسلامية في كل من حلب ودمشق والموصل والجزيرة، إضافةً إلى القوات المصرية، فتمكَّنت من إحراز العديد من الانتصارات، كانت أولاها عند صفورية[2] في أواخر صفر 583هـ/ماي1187م، ثم تلتها مدينة طبرية[3] – وكانت صاحبتها إيشف زوجة ريموند الثالث كونت طرابلس– والَّتي سقطت في أيدي القوات الإسلامية في 17 ربيع الثاني 583هـ/26 جوان1187م[4]، لتنذر تلك الانتصارات من الجانب الإسلامي بقرب مواجهة عسكرية ضخمة يشارك فيها من الجانبين غالبية الجيوش.

كان من نتيجة سقوط طبرية دون قلعتها، ووصول أنباء ذلك إلى الصليبيين، أن جهزوا جيوشهم وزحفوا بها لملاقاة القوات الإسلامية، حيث التقى الجمعان عند حطين، وبعد قتال عنيف بين الطرفين انتزع المسلمون فيه النصر على أعدائهم، وكان ذلك يوم السبت 25 من ربيع الثاني 583/ 04 جويلية1187م[5]، وقد قتل وأسر في هذه الموقعة الكثير من الصليبيين حتى أن ابن الأثير[6] يذكر عن نتائجها بقوله: "وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظن أنَّ هناك أسرى ومن عاين الأسرى لا يظن أنَّ هناك قتلى" حتىَّ أنَّه وقع من جملة الأسرى الصليبيين، صاحب الكرك أرناط وملك بيت المقدس جاي دي لوزجنان وأخوه والعديد من الفرسان[7].

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 142/10، أبو شامة، الروضتين، 176/3، ابن واصل، مفرج الكروب، 185/2-186، هاملتون، صلاح الدين، ص141-142، عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين، ص177.

[2] صفورية، كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام، وهي قرب طبرية، ياقوت، معجم البلدان، 414/3.

[3] طبرية، وهي في الغور على ضفة بحيرة لها طولها إثنا عشر ميلاً وعرضها ستة أميال، والجبل من غربي المدينة والبحيرة من شرقيها والجبال تدور بها وكانت طبرية قديما قاعدة الأردن، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 247.

[4] ابن الأثير، الكامل، 145/10-146، ابن واصل، مفرج الكروب، 188/2، الحريري، الإعلام، ص 33، حسن حبشي، المصدر السابق، ص 32.

[5] ابن الأثير، الكامل، 146/10-148 ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 126- 128، أبو شامة، الروضتين، 177/3-178، ابن واصل، مفرج الكروب، 188/2-183، المقريزي، السلوك، 207/1-208.

[6] ابن الأثير، الكامل، 148/10.

[7] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص80، ابن الأثير، الكامل، 148/10، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 128-130، أبو شامة، الروضتين، 178/3، ابن واصل، مفرج الكروب، 193/2-194، المقريزي، السلوك، 207/1-208.

لا شك في أن موقعة حطين كانت نقطة تحول هامة في تاريخ الصراع الإسلامي- الصليبي، فبانتصار المسلمين فيها، صارت المدن الصليبية كلها مفتوحة أمام صلاح الدين وقواته، نظرًا لفقدان الطرف الصليبي فرسانه ومقاتليه، ممَّا جعل مدنه خاليةً ممن يدافعون عنها[1]، فكان لانتصار حطين في مستهل 583هـ/ 1187م بداية لانتصارات عديدة خلال هذه العام، تمكَّن خلالها صلاح الدين من فتح الكثير من المدن الساحلية والقلاع المهمة[2]، أثمرت في النهاية على استرداد المدينة المقدسة من الصليبيين بعد إحدى وتسعين سنة من تملُّكها خلال الحملة الصليبية الأولى 491هـ/ 1099م.

فقد هدى تفكير صلاح الدين إلى توجيه جهود المقاومة صوب المدن الساحلية بغية استردادها، لأهمية ذلك في تضيق دائرة الحصار الإسلامي على الساحل الشامي الواقع تحت السيطرة الصليبية، فكان قبل ذلك قد توجه صوب قلعة طبرية التي استلمها من صاحبتها الكونتسية، حيث طلبت الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها مقابل تسليمها له، فأجابها صلاح الدين إلى ذلك[3]، ثُمَّ توجه بعد ذلك لإخضاع مدن الساحل ففتح منها عكَّا والناصرة وقيسارية[4] وحيفا ليأخذ بعدها الطريق نحو الداخل حيث تمكَّن من استرداد صفورية ومعليا[5] والفولة[6] وسبسطية[7] ونابلس، ولم يواجه صلاح الدين أية صعوبات تذكر في استيلائه على تلك الجهة نظرا لخلوها من المدافعين عنها، حيث كان غالبية الجيش الميداني الصليبي قد قضي عليه في حطين[8].

إن اشتغال صلاح الدين بإخضاع الساحل الشامي لم ينسيه ضرورة السيطرة على المدن والحصون الواقعة في داخل البلاد الصليبية، فقد كان يوجِّهُ أخاه الملك العادل وابن أخيه عمر تقي الدين للاستيلاء

---

[1] أحمد الشامي، صلاح الدين، ص132.

[2] ابن الأثير، الكامل، 149/10-160.

[3] ابن الأثير، الكامل، 149/10، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 131، ابن واصل، مفرج الكروب، 195/2.

[4] قيسارية، بلد على ساحل بحر الشام، تعدُّ من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، كانت قديمًا من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كثيرة الخير والأهل، ياقوت، معجم البلدان، 421/4.

[5] معليا، من نواحي الأردن بالشام، ياقوت، معجم البلدان، 158/5.

[6] الفولة، بلدة بقلسطين من نواحي الشام، ياقوت، معجم البلدان، 280/4.

[7] سبسطية، هي بلدة من نواحي فلسطين، بينها وبين بيت المقدس يومان وبها قبر زكرياء ويحيى بن زكرياء عليهما السلام، وهي من أعمال نابلس، ياقوت، معجم البلدان، 184/3.

[8] ابن الأثير، الكامل، 144/10-150، ابن شداد، النوادر السلطانية، 132، ابن واصل، مفرج الكروب، 201/2-202.

عليها، حيث نجح في ضم تبنين[1] ومجدل يابا، كما واصل مسيرة إخضاع مدن الساحل فاستولى على يافا وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان[2] وغزة والدَّاروم[3]،.... وغيرها من مدن الجنوب الشامي[4].

وأمام هذه الانتصارات التي حققها صلاح الدين على الصليبيين، باستيلائه على أغلب مدن الساحل الشامي- ماعدا صور وطرابلس وأنطاكية-، صوَّب جهوده لاستعادة بيت المقدس وإرجاعها مدينة إسلامية كما كانت قبل استيلاء الصليبيين عليها، حيث أرسل وهو بعسقلان أوامره إلى الأسطول الإسلامي بمصر للقضاء على أي سفينة صليبية في السواحل الجنوبية، كما زحف هو بقواته إلى بيت المقدس فوصلها في رجب583هـ/ سبتمبر1187م، أين وجد الصليبيين وقد أعدُّوا أنفسهم للحرب، مستفيدين من الفرصة التي أتاحها لهم صلاح الدين بعدم مهاجمة المدينة بعد موقعة حطين، فحصَّنوا المدينة ونصبوا المجانيق على أسوارها، غير أن تصميم صلاح الدين على تملُّكها واستعادتها منهم دفعه إلى الأمر بمهاجمتها من الناحية الشمالية[5]، فدار على إثرها قتال عنيف بين القوتين يصفه لنا ابن الأثير[6] بقوله:" وقوتلوا أشدَّ قتال رآه أحد من النَّاس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينًا وحتمًا واجبًا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا يَنزجرون".

وبعد تلك الجولة من القتال العنيف، أدرك الصليبيون أنَّهم على مشارف الهلاك، فأخلدوا إلى المفاوضة وطلبوا الأمان من صلاح الدين مقابل تسليم المدينة، غير أنَّه رفض العرض قائلا:" لا أفعل إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعة مائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها"[7] فما كان من باليان بارزان صاحب الرملة وطرابلس- وقد كان ببيت المقدس عند حصارها — أن هدد بقتل

---

[1] تبنين، بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور، ياقوت، معجم البلدان، 14/2

[2] عسقلان، بلد بها آثار قديمة على جانب البحر بينها وبين غزة إثنا عشر ميلا، وبينها وبين الرملة ثمانية عشر ميلا، وهي من جملة ثغور الإسلام الشامية، وهيؤ من أجل مدن الساحل، أبوالفدا، تقويم البلدان، ص 239.

[3] الداروم: قلعةُ بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر إلاَّ أنَّ بينهما وبين البحر مقدار فرسخ، ياقوت، معجم البلدان، 424/2.

[4] ابن الأثير، الكامل، 150/10-154، ابن شداد، النوادر السلطانية، 132-133، ابن واصل، مفرج الكروب، 202/2-210، الحريري، الإعلام، ص 35-36.

[5] ألبير شاندور، **صلاح الدين — البطل الأنقى في الإسلام**- تر، سعيد أبو الحسن، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1988م، ص 230.

[6] ابن الأثير، الكامل، 155/10.

[7] ابن الأثير، الكامل، 155/10-156، الحريري، الإعلام، ص 36.

أسرى المسلمين، وحرق المدينة وتخريب قبة الصخرة، وإتلاف ممتلكات الصليبيين وأموالهم، ومواصلة الحرب ضد المسلمين حتى آخر نفس، وحينها استشار صلاح الدين رجاله فأجابوه إلى الأمان والمصالحة وتسلم المدينة دون تخريب[1].

وبهذا استقرت شروط تسليم المدينة بالأمان لصلاح الدين على أن يفتدي الرجل لنفسه مقابل عشرة دنانير، أما المرأة فتفتدي نفسها بخمسة دنانير، وعلى كل ولد أو بنت دينارين[2]، ومنح الجميع مهلة أربعين يوما، فمن أدى الضريبة حينها سمح له بالخروج من المدينة آمنا بماله، ومن لم يؤدها أخذ مملوكًا، كما سمح للرعايا المسيحيين من الشاميين واليونانيين من البقاء في القدس كرعايا.

كان لهذا النصر الذي حققه المسلمون على الصليبيين باسترداد بيت المقدس، من أجلِّ الأعمال التي قام بها قادة المقاومة الإسلامية، إذ تكمن أهمية ذلك في أن الصليبين قد فقدوا أهم إقليم استولوا عليه في حملتهم الصليبية الأولى، مما كان له أثر بالغ على باقي الصليبيين في الإمارات الأخرى، كما وأن هذا النصر كان له وقع جليل في نفوس المسلمين الذين استبشروا له، وأثنوا على صلاح الدين، لما للمدينة المقدسة من مكان في قلوبهم.

إنَّ نصر حطين واسترداد بيت المقدس لم يكونا مجرد حدثين عسكريين كانت فيهما الغلبة للطرف الإسلامي على حساب الطرف الصليبي، لكنَّهما من وجهة معادلة الصراع يُعدَّان بدايةً لمرحلة جديدة انتفت فيها لدى الطرف الإسلامي مسببات الانتكسات التي لطالما عرقلت جهود المقاومة، فوحدة الجبهة الداخلية بشقها الروحي والسياسي منحا صلاح الدين كل مقومات النصر على الأعداء وصارت الجيوش من العراق مرورًا ببلاد الجزيرة إلى الشام ثم مصر مجنَّدة تحت سلطانه وبتأييد ومباركة الخليفة السني في بغداد.

ولسنا هنا ننسب إلى صلاح الدين هذا النصر فحسب رغم مساهمته فيه بشكل مباشر، غير أنَّهُ ومن الإنصاف التأكيد على وجود سلسلة من الجهود سعت وفق استراتيجية مدروسة، قائمة على تعزيز وحدة الجبهة الإسلامية؛ ساهم فيها عديد القادة بقدر الظروف التي عايشوها، كعماد الدين زنكي ونورالدين محمود، اللذان حققا كذلك عديد المكاسب على الصليبيين.

---

[1] ألبير شاندور، المرجع السابق، ص 229- 232.

[2] هكذا عند ابن الأثير وابن واصل، فدية الطفل من الذكور والإناث دينارين، الكامل، 156/10، مفرج الكروب، 234/2، أما ابن شداد، فيذكر أن فدية الطفل دينار واحد، النوادر، ص 82، أنظر كذلك: ألبير شاندور، صلاح الدين، ص 232.

خاتمة

من خلال هذه الدراسة توصلنا إلى عديد النتائج التي يمكن إجمالها في النقاط التالية:

لم يكن الانقسام المذهبي داخل الصف الإسلامي وليد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي (أي عصر الحروب الصليبية)؛ غير أنَّهُ بلغ خلال هذه الفترة مرحلة من التجاذبات بلغت حدًّا من التطرف والغلو نتيجة التطور الذي حصل في نشاط المعارضة الشيعية ضد الحكم السني منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، والذي تمكنت خلاله من تأسيس العديد من القوى السياسية في بلاد الشام ومصر، ممَّا أعانها على مجاراة الخلافة العباسية السنية ومنافستها على منصب "خليفة المسلمين".

فقاد ذلك الوضع – أي بلوغ الطرفين مستوى متوازن من حيث امتلاك وسائل التمكين والقوة– إلى زيادة نشاط التسابق حول فرض الاعتقاد الطائفي بين المفترقين، باستغلال كل الطرق والأساليب الدعوية والثقافية والدبلوماسية والعسكرية التي كانت لها انعكاسات على واقع المسلمين حين استقبالهم للحملة الصليبية الأولى.

شغل الصراع المذهبي بين القوى الإسلامية الحاكمة بالمشرق الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حيزًا كبيرًا في علاقاتها ببعض، بل يمكن القول أنَّ التسابق في فرض الاعتقاد الطائفي والتمكين له كواجب ديني لدى تلك القوى هو من كان متحكِّمًا في طبيعة العلاقات التي كانت تربطها، فالخلافة العباسية السنية في بغداد ومن كان يدور في فلك عقيدتها من قوى سياسية (سلاجقة وزنكيين وأيوبيين...) لم يكونوا ليقبلوا بوجود خليفة ينافسهم المنصب الروحي؛ بل وينكر عليهم ادعاءاتهم بشرعية حكمهم، ويعتبر أن الحكم في الإسلام محصور بنص الهي في علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذريته إلي يوم قيامة الساعة، فكان ذلك عنوانًا واضح لطبيعة العلاقة القائمة مع القوى السياسية الشيعية المتبنية لهذا الاعتقاد.

وهو الموقف ذاته لدى القوى الشيعية في علاقتها بالخلافة العباسية والقوى المتبنية للاعتقاد السني؛ وخاصة الخلافة الفاطمية الإسماعيلية التي خالفت الفرقة الإمامية في اعتقادها بغيبة الإمام الثاني عشر (محمد المهدي المنتظر) واتخذت من نسل إسماعيل بن جعفر الصادق أئمة وخلفاء تنافس بهم إدعاءات الشرعية التي يتبناها خلفاء بني العباس، فكان وجود خليفتين للمسلمين في الزمن أمرٌ في غير صالح وحدة الإسلام، كما لم يكن هذا الأمر من عقيدة الطرفين في شيء، وعليه كان من الطبيعي أن يتنحَّى أحدهما لصالح الآخر ليتجلى

ذلك في طبيعة العلاقات السياسية والعسكرية بين بغداد والقاهرة فضلاً على مساعي كل عاصمة في تأكيد شرعية إمامها اعتقاديًا.

ولعلَّ من تأثيرات الواقع المذهبي المتَّسم بالتطرف لدى القوى الإسلامية خلال القرن 5هـ/11م أن ازدهرت الحركة الفكرية والحضارية ضمن نطاق سباق نصرة العقيدة؛ فسعى الخلفاء الفاطميون منذ استيلائهم على مصر سنة (358هـ/696م) في تشييعها وتغليب الفكر الإسماعيلي بها وبالأقاليم التي توسعت على حسابها؛ من خلال بناء الدور والجوامع (جامع الأزهر وبيت الحكمة) وتشجيع تدريس علوم العقيدة الإسماعيلية وصبغ الحياة العامة من احتفالات ومظاهر بطابع يعكس الفكر الشيعي الاسماعيلي.

كما أخذ السلاجقة – (حماة الخلافة العباسية وعقيدتها السنية) منذ آل إليهم الحكم في بغداد باسم الخلافة العباسية (447هـ/1055م) – على عاتقهم مسؤولية الوقوف في وجه ذلك النشاط الفكري الشيعي الإسماعيلي بحركة فكرية سنية تزعمها وزيرهم البارز نظام الملك (ت485هـ/1092م) فكان أن أسس ما صار يعرف باسمه " المدارس النظامية"، التي اعتنت بتكوين الطلبة والمدرسين وتشجيع تدريس العقيدة والفقه والعلوم والفكر على منهج أهل السنة والجماعة لمجابهة الفكر والعقيدة المخالفة.

ولم يقتصر هذا الأمر على القوى الكبرى الممثلة للمفترقين من المسلمين (عباسيين وسلاجقة مقابل الفاطميين) فحسب؛ فحتَّى الدويلات والإمارات التي حكمت في المنطقة بين القرنين الرابع والسادس الهجريين/العاشر والثاني عشر الميلاديين كالحمدانيين والمرداسيين والعقيليين وبنو عمار عن الطرف الشيعي والزنكيين والأيوبيين عن الطرف السني، قد انضمت لمسعى التمكين الحضاري وفق منطق المذهب والعقيدة المغلقة، فلمسنا ذلك في الازدهار العلمي الشيعي الذي بلغته حاضرة طرابلس على عهد حكم بنو عمار لها (462هـ- 502هـ/) كما لمسنا ذلك أيضًا في جهود كل من نورالدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي في نصرة العقيدة والفكر السنيين.

ولعلَّ أبرز ما أجابنا على تساؤلاتنا بشأن أثر ذلك الواقع المذهبي المشحون بالمشرق الإسلامي على المسلمين وديارهم وحضارتهم؛ طبيعة ردود الفعل الأولية للقوى الحاكمة في العراق والجزيرة وبلاد الشام ومصر اتجاه الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكذلك لنتائج جهود المقاومة التي بادر بها عديد القادة انطلاقًا من مقار حكمهم بعد أن صار الوجود الصليبي أمرًا واقعًا.

فرأينا كيف ساهم الصراع بين السلاجقة السنيين والفاطميين الشيعة الإسماعيلية على مناطق النفوذ في بلاد الشام في إطار الأحقية في حكم المسلمين على ضياع كل من أنطاكية وبيت المقدس لصالح الطرف الصليبي، كما ولمسنا ذلك في سقوط طرابلس حين تخلّت عنها كل من بغداد والقاهرة وعدم تقديمهم المساعدة اللازمة لرد المحاصرين لها طيلة سبع سنوات كاملة، لعدم خضوعها لحكم إحدى العاصمتين المدّعيتين الشرعية في خلافة ديار الإسلام.

كما ودلّت النتائج المحققة لدى الطرف الصليبي في حملتهم الأولى أنَّ حدَّة الفرقة والانقسام بين القوى الإسلامية الحاكمة في المنطقة أعمق من أن يكون سببها سياسي فقط، وهو التحليل الذي دأب على إعطاءه الكثير من المؤرخين أو التركيز عليه – إنَّ صحَّ القول- لتبيان عوامل ضعف الجبهة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي، غير أنَّ دراستنا هذه تعطينا صورةً أعمق لمسببات الوهن الإسلامي والمتمثلة في التطاحن المذهبي بين القوى الحاكمة في المنطقة التي استهدفتها حملات الصليبيين قبل مجيئهم ثمَّ في ظل تواجد كياناتهم.

ولعلَّ أبرز ما جسَّد تلك الصورة نشاط الطائفة الإسماعيلية النزارية عصر الحروب الصليبية، فقد قاد التعصُّب المذهبي لأنصارها بغية التمكين لاعتقادها في أحقيقة إمامهم نزار بن المستنصر بالله الفاطمي في خلافة المسلمين إلى استهداف الشخصيات السنية البارزة من حكام سياسيين وفقهاء وقادة عسكريين بالاغتيال، فأضعفت تلك المواقف المتطرفة من جهود نشاط المقاومة ضد الطرف الصليبي بل ومنحت الصليبيين الكثير من الفرص التي استغلوها في تثبيت أقدامهم.

ورغم كل ما طبع العلاقات الإسلامية - الإسلامية من فرقة وانقسام بسبب الخلاف المذهبي وحدَّة التطرف في تبني العقيدة ممَّا أسهم في قدرة الصليبيين على تحقيق مخططاتهم، إلاَّ أنَّ إمكانية تجاوز الأطراف الإسلامية الحاكمة عصر الحروب الصليبية للاحتقان المذهبي المستحكم وقتها والذي كان من أهم عوامل الانتكاسات في الصراع الإسلامي – الصليبي كان ممكن إلى حدٍّ ما؛ سواءً من قبل القوى السياسية أو الشخصيات ذات التأثير في أحداث المرحلة، حيث منحت صور التعاضد بين الوزير الفاطمي القوي الأفضل بن بدر الجمالي مع حكام دمشق السنيين عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس 492هـ/1098م أملاً في التئام الصف الإسلامي ضمن جبهة واحدة تواجه العدوان الصليبي وتسدُّ ثغرةً لطالما نفذ منها الأعداء لتحقيق مخططاتهم في المنطقة.

وفي السياق ذاته أعطت صورة القاضي الامامي ابن الخشاب بوقوفه مع شخصيات سنية دفاعًا على حلب من السقوط في أيدي الصليبيين سنتي 513هـ/1119م و518هـ/1125م، مثالاً آخر على قدرة الأطراف الإسلامية على ترتيب أولويات المرحلة بتركيز الجهود حول رد الأعداء وثنيهم على تحقيق المزيد من المكاسب، ولكن ظلت تلك المحاولات مبادرات فردية من شخصيات قيادية وشملت أجزاء محدودة من إقليم جبهة المقاومة الإسلامية، ولم تعكس توجه عام من المعنيين مباشرةً بذلك الصراع المذهبي المحموم والمقصود هنا حكام بغداد والقاهرة.

لقد برهن الزنكيون (عماد الدين ونجله نورالدين محمود) بعدما صار إليهم حكم المنطقة؛ على مدى استيعابهم لموازين القوى في الصراع الإسلامي– الصليبي، وأدركوا بأنَّ الصليبيين رغم قوتهم لم يكونوا ليحققوا ما حققوه لولا ضعف الجبهة الداخلية وتشرذمها نتيجة الصراع المذهبي بين القوى الإسلامية وسعي كل طرف للتمكين لمذهبه بشتى الوسائل والطرق، فبنو لأجل ذلك إستراتيجيتهم في مقاومة الوجود الصليبي بالمشرق الإسلامي على تعزيز عناصر الوحدة للجبهة الداخلية سياسيًا وعقائديًا.

إذ وعلى الرغم من أنَّ طابع الصراع مع الصليبيين عسكري في ظاهره إلاَّ أنَّ اهتمام آل زنكي وبخاصة القائد نورالدين محمود بضرورة تحقيق الوحدة المذهبية للجبهة الإسلامية الداخلية بالموازاة مع الوحدة السياسية ضمن إستراتيجيتهم في مقاومة الصليبيين لهو من الدلائل على أثر الواقع المذهبي المتسم بالصراع والتطرف لدى الطرف الإسلامي على التمكين للصليبيين من تحقيق مخططاتهم في المنطقة، كما ودلَّ هذا الواقع كذلك على أسباب محدودية الجهود التي بذلها القادة السابقون للزنكيين في الجهاد ضد الصليبيين ككربوغا وجكرمش ومودود بن التنكين وجناح الدولة صاحب حمص وطغتكين اتابك دمشق وغيرهم.

فالناظر إلى الجهود المبذولة والوقت المستهلك والاهتمام البالغ في سبيل إنهاء ظاهرة الانقسام المذهبي داخل الصف الإسلامي من طرف نورالدين زنكي في بلاد الشام وصلاح الدين في مصر؛ سيرى مدى الأثر الذي أحدثهُ ذلك الواقع لدى المسلمين في إضعاف مساعي رد الصليبيين على تحقيق مخططاتهم في المنطقة، كما وأنَّ المتمعن فيما حققته الجبهة الداخلية على الطرف الصليبي بعد نجاح جهود الوحدة السياسية والمذهبية على العهد الزنكي والأيوبي سيدرك أهمية تلك المرحلة على خط سير نشاط المقاومة والمقصود بها هنا مرحلة الإعداد وتوفير عوامل القوة لجبهة المقاومة الإسلامية وضمان وحدة القرار الروحي والعسكري قبل توجيه الجهود لمواجهة العدو.

الملاحق

الملحق رقم 01:

عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي إلى أبي الحارث أرسلان البساسيري، كتبه في صفر عام 448هـ/1056م، وقد قرأه عليه داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في مدينة الرحبة حين التقى به فيها[1]:

" من عبد الله ووليه معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى صاحب الجيش، سلام عليك، فإنَّ أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلاَّ هو، ويسأل أن يُصلَّى على جدِّه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين وسلم تسليما (أمَّا بعد) فالحمد لله الذي حبنا ذوي قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومٍ يبتغون بمحبتنا إليه القربى، ويؤتون بها أجر رسالته ليوفيهم الله أجورهم ويزيدهم من فضله في العقبى، منتهين إلى أمره، سبحانه إذا قال: "قل لا أسألكم عليه أجرًا إلاَّ المودَّة في القربى"[1] فهم الواصلون بسبب ونسب لا ينقطعان أسبابًا وأنسابًا، المتخذون جناب المتقين في جنات عدن جنانا "إنَّ للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا"[2]، يحمده أمير المؤمنين أن جعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، ونفذ في أقاصي البلاد مجردةً بولائها عليهم ويسأله أن يصلي على محمد جده خير علم للنجاة أقامه الله تعالى لهداية المهتدين، وقطع بسيفه دابر الظالمين المعتدين، وعلى وصية علي بن أبي طالب وزيره في مغيبه ومحضره، ونكاس الفوارس في بدره وخيبره، الناطق بالحكم على منبره، وعلى الأئمة من ذريته العالمين العابدين ذرية المناجي بقوله:" وتوكَّل على العزيز الرحيم، الذي يراك حين تقوم، وتقلُّبك في الساجدين"[3].

ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره في ديار العراق، والمبرزين بفصيلة السبق على أوليائه في فضاء الآفاق، المشمرين عن ساق الجد فيما يجعل عرصاتها يغيض عدله مشرقة بالنجم السعود، ويعيد أعواد منابرها، بذكر آل الرسول صلى الله عليه وسلم ناضرة العود، مغسولةً درجها من وطئ أقدام الأنجاس بماء الإيمان، مقصورةً فروقها على الثناء منها على أهل العدل والإحسان، - أي أمير المؤمنين – وبالله توفيقه- أن يطوقك طوق ولاية رجالها، ويقيم على رأسك لمزية التقدمة راية جمالها، وينوط بك

---

(1) الشيرازي، سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص122-124.

(1) الآية 23 سورة الشورى

(2) الآيات 31، 32، 33، سورة النبأ

(3) الآيات 217، 218، 219، سورة الشعراء

أمورها كلها، ويكل إليك عقدها وحلَّها، وهو يوصيك بتقوى الله التي بها يفوز المرء في مآبه، وبجنتها يحتمي من أليم عذابه، والنظر إلى الدنيا بالعين التي بها نظر أولياء الله الذين هم في جناته يتنافسون، تشبيهًا لها بالجيفة المؤذية – روائحها والكلاب عليها يتكابسون، فاجمع نفسك تحفظا من ضررها، وشمر ثوبك تصونا من وضرها، واتخذ من شريعة جدنا محمد صلى الله عليه وسلم عوذة تعيذك من شرها، وفلكًا تمتنع من ركوبها من الغرق في بحرها، والصلاة الصلاة فكن في إقامة فرائضها وسننها جاهدا، وللشيطان في الوفاء بحقوقها مجاهدًا، قال النبي صلى الله عليه وسلم " أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجدا"، واعلم أنَّ شريعة الإسلام هي سلم إلى دار السلام، مراقبها أركانها فالزم المراقي، تنج من هول المطلع إذا بلغت النفوس التراقي واجتنب ضلة المحارم، وعقلة المظالم...

هذا عهد أمير المؤمنين إليك بولاية الرجال بشيرًا بين يدي ما يتلوه عندما يأذن الله سبحانه به من فتح الأعمال، ودليلاً على نصر من الله جلَّ جلاله تجردًا لحسامه، وعنوانًا لكتاب من يد اصطناع وليه تفض ختامه، تأذن به إليك عاجلاً، وأرسلهُ ظلاً من سماء أنعامه يتبعه وابلا إلى أن يأتيك من تقليده ما تلقى به إليك المساعد تقليدها وتصدق معه لك الأماني مواعيدها، فالمدرج به إلى ذروة المجد أمكن مكانا، وأثبت أركانًا وأقوى أساسًا، وأزكى غرسًا، فاعلم جمل وصايا أمير المؤمنين إليك إقامة حجة الله تعالى عليك، واعمل بها عمل الموفقين في المقال والفعال، والمشفقين من خشية ربهم مالك عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته".

ملحق رقم:02

خطاب البابا أوربان الثاني في الجماهير المسيحية في مؤتمر كليرمونت داعيا إلى الحروب الصليبية:[1]

يا شعبَ الفرنجة شعبُ الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسًا لعينًا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين، وخرَّبها بما نشره فيها من أعمال السَّلب والحرائق، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب، وهم يهدمون المذابح والكنائس بعد أن يدنِّسوها برجمهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان فانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أنَّ المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين.

على من تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع، إذا لم تقع عليكم أنتم– أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال وبالبسالة العظيمة، وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم، ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يُقوي قلوبكم، أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم– فليُثِر همَّتكم ضريح المسيح المقدس ربنًّا ومنقذنا،[2] الضريح الذي تمتلَّكه الآن أممٌ نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة الَّتي لُوثت ودُنست — لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض الَّتي تسكنونها الآن، والَّتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال، ضيقةٌ لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضا، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية.

طهِّروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على ما بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج، إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجدًا لا يفنى في ملكوت السموات.

---

[1] ول ديورانت، قصة الحضارة، 15/15-16.

[2] هذه هي عقيدة الكنيسة الكاثوليكية في السيد المسيح، وحاشا الله من ذلك، فعقيدتنا نحن المسلمون في السيد المسيح أنه عبد من عباد الله، بشر كامل البشرية وأحد أنبيائه، أنظر، محمد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص 100.

الملحق رقم 03:

كتاب الأمان الذي أصدرهُ جوهر الصقلي قائد جيوش الفاطميين عقب دخوله مصر وأخذها من حكامها الإخشيديين والذي أعلن فيه عن البرنامج الإصلاحي الذي سيسير عليه في سياسته المستقبلية اتجاه أهل مصر[1].

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ من جوهر الكاتب – عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله – صلوات الله عليه – لجماعة أهل مصر الساكنين بها، من أهلها ومن غيرهم:

أنَّه قد ورد من سألتموه الترسل والإجتماع معي، وهم:

أبو جعفر مسلم الشريف –أطال الله بقاءه–

وأبو إسماعيل الرسِّي – أيَّدهُ الله–

وأبو الطيب الهاشمي – أيَّدهُ الله–

وأبو جعفر أحمد بن نصر – أعزَّهُ الله–

والقاضي – أعزَّهُ الله–

وذكروا عنكم أنَّكم التمستم كتابًا يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم، فعرفتم ما تقدَّم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – وحسن نظره لكم.

فلتحمدوا الله على ما أولاكم، وتشكروه على ما حماكم، وتدأبوا فيما يلزمكم، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم، العائدة بالسلامة لكم، وبالسعادة عليكم، وهو أنَّهُ – صلوات الله عليه – لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة، والجيوش المظفرة إلاَّ لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم، إذ قد تخطفتكم الأيدي، واستطال عليكم المستذل وأطمعتهُ نفسهُ بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة، والتغلب عليه وأسر من فيه، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق، وتأكَّد عزمهُ، واشتدَّ كلبهُ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – بإخراج العساكر المنصور، وبادرهُ بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق، الذين عمَّهم الخزي، وشملتهم الذلَّة، واكتنفتهم المصائب وتتابعت الرزايا،....

[1] المقريزي، اتعاظ الحنفا، 1/103–106.

وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – إلى عبده من نشر العدل، وبسط الحق، وحسم الظلم، وقطع العدوان، ونفي الأذى، ورفع المؤن، والقيام في الحق، وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان، وجميل النظر، وكرم الصحبة، ولطف العشرة، وافتقاد الأحوال، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم، وحين تصرفهم في أوان ابتغاء معاشهم، حتَّى لا تجرى أمورهم إلاَّ على ما لمَّ شعثهم، وأقام أودهم، وأصلح بالهم، وجمع قلوبهم، وألَّف كلمتهم، على طاعة وليِّه ومولانا وسيدنا أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – وما أمر به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي – صلوات الله عليه – بإثباتها عليكم.

وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفي بها، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال.

وأن أتقدَّم في رمِّ مساجدكم، وتزيينها بالفرش والإيقاد، وأن أعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤمُّ النَّاس فيها أرزاقهم، وأدرها عليهم، ولا أقطعها عنهم، ولا أدفعها إلاَّ من بيت المال، لا بإحالة على من يقبض منهم.

وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – ممَّا ضمنه كتابةُ هذا [ما ذكره] من ترسل عنكم – أيدهم الله، وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – من أنَّكم ذكرتم وجوهًا التمستم ذكرها في كتاب أمانكم، فذكرتها إجابةً لكم وتطمينًا لأنفسكم.

[وإلا] فلم يكن لذكرها معنى، ولا في نشرها فائدة، إذ كان الإسلام سنةً واحدة، وشريعةٌ مُتَّبعة، وهي إقامتكم على مذاهبكم، وأن تتركوا [على] ما كنتم عليه من أداء الفروض في العلم، والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذي جرت الأحكام لمذاهبهم وفتواهم، وأن يجري الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره، وقيام لياليه، والزكاة والحج، والجهاد على ما أمر الله وكتابه، و [ما] نصه نبيُّه – صلى الله عليه وسلم – في سنته، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه.

ولكم عليَّ أمان الله التام العام، الدائم المتصل، الشامل الكامل، المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام، في أنفسكم، وأموالكم، وأهليكم، ونعمكم، وضياعكم، ورباعكم، وقليلكم وكثيركم.

وعلى أنهُ لا يعترض عليكم معترض، ولا يتجنَّى عليكم متجنٍّ، ولا يتعقب عليكم متعقِّب.

وعلى أنَّكم تصانون وتحفظون وتحرسون، ويُذَبَّ عنكم، ويمنع منكم، فلا يُتعرَّض إلى أذاكم، ولا يسارع أحدٌ في الاعتداء عليكم، ولا في الاستطالة على قويكم – فضلاً عن ضعيفكم –.

وعلى أن لا أزال مجتهدًا فيما يعمكم صلاحه، ويشملكم نفعه، ويصل إليكم خيره، وتتعرفون بركته، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين – صلوات الله عليه –.

ولكم عليَّ الوفاء بما التزمته، وأعطيتكم إياه، عهد الله، وغليظ ميثاقه وذمته، وذمة أنبيائه ورسله، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين – قدَّس الله أرواحهم –، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله – صلوات الله عليه – فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها، وتخرجون إليَّ وتسلمون عليَّ، وتكونون بين يديَّ، إلى أن أعبر الجسر، وأنزل في المناخ المبارك، وتحافظون – من بعد – على الطاعة، وتثابرون عليها، وتسارعون إلى فروضها، ولا تخذلون وليًّا لمولانا أمير المؤمنين – صلوات الله عليه –، وتلزمون ما أمرتم به، وفقكم الله وأرشدكم أجمعين"

وكتب القائد جوهر الأمان بخطه في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار".

الملحق رقم:04

كتاب من نورالدين محمود زنكي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رحمه الله وهو بحلب ليوليه قضاء مصر بعد السيطرة عليها من طرف قائده صلاح الدين، وفيه يتضح موقف نورالدين من التشيع في مصر، وأنَّ جهوده في ضمها لم يكن وراءها دوافع سياسية وعسكرية فحسب وإنَّما لإنهاء سلطة المذهب الشيعي لصالح المذهب السني[1].

" حسبي الله وكفى، وفَّق الله الشيخ الإمام شرف الدين إلى طاعته وختم لهُ بخير، غير خافٍ عن الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكلُّ غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقرِّبني إلى الله، والله وليُّ التوفيق، والمطَّلع على نيَّتي، وأنت تعلم نيَّتي كما قال عزَّ وجل: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ [الرعد: 43] أنت تعلم أنَّ مصر اليوم قد لزمنا لنَّظر فيها، ففي من الفتوحات الكبار، التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعدما كانت دار كفرٍ ونفاق، فلله المِنَّةُ والحمد، إلاَّ أنَّ المقدَّم على كلِّ شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النَّجاة، وأنت تعلم أنَّ مصر وإقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع، وما تُدخر الدموع إلاَّ للشَّدائد، وأنا ما كنت أسخى ولاأشتهي مفارقتك، والآن فقد تعيَّن عليك وعليَّ أيضًا أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحدٌ اليوم لها إلاَّ أنت ولا أقدر أولّي أمورها وأقلِّدها إلاَّ لك حتَّى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب عليك – وفقك الله– أن تشمِّر عن ساق الاجتهاد وتتولَّى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنَّهُ يقرِّبك إلى الله، وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله، فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي – وفقه الله– فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي، وقد كتبت هذا بخطي حتَّى لا تبقى عليَّ حُجَّة، تصلُ أنت وولدك إلى عندي حتَّى أسيِّركم إلى مصر والسَّلام، بموافقة صاحبي واتفاقٍ منه صلاح الدين – وفقه الله– فأنا منه شاكرٌ كثير كثير كثير، جزاه الله خيرًا وأبقاه، ففي بقاء الصَّالحين والأخيار صلاحٌ عظيم، ومنفعةٌ لأهل الإسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان خير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما".

[1] أبو شامة، الروضتين، 2/78-79.

الملحق رقم 05:

رسالة السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله سنة 570هـ، وفيها يبرز له ما بذله من جهود في سبيل إعادة سلطة الخلافة العباسية على عديد الأقاليم في الشام ومصر واليمن ومناطق من بلاد المغرب في ظل الحكم النوري، ويشرح له ما آلت إليه أوضاع الشام من اضطراب تحت سلطة الصالح إسماعيل بن نورالدين محمود، كما وتحمل الرسالة معاني عدَّة تؤكد حرص صلاح الدين على إبداء ولائه للخلافة العباسية الممثل الروحي للعقيدة السنية، ليلقى التأييد والمباركة فيما سيقدم عليه من توسعات على حساب بقايا الحكام الزنكيين[1].

" ... فإنَّا كنَّا نقتبس النَّار بأكفنا وغيرنا يستنير، ونستنبطُ الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونلقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافحُ الصِّفاح بصدورنا وغيرنا يدَّعي التَّصدير، ولابدَّ أن نستردَّ بضاعتنا بموقف العدل الذي الذي تردُّ به الغُصوب، وتظهرُ طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب، وما كان العائق إلاَّ أنا كنَّا ننتظرُ ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة، يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وإيجابًا للحق، يشاكل إيجابنا للسَّبق، وكان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهدُ الكُفَّار متقدِّمين لعساكرنا، نحنُ ووالدنا وعمنا، فأي مدينةٍ فتحت، أو معقلٍ مُلك، أو عسكرٍ للعدو كُسر، أو مصافٍّ للإسلام معهُ ضَرب، فما يجهلُ أحدٌ صُنعنا، ولا يجحدُ عدونا أنَّا نصطلي الجمرة، ونملكُ الكرَّة، ونتقدم الجماعة، ونرتِّبُ المقاتلة، وندبِّرُ التَّعبئة، إلى أن ظهرت في الشَّام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرُها.

وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير، وبما دولتها عليه من غلبة صغيرٍ على كبير، وأنَّ النظام بها قد فسد، والإسلام بها قد ضعُفَ عن إقامته كلُّ من قام وقعد، والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموالٍ كثيرة، لها مقاديرٌ خطيرة، وأنَّ كلمة السُّنة بها وإن كانت مجموعة فإنَّها مقموعة، وأحكام الشَّريعة وإن كان مسماة فإنَّها متحاماة، وتلك البدعُ بها على ما يُعلم، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللَّحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهةً تُعبدُ من دون الله وتُعظَّم وتفخَّم، فتعالى الله عن شبه العباد، وويلٌ لمن غرَّهُ تقلُّبُ

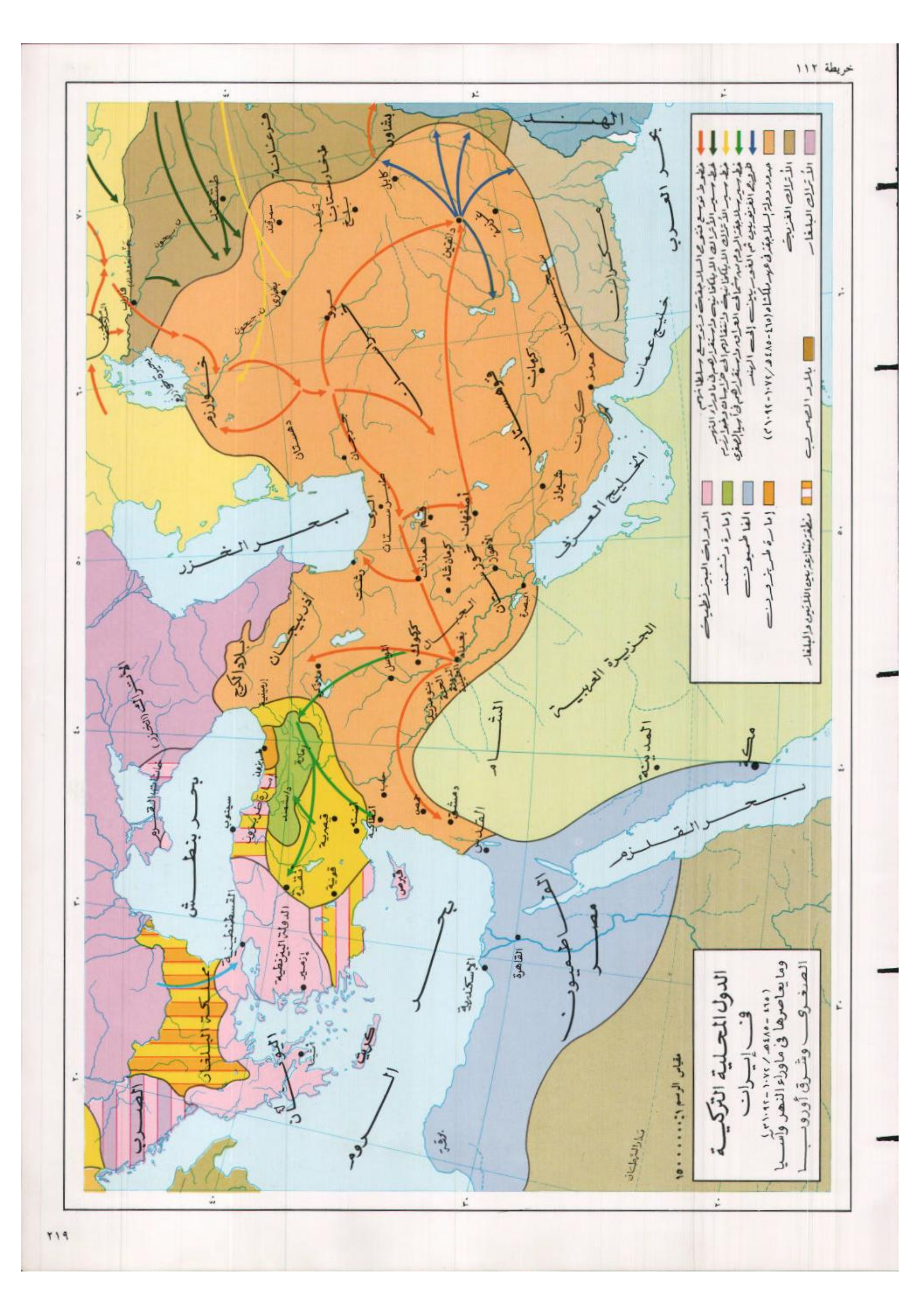
[1] أبو شامة، الروضتين، 2/238-239.

الذين كفروا في البلاد، فسمت همَّتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مُقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالتهُ منها....

" ولما قضى الله سبحانه وتعالى بالوفاة النورية، وكُنَّا في تلك السنة على نية الغزاة، والعساكر قد تجهَّزت، والمضارب قد برّزت، ونزل الفرنج بانياس، وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فرصةً مدُّوا يد انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها.

...والمراد الآن هو كلُّ ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبِّق بالاسم العباسي كلُّ ما تطبقه العهاد، وهو تقليدٌ جامعٌ بمصر، واليمن، والمغرب، والشام، وكلُّ ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحهُ الله تعالى للدولة العبَّاسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخٍ أو ولد من بعدنا، تقليدًا يضمن للنعمة تخليدًا، وللدعوة تجديدًا مع ما ينعم به من السمات التي فيها الملك، وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدَّس ليس له قرنٌ يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منَّا خصمًا لا يملُّ الشر حتى يملوا، وقرنًا لا يزال محرَّم حتَّى يحلوا، وإذا شدَّ رأينا حسن الرأي ضربنا بسيفٍ يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى، ويدُ كل مؤمن تحت بُرده، واستنقذنا أسيرًا من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده.

الخريطة[1] رقم 01:



خريطة توضح المشرق الإسلامي في ظل سيطرة السلاجقة السنيين والفاطميين الشيعة الإسماعيلية القرن 5هـ/11م

[1] حسين مؤنس: **أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1407هـ/ 1987م، ص 219.

الخريطة رقم: 02[1]



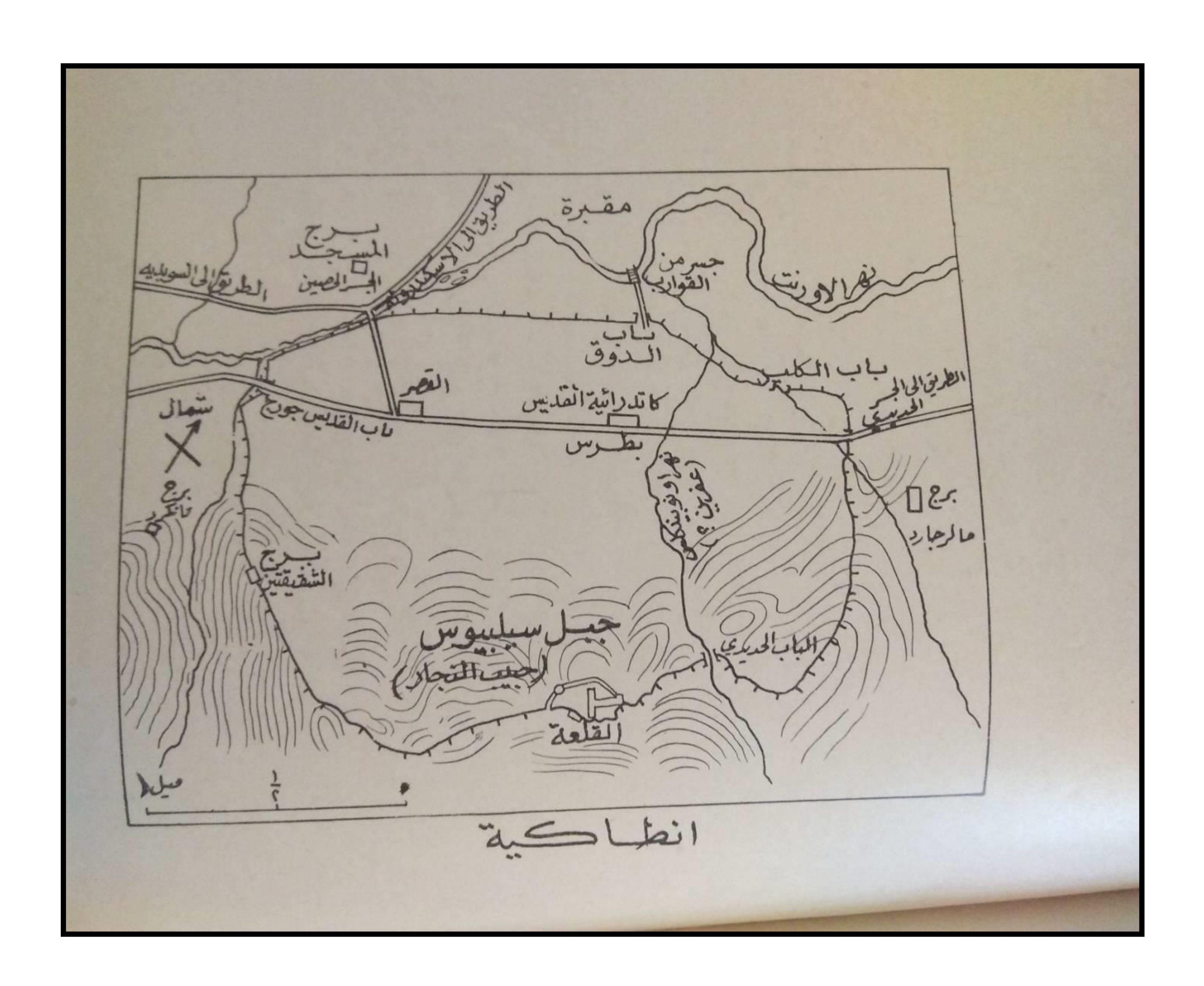
الإمارات الصليبية المؤسسة في بلاد الشام والجزيرة

خلال الحملة الصليبية الأولى

---

[1] حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص 263.

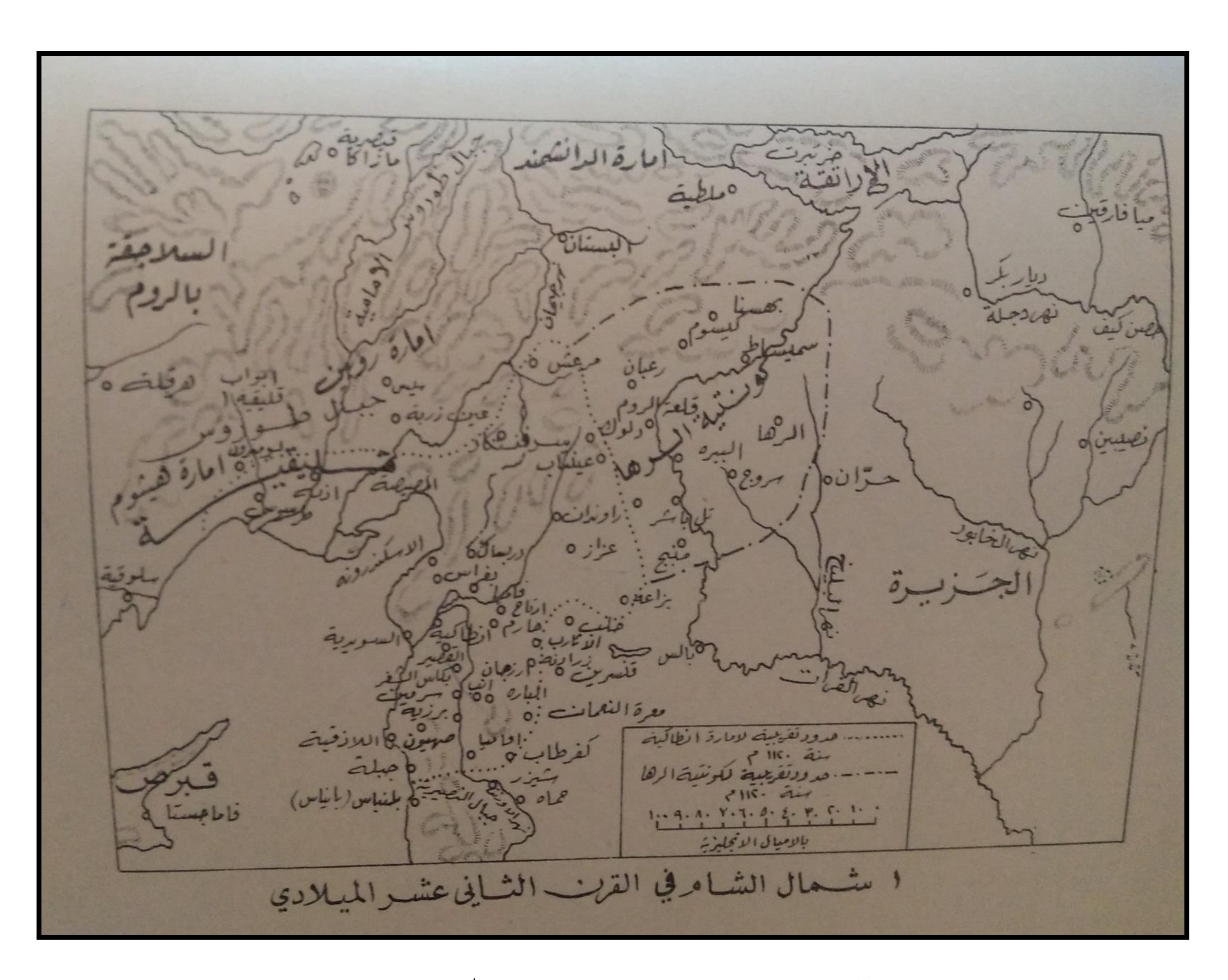
الخريطة رقم[1]: 03



مدينة أنطاكية وفيها يظهر برج الأختين الذي نفذ منه الصليبيون سنة 491هـ/1098م

(1) ستيفن رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية، 305/1

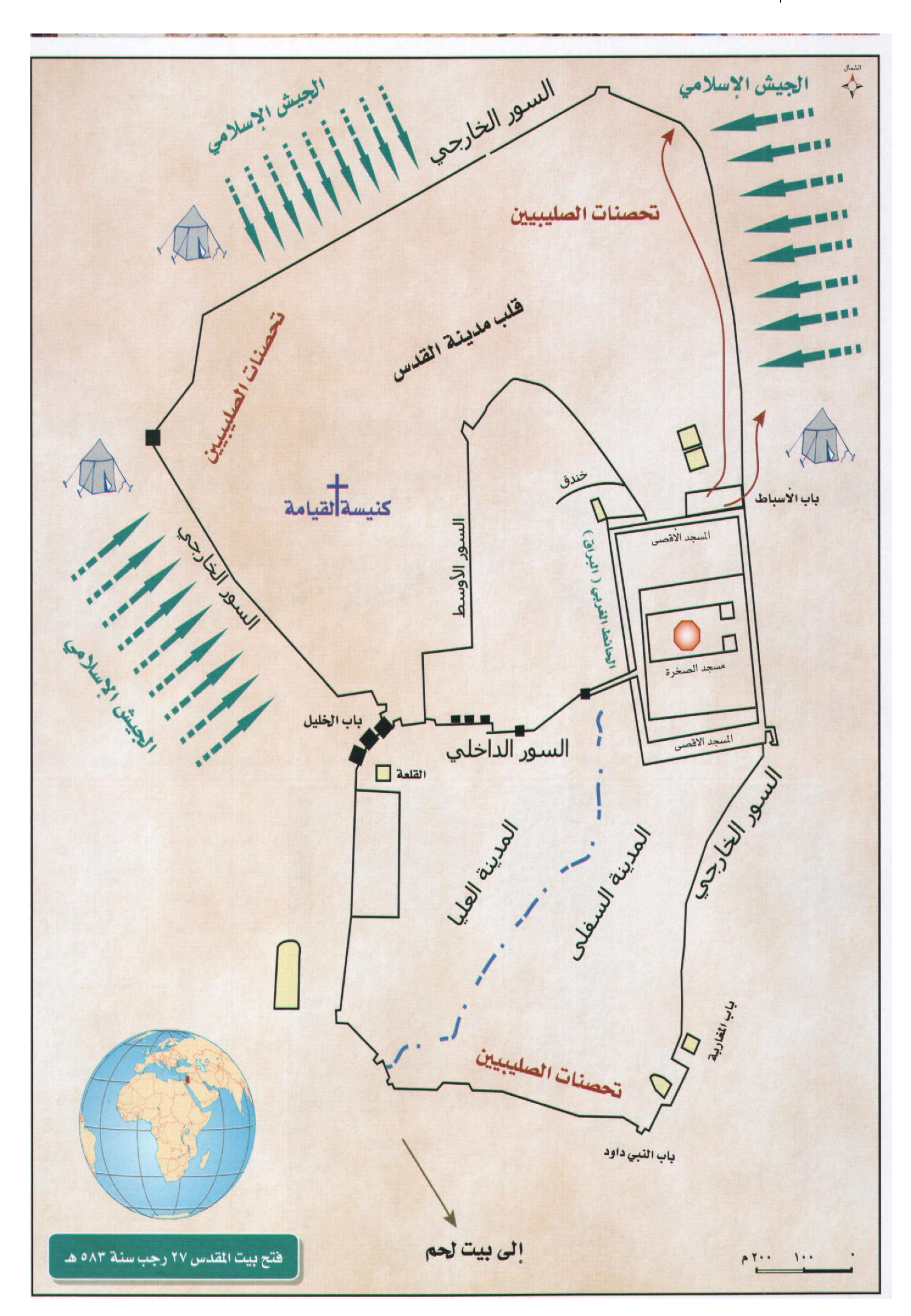
الخريطة[1] رقم: 04



شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري

(1) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، 176/2.

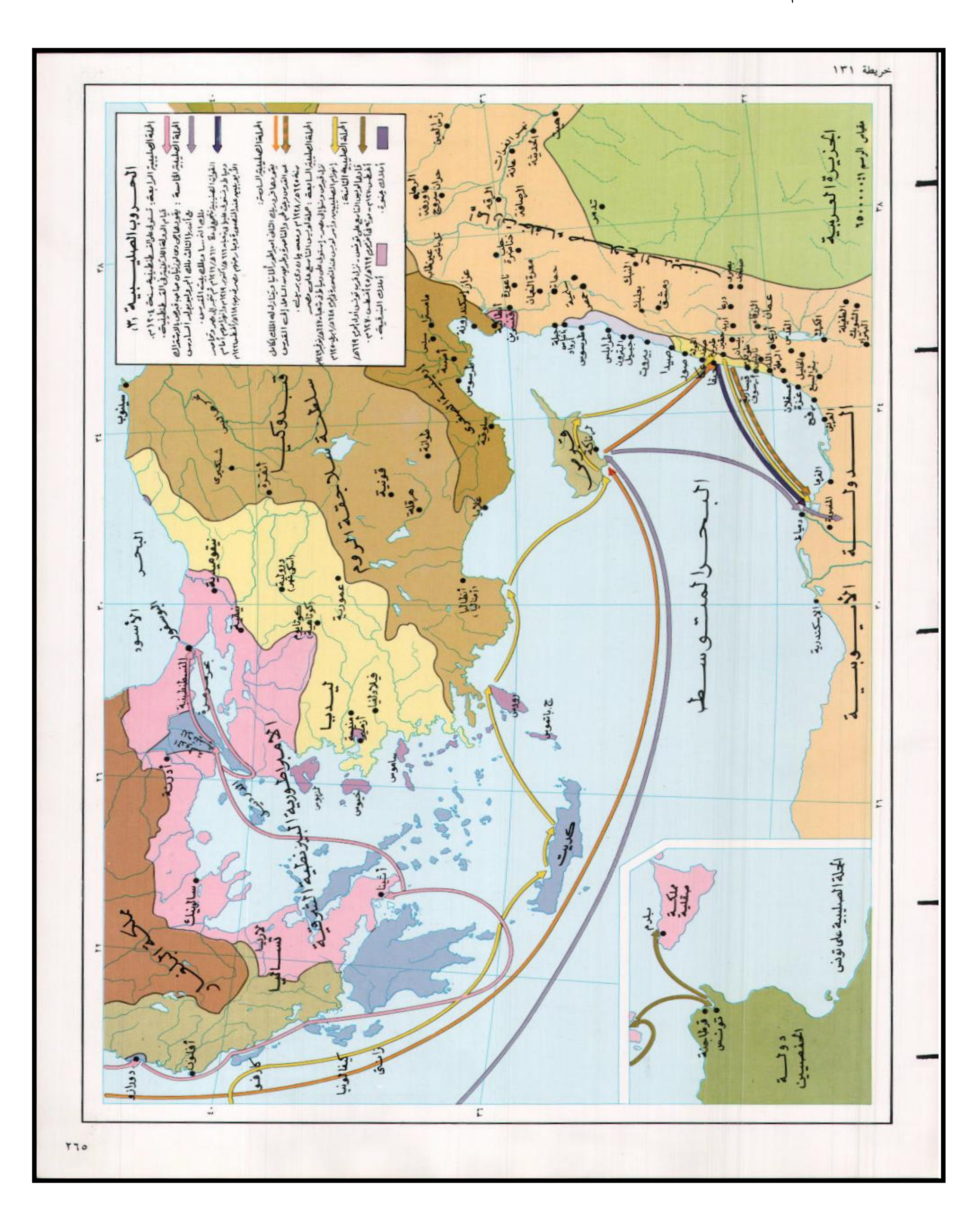
الخريطة رقم05:[1]



مخطط يوضح سير معركة فتح بيت المقدس سنة 583هـ/1187م

[1] سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث، **أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، مكتبة العبيكان، الرياض، 1429هـ، ص111.

الخريطة رقم 06:[1]



[1] حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص 265.

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام:

– أ –

فهرس الأماكن الجغرافية

فهرس الأماكن الجغرافية:

– أ –

– ب –

قائمة المصادر والمراجع

أولا_ المصادر:

القرآن الكريم

أ_ العربية:

1_ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت630هـ/1232م):

الكامل في التاريخ، راجعه وصحَّحهُ، محمد يوسف دقاق، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1987.

2_ ـ..ـ:

الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل، تح، عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963.

3_ الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني (ت559هـ/1166م):

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/2002م.

4_ أسامة بن منقذ، أبو المظفر بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر (ت584هـ/ 1188م):

كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتِّي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، 1930.

5_ أبي الحسن الأشعري (ت330هـ):

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلِّين، تح، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990.

6_ الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ق4هـ/10م):

المسالك والممالك، تح، محمد جابر عبد العال الحيني، دار القلم، مصر، 1961.

7_ الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت597هـ/ 1201):

تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار، الفتح بن علي البنداري الأصفهاني، طُبِعَ على نفقة شركة طبع الكتب العربية، مصر، 1900.

8_ ـ..ـ:

خريدة القصر جريدة العصر، نشره أحمد أمين وآخرون، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1426هـ/2005م.

9_ ـ..ـ:

الفتح القسي قي الفتح القدسي، المطبعة الخيرية، ط1، 1322هـ.

10_ الأصفهاني أبي الفرج (ت356هـ):

مقاتل الطالبيين، شرح وتح، السيد أحمد صقر، منشورات الشريف الرضي، ط2، 1416هـ.

11_ ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت 555هـ/ 1160م):

ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908.

12_ الأنصاري، أبوزيد عبد الرحمن بن محمد (ت696هـ):

معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تع، أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تح، محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي بمصر، مكتبة العتيقة بتونس.

13_ ابن إياس، محمد بن أحمد (ت930هـ):

بدائع الزهور في وقائع الدُّهور، تح، محمد مصطفى، دار إحياء الكتب العربية،ط1، القاهرة، 1972.

14_ البغدادي أبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت429هـ):

الفَرْق بين الفِرَق وبيان الفرقة الناجية منهم، تح، محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، القاهرة.

15_ البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب (ت463هـ):

تاريخ مدينة السَّلام وأخبار محدِّثيها وذكر قطَّانها العلماء من غير أهلها وواردها، تح وتع، بشَّار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2001م.

16_ البكري، أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت487هـ/):

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت.

17_ البنداري الفتح بن علي:

سنا البرق الشامي، تح، فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي للنشر، مصر، 1979.

18_ التفتازاني، سعد الدين (ت791هـ):

شرح العقيدة النسفية، تح، أحمد حجازي السقَّا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1408هـ/1988م.

19_ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت874هـ/1469م):

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح، إبراهيم علي طرخان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1956.

20_ ابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت):

منهاج السنة النبوية، تح، محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، الرياض، 1986.

21_ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت614هـ/1217م):

الرحلة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ت.

22_ ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/1200م):

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح، محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م.

23_ الحريري، أحمد بن علي بن أحمد:
الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، تحقيق، مهدي رزق الله أحمد، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، ط1، الإسكندرية، 1986.
24_ ابن حزم، الظاهري الأندلسي (ت456هـ):
الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط2، 1996.
25_ الحسيني، صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي (622هـ/ 1225م):
أخبار الدولة السلجوقية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1984م.
26_ ابن حماد، أبي عبد الله محمد بن علي (ت628هـ):
أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح، التهامي نقرة، عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة.
27_ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت626هـ/1229م):
معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.
28_ الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت900هـ):
الروض المعطار في خبر الأقطار، تح، إحسان عباس، مكتبة لبنان، د ت.
29_ الحنبلي العليمي مجير الدين (ت860هـ):
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تح ومر، عدنان يونس عبد المجيد أبو تبّانة، إشراف، محمود علي عطا الله، مكتبة دنديس، ط1، عمان، 1460هـ/1999م.
30_ الحنبلي، ابن العماد أبو الفلاح عبد الحي (ت1089هـ/1678م):
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح، عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط1، 1989.
31_ ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله(ق3هـ/9م):
كتاب المسالك والممالك، تح، ميكال يان دي خويه، مطبعة بريل، ليدن، 1889.
32_ **ابن خلدون،** عبد الرحمن محمد (ت808هـ/1406م):
المقدمة، تحقيق وتعليق، عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، ط1، دمشق، 2004.
33_ ـ..ـ:
تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1977م.
34_ **ابن خلكان،** أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد(ت681هـ/1457م):

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978.

35_ ابن دحية الكلبي، أبي الخطاب عمر بن الشيخ الإمام أبي علي حسن بن علي أبي البسام الفاطمي (ت633هـ):

كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تص وتع، عبَّاس العزاوي، مطبعة المعارف، بغداد، 1365هـ/1946م.

36_ ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمير العلائي (ت809هـ):

الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تح، سعيد عبد الفتاح عاشور، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1982.

37_ ـ..ـ:

الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، د ت.

38_ الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت736هـ):

كنز الدرر (**الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية**)، تح، بيرند راتكه، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1982.

39_ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ/1347):

العبر في خبر من غبر، تح، أبو هاجر محمد السعيد بن بيسوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

40_ ـ..ـ:

سير أعلام النبلاء، تح، شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، .1982

41_ ـ..ـ:

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح، عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1994.

42_ الراوندي، محمد بن علي سليمان (ت599هـ/1202م):

راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، تصحيح محمد إقبال، ترجمة إبراهيم الشورابي وعبد النعيم حسنين وفؤاد الصياد، دار العلم، القاهرة، 1960.

43_ سبط بن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف (ت654هـ):

مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح، محمد أنس الخن وكامل محمد الخرَّاط، دار الرسالة العالمية، ط1، دمشق، 2013.

44_ ابن سعد محمد، بن منيع أبو عبد الله البصري (ت 230هـ/)، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، د ت.

45_ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت911هـ/1505م):
تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، ط1، بيروت، 2003.

46_ الشاطبي، أبي اسحاق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي (ت790هـ):
الموافقات، ضبط نصَّه وقدَّم له وعلَّق عليه، أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفَّان، ط1، المملكة العربية السعودية، 1997.

47_ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ/ 1268م):
الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1422هـ/2002م.

48_ ابن شاهنشاه الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر (ت617هـ):
مضمار الحقائق وسر الخلائق، تح، حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، د ت.

49_ ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت 632/1234م):
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، طبع في مطبعة الآداب والمؤيد في مصر، 1317هـ.

50_ ابن شداد، عزالدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت 684هـ/ 1285م):
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح، يحيى عبَّادة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1991.

51_ الشهرستاني أبي الفتح محمد بن عبد الكريم أحمد (ت548هـ/1153م):
الملل والنحل، تح، أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة، ط3، بيروت، 1990.

52_ الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبد الله العبكري البغدادي (ت413هـ): **أوائل المقالات**، تح، الشيخ إبراهيم الأنصاري، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ط1، 1413هـ.

53_ ـ..ـ:
تصحيح اعتقادات الإمامية، تح، حسين در كاهي، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ط1، قم، إيران، 1413هـ.

54_ الشيرازي، المؤيد في الدين هبة الله بن موسى بن داوود (ت470هـ/1077م):
سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، تح، محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري، ط1، القاهرة، 1949.

55_ ـ..ـ:
ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، تح، محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1949.

56_ ابن طوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني (ت 617هـ):
نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تح، أيمن فؤاد السيد، دار النشر فرانتس شتايز شتوتغارت، ط1، ألمانيا، 1412هـ/1992م.
57_ **ابن العديم،** كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي (ت660هـ/ 1678م):
زبدة الحلب من تاريخ حلب، الجزء الأول، تح، سهيل زكار، دار الكتاب العربي، ط1، القاهرة، 1997.
زبدة الحلب من تاريخ حلب، الجزء الثاني، تح، سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1951.
58_ ابن عساكر (ت):
تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1995.
59_ علي بن محمد السيد الشريف (ت 816هـ):
معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د ت.
60_ **ابن العمراني،** محمد بن علي بن محمد (ت580هـ):
الإنباء في تاريخ الخلفاء، تح، قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 1999م.
61_ الغزالي أبو حامد (ت505هـ):
فضائح الباطنية، حققه وقدَّم له عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.
62_ الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت بعد 577هـ/بعد 1181م):
تاريخ الفارقي، تح، بدوي عبد اللطيف عوض، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959.
63_ أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن علي(ت732هـ/1331م):
تاريخ أبي الفدا المسمى المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط1، د ت،
64_ ـ..ـ:
تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د ت،
65_ الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817/):
القاموس المحيط، تح، محمد نعيم العرقسوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005.
66_ القاضي النعمان بن محمد (ت363هـ):
كتاب المجالس والمسايرات، تح، الحبيب الفقي وآخرون، دار المنتظر، بيروت، ط1، 1966.
67_ ـ..ـ:
دعائم الإسلام، تح، آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة، 1963.
68_ ـ..ـ:

اختلاف أصول المذاهب، تح، ديفن ستيوارت، المكتبة العربية، أبو ظبي، د ت.

69_ ابن قاضي شهبة بدر الدين (ت874هـ):

الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نورالدين محمود بن زنكي)، تح، محمود زايد، دار الكتاب الجديد، ط1، بيروت، 1971م.

70_ القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود (ت681هـ/ 1382م):

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1969م.

71_ القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت821هـ/1418م):

صبحي الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م.

72_ القمي، سعد بن عبد الله أبي خلف الأشعري (حوالي 301هـ):

كتاب المقالات والفرق، صححه وقدَّم له وعلَّق عليه: محمد جواد مشكور، طهران، 1963.

73_ ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب أبو عبد الله (ت751هـ/):

إعلام الموقعين عن رب العالمين، تح، مشهور بن حسن آل سلمان أبو عبيدة، دار ابن الجوزي، ط1، المملكة العربية السعودية، 1423هـ.

74_ الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمان بن شاكر بن هارون بن شاكر (ت764هـ):

فوات الوفيات، تح، إحسان عباس، دار صادر، ط1، بيروت، 1974م.

75_ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر(ت774هـ/1372م):

البداية والنهاية، تح، عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط1، 1998م.

76_ ـ..ـ:

تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، ط1، بيروت، 2000.

77_ الكليني، محمد بن يعقوب (ت328-329هـ):

أصول الكافي، دار المرتضى، ط1، بيروت، 2005م.

78_ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت450هـ/1058م):

الأحكام السلطانية، طبعة الحلبي، القاهرة، 1393هـ.

79_ محمد باقر المجلسي (ت1110هـ):

بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ت.

80_ المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ):

مروج الذهب ومعادن الجوهر، راجعه، كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2005.

81_ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1441م):

السلوك في معرفة دول الملوك، تح، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1997.
82_ ـ..ـ:
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تح، جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ط2، القاهرة، 1416هـ/1996م.
83_ ـ..ـ:
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، القاهرة، 1987م.
84_ ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت711هـ/1311م):
لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1388هـ.
85_ ابن ميسَّر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب (ت677هـ/1278م):
المنتقى من أخبار مصر، تح، أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، د ت.
86_ ناصر خسرو علوي، (ت481هـ/ 1088م):
سفرنامة، تر، يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، .1983
87_ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق (ت385هـ)
كتاب الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د ت.
88_ النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ):
الدارس في تاريخ المدارس، جزآن، أعدَّ فهارسه، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، بيروت، 1990.
89_ النوبختي، أبي محمد الحسن بن موسى (توفي مابين 300هـ و310هـ):
فرق الشيعة، مطبعة الدولة، استانبول، 1931.
90_ **النويري**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1332م):
نهاية الإرب في فنون الأدب، تح، نجيب مصطفى فوَّاز وحكمت كشلي فوَّاز، دار الكتب العلمية، ط1، 2004.
91_ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ/ 1298م):
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح، جمال الدين الشيال.
92_ اليافعي، أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت768هـ/):
مرآة الجنان وعبرة اليقضان، وضع حواشيه، خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

ب_ المترجمة:

93_ بطرس توديبود:

تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية، 1998.

94_ ريموندا جيل:

تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، تر، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2002.

95_ فوشيه الشارتري:

تاريخ الحملة إلى القدس 1095م– 1127م، تر، زياد جميل العسلي، دار الشروق، عمان، الأردن، دت.

96_ مجهول:

صاحب يوميات أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، (ضمن **الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية**)، الجزء 6، تح، سهيل زكار، د مط، دمشق، 1995.

97_ وليم الصوري:

الحروب الصليبية، تر، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991.

ثانيًا: المراجع:

أ_ العربية:

1_ أحمد إسماعيل علي، **تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي (132هـ–463هـ/749م–1070م)**، دار دمشق للطباعة والنشر، ط1، دمشق، 1984.

2_ أحمد الشامي، **صلاح الدين والصليبيون**، مكتبة النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1991.

3_ أحمد فؤاد السيد، **تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب (567هـ– 648هـ)**، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 2002.

4_ أحمد الكاتب، **التشيع السياسي والتشيع الديني**، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، بيروت، لبنان، 2009.

5_ أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها (العصر الأيوبي)**، جزءان، دار المعارف، القاهرة، د ت.

6_ أحمد مختار العبادي، **في التاريخ العبّاسي والفاطمي**، دار النهضة العربية، بيروت، د ت.

7_ أسامة زكي زيد، **الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1980.

8_ أنور محمد زناتي، **معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية**، دار زهران للنشر، عمان، 2010.

9_ أيمن فؤاد السيد، **الدولة الفاطمية في مصر –تفسير جديد–**، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1992.

10_ جعفر المهاجر **التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية،** دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1992.

11_ جعفر المهاجر، **حسام الدين بشارة أمير جبل عامل،** دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2005.

12_ جمال محمد حسن الزنكي، **إمارة دمشق في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية،** مكتبة المهتدين، الكويت، 1993.

13_ حامد زيان غانم زيان، **الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية،** دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1403هـ/1983م.

14_ حامد غنيم أبو سعيد: **الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية – جبهة الشام وفلسطين ومصر–**، دار السلام، ط1، القاهرة، 2007.

15_ حسن إبراهيم حسن، **الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص،** المطبعة الأميرية، القاهرة، 1932.

16 ـ..ـ: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،** دار الجيل، ط 14، بيروت، 1996م.

17_ حسن حبشي، **نورالدين والصليبيون،** دار الفكر العربي، القاهرة، د ت.

18_ حنا أبي راشد، **جبل الدروز،** نشر مكتبة زيدان، ط1، مصر، 1925م.

19_ خاشع المعاضيدي وآخرون، **الوطن العربي والغزو الصليبي،** دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، بغداد، 1981.

20_ خالد عزام، **موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر العباسي)**، دار أسامة، عمان، الأردن، د ت.

21_ خالد كبير علال، **التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي خلال العصر الإسلامي (مظاهره، آثاره، أسبابه، علاجه)**، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

22_ الخميني، **الحكومة الإسلامية،** ط3، 1389هـ.

23_ سعيد عبد الفتاح عاشور، **الناصر صلاح الدين،** المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، د ت.

24_ سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية،** جزآن، المكتبة الأنجلو مصرية، ط1، القاهرة، 2010.

25_ سليمان أفندي الأذني، **الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصرية،** (نسخة من الكتاب متوفرة لدى الباحث.

26_ سليمان الحلبي، **طائفة النصيرية، تاريخها وعقائدها،** الدار السلفية، ط2، الكويت، 1984م.

27_ سليمان الرحيلي، **السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية،** مكتبة التوبة، الرياض، 1414هـ.

28_ سليمان عبد الله السلّومي، **أصول الإسماعيلية –دراسة – تحليل – نقد –**، دار الفضيلة، ط1، الرياض، 2001.

29_ السيد إبراهيم الموسوي، **عقائد الإمامية الإثني عشرية**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1393هـ.

30_ السيد عبد العزيز سالم، **طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د ت.

31_ الشيخ علي الابراهيم الطرابلسي، **التشيع في طرابلس وبلاد الشام**، دار الساقي، ط1، بيروت، 2007.

32_ صالح الورداني، **الشيعة في مصر من الإمام علي إلى الإمام الخميني**، مكتبة مدبولي الصغير، ط1، القاهرة، 1414هـ/ 1993م.

33_ عارف تامر، **أربع رسائل إسماعيلية** (**الرسالة الأولى والرسالة الثالثة**)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1978م.

34_ عامر النجار، **في مذاهب الإسلاميين**، دار المعارف، القاهرة، 1995.

35_ عباس محمود العقاد، **فاطمة الزهراء والفاطميون**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013.

36_ عبد الرحمن عزام، **صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني**، تر، قاسم عبده قاسم، دار بلومزبري مؤسسة قطر للنشر، الدوحة، 2012.

37_ عبد العزيز الدوري، **دراسات في العصور العباسية المتأخرة**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 2011.

38_ ـ..ـ: **العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي**، دار الطليعة، ط3، بيروت، لبنان، 1997.

39_ عبد الله النجار، **مذهب الدروز والتوحيد**، دار المعارف، مصر، 1965م.

40_ عبد الله محمد الأمين، **دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة**، دار الحقيقة، ط2، بيروت، 1991.

41_ عبد الله بن سعيد محمد سافر الغامدي، **مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين "زمن عماد الدين زنكي وابنه نورالدين محمود**، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1414هـ.

42_ عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتّى سقوط بغداد**، دار الوفاء، المنصورة، القاهرة، ط2، 1988م.

43_ عبد المنعم ماجد، **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر**، دار الفكر العربي، ط4، القاهرة، 1994.

44_ عبد المنعم ماجد، **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1953.

45_ عبد الهادي محمد رضا محبوبة، **نظام الملك دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استيزاره**، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1999.

46_ عثمان عبد الحميد عشري (دكتور): **الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية (491هـ- 691هـ/ 1097م- 1290م)**، المكتبة التاريخية، الإسكندرية، 1983.

47_ عرب دعكور، **تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضارتهم**، دار النهضة العربية، بيروت، د ت.

48_ عصام الدين عبد الرءوف الفقي، **الدول المستقلة في المشرق الإسلامي**، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 1999م.

49_ عصام الدين عبد الرءوف الفقي، **بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي**، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت.

50_ عطية القوصي، **تاريخ الدول المستقلة في المشرق عن الخلافة العباسية**، مكتبة دار النهضة العربية، القاهرة، 1992.

51_ عمر كمال توفيق، **الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين**، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الاسكندرية، 1986.

52_ الغزي، كامل بن حسين بن محمد البالي الحلبي (ت1351هـ)، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، المطبعة المارونية، حلب، (د ت).

53_ رياض عيسى، **الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتَّى سقوط الدولة الأموية**، مكتبة الإسكندرية، ط1، دمشق، 1412هـ/1992م.

54_ فاروق عمر فوزي، **الخلافة العباسية**، الجزء 02، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2003.

55_ ـ..ـ:، **قراءات ومراجعات نقدية في التاريخ الإسلامي**، دار مجدلاوي، ط1، عمان، 2007.

56_ فؤاد صالح السيد، **مؤسسو الدول الإسلامية**، مكتبة حسن العصرية، ط1، بيروت، 1432هـ/2011م.

57_ قاسم عبده قاسم، علي السيد علي، **الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، د ت.

58_ قاسم عبده قاسم، **في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2010.

59_ كمال بن مارس (دكتور)، **العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 1425هـ/ 2004م.

60_ محمد أبو زهرة، **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، دار الفكر العربي، القاهرة.

61_ محمد أحمد الخطيب، **الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، عقائدها وحكم الإسلام فيها**، مكتبة الأقصى، ط2، عمان، 1986م.

62_ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، **أصل الشيعة وأصولها**، تح: علاء آل جعفر، مؤسسة الإمام علي.

63_ محمد العروسي المطوي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1982.

64_ محمد بن المختار الشنقيطي، **أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2016.

65_ محمد جمال الدين سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، دار الفكر العربي، مدينة نصر، دت.

66_ محمد حسن دخيل، **الدولة الفاطمية –الدور السياسي والحضاري للأسرة الجمالية**، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، بيروت، 2009.

67_ محمد حسين كامل، **طائفة الإسماعيلية – تاريخها ونظمها وعقائدها**، مكتبة النهضة المصرية، ط1، القاهرة، 1959.

68_ ـ..ـ:، **طائفة الدروز تاريخها وعقائدها**، دار المعارف، مصر، 1962.

69_ محمد حمادة، **تاريخ الشيعة (في لبنان وسوريا والجزيرة في القرون الوسطى)**، ترجمة ومراجعة، جعفر المهاجر، دار بهاء الدين العاملي، بعلبك، لبنان، 2013.

70_ محمد سهيل طقوش، **تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام**، دار النفائس، بيروت، ط1، 1999م.

71_ ــ..ـ:، **تاريخ السلاجقة في بلاد الشام (471هـ-511هـ/1078م-1117م)**، دار النفائس، ط3، بيروت، 2009.

72_ ــ..ـ:، **تاريخ الدولة العباسية**، دار النفائس، ط7، بيروت، 1430هـ/2009م.

73_ محمد عبد الله عنان، **الحاكم بأمر الله الفاطمي وأسرار الدعوة الفاطمية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الرفاعي، ط3، الرياض،1404هـ/1983م.

74_ محمد عبد الله المقدم، **الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية**، دار العالم العربي، القاهرة، 2008.

75_ محمد محمد مرسي الشيخ، **الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، فرع الإسكندرية، 1980.

76_ محمد مؤنس أحمد عوض، **في الصراع الإسلامي– الصليبي، السياسة الخارجية للدولة النورية (541هـ–569هـ/1146م 1174م)**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 1998م.

77_ محمد يحيى عزَّان، **قرشيَّة الخلافة تشريعٌ ديني أم رؤية سياسية**، مركز التراث والبحوث اليمني، ط3، صنعاء، 1436هـ/2015م.

78_ محمود إسماعيل، **الأدارسة 172هـ–375هـ**، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 1991.

79_ محمود محمد الحويري، **الأوضاع الحضارية في بلا د الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر**، دار المعارف، القاهرة، 1979م.

80_ مسفر بن سالم عريج الغامدي، **الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر**، دار المطبوعات الحديثة، ط1، جدة، 1986.

81_ مصطفى طه بدر، **محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول**، الهيئة المصرية العليا للكتاب، ط2، القاهرة، 1999م.

82_ مصطفى غالب، **تاريخ الدعوة الإسماعيلية**، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط2، بيروت، د ت.

83_ موسى الموسوي، **الشيعة والتصحيح الصراع بين الشيعة والتشيع**، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، 1988.

84_ نادية حسني صقر، **مطلع العصر العباسي الثاني**، دار الشروق، ط1، جدة، 1983م.

85_ ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، **أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية**، أصل الكتاب رسالة دكتوراه، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 1993.

86_ نجلا أبو عزالدين، **الدروز في التاريخ**، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1985م.

87_وحدة البحث العلمي بإدارة الإفتاء، **المذاهب الفقهية الأربعة أئمتها – أطوارها – أصولها – آثارها**، راجعه، أحمد الحجي الكردي وآخرون، إدارة الإفتاء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، 1436هـ/2015م.

88_ يوسف إبراهيم الشيخ عيد، **أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين**، دار المعالي، ط1، عمان، الأردن، 1998.

ب_ المترجمة:

89_ إدوارد جرانفيل براون، **تاريخ الأدب في إيران**، تر، إبراهيم أمين الشورابي، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2005.

90_ آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، تر، محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1359هـ/1940م.

91_ أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، دار النهضة العربية، ترجمة، السيد الباز العريني، بيروت، د ت.

92_ألبير شاندور، **صلاح الدين – البطل الأنقى في الإسلام**- ترجمة، سعيد أبو الحسن، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1988.

93_ أنتوني بردج، **تاريخ الحروب الصليبية**، تر، أحمد غسان سبانو، نبيل الجيرودي، دار قتيبة للطباعة والنشر، ط2. دت.

94_ برنارد لويس، **الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام**، تر، محمد العزب موسى، دار ازال للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، بيروت، 1986م.

95_ جيفري S.H.M ، **أصول التشيع الإسلامي المبكر (المعارضة)**، تر، مهيب عيزوقي، دار حوران للطباعة والنشر، ط1، دمشق، 2008.

96_ ر.سي. سميل، **فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر (1097م–1193م)**، تر، العميد الركن محمد وليد الجلّاد، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1982.

97_ رينيه جروسيه، **رصيد التاريخ**، تر، محمد خليل باشا، مؤسسة نوفل، بيروت، د ت.

98_ زامباور، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، أخرجه، زكي محمد حسن بك، حسن أحمد محمود، دار الرائد العربي، بيروت، 1400هـ/1980.

99_ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، 3أجزاء، تر، السيد الباز العريني، دار الثقافة، ط1، بيروت، 1967.

100_ فليب حتي، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، تر، جورج حداد، عبد الكريم رافيق، دار الثقافة، بيروت، د ت.

101_فولفغانغ مولر- قينر، **القلاع أيام الحروب الصليبية**، تر، محمد وليد الجلاد، مر، سعيد طيّان، دار الفكر، ط2، 1404هـ/1984م.

102_ ميخائيل زابوروف، **الصليبيون في الشرق**، تر، إلياس شاهين، الترجمة إلى العربية دار التقدم، موسكو، 1986.

103_ هاملتون أ. ر جب، **صلاح الدين الأيوبي**، حررها، يوسف ايبش، مطبعة بيسان للنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 1996م.

104_ يوشع براور: **الاستيطان الصليبي في فلسطين**، تر، عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 2001.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

_ Arnold **:**1
The Caliphate, Oxford, 1924.

2_ Canard (M) :
Histoire de la dynastie des hamdanides de la Syrie du nord et de la Djazira, PUF, Alger, 1953.

3_ Duncalf (Frederic):
The first crusade: Clermont to Constantinople" The councils of Piacenza and Clermont", in Setton (ed), A Hist of the Crusades, vol I.

4_ Elisseeff (Nikita) ; **L'Orient Musulman au Moyen Age**, 622- 1260, Paris, 1977.

5_ **__..__ Nur ad- Din un grand prince Musulman de Syrie au Temps des Croisades (521- 569H/1118- 1174),** 3Vol, Damas, 1967, II, p585.

6_Grousset (R) :
Histoire des Croisades et du royaume franc de Jérusalème, 3vols, Paris, .1934-1936

7_ **__..__: L'Epopée des Croisades**, paris, 1955, p45.

8_ Roscoe (Thomas) :
History of Chivalry and the Crusades, vol I, p286.

9_ Schlumberger (Gustave):
Les Compagnes de roi Amaury 1er Jérusalem en Egypte, paris 1906.

10_ Stevenson (W.B**):**
The Crusaders in the East, London, 1907.

11_ Setton (Kenneth M):
A history of The Crusades, London, 1964.

رابعًا: الرسائل الجامعية

1_ أحمد كامل محمد صالح، **مصر بين المذهبي السني والمذهب الإسماعيلي**، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1987م.

2_ رابح أولاد ضياف، **الجراية في الدولة الإسلامية من صدر الإسلام حتَّى سقوط بغداد 1هـ-656هـ/622م-1258م**، رسالة دكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي (غير منشورة)، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية والإسلامية، فرع التاريخ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2013/.2014.

3_ صلاح الدين محمد الهادي سليمان، **أثر الصراع المذهبي بين الفاطميين والعباسيين في الأدب**، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1970.

4_ عبد الباري محمد الطاهر، **الأتراك والخلافة في العصر العباسي الأول**، رسالة ماجستير، قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1409هـ/1989م، ص142 وما بعدها.

5_ عبد العزيز محمد عبد الدايم، **إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر**، رسالة ماجستير، قسم المخطوطات، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1971.

6_ غنية ياسر كبابشي، **المكونات الثقافية في الدولة الفاطمية (297هـ- 567هـ/909م- 1171م)**، رسالة دكتوراه في فلسفة التاريخ الإسلامي، كلية التربية جامعة بغداد، 1428هـ/2007م.

7_ كمال بن مارس، **الظهير الشامي في عصر الحروب الصليبية (من الحملة الصليبية الأولى إلى الحملة الصليبية الثالثة)**، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي (غير منشورة)، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2003-2004.

8_ جاد محمد رمضان، **الملك العادل نورالدين محمود**، بحث غير منشور مقدم لنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ في التاريخ الاسلامي، كلية أصول الدين، الجامع الأزهر.

9_ نادية بنت عابد أحمد مفتي، **تاريخ التعليم في المشرق الإسلامية في القرن الخامس الهجري**، بحث مقدم لنيل درجة الماجيستير، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1408هـ.

خامسًا: الدوريات

1_ سليمان ولدخسال، **الفكر السياسي عند الإمام مالك**، مجلة الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة أحمد بن بلة وهران 1، مجلد15، عدد 24، 2014.

2_ صالح رمضان حسن، **فتوحات الدولة السلجوقية في عهد السلطان ألب أرسلان (455هـ-465هـ/ 1063م- 1072م)**، مجلة أبحاث، كلية التربية الأساسية، مج 11، عدد 2، ص358-360.

3_ عاصم اسماعيل كنعان، نعمة شهاب جمعة، **الدور السياسي والثقافي لبني عمار في إمارة طرابلس (457هـ -502هـ/ 1065م- 1109م)**، مجلة الفتح، العدد السادس والعشرون، مجلة الفتح، جامعة ديالى، العراق، .2006

4_ عبد الكريم حتاملة، **دور الخليفة المسترشد بالله في مواجهة نفوذ السلاجقة (512هـ-528هـ/1118م-1135م)**، مجلة جامعة أم القرى، السنة الحادية عشرة، العدد18، الشريعة والدراسات الإسلامية (2)، 1419هـ/1998م.

5_ عصام مصطفى عقلة، فوزي خالد الطواهيّة، **القاضي الفاضل (526هـ- 596هـ/1132م-1200م) وكتابه "المياومات في التأريخ: دراسة في مصادر تأريخ صلاح الدين والدولة الأيوبية المبكرة**، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 10، العدد 1، 2016.

6_ كمال بن مارس، **أساليب القتال الإسلامية- الصليبية عصر الحروب الصليبية**، المجلة التاريخية المصرية، الدار العربية للكتاب، مج 46، السنة 2008-2009.

7_ لؤي إبراهيم بواعنة، **يحيى بن أبي طيء مؤرخًا**، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد3، العدد2، 2009م.

8_ محمد ضامن، **من تاريخ حلب – حكم قسيم الدولة آق سنقر**، مجلة دراسات تاريخية، السنة التاسعة، عدد29، جامعة دمشق.

9_ محمد فرقاني، **عرض ودراسة لـ "المصحف المنفرد بذاته" للنبي الكذاب حمزة بن علي الفارسي**، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية عدد 22، مجلد 1.

10_ هادية دجاني شكيل، **القاضي الفاضل ودوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1994.

11_ هيفاء عاصم محمد الطيار، **الفاطميون والغزو الصليبي**، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 14، جامعة بابل، جانفي 2013.

ملخص:

تتناول هذه الرسالة العلمية موضوع أثر الصراع والتطرف المذهبي لدى المسلمين على سير نشاط المقاومة ضدَّ الصليبيين خلال القرنين 5 و6هـ/11 و12م، فتُقدِّمُ في بدايتها لجذور الانقسام المذهبي لدى الطرف الإسلامي عقب وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في السنة 11هـ/622م، والذي انبثق عنه تيارين سياسيين رأى كل منهما موقفًا مناقضًا للآخر في قضية خلافته عليه الصلاة والسلام، ثمَّ أخذ ذلك الخلاف يتطوَّر تدريجيًا ليصير خلافًا عقديًا تبنى فيه كل طرف اعتقاداتٌ صِيغت لها تشريعاتٌ دينية ونصوصٌ مقدَّسة تبناها كلٌّ طرفٍ من المتنازعين كحجج على صدق ما يعتقد به من أحقية في إمامة المسلمين وخلافتهم، لتصير محاولات التوفيق بين المفترقين أمرٌ في غاية الصعوبة، بل أنَّ من أثر تحول الخلاف السياسي إلى بنية عقدية أن دخلت القوى السياسية المتبنية لإحدى الموقفين ابتداءً من القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي في صراع استخدمت فيه كل الطرق والوسائل من عسكرية وفكرية ودبلوماسية نُصرةً للعقيدة وتمكينًا للطائفة.

وفي العقد الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تعرَّض المشرق الإسلامي لهجمة عسكرية أوروبية عرفت في التاريخ بالحملات الصليبية، استهدفت بلاد الشام عامة وبيت المقدس على وجه الخصوص، فكان وضع القوى الإسلامية الحاكمة في المنطقة حينها (عباسيين وسلاجقة وفاطميين وإمارات عربية شيعية إمامية) على ما ذكرنا من صراع حول الأحقية الشرعية في حكم المسلمين، فعرفت على ذلك أوضاعها الداخلية وعلاقاتها ببعض تشنجًا واضطرابًا وصراعات عسكرية فضلاً على التسابق في فرض مذهبها وفكرها.

وقد كانت الخلافة العباسية (132هـ-656هـ/750م-1258م) في ذلك الصراع ممثلةً الاتجاه السني ومعززةً بقوة السلاجقة الأتراك الذي دخلوا بغداد سنة (447هـ/1055م) ليرث عنهم ذلك الحرص على نصرة العقيدة السنية آل زنكي (521هـ- 569هـ/1127م- 1173م) وبني أيوب (567هـ- 648هـ/1171م-1250م) في حين كانت الخلافة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية المذهب بمصر (358هـ-567هـ/969م-1171م) الطرف الثاني في معادلة الصراع متعاضدة مع من كان يدور في فلك عقيدتها من دويلات وإمارات شيعية إمامية في العراق وبلاد الشام (كالبويهيين (334هـ- 447هـ/945م- 1055م) والحمدانيين والمرادسيين والعقيليين وبنو عمار).

تمكَّن الصليبيون في حملتهم الأولى سنة 490هـ/1096م من استغلال الانقسامات والصراعات بين القوى الإسلامية بسبب تناقضاتها المذهبية، فأسسوا أربع كيانات سياسية في المنطقة واحدة ببلاد الجزيرة (الرها)وثلاثة ببلاد الشام (أنطاكية وبيت المقدس وطرابلس) في غضون عقد من زمن، ورغم محاولات بعض القوى الجزرية والشامية المحسوبة على الطرف السني لرد الصليبيين غير أنَّها باءت بالفشل، ثمَّ حدث أن تقارب حكام

دمشق السنيين مع الأفضل بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي في حلف لرد تحرشات المملكة الصليبية في بيت المقدس، فكان أمرًا في غاية الغرابة لدى مؤرخي الفترة بسبب حدَّة الاحتقان المذهبي بين القوى الإسلامية.

وبمستهل العقد الثالث من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي؛ وباعتلاء آل زنكي حكم الموصل (عماد الدين ثم نجله نورالدين) أخذ ميزان الصراع المذهبي الإسلامي يميل لصالح السنيين بفضل الإستراتيجية الوحدوية التي تبناها قادة الموصل؛ والقائمة على احتواء القوى الصغيرة والإمارات الإسلامية المتناثرة في بلاد الجزيرة والشام وإخضاعها لسلطة سياسية واحدة بزعامة الزنكيين، إضافةً إلى العمل على تغليب الفكر والعقيدة السنية وربط مناطق التوسع ضمن جبهة المقاومة بالسلطة الروحية للخليفة العباسي في بغداد حتَّى تكون هذه الجبهة على قدر وافر من التماسك وتتمتع بوحدة القرار السياسي والروحي، كما وأعان الزنكيين على نجاح إستراتيجيتهم المذهبية والسياسية ما بلغته الخلافة الفاطمية ومذهبها من تقهقر نتيجة الصراع على منصب الوزارة وفقدان العقيدة الإسماعيلية لحضورها وتأثيرها في الحكم السياسي.

وقد كان لهذه الإستراتيجية التي تبناها آل زنكي أثرٌ بالغ على مسار الصراع الإسلامي- الصليبي خاصةً بعد ضم حلب عاصمة الشام الشمالي ودمشق ممثلة الجنوب إلى جبهة الموصل، وما قام به نورالدين زنكي فيهما من إجراءات لإضعاف التشيع وتعزيز الحضور السني، فحققت جبهة المقاومة الإسلامية بفضل ذلك عديد المكاسب على الطرف الصليبي وصار ميزان القوة بينهما متوازن إلى حدٍّ كبير مع فترات من التفوق الإسلامي تتماشى مع الاضطرابات والصراعات التي كانت تعتري الإمارات الصليبية في المنطقة.

وبحلول سنة 564هـ/1168م تمكَّن نورالدين محمود بفضل قائدي جيوشه أسد الدين شيركوه وابن أخ هذا الأخير صلاح الدين من التفوق على عموري الأول ملك بيت المقدس في جولات الصراع حول مصر، ليتولى صلاح الدين منصب الوزارة فيها للخليفة العاضد الفاطمي، ثمَّ ما لبث تحت ضغط قائده نورالدين وإلحاح الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (566هـ-575هـ/1170م-1180م) أن قطع الخطبة عن الإمام الفاطمي وأذاعها باسم الخليفة العباسي في بغداد، وكان ذلك سنة 567هـ/1171م.

وبدخول مصر تحت عباءة الحكم النوري سياسيًا وضمن النطاق الروحي للخليفة السني في بغداد، تبتدئ مرحلة جديدة في مسار بناء جبهة المقاومة الإسلامية ضد العدوان الصليبي عنوانها نهاية الانقسام المذهبي، ومعها أيضًا يبدأ عهد جديد في الصراع الإسلامي- الصليبي عنوانه "قطف ثمار الوحدة".

الكلمات المفتاحية: الحروب الصليبية، الصراع المذهبي، المشرق الإسلامي، المقاومة الإسلامية، السنة، الشيعة

Summary :

This thesis deals with the subject of the impact of conflict and religious difference of doctrine among Muslims on the course of resistance activity against the Crusaders during the 5th and 6th AH/11th and 12th centuries AD. There were two political currents in the Muslim society , each of whom saw a contradictory position on the issue of his succession, peace and blessings be upon him, and then this dispute began to gradually develop into a doctrinal dispute in which each party adopted beliefs for which religious legislation and sacred texts were formulated, which each of the disputants adopted as arguments for the truthfulness of what they believed in. The leadership of the Muslims and their caliphate was different in vision , so that attempts to reconcile between the two sides become very difficult, and one of the effects of the transformation of the political dispute into a doctrinal structure is that the political forces that adopted one of the two positions, starting from the second century AH / eighth AD, entered into a conflict in which all methods and means of military, intellectual and diplomatic were supporting the faith and empowering the sect.

In the last decade of the fifth century AH / eleventh century AD, the Islamic East was subjected to a European military attack known in history as the Crusades, targeting the Levant in general and Jerusalem in particular, and the position of the Islamic forces ruling in the region at the time (Abbasids, Seljuks, Fatimids, and Arab Shiite Imamate emirates) Based on what we have mentioned about the conflict over the legal eligibility in ruling the Muslims, the internal conditions and its relations with each other, had known tension, turmoil and military conflicts, as well as the race to impose its doctrine and thought.

The Abbasid Caliphate (132 AH-656 AH / 750 AD-1258 AD) represented the Sunni trend and was reinforced by the power of the Seljuk Turks who entered Baghdad in the year 447 AH / 1055 AD to inherit from them that eagerness to support the Sunni faith. Al Zangi (521 AH - 569 AH / 1127 AD - 1173 AD)) and Bani Ayyub (567 AH - 648 AH / 1171 AD - 1250 AD) did so, while the Fatimid Shiite Ismaili caliphate in Egypt (358 AH - 567 AH / 969 AD - 1171 AD) was the second party in the conflict equation, mutually supportive with those who revolved in the orbit of its faith from the Shiite states and imam emirates in Iraq and the Levant (Kalbuyids (334 AH - 447 AH / 945 AD - 1055 AD), the Hamdanids, the Muradsians, the Uqailis and the Banu Ammar).

In their first campaign in the year 490 AH/1096 AD, the Crusaders made it possible to exploit the divisions and conflicts between the Islamic forces because of their doctrinal conflict, so they established four political entities in the region, one in aljazira (Edessa) and three in the Levant (Antioch, Jerusalem

and Tripoli) within a decade, and despite the attempts of some, The Jazira and Levantine forces were considered on the Sunni side to counter and repel the Crusaders, but it failed. Then it happened that the Sunni rulers of Damascus rapprochement with Al-Afdal bin Badr Al-Jamali, the Fatimid vizier in an alliance to repel the Crusader kingdom's incursions in Jerusalem. This was a very strange event for the historians of the period because of the intensity of among the sectarian doctrine tension among the Islamic forces.

At the beginning of the third decade of the sixth century AH / twelfth century AD; With the ascension of the Zangi family to the rule of Mosul (Imad al-Din and then his son Nureddin), the balance of the Islamic doctrinal conflict began to tilt in favor of the Sunnis, thanks to the unitary strategy adopted by the leaders of Mosul; It is based on containing the small forces and the Islamic emirates scattered in the countries of the island and the Levant and subjecting them to a single political authority led by the Zangids, in addition to working on giving priority to Sunni thought and belief and linking the areas of expansion within the resistance front to the spiritual authority of the Abbasid Caliph in Baghdad so that this front would be in an abundance of cohesion and enjoy the unity of political and spiritual decision. The Fatimid Caliphate and its doctrine reached a decline as a result of the struggle over the position of the ministry and the loss of the Ismaili faith as it was present and influent in thepolitical rule, helped the AL zanki family to succeed in their political strategy.

This strategy adopted by the Zangi family had a profound impact on the course of the Islamic-Crusader conflict, especially after the annexation of Aleppo, the capital of the northern Levant, and Damascus, representing the south, to the Mosul front, and the measures taken by Noureddine Zangi in both of them to weaken Shi'ism and strengthen the Sunni presence. The Islamic Resistance Front achieved thanks to that. Many gains were made on the Crusader side, and power between them became largely balanced with periods of Islamic supremacy during the turmoil and conflicts that were plaguing the Crusader emirates in the region.

By the year 564 AH / 1168 AD, Nur al-Din Mahmoud, thanks to the two commanders of his armies, Asad al-Din Shirkuh, the latter's nephew, Salah al-Din, was able to outperform Amouri I, the king of Jerusalem in the rounds of conflict around Egypt, so that Salah al-Din assumed the position of the ministry there for the Fatimid Caliph al-Adid, and then under the pressure of his commander Nur al-Din and the insistence of the Abbasid Caliph Al-Mustiha'a Amr Allah (566 AH-575 AH / 1170 AD-1180 AD) he cut off the sermon from the Fatimid imam and broadcast it in the name of the Abbasid caliph in Baghdad, and that was on the year 567 AH / 1171 AD.

With the entry of Egypt under the mantle of Al-Nouri rule politically and within the spiritual scope of the Sunni Caliph in Baghdad, a new stage begins in the path of building the Islamic Resistance Front against the Crusader aggression, titled the end of the sectarian division, and with it also begins a new era in the Islamic-Crusader struggle, entitled "Reaping the fruits of unity."
Keywords: Crusades, L'orient Islamique, Sunnites, Ismaélites,